سلمان رشدي

البيت الذهبي

ترجمة: خالد الجبيلي

مكتبة ٥٨٦

منشورات الجمل

رواية

مكتبة | 586

سلمان رشدي: **البيت الذهبي**، رواية

ولد **سلمان رشدي** في مدينة بومباي عام ١٩٤٧، وهو بريطاني من أصل هندي تخرّج من جامعة كنج كولج في كامبردج بريطانيا، عام ١٩٨١. حصل على جائزة بوكر الإنجليزية الهامة عن روايته **أطفال منتصف الليل**، نشر رواية **آيات شيطانية** في سبتمبر عام ١٩٨٨ وأثار ضجة كبيرة في دول العالم الإسلامي الأمر الذي أدى إلى منع ترجمة وبيع الكتاب في اللغة العربية. في نهاية عام ١٩٩٠ خرج سلمان رشدي باعتذار رسمي للمسلمين في العالم. وفي الرابع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٨٨ أعلنت إيران أنه تم إسقاط الفتوى ضد **سلمان رشدي** الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى إعادة العلاقات الدبلوماسية بين المملكة المتحدة وإيران. من أعماله الروائية: **غريموس** (١٩٧٥)؛ **أطفال منتصف الليل** (١٩٨٠)؛ العار (١٩٨٣)؛ **ابتسامة جكوار** (١٩٨٧)؛ آيات **شيطانية** (١٩٨٨)؛ **هارون وقصص البحر** (١٩٩٠)؛ **مشرد باختيار** (١٩٩٢)؛ **شرق، غرب** (١٩٩٤)؛ **تنهيدة المغربي الأخيرة** (١٩٩٥)؛ **الأرض تحت أقدامها** (١٩٩٩)؛ **الجنون** (٢٠٠١)؛ **خطوات تقطع الخط** (٢٠٠٢)؛ **شاليمار المهرج** (٢٠٠٥)؛ **عرافة فلورنسا**. صدر له عن منشورات الجمل: **أطفال منتصف الليل**، رواية، ٢٠٠٩؛ **العار**، رواية، ٢٠٠٩؛ **غضب**، رواية، ٢٠٠٩؛ **سنتان وثمانية شهور**، رواية ٢٠١٨؛ **تنهيدة المغربي الأخيرة**، رواية ٢٠١٨.

سلمان رشدي: **البيت الذهبي**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: خالد الجبيلي
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد ٢٠١٨
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Salman Rushdie: *The Golden House*, roman
© 2017 by Salman Rushdie

© *Al-Kamel Verlag* 2018
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

سلمان رشدي

البيت الذهبي

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

مكتبة | 586

منشورات الجمل

إلى ألبا وفرانسيسكو كليمينتس
اللذين من خلال صداقتهما وحسن ضيافتهما
عرفت الحديقة المشتركة (الغاردنز)

«أعطني بنساً نحاسياً وسأحكي لك قصة ذهبية».

- صيحة حكواتي على قارعة الطريق
في روما القديمة، ذكرها بليني

«في جوهره، فإن عصرنا عصر مأساوي، لذلك، فإننا نرفض أن نقبل أنه عصر مأساوي. لقد حلّت الكارثة، وها نحن في وسط الأنقاض، وبدأنا نبني موئلاً صغيراً جديداً، حتى تبزغ أمامنا آمال قليلة جديدة. إنه عمل شاق: فلم يعد هناك طريق ممهد يفضي إلى المستقبل: إننا نطوف الشوارع، أو نتدافع لاجتياز العوائق. علينا أن نعيش، مهما بلغ عدد السماوات التي سقطت».

- د. هـ. لورنس، عشيق الليدي تشارلي

«الحياة أكثر غموضاً منا بكثير».

- فرانسوا تروفو

القسم الأول

(١)

مكتبة
t.me/t_pdf

في يوم تنصيب الرئيس الجديد، عندما تملّكنا القلق بأنّ الرئيس الجديد قد يُغتال وهو يسير، عاقداً يده بيد زوجته الرائعة في وسط الحشود المبتهجة، وعندما كنا على وشك أن نشهد دماراً اقتصادياً بعد انفجار فقاعة القروض العقارية، وعندما كانت إيزيس (Isis) لا تزال الإلهة الأمّ المصرية، وصل إلى مدينة نيويورك ملك غير متوّج يزيد عمره على السبعين عاماً من بلد بعيد مع ثلاثة أبناء لا أمّ لهم، ليضع يده على القصر الذي سيمكث فيه هو وأبناؤه في منفاه، ويتصرّف كما أن البلد الذي جاء إليه بل حتى العالم لا توجد فيه أي مشكلة، أو كما لو أنه لا توجد مشكلة في قصّته هو نفسه. وبدأ يحكم الحيّ الذي يقيم فيه مثل إمبراطور مطبوع على حبّ الخير، مع أنه، على الرغم من ابتسامته الخلابة وقدرته على العزف على كمان غوادانيني ١٧٤٥، كانت تفوح منه رائحة رخيصة ثقيلة، تلك الرائحة التي تشي بقدوم خطر طاغية بليد، تلك الرائحة التي تحذّرنا وتقول لنا: احذروا هذا الرجل لأنه قادر على أن يأمر بإعدامكم جميعاً في أيّ لحظة إذا كنتم ترتدون قمصاناً لا تروق له، مثلاً، أو إذا أراد أن ينام مع زوجاتكم. وستكون السنوات الثماني القادمة، سنوات رئيس البلاد الرابع والأربعين، أيضاً سنوات حكم غريبة الأطوار ومخيفة لنا للرجل الذي أطلق على نفسه اسم نيرو غولدن، الذي لم يكن ملكاً

حقاً، والذي سيندلع في نهاية حياته حريق كبير - من الناحيتين التنبّئية والمجازية.

كان الرجل العجوز قصير القامة، بل يمكن القول مربوع القامة، يمشّط شعره الذي لا يزال معظمه داكناً بالرغم من تقدّمه في السنّ، إلى الوراء ليؤكد على ذروة شيطانه. وكانت عيناه السوداوان ثاقبتين، إلا أن أول ما يلاحظه الناس - كان يشمّر كمّي قميصه في غالب الأحيان ليتأكد من أنهم لاحظوا - ساعديه الغليظتين القويتين مثل ذراعي مصارع، ينتهيان إلى يدين خطيرتين ضخمتين تزدان أصابعهما بخواتم ذهبية كبيرة مرصّعة بالزمرّد. ولم يسمعه سوى القليل من الأشخاص يرفع صوته، مع أنه لا يساورنا أدنى شكّ بأن قوة صوتية هائلة تقبع في داخله يُفضّل عدم استثارتها. وكان يرتدي ثياباً غالية الثمن، لكنها تشي بنزعة حيوانية عالية تحدو المرء لأن يتذكّر الوحش في القصص الشعبية الذي لا يشعر بالارتياح بالملابس البشرية الجميلة. أما نحن جيرانه، فقد اعترانا كلنا خوف منه، مع أنه بذل جهوداً خرقاء، حمقاء، هائلة لكي يبدو شخصاً اجتماعياً ودوداً. وكان يلوّح بعكازه باتجاهنا بعنف، ويصرّ، في أوقات غير مناسبة، على دعوة أشخاص لمشاركته في تناول كأس من الكوكتيل. وعندما يقف أو يمشي، كان ينحني إلى الأمام ، كما لو أنه يبذل جهداً كبيراً ليصدّ ريحاً عاتية لا يشعر بها أحد إلّا هو، فينحني قليلاً من عند الخصر، لكن ليس انحناء كثيراً. كان رجلاً قوياً، لا بل أكثر من ذلك - رجلاً يعشق فكرة أنه قويّ. ويبدو أن استخدامه للعكاز كان للزينة أكثر مما هو بحاجة إليها. وعندما كان يتمشى في الحديقة المشتركة التي سنطلق عليها اسم «الغاردنز» كان يحاول أن يعطينا الانطباع بأنه يحاول أن يكون صديقاً لنا. وفي كثير من الأحيان، كان يربّت على ظهور كلابنا أو يداعب شعر أطفالنا. لكن الأطفال

والكلاب كانوا يتراجعون إلى الوراء مجفلين من لمسته. وعندما كنت أراقبه، كنت أتذكّر كثيراً وحش الدكتور فرانكشتاين الذي كان في هيئة إنسان لكنه لم يستطع قط أن يبدي أيّ مشاعر إنسانية حقيقية. وكان لون بشرته يشبه لون جلد بني، وتلمع ابتسامته بحشوات ذهبية. كان حضوره خشناً، فظاً ولم يكن رجلاً متحضراً تماماً، لكن ما يشفع له هو أنه كان فاحش الغنى، ولذلك، من الطبيعي أن يجد قبولاً من الآخرين. أما في أوساط الفنانين والموسيقيين والكتّاب في وسط المدينة، فكان الجميع يمقتونه.

كان ينبغي لنا أن نخمّن أنّ رجلاً أطلق على نفسه اسم آخر ملوك سلالة جوليو كلاوديان في روما، ثمّ نصّب نفسه في دوموس أورا (البيت الذهبي) مُقِرّاً بجنونه علناً، ومعترفاً بجنوحه وشعوره بجنون العظمة، ومصيره المحتوم الوشيك، وكان يضحك أيضاً في وجه كلّ ذلك. رجل يلقي بقفازه عند قدمي القدر وينقر بأصابعه تحت أنف الموت القادم، وهو يصيح «نعم! قارنّي إذا أردت بذلك الوحش الذي غطس المسيحيين في الزيت وأضرم النار فيهم لينير حديقته في الليل! والذي بدأ يعزف على القيثارة وروما تحترق (في الواقع لم تكن توجد آلة كمان في ذلك العصر) نعم: ها أنا أعمّد نفسي نيرو، من بيت قيصر، آخر تلك السلالة الدموية، واصنعوا منها ما تشاؤون، فأنا أحبّ هذا الاسم». كان يلوح بشرّه تحت أنوفنا، مبتهجاً به، يتحدّانا على أن نراه، ويحتقر قدرتنا على فهمه وإدراكه، قانعاً بقدرته على إلحاق الهزيمة بأي شخص قد يقف في وجهه أو يعارضه بسهولة كبيرة.

جاء إلى المدينة مثل واحد من أولئك الملوك الأوروبيين الذين سقطوا، أرباب بيوت لم يعد لهم وجود لا تزال تُستخدم أسماؤهم كألقاب تحمل عبارات تعظيم طنانة في اليونان أو في يوغسلافيا أو

في إيطاليا، واعتبروا البادئة الحزينة، سابقاً، كما لو أنها لم تكن موجودة. فلم يكن هناك شيء في الماضي، ويشي سلوكه بأنه رجل مهيب في كلّ شيء: في قمصانه ذات الياقات المنشّاة، وأزرار أكمامه، وأحذيته الإنكليزية المفصّلة حسب الطلب، وأسلوبه في السير عندما يتجه إلى الأبواب المغلقة بلا تباطؤ، عارفاً أنهم سيفتحون له تلك الأبواب، وفي طبيعته المرتابة، التي يعقد بسببها اجتماعات منفصلة كلّ يوم مع أبنائه ليستفسر منهم ماذا يقول إخوتهم عنه؛ وسياراته، وحبّه لمناضد لعب القمار، وضربته التي لا يمكن صدّها في كرة الطاولة، وولعه بالعاهرات، وبالويسكي، وبالبيض المتبّل بالفلفل الحار، وترديده كثيراً للقول المأثور - شخص يفضّل الحكّام المستبدين بدءاً من القيصر وحتى هيلاسيلاسي - وأن القيمة الوحيدة الجديرة بالاهتمام هي الولاء. وكان يغيّر رقم هاتفه الخليوي كثيراً، ولا يكاد يعطي رقمه لأحد، ولا يردّ على هاتفه عندما يرنّ. ولم يكن يسمح للصحفيين أو المصورين دخول عتبة بيته. لكن كان يوجد معه غالباً رجلان عندما يلعب البوكر، زيرا نساء شعرهما فضّي اللون، ويرتديان عادة سترات من الجلد المدبوغ، ويضعان ربطات عنق عليها خطوط براقة، يساور الكثيرين شكّ بأنهما قتلا زوجتيهما الثريتين، على الرغم من أنه لم توجّه لأحدهما تهمة، ولم يتم إثبات التهمة للشخص الثاني.

أما بالنسبة إلى زوجته غير الموجودة، فقد لاذ بالصمت. ففي بيته المليء بالصور، الذي تحتشد جدرانه ورفوف مواقده بصور نجوم الروك، والفائزين بجائزة نوبل، والأرستقراطيين، لا توجد صورة واحدة للسيدة غولدن، أو مهما كانت تُدعى. لا بد أن هناك شعوراً بالعار، ولخجلنا، كنّا نثرثر عمّا يمكن أن يكون الأمر، نتخيّل حجم خياناتها ومقدار صفاقتها، نتصوّرها امرأة شهوانية من الطراز الرفيع،

عاشت حياة جنسية صارخة أكثر من أيّ نجمة سينمائية، يعرف الجميع مقدار شبقها إلّا زوجها الذي ظلت عيناه اللتان أعماهما الحبّ تحدّقان بها بإعجاب، بينما كان يعتقد بأنها زوجة أحلامه المحبّة والعفيفة، إلى أن حلّ ذلك اليوم الفظيع الذي أخبره فيه أصدقاؤه الحقيقة، أصدقاؤه الذين توافدوا بأعداد غفيرة ليخبروه بحقيقة الأمر، وكيف أنه استشاط غضباً، وكيف أنه أهانهم ووبّخهم، وقال إنهم كذابون وخونة، وتطلّب الأمر أن يمسك به سبعة رجال حتى لا يضرب الذين أرغموه على مواجهة الحقيقة التي اضطر إلى مواجهتها أخيراً، وتقبّلها، فأخرجها من حياته، وحرمها، منذ ذلك الحين، من أن تلقي حتى نظرة واحدة على ابنيها. امرأة شرّيرة خبيثة، قال بعضنا لبعض، نحن الذين نظنّ أننا أشخاص محنكون، خبراء في شؤون الحياة، وجعلتنا هذه القصّة نشعر بالرضا، فركنّاها جانباً، وانهمكنا في همومنا أكثر، ولم نعد نبدي اهتماماً إلّا بأمور ن. ج. غولدن، حتى نقطة محددة. وهكذا ابتعدنا، وانشغلنا في أمور حياتنا الشخصية.

لكن كم كنا مخطئين.

(٢)

ما هي الحياة الجيدة؟ ما هو نقيضها؟ هذان سؤالان لا يمكن لرجلين أن يعيطا الإجابة نفسها عليهما. ففي زمننا هذا الجدير بالازدراء، ننكر عظمة الكوني، ونؤكّد تعصّبنا المحليّ ونمجّده، لذلك، لم نعد نستطيع أن نتفق على أمور كثيرة. ففي زمننا المنحطّ هذا، لا يهتم الرجال بشيء سوى التبجح والمباهاة والمكاسب الشخصية - وسيزعم رجال تافهون متحذلقون لا يحرمّون شيئاً إذا كان ذلك سيخدم قضيتهم التافهة - أنهم زعماء عظماء محبّون للخير، يعملون للمصلحة العامة، ويعتبرون جميع من يعارضونهم كذابين، وتافهين، وحسودين، وأغبياء، ومملّين، وبعكس الحقيقة تماماً، غشّاشين وفاسدين. إننا منقسمون إلى درجة كبيرة، يعادي بعضنا بعضاً بشدة، يدفعنا إلى ذلك النفاق والاحتقار، وننغمس بالتهكم بحيث ندعو الأبهة والفخامة مثاليتين، ونضيق ذرعاً بحكّامنا، ونصبح مستعدين للسخرية من مؤسسات دولتنا، إلى حدّ أن كلمة الطيبة قد أُفرغت من معناها، ربما، لنضعها جانباً إلى حين، شأن جميع الكلمات المسمّمة الأخرى من قبيل، الروحانية، والحلّ النهائي، و(على الأقل عندما تُطبّق على ناطحات السحاب والبطاطا المقلية) الحرّية.

لكن في ذلك اليوم البارد من أيام كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩،

عندما وصل الرجل الغامض السبعيني الذي صرنا نعرفه باسم نيرو يوليوس غولدن إلى حيّ غرينيتش فيليج بسيارة ليموزين ديملير مع ثلاثة أبناء، ومن دون أثر لزوجة، كان على الأقل حازماً حول كيف يجب تقييم الفضيلة، والتمييز بين الغث والسمين، بين العمل الرديء والجيد. «في بيتي الأمريكي»، قال لأبنائه الذين كانوا يصغون له باهتمام شديد في سيارة الليموزين التي كانت تشقّ طريقها من المطار إلى مسكنهم الجديد، «ستُطبّق الأخلاق بحسب المعيار الذهبي». سواء أكان ذلك يعني أن الأخلاق ثمينة جداً، أم أن الثروة هي التي تقرّر الأخلاق، أم أنّه هو شخصياً، باسمه المتألّق الجديد، سيكون القاضي الوحيد الذي يحكم على ما هو صحيح وما هو خطأ، لم يقل ذلك، ولم يطلب منه جولي الأصغر، بحكم العادات البنوية الطويلة، توضيحاً على ذلك. (جولي هي الجمع الإمبريالي الذي كانوا يفضّلونه كلهم على كلمة غولدن: لم يكونوا رجالاً متواضعين! لكن أصغر أبنائه الثلاثة الذي لم يتجاوز الثانية والعشرين، الخمول، بشعره المنسدل على كتفيه ووجه في إيقاعات جميلة مثل ملاك غاضب، سأل سؤالاً واحداً. «ماذا سنقول»، سأل والده، «عندما يسألونني من أين جئت؟» فتحوّل وجه الرجل العجوز إلى مرحلة من الاتّقاد القرمزي، وصاح، «لقد أجبت عن هذا السؤال من قبل»، وأضاف، «قل لهم ليذهب استعراض الهوية إلى الجحيم. قل لهم إننا ثعابين سلخنا جلدنا وغيّرناه. قل لهم إننا انتقلنا إلى وسط المدينة من كارينجي هيل. قل لهم إننا ولدنا البارحة. قل لهم إن السحر أنجبنا، أو إننا أتينا من أحد أحياء ألفا سنتوري (نجم رجل القنطور) في سفينة فضائية مخبأة في ذيل مُذَنَّب. قل لهم إننا لسنا من لا مكان أو من أيّ مكان أو في مكان. إننا أشخاص مُتخيّلون، زائفون، مُخترعون، نبدّل أشكالنا، أي أمريكيون. لا تقل لهم اسم المكان الذي جئنا

منه. لا تذكره على لسانك أبداً. لا الشارع، ولا المدينة، ولا البلد. لا أريد أن أسمع هذه الأسماء مرة أخرى».

ترجّلوا من السيارة في وسط حي الفيليج القديم، في شارع ماكدوغال أسفل شارع بليكر بقليل، بالقرب من المقهى الإيطالي القديم الذي لا يزال يكافح بشكل ما، غير عابئين بالسيارات التي راحت تطلق أبواقها وراءهم، وبراحة اليد المتوسّلة الممدودة لمتسول وسخ واحد على الأقل، وتركوا سيارة الليموزين تقف في وسط الشارع بينما راحوا يفرغون حقائبهم من صندوق السيارة ببطء - حتى أن الرجل العجوز أصرّ على أن يحمل حقيبته بنفسه - وحملوها إلى مبنى «الفنون الجميلة» الكبير الواقع في الجانب الشرقي من الشارع، قصر موراي سابقاً، الذي أصبح يُعرف بعدئذ باسم البيت الذهبي. (لكن الابن البكر فقط، الابن الذي لم يكن يحبّ أن يغادر البيت والذي كان يضع نظارات داكنة جداً وتبدو عليه تعابير قلقة، كان يبدو أنه مستعجل) وهكذا وصلوا، كما كانوا ينوون ليمكثوا مستقلين، غير مبالين باعتراضات الآخرين.

قصر موراي، أضخم مبنى في الغاردنز وأعظمه على الإطلاق، لم يقطنه أحد منذ سنوات كثيرة، سوى المسؤولة عن البيت، المرأة الأمريكية الإيطالية الأصل، السليطة اللسان التي يزيد عمرها على خمسين سنة، ومساعدتها المتعجرفة أيضاً، مع أنها كانت أصغر منها بكثير وحبيبتها التي تقطن معها. دارت بنا الظنون حول هوية صاحب هذا البيت، لكن المشرفتين الشرستين الواقفتين عند باب المبنى رفضتا أن تشبعا فضولنا. لكن هذه السنوات كانت السنوات التي بدأ فيها الكثير من أغنى أغنياء العالم بشراء عقارات، لا لسبب إلّا من أجل امتلاكها، وتركوا بيوتاً فارغة ملقاة في أنحاء الكوكب مثل أحذية مهملة، فقلنا لا بد أنه أحد حكّام النخبة الروس، أو شيخ من

مشايخ النفط، لكننا هززنا أكتافنا بلا مبالاة، لأننا تعوّدنا على أن نعتبر البيت الخاوي هناك كأنّه لم يكن موجوداً. وكان هناك شخص آخر له علاقة بالبيت، عامل ماهر دمث من أمريكا اللاتينية يدعى غونزالو كانت قد وظّفته المشرفتان على المنزل لرعايته والعناية به. وعندما يتاح له قليل من الوقت، كنا ندعوه أحياناً إلى بيوتنا لإصلاح بعض المشاكل التي تظهر في التمديدات وأعمال السباكة، وكان يساعدنا في إزالة الثلج من أسطح بيوتنا ومداخلها في منتصف الشتاء. وكان يؤدي لنا هذه الخدمات لقاء مبالغ زهيدة كنا ندسُّها سرّاً في يده، مع ابتسامة.

كانت الحديقة المشتركة (الغاردنز) التاريخية في ماكدوغال-سوليفان - لمنح الغاردنز اسمها الكامل الرنّان - الفضاء الجريء الساحر الذي عشنا وربّينا أطفالنا فيه، المكان الذي كنا نلوذ إليه بسعادة من العالم المخيف، المخيّب للآمال، القابع وراء حدودها، ولم نأسف يوماً لأننا أحببناها كثيراً. البيوت الأصلية من الطراز الإحيائي اليوناني الواقعة عند تقاطع شارعي ماكدوغال وسوليفان التي شُيِّدت في أربعينات القرن التاسع عشر، والتي أعيد بناؤها على الطراز الكولونيالي في عشرينات القرن العشرين على يد مهندسين معماريين كانوا يعملون لمصلحة شخص يدعى السيد وليام سلون كوفين كان يبيع الأثاث والبسط. في ذلك الوقت، أُلحقت الباحات الخلفية لتلك البيوت ببعضها لتشكّل حديقة مشتركة (الغاردنز)، يحدّها شارع بليكر شمالاً، وهيوستن جنوباً، خُصصت لسكّان البيوت المطلة عليها. وكان قصر موراي غرباً، فمن نواح عديدة، كان رحباً جدياً بالمقارنة مع البيوت التي تطلّ على الغاردنز، بناء مميز جميل بُني أصلاً للمصرفي المعروف فرانكلين موراي وزوجته هارييت لانيير موراي بين عامَي ١٩٠١ و١٩٠٣ بواسطة شركة هوبين

أند كوين الهندسية، التي قامت، لإفساح مكان لبناء البيت، بهدم بيتين من تلك البيوت التي شُيِّدت أصلاً في سنة ١٨٤٤ والتي كان يملكها التاجر نيكولاس لو. وقد صُمّم البيت على طراز عصر النهضة الفرنسي ليكون بيتاً رائع الجمال وعصرياً، وهو طراز توجد لدى شركة هوبين أند كوين خبرة كبيرة فيه اكتسبتها من مدرسة الفنون الجميلة، ثم في أثناء عملها لمصلحة شركة ماك كيم وميد أند وايت. وكما عرفنا بعد ذلك، اشتراه نيرو غولدن في أوائل ثمانينات القرن العشرين. وكان يدور همس منذ زمن بعيد في الغاردنز بأن صاحب البيت كان يأتي ويذهب، وربما كان يمضي في البيت يومين في السنة، لكن أحداً منّا لم يره قط، مع أننا كنا نرى بضع نوافذ في البيت مضيئة في الليل أكثر من المعتاد، وفي أحوال نادرة جداً، كنّا نلمح خيالاً وراء ستارة، فقرر الأطفال في البيوت المجاورة أن البيت مسكون بالأشباح، لذلك كانوا يخافون الاقتراب منه.

هذا هو البيت الذي وقفت أمام أبوابه الكبيرة التي شُرعت في ذلك اليوم من أيام كانون الثاني/يناير سيارة الليموزين دايملر، وترجّل منها رجال عائلة غولدن، الأب والأبناء. وعند المدخل، اصطفت لجنة الاستقبال، المشرفتان العابستان اللتان جهزتا كلّ ما يلزم لوصول سيدهما. دخل نيرو وأبناؤه إلى البيت ووجدوا عالم الأكاذيب الذي سيقيمون فيه منذ هذه اللحظة: لم يكن مسكناً جديداً عصرياً بالنسبة إلى أسرة أجنبية ثريّة لتتخذ منه مسكناً لها، شيئاً فشيئاً، عندما تبدأ تتكشف حياتهم الجديدة، وتزداد صلاتهم عمقاً بالمدينة الجديدة، وتزداد خبراتهم وتجاربهم - لا - وإنما بيت يقف فيه الزمن ثابتاً منذ عشرين عاماً أو أكثر، الزمن يحدّق بطريقته اللامبالية فوق كراسيٍّ مليئة بالخدوش، وسجاجيد بهت لونها مع الزمن، ومصابيح متوهجة تعود إلى الستّينات، وينظر بمتعة إلى صور

جميع الأشخاص المناسبين لذات نيرو غولدن الشاب برفقة شخصيات من وسط المدينة، رينيه ريكارد، ووليام بورو، وديبورا هاري، بالإضافة إلى زعماء وول ستريت والعائلات القديمة في السجل الاجتماعي التي تحمل أسماء مقدّسة مثل لوسي بيكمان وأوشينكلوس. وقبل أن يشتري هذا البيت، كانت لدى الرجل العجوز شقة علوية بوهيمية واسعة عالية السقف، تبلغ مساحتها ثلاثة آلاف قدم مربع، تقع عند الناصية بين شارعي برودواي وغريت جونز. وفي أيام شبابه البعيدة، كان يُسمح له بأن يتسكع حول أطراف المصنع، يجلس بامتنان عند ناصية الشارع مع الصبيين الغنيين سي نيوهاوس وكارلو دي بينديتي. لكن مضى زمن بعيد على ذلك. وكان البيت يضم مخلّفات تذكارية حول تلك الأيام، وزياراته التالية في الثمانينات أيضاً. كانت معظم قطع الأثاث مودعة في مخزن، وكان ظهور هذه الأشياء من حياة سابقة بمثابة نبش ينطوي على استمرارية لم يكن يمتلكه تاريخ القاطنين. لذلك كان يبدو لنا البيت دائماً شيئاً زائفاً، جميلاً. ودمدم بعضنا لبعض بضع كلمات قالها بريمو ليفي: «هذه هي الفاكهة المقتطفة للتو من المنفى، من الاجتثاث: هيمنة الزائف على الحقيقي».

لم يكن ثمة شيء في البيت يشير إلى أصولهم، وظلّ الرجال الأربعة يصرّون بعناد على عدم ذكر أي شيء يتعلق بماضيهم. لكن لا بد أن الأشياء ستتسرّب، وهكذا عرفنا قصّتهم بعد حين، لكن قبل أن نعرفها، كانت لدينا جميعاً فرضياتنا حول تاريخهم السرّي، وقد غلّفنا قصصنا بقصصهم. ومع أن بشرتهم كلّهم تكاد تميل إلى اللون الأبيض، من اللون الحليبي الشاحب للابن الأصغر إلى لون نيرو العجوز الذي يميل إلى لون الجلد، كان واضحاً للجميع أنهم لم يكونوا أناساً «من البيض» التقليديين. وكانت لغتهم الإنكليزية نقية،

لا تشوبها شائبة، ذات لكنة بريطانية، ولا بد أنهم درسوا في جامعتي أكسفورد وكمبريدج (أوكسبرج)، فظن معظمنا في البداية، وكنا مخطئين في ذلك، أن إنكلترا المتعدّدة الثقافات هي البلد الذي لا يمكن تسميته، وأن لندن المتعدّدة الأعراق هي المدينة التي لا يمكن تسميتها. قد يكونون لبنانيين، أو أرمن، أو لندنيين من جنوب آسيا، افترضنا، أو حتى من أصول أوروبية متوسطية، مما يفسّر تخيلاتهم الرومانية. ما الخطأ الشنيع الذي يمكن أن يكون قد ارتُكب بحقهم هناك، ما هي الإهانات المريعة التي قد يكونون قد عانوا منها، مما اضطرهم لأن يتنكروا لأصلهم؟ حسناً، حسناً، بالنسبة إلى معظمنا، فإن هذه مسألة تخصهم هم، وكنّا مستعدين لترك الأمر عند هذا الحدّ، حتى لم يعد بوسعنا عمل ذلك. وعندما جاء ذلك الوقت، فهمنا أننا كنّا نطرح على أنفسنا الأسئلة الخاطئة.

إن نجاح التمثيلية التي اصطنعوها باتخاذهم أسماء جديدة، ناهيك عن الفترتين الرئاسيتين الكاملتين، وعيش هذه الشخصيات الأمريكية المخترعة في قصر من الأوهام التي قبلناها جميعاً كلها، بالإضافة إلى جيرانهم وأصدقائهم الجدد، تقول لنا الكثير عن أمريكا نفسها، والمزيد عن قوّة الإرادة التي أسكنوا فيها هويّاتهم الحربائية، والتي أصبحوها، في عيوننا جميعاً، مهما قالوا حقيقة من هم. وإذا نظرنا إلى الماضي، فلا يمكن للمرء إلّا أن يُدهش من عظم خطتهم، وتشابك تفاصيلها التي يجب تفكيكها، جوازات السفر، والهويّات الشخصية الرسمية، ورُخَص السواقة، وأرقام الضمان الاجتماعي، والتأمين الصحي، وأعمال التزوير، والصفقات، وتلقّي الرشا، وصعوبات كل ذلك، والغضب أو ربما الخوف الذي قاد كلّ هذه الخطة الرائعة المتقنة والمنحرفة. وكما عرفنا لاحقاً، فقد كان الرجل العجوز يعمل على هذا التحوّل، ربما منذ عقد ونصف العقد من

الزمن قبل أن ينفّذ خطته. ولو كنا نعرف ذلك، لأدركنا أن ثمة شيئاً ضخماً كان مخفياً. لكننا لم نعرف. كان مجرد الملك الذي يدّعي لنفسه ما ليس له حق فيه، وما يُزعم أنهم أمراء، يعيشون في جوهرة الحيّ المعمارية.

في الواقع لم يبدوا لنا أشخاصاً غريبي الأطوار. إذ يطلق على الناس في أمريكا أشياء مختلفة - ففي دليل الهاتف، عندما كانت هناك أدلة هاتف، كان ما يدعى الغرائبية هي التي تحكم. هكلبري! ديمسدال! أيكابود! أهاب! فنيمور! بورتنوي! درادج! ناهيك عن عشرات، مئات، آلاف الغولد، والغولدوتر، والغولدشتاين، والفينغولد، والغولدبري. وكان الأمريكيون يقررون دائماً أيضاً ما يريدون أن يُسمّوا، ومن يريدون أن يكونوا، فأزالوا عنهم أصولهم «الغاتز» وأصبحوا غاتزبي، أصحاب صناعة القمصان، ومتابعي الأحلام الذين يُدعون ديزي، أو ربما ببساطة أمريكا. وأصبح صموئيل غولدفيش (فتى ذهبي آخر) صموئيل غولدوين، وأصبحت عائلة أيرتزون تُدعى فندربيلتز، وأصبحت كليمنس تُدعى توين. واختار الكثيرون منّا، كمهاجرين - أو آباؤنا أو أجدادنا - أن يتركوا ماضيهم وراءهم بالكامل، كما يختار الآن أفراد أسرة غولدن، ونشجّع أطفالنا على التحدّث بالإنكليزية، لا باللغة القديمة للبلد الذي جئنا منه: تكلّم، البس، تصرّف، كنّ أمريكياً. لقد وضعنا الأشياء القديمة في القبو، أو رميناها، أو فقدناها. وفي أفلامنا والكتب ذات الرسوم - في كتب القصص ذات الرسوم التي أصبحت أفلامنا - ألا نحتفل كلّ يوم، ألا نكرّم، فكرة الهوية السرّية؟ كلارك كنت، بروس واين، دايانا برنس، بروس بانر، رافن دارخولم، إننا نحبّكم. ربما كانت الهوية السرّية في أحد الأيام فكرة فرنسية - فانتوماس، اللص، وكذلك فانتوم الأوبرا - لكنها ترسّخت الآن في

أعماق الثقافة الأمريكية. وإذا أراد أصدقاؤنا الجدد أن يصبحوا قياصرة، فإننا لا نمانع في ذلك. فهم يتمتعون بذائقة رائعة، يرتدون ثياباً ممتازة، يتحدثون لغة إنكليزية ممتازة، ولم يكونوا أكثر غرابة، لنقل مثلاً، من بوب ديلان، أو أيّ مقيم محليّ آخر في فترة ما. وهكذا قُبلت عائلة غولدن لأنهم كانوا مقبولين. لقد أصبحوا أمريكيين الآن، لكن الحقيقة بدأت تتكشف أخيراً. كانت هذه أسباب سقوطهم: شجار شقيق، تحوّل غير متوقّع، دخول شابة جميلة ومصمّمة إلى حياة الرجل العجوز، جريمة قتل. (أكثر من جريمة قتل)، وبعيداً، في البلد الذي لا اسم له، أخيراً، شيء من عمل استخباراتي لائق.

مكتبة
t.me/t_pdf

(٣)

هذه هي قصّتهم التي لم يسمع بها أحد من قبل، غاز كريبتون كوكبهم المتفجر: قصة حزينة، مثل الأشياء التي تظل في طيّ الكتمان في معظم الأحيان.

كان جميع الناس يحبّون الفندق الكبير المطلّ على الميناء، حتى الفقراء الذين لا يستطيعون عبور أبوابه. لقد رأى الجميع الفندق من الداخل في الأفلام، وفي المجلات السينمائية، وفي أحلامهم: الدرج الشهير، والمسبح الذي تتربع حوله السابحات الحسناوات، ودهاليزه وممراته المتلألئة التي تحفّها على الجانبين محلات كثيرة من بينها محلات خيّاطين بالتفصيل يمكنهم تقليد خياطة أي بدلة تريد في عصر يوم واحد، وما عليك إلّا أن تختار نوع القماش الذي تفضّله، سواء أكان من الصوف أم من قماش الغبردين. ويعرف جميع الناس العاملين في الفندق المهرة، المضيافين، المخلصين الذين يعتبرون أن الفندق أسرتهم، لذلك أولوا الفندق كل الاحترام الواجب الذي يُمنح لأب، والذين يجعلون كلّ من يطأ الفندق ويسير في ردهاته وقاعاته يشعر بأنه ملك أو أنها ملكة. كان الفندق يرحب بالأجانب كثيراً. نعم، فمن وراء نوافذه، كان الأجانب ينظرون إلى الميناء، ويستمتعون برؤية الخليج الجميل الذي منح المدينة التي لا اسم لها اسمها، ويُبدون إعجابهم بالتنوع الكبير في أنواع وأحجام السفن التي

تمخر البحار وهي تتمايل فوق الماء أمام عيونهم، زوارق ذات محركات، وقوارب شراعية، ومراكب سياحية، من كلّ حجم وشكل ولون. كان الجميع يعرفون قصّة ولادة المدينة، وكيف أراد البريطانيون أن تكون بسبب وجود هذا الميناء الجميل، وكيف تفاوضوا مع البرتغاليين على زواج الأميرة كاثرين والملك تشارلز الثاني. وبما أن كاثرين المسكينة لم تكن بذلك القدر من الجمال، فكان مهرها عالياً، لاسيّما أن تشارلز الثاني كان يحبّ فتاة جميلة أخرى، وهكذا كانت المدينة جزءاً من المهر، وهكذا تزوّج تشارلز كاثرين، ثمّ أهملها وهجرها بقية حياته، لكن البريطانيين أرسوا بسفنهم في مينائها وأطلقوا مشروعاً عظيماً لاستصلاح الأراضي وضموا الجزر السبع معاً، وأقاموا فيها حصناً، ثم أنشأوا مدينة، وأعقب ذلك قيام الإمبراطورية البريطانية. كانت مدينة شيّدها الأجانب، لذلك كان حرياً أن يُرحَّب بالأجانب في ذلك القصر الكبير، الفندق الذي يطلّ على الميناء الذي هو سبب وجود المدينة برمّتها. لكنّه لم يكن فندقاً يرتاده الأجانب فقط، وإنما مبنى بالغ الرومانسية أيضاً، بجدرانه الحجرية وبقبّته الحمراء. كان خلاباً بثرياته البلجيكية التي تغمرك أشعتها وتلقي بنورها على الجدران والأرضيات، بالإضافة إلى التحف الفنية وقطع الأثاث والسجاجيد الواردة من كلّ بقاع ذلك البلد العملاق، البلد الذي لا يمكن تسميته. فإذا كنت شاباً تريد إثارة إعجاب حبيبتك، فإنك ستجد نقوداً بطريقة ما لتأخذها إلى الرواق المواجه للبحر، وبينما يداعب نسيم البحر العليل وجهيكما، وأنتما تحتسيان عصير الليمون أو الشاي، وتتناولان سندويشات الخيار وقطع الكيك، فإن حبّها لك سيزداد لأنك أحضرتها إلى قلب المدينة السحري. وقد تأتي بها مرة أخرى لتتناولا الطعام الصيني الشهي في الطابق السفلي، وهذا سيختم حبّكما.

لقد جعل كبار شخصيات المدينة والبلد والعالم الفندق الكبير فندقاً لهم بعد أن غادر البريطانيون البلد - الأمراء، السياسيون، نجوم السينما، الزعماء الدينيون، أكثر الوجوه شهرة وجمالاً في المدينة، وتدافع البلد والعالم ليأخذ مكانة في ردهاته - فأصبح رمزاً للمدينة التي لا يمكن تسميتها، كما هو شأن برج إيفل، أو الكولوسيوم، أو التمثال الذي ينتصب في ميناء نيويورك والذي كان يدعى «حريّة تنير العالم».

هناك أسطورة حول أصل الفندق الكبير يصدّقها كلّ سكان المدينة التي لا يمكن تسميتها مع أنها ليست صحيحة، أسطورة حول الحريّة، حول الإطاحة بالاستعمار البريطاني تماماً كما فعل الأمريكيون. وتحكي القصّة أنه في مطلع القرن العشرين، حاول سيد نبيل يعتمر طربوشاً، صادف أنه كان أغنى رجل في البلد الذي لا يمكن تسميته، حاول يوماً أن يزور فندقاً كبيراً آخر يقع في الحيّ نفسه، لكنهم لم يسمحوا له بدخول الفندق بسبب انتمائه العرقي. فهزّ الرجل المسنّ المحترم رأسه ببطء، وابتعد. ثم اشترى مساحة كبيرة من الأرض غير بعيدة عن الطريق، وشيّد عليها أجمل وأعظم فندق شهدته المدينة التي لا يمكن تسميتها في البلد الذي لا يمكن ذكره. وبعد فترة قصيرة، توقف الفندق الذي لم يُسمح له بدخوله عن العمل، فأصبح الفندق في عقول الناس رمزاً للتمرّد، ورمزاً لهزيمة المستعمرين بحسب اللعبة التي وضعوها هم ودفعهم إلى عرض البحر، وحتى عندما تبيّن بشكل قاطع أن لا شيء من ذلك قد حدث، فلم يتغيّر شيء في حقيقة الأمر، لأن رمز الحرّية والنصر هما أقوى من الحقائق.

مضت مئة وخمس سنوات. ثمّ، وفي ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٨، غادر عشرة رجال مدججين بأسلحة آليّة وقنابل يدوية على

متن قارب من بلد مجاور معاد يقع غرب البلد الذي لا يمكن تسميته. وكانوا يحملون في حقائبهم ذخائر ومخدرات قوية: كوكايين، منشّطات، عقاقير هلوسة، حقن. وفي طريقهم إلى المدينة التي لا يمكن تسميتها، اختطفوا قارباً لصيد السمك، وتركوا مركبهم الذي أتوا به، ووضعوا زورقين على متن قارب صيد السمك وأمروا القبطان بأن يتوجّه إلى المكان المقصود. وعندما اقتربوا من الشاطئ قتلوا القبطان وركبوا الزورقين. ثمّ تساءل الكثيرون لماذا لم يشاهدهم رجال خفر السواحل أو لم يحاولوا اعتراض سبيلهم، لأن الحراسة على الساحل يُفترض أنها جيدة، لكن في تلك الليلة، حدث فشل ما. وعندما رسا الزورقان على الشاطئ في ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر، انقسم المسلّحون إلى مجموعات صغيرة وتوجهوا إلى أهدافهم المختارة: محطّة قطارات، مستشفى، دار سينما، مركز يهودي، مقهى شعبي، وفندقان من فئة خمس نجوم، كان أحدهما الفندق المذكور أعلاه.

بدأ الهجوم على محطّة القطارات عند الساعة ٩:٢١ ليلاً، واستمر طوال ساعة ونصف الساعة. وأطلق المسلّحان النار عشوائياً، ولقي ثمان وخمسون شخصاً مصرعهم. ثم غادرا المحطة لكنهما حوصرا في نهاية الأمر بالقرب من أحد شواطئ المدينة، فقُتل أحدهما وأُلقي القبض على الآخر. وفي غضون ذلك، في الساعة ٩:٣٠ ليلاً، فجّرت مجموعة أخرى من القتلة محطة بنزين، ثمّ فتحوا النار على أشخاص في المركز اليهودي عندما اقتربوا من النوافذ، ثمّ هاجموا المركز نفسه وقُتل سبعة أشخاص، ومات عشرة أشخاص في المقهى. وفي الثماني وأربعين ساعة التي أعقبت ذلك، ربما لقي ثلاثون شخصاً في الفندق الآخر حتفهم.

أما الفندق الذي يحبّه الجميع فقد تعرّض للهجوم في حوالي

الساعة ٩:٤٥ ليلاً. إذ أُطلقت النيران أولاً على النزلاء في المسبح، ثمّ توجّه المسلّحون إلى المطاعم. وساعدت شابّة تعمل في ردهة البحر التي يصحب الشبان صديقاتهن إليها لإثارة إعجابهن عدداً من الرواد على الهرب من باب العاملين في الفندق، لكنها قُتلت عندما اقتحم المسلّحون الردهة. وألقيت قنابل يدوية، وأعقب عمليات القتل تلك حصار استمر ثلاثة أيام. وفي خارج الفندق، كانت يوجد صحفيون ومصورون من محطات تلفزيونية عديدة بالإضافة إلى حشود من الناس. ثم صاح أحدهم، «الفندق يحترق». وشوهدت ألسنة النيران تندلع من نوافذ الطوابق العليا واحترق الدرج المشهور أيضاً، وكان من بين الذين حاصرتهم النيران واحترق حتى الموت زوجة مدير الفندق وأطفاله. وكانت لدى المسلّحين مخطّطات مفصّلة عن طوابق الفندق، وكانت تلك المخطّطات أكثر دقّة من المخطّطات التي لدى قوات الأمن. وتناول المجرمون مخدّرات كي يظلوا يقظين، وتعاطوا عقاقير الهلوسة (LSD) - وهي ليست منبهاً نفسياً - فضلاً عن مخدّرات أخرى (كانت) تحدث في القتلة نوبة هلوسة قوية، لذلك كانوا يضحكون بصوت عال وهم يقتلون الناس. وفي الخارج، كانت محطات التلفزيون تنقل أخبار هرب نزلاء الفندق، وكان القتلة يشاهدون التلفزيون ليعرفوا إلى أين يهرب هؤلاء النزلاء. وفي نهاية الحصار، زاد عدد القتلى على ثلاثين شخصاً، عدد كبير منهم من العاملين في الفندق.

* * *

عاش آل غولدن، باسمهم الأصلي الذي تخلّوا عنه في أرقى أحياء المدينة، في مجمّع سكني راقٍ فوق تلة مسيّجة، في منزل حديث كبير يطلّ على قصور مزخرفة فخمة تحفّ الخليج الخلفي

الذي تغوص فيه الشمس الحمراء في كلّ ليلة. يمكننا أن نتخيّلهم هناك، الرجل العجوز، لم يكن متقدماً في السن كثيراً آنذاك، والأبناء، الذين كانوا أصغر سناً أيضاً، الابن البكر الأخرق المصاب برُهاب الساحات العامة والتجمعات، والابن الأوسط الذي كان يهرب في الليل، والابن الأصغر الذي يدثّره الظلام والاضطراب. ويبدو أنّ لعبة منح أنفسهم أسماء كلاسيكية لعبة كان أبوهم قد شجّعهم على لعبها منذ سنوات طويلة، كما علّمهم منذ بواكير أيامهم أنهم ليسوا أناساً عاديين، وإنما قياصرة، بل آلهة. أباطرة الرومان، ثم ملوك بيزنطة الذين يعرفهم العرب والفرس قديماً باسم قياصرة الروم. وإذا كانت روما هي الروم، فهم إذاً ملوك شرق روما هذه، روم، مما جعلهم يدرسون المتصوف والحكيم الرومي الذي يعرف كذلك باسم جلال الدين البلخي الذي كان الأب وأبناؤه يتراشقون اقتباساته وعباراته الشهيرة كما يتقاذفون كرات التنس، إن ما تبحث عنه يبحث عنك، أنت الكون في حركة وجدانية، كن مشهوراً، اكشف عن أسطورتك، بع ذكاءك واشترِ الحيرة، اضطرم النار في حياتك، وابحث عن الذين يزيدون نارك اضطراماً، وإذا أردت أن تشفى، فدع نفسك تمرض، حتى ملّوا من أدويته الزائفة وبدأوا يختلقونها بأنفسهم ليُضحك بعضهم بعضاً، إذا أردت أن تكون غنياً، فاجعل نفسك فقيراً، وإذا كان أحد يبحث عنك، فهو من تبحث عنه، وإذا أردت أن تكون على جانبك، فقف على رأسك.

بعد ذلك، لم يعودوا الرومي، وإنما أصبحوا جولي اللاتيني، أبناء قيصر الذين كانوا، أو سيكونون هم أنفسهم، قياصرة. كانوا ينتمون إلى عائلة قديمة تزعم أنها قادرة على تتبّع أسلافها حتى الإسكندر الأكبر - الذي يزعم بلوتارك أنه ابن زيوس نفسه - لذلك،

كانوا، على الأقل، نظير أسرة جوليو كلاوديان التي تزعم أنها تتحدّر من لولوس، ابن أينياس الورع، أمير طروادة، وقد أنجبت أمّ أينياس الإلهة فينوس. أما كلمة قيصر، فلها ما لا يقلّ عن أربعة أصول محتملة. هل قتل أول قيصر كيساي - الكلمة المغاربية التي تعني الفيل؟ هل كان له شعر كثيف في رأسه - كيسارا؟ هل كانت عيناه رماديتين؟ أم أن اسمه مستمد من الفعل قصّر، أو قطع، لأنه ولد بعملية قيصرية؟ «عيناي ليستا رماديتين، وقد ولدتني أمّي بالطريقة الطبيعية»، قال الأب، «ومع أنه لا يزال على رأسي شعر، فقد خفّ كثيراً، وأنا لم أقتل فيلاً. فليذهب القيصر الأول إلى الجحيم، لذلك سأختار أن أصبح نيرو الأخير».

«من نحن، إذاً؟» سأل الابن الأوسط. «إنكم أبنائي»، قال الأب بلا مبالاة، «اختاروا أسماءكم». وعندما حان وقت المغادرة، اكتشفوا أن بحوزته وثائق سفر أخرجها لهم بأسماء جديدة، ولم يُفاجَأوا، فمن المعروف أنه رجل عملي.

وكما في صورة قديمة، ها هي زوجة الرجل العجوز، امرأة حزينة ضئيلة الجسم، شعرها الذي بدأ يشيب في شكل كعكة منفلتة، وذكرى حزن ذاتي في عينيها. إنها زوجة قيصر: يجب أن تكون فوق الشبهات، نعم، لكن أسوأ عمل في العالم التصق بها أيضاً.

في مساء ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر، حدث شيء في البيت الكبير. فقد دار جدال لسبب ما بين قيصر وزوجته، فطلبت سيارة المرسيدس مع السائق، وغادرت البيت غاضبة، وذهبت لتجد بعض العزاء مع صديقاتها. وتصادف أنها كانت جالسة في البهو المطل على البحر في الفندق حيث يحبّ الجميع أن يجلسوا، تتناول سندويشة الخيار وتشرب عصير الليمون الطازج المحلّى، عندما دخل المسلحون المصابون بالهلوسة يقهقهون مبتهجين، وقد زاغت مقل

عيونهم، والطيور الخيالية المخدّرة ترفرف حول رؤوسهم، وأطلقوا النار وقتلوا الناس.

ونعم، كان البلد هو الهند، وطبعاً، كانت المدينة بومباي، وبالطبع، كان البيت جزءاً من مستعمرة ووكشيوار الفاخرة الواقعة على تلة مالابار، ونعم، بالطبع، كانت تلك هجمات الجهاديين الإرهابيين الذين انطلقوا من باكستان من جماعة تطلق على نفسها «لشكر طيبة»، «جيش الأتقياء»، أولاً على محطّة القطارات التي كانت تعرف سابقاً بمحطة فيكتوريا، والآن، مثل أي شيء آخر في بومباي/مومباي، باسم الأمير البطل شيفاجي من سلالة مهراتا - ثمّ هاجموا مقهى ليوبولد في كولابا، ثم فندق أوبيري ترايدنت، ثم سينما مترو، ثم مستشفى كاما وألبليس، ثم بيت شاباد اليهودي وقصر تاج محل وفندق البرج. ونعم، بعد أن انتهى الحصار والمعارك التي استمرت ثلاثة أيام، أُعلن بأن أمّ ابنيْ غولدن الأكبر سناً (أما أمّ الابن الأصغر فلدينا لها قصة أخرى لاحقاً) في عداد الأموات.

عندما سمع الرجل العجوز أن زوجته محاصرة في داخل تاج محل، انحلّت ركبتاه، وكاد يسقط على درج الرخام في بيته المشيّد بالرخام، من غرفة الجلوس المشيّدة بالرخام إلى الشرفة المبنية من الرخام في الأسفل، لو لم يكن هناك خادم يقف بالقرب منه الذي أمسكه، لأن هناك خادماً على الدوام. وظل جاثياً على ركبتيه وأخفى وجهه بين يديه، وراح جسده يرتعش من البكاء والنشيج بصوت عال وبدا كأنّ مخلوقاً متوارياً في أعماقه يحاول الهرب منه. وخلال فترة الهجمات، ظل في وضعية الصلاة في أعلى الدرج الرخامي، ورفض أن يتناول الطعام أو ينام، وراح يضرب صدره بقبضة يده مثل نادب محترف في عزاء، وأخذ يلوم نفسه. لم أكن أعرف أنها ستذهب إلى

هناك، وبكى، كان عليّ أن أعرف، لماذا سمحت لها بأن تذهب. في تلك الأيام، كان الهواء في المدينة يبدو داكناً كالدم حتى في منتصف النهار، قاتماً مثل مرآة، ورأى الرجل العجوز انعكاس صورته فيها فلم يعجبه ما رآه. كانت قدرته على الرؤية قوية جداً إلى حدّ أن أبناءه رأوها أيضاً. وبعد أن ورد الخبر السيّئ، الخبر الذي أنهى حياتهم كلها حتى تلك اللحظة، أنهى النزهات سيراً على القدمين في عطلة نهاية الأسبوع حول ميدان السباق مع ممثلي العائلات العريقة القديمة في بومباي، ومحدثي النعمة الجدد أيضاً، وأنهى ألعاب السكواش والبريدج والسباحة ومضرب الريشة والغولف في نادي ويلينغدون، وزيارة نجمات السينما، وارتياد حفلات الجاز الصاخبة. لقد ولّت كلّها من دون رجعة لأنها غرقت تحت بحر الموت، وأطاعوا والدهم فيما طلبه منهم بما يريده الآن، وهو أن يغادروا هذا البيت الرخامي إلى الأبد، وهذه المدينة المحطمة المتخاصمة، والبلد القذر الضعيف الفاسد كله أيضاً، كلّ شيء أصبح والدهم يكرهه الآن فجأة، أو ربما لم يكرهه بغتة، ووافقوا على إلغاء كلّ تفصيل يعنيهم، وما كانوا يعيشونه، وما خسروه: المرأة التي صرخ زوجها بها وقادها بذلك إلى حتفها، المرأة التي أحبّها ابناها كثيراً والتي أهانها ذات يوم ابن زوجها فحاولت أن تنتحر وتضع حداً لحياتها. سينسون الماضي، وسيحملون هويّات جديدة، ويجتازون العالم ليصبحوا غير ما كانوا. سيهربون من التاريخي إلى الشخصي، وفي العالم الجديد، سيصبح الشخصي هو كلّ ما يسعون إليه، وكلّ ما يتوقّعونه، وهو أن يكونوا منعزلين وشخصيين ووحيدين، يبرم كلّ واحد منهم اتفاقاً مع اليومي، خارج التاريخ، خارج الزمن، في السرّ. ولم يخطر ببال أحدهم أنّ قرارهم قد ولد من إحساس هائل بالجدارة، هذه الفكرة التي ستمكّنهم من الابتعاد عن البارحة والبدء

في الغد كما لو أنه لم يكن جزءاً من الأسبوع نفسه، والانتقال إلى ما وراء الذاكرة والجذور واللغة والعرق إلى أرض الذات التي صنعوها بأنفسهم، وهي طريقة أخرى للقول، أميركا.

كم أسأنا إليها، تلك السيدة المرحومة، عندما عَزَونا، خلال ثرثرتنا، عدم مجيئها إلى نيويورك إلى خيانتها. إن غيابها، مأساتها، هما اللذان جعلا وجود أسرتها بيننا مفهوماً. إنها معنى هذه القصّة.

عندما ماتت زوجة الإمبراطور نيرو بوبايا سابينا، أحرق في جنازتها كمية من البخور العربي تكفي لحرقه لمدة عشر سنوات. أما في حالة نيرو غولدن، فإن جميع البخور في العالم لا يستطيع أن يغطي أخيراً على الرائحة النتنة.

* * *

يكاد المصطلح القانوني بي نامي يبدو عبارة فرنسية، "ben-ami"، فيخدع الغافلين ويعتقدون أنه قد يعني «صديق حميم»، bon ami، أو «محبوب»، "bien-aimé"، أو شيء من هذا القبيل. لكن أصل الكلمة في الحقيقة مستمد من اللغة الفارسية، وليس جذرها "ben-ami" بل بي–نامي. فالبادئة «بي» تعني «بلا» و «نام» تعني «اسم»، لذلك فإن بي نامي تعني «بلا اسم» أو مجهول. وفي الهند، فإن صفقات بي نامي تعني شراء عقارات أو ممتلكات يكون فيها المشتري المزعوم الذي يُسجل العقار باسمه مجرد واجهة، يُستخدم لإخفاء اسم صاحب العقار الحقيقي. وباللغة العامية الأمريكية القديمة، فإن بي نامي تطلق على اللحية.

وفي عام ١٩٨٨ أقرّت الحكومة الهندية قانون معاملات بي نامي (الحظر) الذي يحظر صفقات كهذه ومكّن الدولة من استعادة الأملاك «حجر بي نامي» بالرغم من وجود ثغرات كثيرة فيه. وتمثلت إحدى

السبل التي اتبعتها السلطات لسدّ هذه الثغرات في وضع نظام آدهار. وآدهار هي هوية ضمان اجتماعي تتألف من اثني عشر رقماً تُمنح لكلّ مواطن هندي طوال حياته، وأصبح استخدامها إلزامياً في جميع المعاملات المالية والمعاملات المتعلقة بالممتلكات، وهي تمكّن السلطات من تعقب تورط المواطن في معاملات وصفقات من هذا القبيل إلكترونياً. أما الرجل الذي عرفناه باسم نيرو غولدن، المواطن الأمريكي منذ أكثر من عشرين سنة، ووالد مواطنين أمريكيين، فلا بد أنه أخذ حيطته في هذا الأمر. فعندما حدث ما حدث وتبيّن كلّ شيء، عرفنا أن بيت غولدن تمتلكه سيدة معينة، السيدة نفسها التي تشرف على البيت، وهي أكبر المرأتين المؤتمنتين على أسرار نيرو، ولم يكن بالوسع إبراز وثيقة قانونية أخرى. لكن ما حدث قد حدث، ثم، حتى الجدران التي بناها بعناية شديدة قد تهاوت، وبرز أمامنا المدى المروّع والكامل لجريمته، عارياً في ضوء شمس الحقيقة. كان ذلك في المستقبل. أما الآن، فهو بكل بساطة ن. ج. غولدن، جارنا الثري و- كما اكتشفنا - السُّوقيّ.

(٤)

في الغاردنز السرية المربعة الشكل المعشوشبة المحاطة بالبيوت، حَبَوتُ قبل أن أستطيع أن أمشي، ومشيت قبل أن أستطيع أن أركض، وركضت قبل أن أستطيع أن أرقص، ورقصت قبل أن أستطيع أن أغنّي، ورقصت وغنّيت إلى أن تعلّمت السكون والصمت، ووقفت ساكناً أرهف السمع إلى قلب الغاردنز في أمسيات الصيف المتلألئة باليراعات، وأصبحتُ، على الأقل في رأيي، فناناً. وبدقة أكبر، سأصبح مخرج أفلام. وفي أحلامي، مخرجاً، لا بل، وفق التعبير القديم العظيم، صانع أفلام.

أتوارى خلف صيغة المتكلم الجمع، وقد أفعل ذلك مرة أخرى، لكنّي سأقدّم نفسي. أنا. لكنني، بشكل ما، لا أختلف كثيراً عن مواضيعي التي تتوارى هي أيضاً - الأسرة التي وفّر لي قدومها إلى المكان الذي أقيم فيه المشروع الكبير الذي طالما بحثت عنه، فتّشت بكل ما أملك من قوة. فإذا كانت عائلة غولدن قد بذلت جهداً كبيراً لتمحي ماضيها، فأنا الشخص الذي أخذ على عاتقه أن يصبح مؤرخ هذه العائلة - بل وربما مصمم متخيّل، المصطلح الذي استُنبط لمخترعي الألعاب في حدائق ديزني - وبطبيعتي، فأنا شخص متواضع. ماذا قال إشيرود في مطلع روايته *إلى اللقاء يا برلين*؟ «أنا كاميرا مصراعها مشرع، سلبي جداً، أسجّل، لا أفكّر».

لكن هذا كان في ذلك الزمن، أما الآن فإننا نعيش في عصر الكاميرات الذكية التي تفكّر بالنيابة عنّا. قد أكون كاميرا ذكية، أسجّل، لكنني لست سلبياً تماماً، فأنا أفكّر، أعدّل، بل قد أخترع. وفي جميع الأحوال، فأن تكون صاحب مخيّلة، يختلف كثيراً عن أن تكون حرفياً. إن تصوير فان غوغ لليلة تضيئها النجوم لا تشبه صورة ليلة تضيئها النجوم حقاً، لكنه في جميع الأحوال تصوير عظيم لليلة تضيئها النجوم. لنتفق على أنني أفضّل اللوحة على الصورة. أنا كاميرا ترسم لوحة.

أطلقوا عليّ اسم رينيه. لقد أحببت دائماً ألّا يفصح لنا راوي موبي ديك عن اسمه. نادوني إسماعيل الذي قد يكون اسمي في «الحقيقة»، أي في الواقع الضئيل الذي يقبع خارج الحقيقة العظيمة للرواية، فقد يكون اسمه أيّ شيء، فقد يكون براد، أو تريغ، أو أرنيت، أو شويلر، أو زيك. بل قد يكون اسمه إسماعيل. لا نعرف، لذلك، مثل جدّي الأكبر العظيم، فإني أحجم عن إخباركم بصراحة، اسمي رينيه. نادوني رينيه: فهذا أفضل شيء يمكنني أن أفعله لكم.

لنتابع. كان أبي وأمي يدرّسان في الجامعة (ألا تلاحظ أن في ابنهما سمة ورثها عنهما في الأستاذية؟) اشتريا بيتنا بجانب ناصية التقاء شارعي سوليفان وهيوستن في العصر الجوراسي، أي عندما كانت الأسعار رخيصة. سأعرّفكم عليهما: غابي ودارسي أنترليندن، تزوجا منذ فترة طويلة. ليسا باحثين محترمين فحسب، بل أستاذان محبوبان، ومثل بواروت العظيم (شخصية خيالية، لكنّك لا تستطيع أن تحصل على كلّ شيء، كما قالت مايا فارو في فيلم وردة *القاهرة الأرجوانيّة*)... بلجيكيان. بلجيكيان منذ زمن بعيد، أقول موضحاً بسرعة، أمريكيان منذ الأزل. يحافظ غابي بشكل غريب على نبرة

أوروبية ثقيلة غريبة، ومخترعة إلى حد كبير، أما دارسي فهي تتكلم باللهجة الأمريكية بارتياح. يلعب البروفسوران كرة الطاولة (تحدّيا نيرو غولدن عند سمعا أنه مولع بهذه اللعبة، وقد هزمهما كليهما مع أنهما لاعبان جيدان). كانا يستشهدان كثيراً بأبيات شعرية عندما يتحادثان. كانا من مشجعي لعبة البيسبول، أوه، ومدمنَين ساخرَين على برامج تلفزيون الواقع، وهما يحبان الأوبرا، ويخططان معاً باستمرار لكتابة بحثهما الذي لم يكتباه قط حول الشكل الذي سيُدعى «الفرخ يموت دائماً».

أحبّا مدينتهما لأنها لا تشبه المدن الأخرى في البلد. «روما ليست إيطاليا»، علّمني أبي، «ولندن ليست إنكلترا، وباريس ليست فرنسا، وهذه، حيث نقيم الآن، ليست الولايات المتحدة الأمريكية. هذه نيويورك».

«بين العاصمة والريف»، أضافت أمّي ملاحظتها، «يوجد دائماً امتعاض، يوجد دائماً جفاء».

«بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر تحاول أميركا الادّعاء أنها تحبّنا»، قال أبي، «إلى متى سيستمر ذلك؟»

«ليس إلى فترة طويلة منيوكة»، أكملت أمّي فكرته. (كانت تستخدم كلمات بذيئة. وكانت تتظاهر بأنها لا تدرك أنها تفعل ذلك، إنما زلات لسان).

«إنها فقاعة كما يقول الجميع الآن»، قال أبي، «كما في فيلم جيم كاريه، لكن على نحو أوسع ليصبح بحجم مدينة كبيرة».

«*عرض ترومان*»، أوضحت أمّي تسعفه، «حتى المدينة برمّتها ليست في فقاعة، لأن الفقاعة مصنوعة من النقود ولا تنتشر النقود بالتساوي».

في هذ المسألة كانا يختلفان عن الرأي الشائع بأن الفقاعة تتألف

من مواقف تقدمّية، أو أنها تقول، كما يقول ما بعد الماركسيين الجيّدين بأن الليبرالية تُولّد اقتصادياً.

«قد لا يكون حيّ البرونكس وكوينز في الفقاعة»، قال أبي.

«من المؤكد أن ستاتن آيلند ليست في الفقاعة».

«وبروكلن؟»

«بروكلن. نعم، قد تكون في الفقاعة. أجزاء من بروكلن».

«بروكلن عظيمة...»، قال أبي، ثمّ، وبانسجام تام أنهيا نكتتهما المفضّلة القديمة التي يكررانها كثيراً، «... لكنها موجودة في بروكلن».

«الفكرة هي أننا نحبّ الفقاعة، وأنت كذلك»، قال أبي، «إننا لا نريد أن نعيش في ولاية حمراء، وأنت - سيُقضى عليك مثلاً في كنساس حيث لا يؤمنون بنظرية النشوء».

«وبشكل ما فإن كنساس تنكر نظرية داروين»، قالت أمّي.

«هذا إثبات على أن البقاء ليس للأصلح دائماً. في بعض الأحيان يكون البقاء لغير الأصلح».

«لكنهم ليسوا مجرد رعاة بقر مجانين»، قال أبي. هنا تدخلت أمّي وقالت:

«لا نريد أن نعيش في كاليفورنيا».

(هنا تشوشت فقاعتهما، فبدأت تتحوّل إلى ثقافية واقتصادية، الساحل الأيمن مقابل الساحل الأيسر، بيغي - لا - توباك. لم يكن يبدو أنهما حريصان على التناقضات في موقفهما).

«إذاً هذا هو أنت»، أراد أبي أن أعرف، «الفتى في الفقاعة».

«إنه زمن المعجزات والأعاجيب»، قالت أمّي، «ولا تبكِ يا طفلي، لا تبكِ، لا تبكِ بهذه الطريقة المنيوكة».

أمضيت طفولة سعيدة مع البروفسورين. في قلب الفقاعة كانت تقبع الغاردنز، وقد منحت الغاردنز الفقاعة قلباً. لقد تربيت في عالم ممتع، آمن من الشرور، تشرنقتُ في حرير في وسط المدينة الليبرالي، ومنحتني شجاعة بريئة، على الرغم من أنني كنت أعرف أن خارج هذه التعويذة السحرية، فإن طواحين العالم المظلمة تنتظر دون كيخوته الأحمق. (ولا يزال، «فإن العذر الوحيد لأن يكون لديك امتياز»، علّمني أبي، هو أن تستفيد منه جيداً). ذهبت إلى المدرسة في ليتل رد، وإلى الجامعة في واشنطن سكوير. حياة كاملة ضمها اثنا عشر شارعاً. كان والداي مغامرين أكثر. فقد ذهب أبي إلى أكسفورد في بعثة من برنامج فولبرايت. وعندما أنهى دراسته، اجتاز برفقة صديق بريطاني في سيارة ميني ترافلر قارتيْ أوروبا وآسيا - تركيا، وإيران، وأفغانستان، وباكستان، والهند - في ذلك العصر الجوراسي الذي ذكرته آنفاً عندما كانت الديناصورات تجوب الأرض، وكان من الممكن القيام بمثل هذه الرحلات دون أن تفقد رأسك. وعندما عاد كان قد امتلأ بالعالم الرحب وأصبح، مع بورروز ووالاس، أحد كبار المؤرخين الثلاثة في مدينة نيويورك، وشارك هذين الرجلين المحترمين في تأليف كتاب بعنوان «العاصمة» بمجلّداته الكلاسيكية المتعددة، تاريخ مسقط رأس *سوبرمان* حيث عشنا كلنا وحيث كان الكوكب اليومي يصل إلى عتبة الباب في صباح كلّ يوم، وحيث اتخذ سوب *العجوز*، *الرجل العنكبوت*، بعد عدة سنوات، مكان إقامته في حيّ كوينز. وعندما سرت معه في حيّ الفيليج، أشار لي إلى المكان الذي وقف فيه آرون بيرر ذات يوم، وفي إحدى المرات، عندما كنا خارج دار السينما الكائنة بين الجادّة الثانية والشارع الثاني والثلاثين حكى لي قصّة معركة خليج كيب، وكيف أن ماري ليندلي موراي أنقذت الجنود الأمريكيين الهاربين

التابعين لفرقة إزرايل بوتنام بدعوة الجنرال البريطاني وليام هاو ليوقف مطاردته، وأن يأتي لاحتساء الشاي في بيتها الكبير، إنكلينبيرغ، فوق قمّة ما سيعرف باسم موراي هيل.

وكانت أمّي أيضاً جريئة بطريقتها. ففي شبابها عملت في مجال الصحة العامة مع مدمني المخدّرات ومزارعي الكفاف في أفريقيا. وبعد أن أنجبتني، ضيّقت آفاقها فأصبحت خبيرة في تعليم الأطفال الصغار، ثم، وفي النهاية، أصبحت بروفسورة في علم النفس. وكان بيتنا الكائن في شارع سوليفان، في الجانب الآخر من المنزل الذهبي المطلّ على الغاردنز، مليئاً بالأشياء السارّة المحتشدة بلا ترتيب التي تجمعت طوال حياتهما، بالإضافة إلى بسط فارسية رثّة، وتماثيل خشبية منحوتة أفريقية، ولوحات، وخرائط، وكليشيهات محفورة للمدن «الجديدة» الأولى لجزيرة مانهاتن، وأمستردام ويورك. وكانت هناك ناصية مخصصة للبلجيكيين المشهورين، لوحة تين تين أصلية معلّقة إلى جانب لوحة لوارهول مطبوعة على شاشة حريرية بريشة ديان فون فريستنبرغ والإنتاج الهوليوودي الشهير للنجمة الجميلة «*الإفطار عند تيفاني*» بمبسم سيجارتها الطويل التي كانت تُعرف ذات يوم باسم الآنسة إدا فان هيمسترا، ثم أودري هيبورن المحبوبة كثيراً: وتحتها، الطبعة الأولى من مذكرات هاردين لمارغيت يورسينار على طاولة صغيرة بجانب صور لسميٍّ ماغريت في الاستوديو الخاص به، والدرّاج إدي ميركس، والراهبة التي تغني. (لم يقطعها جان كلود فان دام).

وعلى الرغم من هذه الزاوية الصغيرة *لبيلجيانا*، لم يتردّدا في انتقاد بلدهما الأصلي عندما يُسأل أحدهما، «كان الملك ليوبولد الثاني ودولة الكونغو الحرّة»، قالت أمّي، «أسوأ مستعمرين في التاريخ، الأفظع والأشدّ ضراوة في التاريخ الاستعماري». وأضاف

أبي، «وفي أيامنا هذه، مولينبيك. المركز الأوروبي للإسلام الأصولي».

وفي أكثر الأماكن بروزاً على رفّ الموقد في غرفة الجلوس تنتصب كتلة حشيش قديمة لم تُستعمل قط لا تزال ملفوفة في ورقة السيلوفان الأصلية الرخيصة ممهورة بختم الحكومة الأفغانية الرسمي الذي يشبه القمر. فقد كان الحشيش قانونياً في أفغانستان في عهد الملك، وكان يأتي في ثلاث رزم بأسعار مختلفة وبجودة عالية: اللون الذهبي الأفغاني والفضي والبرونزي. لكن الشيء الذي وضعه أبي الذي لم يكن يتعاطى الحشيش في أكثر الأماكن بروزاً على رف الموقد كان شيئاً نادراً، شيئاً أسطورياً، شيئاً يكاد يكون سحرياً وغامضاً «قمر أفغاني»، قال أبي، «إذا استخدمته فإنه يفتح العين الثالثة في غدّتك الصنوبرية في منتصف جبينك وتصبح عرّافاً، ويمكن إبقاء أسرار قليلة مخفية عنك».

«إذاً لماذا لم تستخدمها أبداً»، سألته.

فقال: «لأن لغزاً عالمياً غامضاً مثل صورة لا ظلال فيها، وعندما ترى كثيراً فإنك لا ترى شيئاً».

وأضافت أمّي، «إن ما يقصده هو (أ) أننا نؤمن باستخدام عقولنا ولا ننفخها، و(ب)، قد تكون مغشوشة، أو مقطوعة، كما يقول الهبيز، بمادة مهلوسة شديدة، و(ج)، من الممكن أن أعترض بقوة. لا أعرف. لم يضعني قط موضع الاختبار». الهبيز، كما لو أنها لا تتذكر السبعينات، كما لو أنها لم ترتد قط سترة من جلد الغنم أو وضعت منديلاً أو حلمت بأنها غرايس سليك.

لم تكن هناك شمس أفغانية، لمعلوماتك. كانت شمس أفغانستان هي الملك، ظاهر شاه. ثمّ جاء الروس، ثمّ المتعصبون، وتغيّر العالم.

لكن القمر الأفغاني. . . لقد ساعدني ذلك في أحلك لحظات حياتي، ولم يعد بإمكان أمّي أن تعترض.

***

وبالطبع كانت هناك كتب، كتب كالمرض تعشّش في كلّ زاوية من زوايا بيتنا السعيد الرثّ. لقد أصبحتُ كاتباً لأنني استفدت بالطبع من هؤلاء الأجداد، وقد أختار أفلاماً بدلاً من الروايات أو السير الذاتية لأنني أعرف أنني لا أستطيع أن أنافس العجوزين. لكن حتى انتقال آل غولدن إلى البيت الكبير في شارع ماكدوغال، في الطرف الآخر من بيتنا عبر الغاردنز، كان إبداعي بعد التخرّج من الجامعة قد توقف. وبزهو الشباب الذي لا يعرف حدوداً، كنت قد بدأت أتخيّل فيلماً ضخماً، أو سلسلة أفلام على غرار المسلسل التلفزيوني دي*كالوغ*، أعالج فيه مسألة الهجرة، والتحوّل، والخوف، والخطر، والعقلانية، والرومانسية، والتغيير الجنسي، والمدينة، والجبن، والشجاعة؛ لا أقل من صورة بانورامية عن الزمن الذي أعيش فيه. وستكون طريقتي المفضّلة شيئاً أطلق عليها بيني وبين نفسي الواقعية الأوبرالية، وسيتركز موضوعي على الصراع بين الذات والآخر. كنت أحاول أن أصنع صورة خيالية عن الحيّ الذي أقيم فيه، لكنّها لم تكن قصّة قوية. فلم يكن لدى والديَّ شخصية البطولة ليكونا بطلَي الواقعية الأوبرالية، ولا أيّ من جيراننا الآخرين. (لقد ذهب بوب ديلان منذ أمد بعيد). قال نجمي البارز الشهير - المخرج - السينمائي - الأمريكي - من أصل أفريقي -في قبعة - بيسبول حمراء - بروفسور الدراسات السينمائية بشيء من الغطرسة عندما قرأ نصوصي السينمائية الأولى، «إنها جميلة جداً يا بني، لكن أين هو الدم؟ إنها شديدة الهدوء. أين هو المحرّك؟ ربما يجب أن تدع صحناً طائراً يهبط في

الغاردنز. ربما عليك أن تفجّر بناية. فقط اجعل شيئاً ما يحدث. اصنع قدراً من الضوضاء».

لم أعرف كيف. ثمّ جاءت أسرة غولدن التي كانت صحني الطائر، محرّكي، قنبلتي. غمرتني حماسة الفنان الشاب الذي وصل موضوعه كما تصل هدية في البريد في أثناء فترة الأعياد. أحسست بالامتنان.

* * *

إنه عصر الكتب الواقعية، قال لي أبي: «قد يكون من الأفضل أن تتوقّف عن محاولة القيام بذلك. اسأل في أيّ مكتبة، وسترى أن الطاولات التي توجد عليها الكتب الواقعية هي التي تتحرّك في حين يتناقص بيع القصص والروايات». لكن هذا هو عالم الكتب. في السينما كان عصر كبار الأبطال. وفي الكتب غير القصصية هناك حوارات مايكل مور، وستاينر نحات الخشب لورنر هيرزوغ، وبينا لويم ويندرز وآخرون. أما الأموال الكبيرة فإنها تنفق على مجال المخيلة. لقد أُعجب أبي بأعمال وأفكار دزيغا فيرتوف، مخرج الأفلام الوثائقية السوفيتي الذي يكره الدراما والأدب وأشاد بها. ونوع أفلامه، عين - كينو، أو عين - *السينما*، لا تهدف إلى شيء سوى إلى تطور البشرية إلى شكل أعلى من الحياة التي تخلو من الخيال، «من مواطن متردّد عبر شعر الآلة إلى الرجل الكهربائي المثالي». كان ويتمان سيحبّه. قد أكون أنا - كاميرا - إشيروود أيضاً. لكني قاومت. تركت الأشكال الأرقى لأمّي وأبي ولمايكل مور. أنا أريد أن أختلق العالم.

إن الفقاعة شيء هشّ، وكان البروفسوران يتحدّثان في المساء غالباً عن انفجارها بقلق شديد. كانا يشعران بالقلق إزاء اللياقة

السياسية، إزاء زميلتهما في التلفزيون وتلك الطالبة التي لا تتجاوز العشرين من العمر تصرخ في وجهها كلمات بذيئة بسبب خلاف حول الصحافة في الجامعة؛ وفي خبر آخر في التلفزيون أسيء إلى زميل لهما لأنه لم يشأ أن يحظر ارتداء ثياب البوكاهونتاس في عيد القديسين، وأُرغم زميلهما على أخذ إجازة دراسية واحدة على الأقل لأنه لم يدافع بما يكفي عن «الفضاء الآمن» لإحدى الطالبات من أفكار اعتبرتها تلك الطالبة «غير آمنة» بالنسبة إلى عقلها الشاب أثناء مواجهة زميلهما الذي رفض طلباً قدّمه أحد الطلاب لإزالة تمثال الرئيس جفرسن من الحرم الجامعي بالرغم من الحقيقة التي لم يُعلن عنها بأنه كان لدى جفرسن عبيد، وانتقد طالب يوجد في عائلته تاريخ مسيحي إنجيلي زميلاً لهما بحدّة لأنه طلب منه أن يقرأ رواية فيها رسوم بقلم رسّامة سحاقية، وأُرغم زميل آخر على إلغاء عرض مسرحية «*مناجاة مهبل*» لإيف إنسلر وذلك لأن تعريف النساء بأنهن أناس لديهن مهبل يشكل تمييزاً ضد الذين يُعرفون بأنهن إناث لكن لا يوجد لديهم مهبل؛ ويقاوم زملاء لهم جهود طلاب آخرين لمنع مسلمين كفار من التعبير عن أنفسهم لأن آراءهم معادية للمسلمين غير المرتدين. وكانا يشعران بالقلق لأنّ الشباب أصبحوا يؤيدون الرقابة، أصبحوا يؤيدون حظر أشياء كثيرة، وفرض القيود. كيف حدث ذلك، سألاني، إنه ضيق عقول الشباب الأمريكيين، لقد بدأنا نخاف من الشباب. «ليس أنت طبعاً يا عزيزي، فمن يمكنه أن يخاف منك»، قالت أمّي تطمئنني، فردّ عليها أبي، «أخاف عليك، نعم. بهذه اللحية التروتسكية التي تصرّ على إطلاقها فإنك تشبه معول ثلج بالنسبة إليّ. تجنّب مكسيكو سيتي، خاصة حيّ دي كويوكان. هذه هي نصيحتي لك».

في المساء كانا يجلسان تحت بقع من الضوء الأصفر، على

حضنيهما كتب، تائهين في الكلمات. كانا يبدوان مثل طيفين في إحدى لوحات رامبرانت، فيلسوفان غارقان في التأمل، وهما أكثر قيمة من أيّ لوحة؛ ربما كانا شخصين من آخر جيل من نوعهما، ونحن، نحن الذين سنأتي بعدهما، سنتأسف كثيراً لأننا لم نتعلّم المزيد عند أقدامهما.

إني أشتاق إليهما أكثر مما أستطيع أن أقوله.

(٥)

مرّ الوقت. أصبحت لديّ صديقة، فقدتها، ثم أصبحت لديّ صديقة أخرى، وفقدتها أيضاً. نصّي السينمائي السرّي، حبيبي الذي يصعب إرضاؤه لم تعجبه محاولاتي لإقامة هذه العلاقات التي يساء فهمها مع البشر، فتجهّم، ورفض أن يفضي بأسراره. كانت أواخر سنوات عشريناتي تتّجه نحوي بحرارة، ومثل بطل مسرحية في مسرح رخيص يستلقي عاجزاً فوق مسارات السكة الحديدية. (لا شكّ أن والديَّ الأدبيين كانا يفضّلان بأن أشير، بدلاً من ذلك، إلى مشهد السكة الحديدية الذروة في رواية فورستر، *أطول رحلة*) كانت الغاردنز عالمي الصغير. ففي كلّ يوم، كنت أرى المخلوقات التي أتخيّلها تحدّق بي من نوافذ البيوت في شارعَيْ ماكدوغال وسوليفان، بعيون غائرة، تتوسل لأن تولد. كانت لديّ القطع كلها تقريباً لكن شكل العمل كان يفلت مني. في البيت ذي الرقم عشرين في شارع سوليفان، في الطابق الأول ذي المدخل المفضي إلى الحديقة، حددت شخصية البورمي - ينبغي أن أقول الميناماري - يو لنو فنو، الدبلوماسي الذي يعمل في الأمم المتحدة، الذي تحطم قلبه المهني بسبب هزيمته في أطول معركة حدثت لشغل منصب الأمين العام. تسع وعشرون جولة متتالية من التصويت من دون فائز، وفي الجولة الثلاثين، خسر لمصلحة الكوري الجنوبي. وبواسطته خطّطتُ

لاستكشاف أساسيات علم السياسة، وأجسّد الضغوط التي تمارسها بعض أكثر الأنظمة استبداداً في العالم لكي تتخذ الأمم المتّحدة قراراً يجرّم ازدراء الأديان، وإثارة المسألة الشائكة المتعلقة باستخدام أمريكا حقّ النقض للدفاع عن إسرائيل، وترتيب زيارة إلى حدائق ماكدوغال - سوليفان بواسطة ماونغ سان سوو كيي نفسها. وعرفت أيضاً، قصّة يو لنو فنو الشخصية المحزنة، وفقدانه لزوجته بمرض السرطان، وشككتُ في أنه قد يحيد، بسبب هزيمته المضاعفة في حياته النزيهة، عن طريقه القويم، وأن تقضي عليه أخيراً فضيحة مالية. عندما فكّرت في هذا الرجل ذي العينين الغائرتين الذي رأيته من نافذة البيت ذي الرقم عشرين في شارع سوليفان يهزّ رأسه محبطاً ويتراجع إلى الظلّ. لا أحد يريد أن يكون الرجل السيّئ.

كان مجتمعي المتخيّل باقة دولية. في البيت رقم عشرين المطل على شارع ماكدوغال كان يعيش شخص وحيد آخر، أمريكي من أصل أرجنتيني أطلقتُ عليه مؤقتاً اسم «السيد أربيستا»، الوصولي. ومهما أصبح اسمه أخيراً، ماريو فلوريدا ربما، أو كارلوس هارلينغهام، فلديّ هذه المعالجة عنه:

أربيستا، المواطن الجديد، يغوص في البلد العظيم - «بلده»، يقول معجباً - كما يفعل أحدهم عندما يصل إلى محيط موعود بعد رحلة طويلة عبر صحراء، مع أنه لم يتعلّم السباحة. إنه يثق بالمحيط ليحمل وزنه، ويحمله بالفعل. إنه لا يغرق، أو ليس على الفور.

وهذا أيضاً، ما يجب الاستفاضة فيه:

طوال حياته، كان أربيستا وتداً مربّعاً يندفع داخل فتحة مستديرة والعرق يتصبب منه. هل هذا، في النهاية، ثقب مربع يلائمه تماماً، أم أنه، في خلال رحلاته الطويلة، يصبح مستديراً؟ (وإذا كان هذا الأخير، فلن يكون للرحلة أي معنى، أو على الأقل فإنه سيتلاءم

معها عند نهايتها من حيث بدأ. إنه يفضّل صورة الفتحة المستديرة، ويبدو أن نظام شبكة شوارع المدينة يؤكد هذه الحقيقة).

لعل ذلك بسبب الإخفاقات الرومانسية، أن أربيستا، مثل الدبلوماسي في الأمم المتّحدة، هجرته المرأة التي كان يحبّها:

زوجته أيضاً متخيّلة، أم أنها عبرت منذ سنوات كثيرة من الحقيقة إلى الخيال، عندما هجرته وذهبت مع رجل آخر، يصغره سناً ويفوقه وسامة. وفي جميع الأحوال، كان أفضل من أربيستا المسكين الذي، كما يعرف تماماً أن النساء، في جميع الأحوال، يحببن - الوسامة، الحديث الطلي، الإصغاء، الدفء، الصدق - التي يمتلكها بصورة عادية فقط. فهو الرجل العادي المرهف الذي يستخدم عبارات قديمة غير دقيقة كتلك التي يصف بها نفسه. رجل تغلّفه عبارات مألوفة قديمة، كأنها بديل عن بدلة من قماش التويد. رجل لا يتمتع بمزايا. لا، هذا غير صحيح، يقول أربيستا مصححاً نفسه، فلديه مزايا عديدة، يقول مذكّراً نفسه. فهو ينحو إلى الاستغراق في تيار الوعي ليقلل من قدر نفسه، وفي هذا الأمر، قد لا يكون منصفاً لنفسه. في واقع الحال، فهو أشبه بشخص ممتاز، ممتاز بطريقة بلده الجديد الذي يحتفل بالتميّز، الذي يرفض «متلازمة الخشخاش الطويل». أربيستا ممتاز لأنه تفوَّق. أبلى بلاء حسناً. إنه غني. قصّته قصّة نجاح، قصّة نجاحه الكبير. إنها قصّة أمريكية.

وهكذا دواليك. الأرستقراطيون الصقلّيّون المتخيّلون الذين يعيشون في البيت المطلّ على حديقة الغاردنز قبالة بيت غولدن - مؤقّتاً، كان فيتو وبلانكا تاغليآبوو، ، والبارون والبارونة سيلينونتي - لا يزالون غامضين بالنسبة إليّ، لكنّي كنت مغرماً بأسلافهم. عندما تصوّرتهم يخرجون ذات مساء، في أناقتهم الشديدة دائماً، لحضور حفل يقام في متحف المتروبوليتان، أو لحضور افتتاح فيلم *زيغفيلد* أو

لمشاهدة عرض جديد لفنان شابّ يقام في أحدث قاعة عرض في الويست سايد، تذكّرت والد فيتو، بياجيو، الذي

ذات يوم حار بالقرب من الساحل الجنوبي لصقلّية، عندما كان في مقتبل عمره، وقد لوّحت بشرته الشمس يسير بخطى واسعة في بيت عائلته الرحب الذي كان يدعى كاسلبياجيو، يحمل أفضل بندقيّة لديه من سبطانتها على كتفه اليمنى، ويعتمر قبعة لها حواف عريضة فوق سترة حمراء داكنة قديمة، ويرتدي سروالاً لركوب الخيل كاكي اللون مهترئاً، وينتعل حذاء طويلاً لُمِّع كثيراً حتى أصبح يلمع مثل شمس الظهيرة. كان لديه سبب رائع ليؤمن بأن الحياة رائعة. فقد وضعت الحرب أوزارها في أوروبا، وعُلِّق موسوليني وعاهرته كلارا بيتاتشي من خطاف لحم، وبدأت الحياة تعود إلى مسارها الطبيعي. استعرض البارون صفوف كروم العنب الثقيلة المتراصة كما يستعرض قائد جنوده، ثمّ تقدّم إلى الأمام بسرعة عبر الغابة والجدول، وصعد التلّ وهبط إلى الوادي ثمّ صعد ثانية، وتوجّه إلى مكانه المفضّل، جرف في البحر مرتفع قليلاً يطل على أراضيه حيث يمكنه أن يجلس القرفصاء مثل كاهن من التيبت ويتأمّل طيبة الحياة ويحدق في الأفق البعيد عبر البحر المتلألئ. إنه اليوم الأخير في حياته كرجل حرّ، لأنه، بعد لحظة، سيرى لصاً يجتاز أرضه حاملاً على كتفه كيساً مليئاً، ومن دون تردّد، صوّب بندقيته نحوه وأطلق عليه النار فأرداه قتيلاً.

وتبيّن بعد ذلك أن الشاب المقتول هو أحد أقارب زعيم مافيا محليّ أعلن أن بياجيو يجب أن يموت أيضاً لقاء الجريمة التي اقترفها، فحدث اضطراب، وتوافدت وفود من السلطة السياسية ومن الكنيسة أيضاً، وقالوا إنه لو قتل زعيم المافيا اللورد المحليّ، فإن

ذلك سيكون أمراً شديد الوضوح، أمراً يصعب تجاهله وسيؤدي إلى إحداث مشاكل لزعيم المافيا على نحو لن يكون مريحاً له، لذلك، فإن من مصلحته ألّا يُقدِم على ارتكاب هذه الجريمة. فأذعن زعيم المافيا في نهاية الأمر.

أعرف كلّ شيء عن البارون بياجيو هذا، مممم، عن جناحه في فندق غراند أوتيل ودي بالمز في باليرمو - ما هو؟ الجناح ٢٠٢ أو ٢٠٤ أو ربما كلاهما؟ - إنه يذهب إلى هناك ليشارك في الحفلات ويضاجع العاهرات، همممم؟، وهذا شيء جيد، إنه مكاننا، فإننا نذهب إلى هناك للأسباب نفسها، لذلك، فإذا ذهب إلى هناك اليوم وأمضى بقية حياته المنيوكة فلن نقتل هذا المنيك الصغير، أما إذا حاول أن تطأ قدماه خارج الفندق، فعليه أن يتذكّر أنّ الممرات تغصّ برجالنا وأن جميع العاهرات يعملن لحسابنا أيضاً، وقبل أن تلمس قدماه أرض الساحة خارج الفندق سيصبح في عداد الأموات، وسيرتطم رأسه المدمّى من الرصاصة التي تصيب جبينه بالأرض قبل أن يلامسها حذاؤه المنيك. همممم؟ همممم؟ قولوا له ذلك.

في السيناريوهات ومعالجات السيناريو التي تجول في رأسي بالطريقة التي حمل فيها بيتر كاين في رواية كانيتي *Auto-da-fé* مكتبات كاملة، ظل «البارون في الجناح» مسجوناً في فندق غراند أوتيل ودي بالمز في باليرمو، بصقلّية، حتى آخر يوم في حياته، بعد أربع وأربعين سنة، أمضاها هناك في المتعة والزنى، وكان الطعام والشراب يُجلبان إليه يومياً من مطبخ عائلته ومن قبو النبيذ في بيته، وحبلت زوجته بابنه فيتو في أثناء إحدى الزيارات النادرة التي أجرتها له زوجته التي عانت طويلاً (لكنه ولد حيث كانت تفضّل زوجته التي عانت طويلاً في غرفة نومها في كاسل بياجيو)، وعندما مات تُرك

تابوته أمام باب بيته، القدمان في المقدمة، يحيط به حرس شرف مكوّن من معظم العاملين في الفندق، وعدد من العاهرات. وكبر فيتو الذي خذلته باليرمو والمافيا ووالده أيضاً، ليتخذ من نيويورك مكاناً لإقامته، وعزم على أن يعيش حياة بخلاف حياة أبيه، وفياً تماماً لزوجته بلانكا، لكنه رفض أن يمضي ليلة واحدة وحيداً معها ومع الأطفال في البيت.

* * *

أخشى أن أكون قد أعطيت القارئ انطباعاً سيئاً غير ضروري عن شخصيتي. فلا أريد أن يظن أحد أنني شخص كسول، لا يصلح لشيء، وعبء على أمي وأبي، لا أزال أبحث عن عمل حقيقي بعد أن أمضيت ثلاثة عقود من الحياة على وجه الأرض. والحقيقة هي أنني كنت، كما الآن، نادراً ما أخرج إلى المدينة في الليل، وكنت أصحو، ولا أزال، في وقت مبكّر من الصباح على الرغم من أنني مصاب بأرق طوال حياتي. وكنت أيضاً (ولا أزال) عضواً فعالاً في فريق من المخرجين الشباب - فقد درسنا معاً في الجامعة - قمنا بإنتاج فيلم بإشراف منتجة -كاتبة أمريكية من أصل هندي شابّة مفعمة بالحيوية تدعى سوشيترا روي، مجموعة من أفلام الفيديو الموسيقية، أُدمجت في محتوى الإنترنت في مجلة كوندي ناست وويراد، وعُرضت على أنها أفلام وثائقية في محطات HBO و PBS، وثلاثة أفلام طويلة حظيت بالتقدير موّلتها جهات مستقلة (واختيرت الأفلام الثلاثة لكي تعرض على شاشة محطتي سندانس و SXSW وقد حاز اثنان منها على جائزة الجمهور) أقنعنا فيها ممثلين من الدرجة الأولى على الحصول على أجور قليلة: جيسيكا تشاستيان، وكينو ريفز، وجيمس فرانكو، وأوليفيا وايلد. إني أعرض هذه السيرة الذاتية

القصيرة هنا لأطمئن القارئ وأجعله يشعر أنه في أيد أمينة، موثوق بها، وليس بين يدي شخص عديم الخبرة، بينما يكتسب سرد قصتي خصائص مثيرة للغاية. كما أعرّف بزملائي في العمل لأن انتقادهم لهذا، لمشروعي الشخصي، كان وسيظل ثميناً بالنسبة إليّ.

كنا نلتقي طوال ذلك الصيف الحار الطويل على الغداء في المطعم الإيطالي المفضّل لدينا في الجادّة السادسة عند شارع بليكر، نجلس خارج المطعم إلى طاولة على الرصيف نعتمر قبعات كبيرة لاتقاء الشمس، وندهن أجسامنا بمرهم الوقاية من الشمس فاكتور ٥٠، وأحكي لسوشيترا ما أقوم به، ثمّ تبدأ تطرح عليّ الأسئلة الصعبة. «أفهم أنك تريد أن يكون نيرو غولدن خاصتك شخصاً غامضاً، هذا شيء جيد، أرى أن هذا شيء صحيح»، قالت لي، «لكن ما هي المسألة التي تشكلها لنا شخصيته التي يجب أن تعالجها القصّة في النهاية؟» لقد عرفت الجواب في الحال، مع أنني لم أعترف به قط حتى لنفسي حتى تلك اللحظة.

«المسألة»، قلت لها، «إنها مسألة الشرّ».

فقالت: «في هذه الحالة، عاجلاً أم آجلاً، وكلما حدث ذلك في وقت أبكر كان أفضل، يجب البدء بنزع القناع».

* * *

عائلة غولدن هي قصّتي، وقد يسرقها آخرون مني. وقد يسرق بعضهم ما يعتبر حقّاً إلهياً لي لأنني أنا الأول هنا، وتقول حقوق المحتلين وواضعي اليد بأن هذه هي أرضي أنا. فأنا أول من حفر في هذا التراب منذ مدة طويلة، أرى نفسي، تقريباً، مثل أ. ج. وبيرمان - في حيّ الفيليج في سبعينات القرن الماضي الذي راح ينبش في قمامة بوب ديلان لكي يكشف عن المعاني السرّية الكامنة وراء

كلمات أغانيه وتفاصيل حياته الخاصة. ومع أنني لم أصل إلى هذا الحدّ، فقد فكّرت في الأمر، وأعترف بأنه خطر لي أن أنبش في قمامة عائلة غولدن كما تفعل قطّة بحثاً عن حسك سمك.

هذا هو الزمن الذي نعيش فيه، الزمن الذي يخفي فيه الرجال حقائقهم، ربما حتى عن أنفسهم، ويعيشون في أكاذيب، إلى أن تكشف الأكاذيب تلك الحقائق بطرائق يستحيل التنبؤ بها. والآن بما أن هناك أشياء مخفية كثيرة، الآن، بما أننا نعيش على سطح الأشياء، في التعريف بأنفسنا وفي تزييف أنفسنا، يتعين على الباحث عن الحقيقة أن يحمل معوله، ويكسر السطح ويبحث عن الدم تحته، على الرغم من أن التجسس ليس بالأمر الهين. فما إن استقرّوا في بيتهم الباذخ، حتى أصبح الرجل مهووساً من أن يقوم الباحثون عن الحقيقة بالتجسس عليه، فاستدعى عدداً من رجال الأمن ليتأكدوا من أنه لا توجد أجهزة تنصّت مخبأة في بيته، وعندما كان يناقش أموراً عائلية مع أبنائه، كان يحدّثهم «بلغاتهم السرّية»، ألسنة العالم القديم. فقد كان متيقناً بأننا جميعاً نتطفّل على ما يفعله، وهذا بالطبع ما كنّا نفعله، من خلال تبادل الأحاديث البريئة التي تدور عادة في حيّ الفيليج، بحسب الغرائز الطبيعية لعامة الناس، عندما نكون واقفين عند حنفية ماء الأبرشية أو بالقرب من جهاز تبريد الماء، في محاولة لوضع القطع المستجدة في موقعها الصحيح في لوحة اللغز في حياتنا. وكنت أكثر هؤلاء حبّاً للاستطلاع، لكن بسبب العمى الذي يغشى عيني نيرو غولدن المهووس بحماقة، لم ير ذلك، وكان يرى أنني -وهذا غير صحيح - شخص فاشل لم يستطع أن يجمع ثروة مثله يمكن استبعاده من حساباته، وإزالتي من مجال رؤيته، وتجاهلي، وهذا ما لاءم أهدافي كثيراً.

ثمة احتمالية واحدة أعترف بأنها لم تخطر على بالي، أو على

بال أيّ منّا، حتى في عصرنا المضطرب المصاب بداء الشك والارتياب. فبسبب تناولهم المشروبات الروحية علناً وبكميات كبيرة، وإحساسهم بالراحة في وجود نساء غير محجبات، وعدم ممارستهم شعائر تمتّ إلى أيّ دين من الأديان الرئيسية المعروفة، لم نشكّ قط في أنهم قد يكونون. . . أوه يا إلهي، مسلمين. أو على الأقل من أصل مسلم. كان والداي هما من اكتشفا ذلك. «في عصر المعلومات، يا عزيزي»، قالت أمّي بشيء من الغرور المبرّر عندما أنهيا عملهما وأغلقا جهاز الكمبيوتر، «تصبح زبالة الجميع مكشوفة كي يراها الجميع، وكلّ ما عليك أن تعرفه هو كيف يمكنك أن تنبش فيها».

من ناحية الأجيال، قد يبدو الأمر مقلوباً رأساً على عقب، ففي بيتنا كنت أنا من يجهل استخدام الإنترنت بينما كان أبي وأمّي يجيدان استخدامه. فقد ابتعدت عن وسائط التواصل الاجتماعي وكنت أشتري «نسخاً ورقية» من صحيفتَي *التايمز* و*البوست* صباح كلّ يوم من الكشك الموجود عند ناصية الشارع. وبينما كان والداي يعيشان داخل جهاز الكمبيوتر، وتجسّدت لديهما حياة ثانية منذ أن ظهر ذلك العالم الآخر على الإنترنت، أصبح بإمكانهما أن يعثرا على «الإبرة في داخل الكومة الإلكترونية»، كما كان يحلو لأمّي أن تقول.

وكانا هما من بدأ يفتح ماضي عائلة غولدن لي، ومأساة بومباي التي جعلتهما يجوبان العالم. «كان الأمر بالغ الصعوبة»، أوضح أبي، كما لو كان يكلّم شخصاً ساذجاً، «فهم أناس ليسوا غير معروفين. فإذا كان الشخص معروفاً، فقد يؤدي البحث المباشر عن صورته إلى نتيجة».

«كلّ ما علينا أن نفعله»، قالت أمّي وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، «هو أن نتوجه مباشرة إلى الباب الأمامي»، وأعطتني

ملفاً، وأضافت، «هذا هو الملف يا حبيبي»، بلكنتها الصلبة التي تشبه لكنة شرطي سرّي، «مادّة مفجعة تفوح منها رائحة نتنة أسوأ من منديل سبّاك. لا عجب أنهم يريدون أن يتركوها وراءهم. كأن عالمهم تحطّم مثل شيء يتعذر إصلاحه. لا يمكن رأبه ثانية، لهذا السبب غادروا بلدهم وجاؤوا إلى هنا حيث يوجد الكثير من الأشخاص المحطّمين. فهمت. إنه لأمر حزين. سنرسل بياناً بتكاليفنا إلى انتباهك المبكّر».

* * *

في تلك السنة، كان هناك أشخاص يدّعون أن الرئيس الجديد مسلم، وأن شهادة ميلاده مزوّرة، وأننا لن نقع في فخّ فيل التعصّب. كنا نعرف عن محمد علي وكريم عبد الجبار، وفي تلك الأيام التي أعقبت ضرب الطائرات للبرجين، اتفقنا كلنا، نحن من نعيش حول الغاردنز، أن لا نلوم الأبرياء على الجرائم التي ارتكبها المذنبون الحقيقيون. وتذكّرنا الخوف الذي جعل سائقي سيارات الأجرة يلصقون أعلاماً صغيرة فوق لوحات العدادات، ويضعون ملصقات كتب عليها «بارك الله أمريكا» على الزجاج الذي يفصل بين مقعد السائق والركاب، ونتذكّر الهجوم الذين شنّه البعض على أفراد من طائفة السيخ لأنهم يضعون عمائم وقد أحرجنا ذلك بسبب جهل مواطنينا. ورأينا شباناً ارتدوا قمصان تي شيرت كُتبت عليها عبارات «لا تلمني فأنا هندوسي»، ولم نلمهم وأحسسنا بالحرج لأنّهم اضطروا إلى وضع رسائل طائفية لضمان سلامتهم. وعندما هدأ روع المدينة، وعادت إلى حياتها الطبيعية، شعرنا بالفخر لسلامة عقول إخوتنا سكان نيويورك وهكذا، لا، لم نكن سنصاب بالهستيريا من أجل تلك الكلمة الآن. لقد قرأنا الكتب التي كُتبت عن النبي وعن

الطالبان وإلى ما هنالك، ولم ندّعي أننا فهمنا كلّ شيء لكني صممت أن أتعلم عن المدينة التي أتى منها آل غولدن والتي لم يرغبوا في أن يذكروا اسمها التي كان سكانها يتفاخرون بالعيش بانسجام بين طوائفها منذ مدة طويلة، والتي لم يكن الكثير من الهندوس فيها نباتيين، وكان الكثير من المسلمين فيها يتناولون لحم الخنزير، وكانت مدينة راقية، الطبقات العليا فيها علمانية، غير متدينة، وحتى الآن، بعد أن تلاشى العصر الذهبي ذاك وأصبح في حكم الماضي، كان المتطرّفون الهندوس هم الذين يضطهدون الأقليّة المسلمة، لذلك، كان من الواجب التعاطف مع الأقليّة، لا الخوف منها. ونظرت إلى عائلة غولدن ورأيت أشخاصاً متحررين، لا متزمّتين، كما هما والداي، وتركنا الأمر هناك، وشعرنا بالارتياح لأننا فعلنا ذلك. واحتفظنا بما عرفناه لأنفسنا. لقد هرب أفراد غولدن من مأساة إرهابية وخسارة أليمة. علينا أن نرحب بهم، لا أن نخاف منهم.

لكنّي لا أستطيع أن أنكر الكلمات التي سقطت من فمي رداً على تحدّي سوشيترا. السؤال هو مسألة شرّ. لم أعرف من أين أتت تلك الكلمات، أو ماذا كانت تعني. كنت أعرف أنّني سأبحث عن الرد في قصص *تان تان*، *وبيوروتي*، بحسب الطريقة الما بعد بلجيكية، وعندما أجده، ستصبح بحوزتي القصّة التي قرّرت أنها لي، ولن يرويها أحد غيري.

(٦)

كان يا ما كان في سالف العصر والأوان، أمر ملك شرّير أبناءه الثلاثة بمغادرة البيت، ثمّ حبسهم في بيت مشيّد من الذهب، وأوصد النوافذ ذات المصاريع المطلية بالذهب، وسدّ الأبواب بأكداس من سبائك الذهب الأمريكية وبأكياس مليئة بقطع الدبلون النقدية الإسبانية القديمة، وبرفوف من الليرات الفرنسية الذهبية التي نُقشت عليها صورة الملك لويس، وبدلاء طافحة بالدوكات الذهبية من فينيسيا. وفي النهاية، تمكّن الأطفال من تحويل أنفسهم إلى طيور تشبه أفاعي يكسوها الريش، وطاروا من المدخنة وأصبحوا أحراراً. لكن ما إن حلّقوا في الهواء، حتى وجدوا أنهم غير قادرين على الطيران، فسقطوا بقوة وارتطموا على أرض الشارع حيث استلقوا جريحين حائرين في المزراب. ثمّ تجمّع حولهم عدد من الناس الذين لم يعرفوا إن كان عليهم أن يعبدوا هذه الطيور- الأفاعي التي نزلت من السماء، إلى أن رمى أحدهم حجرة عليهم، وسرعان ما قتل وابل الحجارة الأبناء الثلاثة جميعاً، ورأى الملك الذي أصبح وحيداً في البيت الذهبي، بكلّ الذهب الذي يحشو به كلّ جيوبه، وبكلّ العملة المكدسة في جميع أكياسه، وكلّ دلائه التي كانت تزداد توهّجاً وبريقاً إلى أن اشتعلت واحترقت. وبينما كانت ألسنة اللهب تتصاعد عالياً من حوله، قال لقد قتلتني خيانة أبنائي. لكن ليست هذه هي الرواية

الوحيدة للقصّة، ففي رواية أخرى، لم يهرب الأبناء بل ماتوا جميعاً مع أبيهم الملك في الحريق. وفي رواية ثالثة، قتل بعضهم بعضاً. وفي رواية رابعة، قتل الأبناء والدهم الملك وأصبحوا قاتلي أبيهم وقاتلي الملك في آن معاً. ولعل الملك لم يكن شرّيراً إلى تلك الدرجة، وربما كانت لديه صفات نبيلة بالإضافة إلى صفات مريعة كثيرة. ففي عصرنا المليء بالحقائق المتناقضة بقوة، ليس من السهل الاتفاق على حقيقة ما يحدث، أو ما حدث في الواقع، أو ما هي الحالة، ناهيك عن المغزى أو المعنى الأخلاقي الذي تنطوي عليه هذه القصّة أو أيّ قصّة أخرى.

* * *

لقد تستّر الرجل الذي يطلق على نفسه اسم نيرو غولدن، في المقام الأول، وراء لغات ميّتة. فقد كان يتحدّث اللغتين اليونانية واللاتينية بطلاقة، وأرغم أبناءه على تعلّمهما أيضاً. فكانوا يتبادلون الأحاديث أحياناً بلغة أهل روما أو أثينا، كما لو أن ذلك كان حديثهم اليومي المعتاد، ولم يستخدموا إلّا بضع مفردات من تلك المفردات الكثيرة التي تُسمع في مدينة نيويورك. في الماضي، عندما كانوا في بومباي، قال لهم: «اختاروا أسماءكم الكلاسيكية»، ومن اختياراتهم نستطيع رؤية أن اختيارات الأبناء كانت أدبية، ميثولوجية أكثر من تطلعات الأب الإمبراطوري. فلم يرغبوا في أن يكونوا ملوكاً، مع أنه سيُلاحظ أن الأخ الأصغر قد تستر وراء الألوهية. وهكذا أصبحوا بترونيوس، ولوتشيوس، ولوكيوس أبوليوس، وديونيسوس. وبعد أن اختاروا أسماءهم، أصبح أبوهم يناديهم بالأسماء التي اختاروها، وصار بترونيوس المصاب بالاكتئاب، المعطوب، على لسان نيرو، بيترو أو بيترون، وأصبح مثل علامة تجارية لنوع من أنواع البنزين أو

شراب التاكيلا، أو، أخيراً ودائماً، بيتيا الذي أرسله من روما القديمة إلى عالمَيْ دوستويفسكي وتشيكوف. أما الابن الثاني، المليء بالحيوية، المحنّك، الفنان الذي يحبّ المتعة، فقد أصرّ على اختيار اسمه الذي يحبّه. وقال: «نادني آبوو»، متحدّياً اعتراض والده (فنحن لسنا من بنغلادش) ولم يكن يردّ إذا ناداه أحد باسم آخر حتى التصق به هذه الاسم. وأصبح لقب الابن الأصغر الذي سيلقى أغرب مصير عن باقي إخوته، ببساطة «دي».

ويجب أن نوجّه انتباهنا الآن إلى أبناء نيرو غولدن الثلاثة، وأن نكفّ عن ذكر ما كان يلحّ عليه جميع رجال عائلة غولدن، بين الحين والآخر، وبشكل قاطع - بأن قدومهم إلى نيويورك لم يكن إنكاراً، أو هروباً، وإنما اختياراً. وقد يكون هذا صحيحاً بالنسبة إلى الأبناء، لكن، كما سنرى، بالنسبة إلى الأب، فإن المأساة الشخصية ودوافعه الخاصة قد لا تكون هي ما حفّزه على ذلك. فربما كان أشخاص لا يريد أن يعرفوا مكانه الجديد ويتمكنوا من الوصول إليه. أرجو أن تتحلّوا بالصبر: فلن أبوح بجميع أسراري دفعة واحدة.

كان لدى دانديش بيتيا - المحافظ في ملبسه، لكن الأنيق باستمرار - بعض كلمات سميّه غايوس بيترونيوس الذي وصفه بلينيوس الأكبر وتاسيتس وبلوتارك بأنه المحكّم الأسمى، أو القاضي الرفيع في محكمة نيرو، المحفورة في لوحة برونزيّة ثبّتها على باب غرفة نومه: «غادر بيتك أيها الشاب وابحث عن شواطئ غريبة. وسيعرفك نهر الدانوب البعيد، والرياح الشمالية الباردة، ومملكة كانوبوس الهادئة، والرجال الذين يحدّقون في ولادة فيوبوس الجديدة أو عند تنصيبه». إن اختيار اقتباسٍ كهذا أمر غريب، بما أن العالم الخارجي يثير فزعه، لكن يمكن للإنسان أن يحلم، ومن الممكن يكون في أحلامه شخصاً مختلفاً.

كنت أراهم مرات عديدة في الغاردنز كلّ أسبوع. كنت أتقرّب من بعضهم أكثر من بعضهم الآخر. لكن معرفة الناس الحقيقيين ليس كما تختلقهم أنت وتجلبهم إلى الحياة. فقد بدأت الآن أفكّر في أن أكتب ما يخطر ببالي فقط. أغمض عينيك واجعل الفيلم يدور في مخيلتك، ثم افتح عينيك واكتبه. لكن يجب أن يتوقّفوا أولاً عن أن يكونوا جيراني ويعيشوا في الواقع، وأن يتحوّلوا إلى شخصيات أصنعها أنا، أحياء في الواقع. فقرّرت أن أبدأ من حيث بدأوا، بأسمائهم الكلاسيكية. ومن أجل الحصول على بعض المعلومات المتعلقة ببيترونيوس غولدن، قرأت رواية *سترايكن* ودرست هجاء *منيبيان*. وكانت إحدى الملاحظات التي قلتها لنفسي، «إن انتقاد المواقف العقلية، أفضل من هجاء الأشخاص». وقرأتُ بعض المسرحيات الإغريقية المتاحة: *سايكلوب ليوربيديس*، وما تبقى من فصول مسرحية إسخيلوس «*صيادو السمك*»، ومسرحية سوفوكليس «*المقتفون*»، بالإضافة إلى مسرحية توني هاريسن الحديثة المستمّدة من مسرحية سوفوكليس، «*مقتفو أثر أوكسيرينخوس*». هل ساعدت هذه المؤلفات العالمية القديمة؟ نعم، فقد أرشدتني نحو السخرية والمجون وأبعدتني عن التراجيديا الراقية. مشاهد الرقص الإغريقي بالقبقاب في مسرحيّة هاريسن، ودوّنت ملاحظة، «بيتيا - راقص سيّئ، حركاته غير متناسقة ما يجعل الناس يرونه مضحكاً». وهنا أيضاً خدعة حبكة محتملة، لأنه في مسرحيتيْ «*صيادو السمك*» و«*المقتفون*» يصادف الإله الإغريقي أطفالاً سحرة - بيرسوس في المسرحية السابقة، وهيرمس في المسرحية الثانية. «احرص على إنجاب أطفال أقوياء خارقين للطبيعة»، دوّنت في دفتر ملاحظاتي، ودوّنت بجانبها في الهامش «؟؟؟ أو - لا». لذلك لم أكن واضحاً بشأن لغز وجوهر القصّة فحسب، وإنما حول الشكل أيضاً. هل

سيكون للسرياليين، والخياليين، دور؟ في هذه اللحظة، أنا لست متأكداً. والمصادر الكلاسيكية مشوشة بقدر ما هي مفيدة. فقد تكمن أصول المسرحيات الإغريقية، لتوضيح الواضح، التي تتناول الإله ديونيسوس، في الولاء الريفي للإله. الشراب، الجنس، الموسيقى، الرقص. لذلك على أي شيء يجب أن أسلّط الضوء أكثر في قصّتي؟ فقد كان بيتيا بيتريوس، أما ديونيسوس فهو شقيقه. . . الذي ستتدور في قصّته مسألة الجنس - أو الجنوسة (نوع الجنس) لتحاشي الكلمة التي لا تحبذ حبيبته ريا استخدامها، - محورية. . . دوّنت ملاحظة. «وستتداخل شخصيات الإخوة مع بعضها إلى حدّ ما».

أما آبوو، فقد عدتُ إلى رواية *الحمار الذهبي*، لكن التحوّل في قصّتي سيصبح قَدَراً مختلفاً للأخ. (يتداخل الإخوة مرة أخرى) لكني دوّنت هذه الملاحظة الثمينة. «قصّة ذهبية» في زمن لوكيوس أبوليوس، صورة بلاغية تشير إلى قصّة طويلة، وهم متوحش، شيء من الواضح أنه غير صحيح. قصّة خيالية. أكذوبة.

أما الطفل السحري: فبدلاً من «؟؟؟ أو - لا»، السابقة، يجب أن أقول، من دون مساعدة أسخيليوس أو سوفوكليس، إن الجواب هو نعم. لأنه سيكون هناك طفل في القصّة. سحري أم ملعون؟ أيها القارئ: أنت من يقرّر ذلك.

* * *

كانت الغرابة البرّاقة الحزينة للرجل الذي أطلقنا عليه اسم بيتيا غولدن بادية للجميع منذ اليوم الأول عندما جلس وحيداً في أحد المقاعد في الغاردنز في ضوء بعد ظهر ذلك اليوم الشتويّ الباهت. رجل ضخم البنية، بضخامة أبيه، ضخم وثقيل البنية بعينيّ أبيه الحادّتين الداكنتين اللتين بدا أنهما تستجوبان الأفق. كان يرتدي بدلة

صفراء فاتحة تحت معطف سميك ثقيل له خطوط مائلة من قماش التويد، ويضع قفازات أو لفاعاً أو كليهما، ووضع بجانبه على المقعد خلاط كوكتيل كبير الحجم ومرطبان زيتون وكان يحمل بيده اليمنى كأساً من شراب المارتيني. وبينما كان جالساً هناك في خلوة مع نفسه وأنفاسه الشبحية معلقة في هواء شهر كانون الثاني/يناير، بدأ يتحدّث بصوت مسموع، يشرح لِلَا أحد بالتحديد النظرية التي نسبها إلى المخرج السريالي لويس بورميل عن السبب الذي يجعل مشروب المارتيني الخالص يشبه حَبَل المسيح بلا دنس. لعله كان في الثانية والأربعين من عمره آنذاك، وكنت أصغر منه بسبع عشرة سنة. دنوت منه بحذر فوق العشب، أتهيأ للإنصات إلى ما يقوله عاشق، منجذباً إليه كما تنجذب ذرات الحديد إلى المغناطيس، وكما ينجذب العثّ إلى ألسنة اللهب المميتة. وعندما دنوت منه أكثر، رأيت في الشفق أن ثلاثة من فتيان الغاردنز قد توقّفوا عن اللعب، وتركوا مراجيحهم وغابة الألعاب الرياضية، وراحوا يحدّقون في هذا الرجل الضخم البنية، الغريب الذي يكلّم نفسه. لم يكونوا يعرفون عمَّا يتكلّم هذا القادم الجديد المجنون، لكنهم كانوا، في جميع الأحوال، يستمتعون بأدائه. «لكي تصنع شراب المارتيني الصافي»، كان يقول، «يجب أن تأخذ كأساً من المارتيني، وتُسقط فيها حبة زيتون، ثمّ تملأها بشراب الجنّ حتى الحافة، أو بحسب الصرعة الحديثة، فودكا». قهقه الأطفال على خُبْث هذا الحديث الكحولي. «ثمّ»، قال وطعن الهواء بسبّابته اليسرى، «يجب أن تضع قنينة النبيذ بجانب الكأس بحيث يمرّ شعاع من الشمس عبر القنينة ويصيب كأس المارتيني، بعدها اشرب المارتيني». وتناول جرعة كبيرة من القنينة. «هذه كأس كنت قد أعددتها من قبل»، قال، شارحاً للأطفال الذين ركضوا الآن، ضاحكين مسرورين. كانت الغاردنز حديقة آمنة لجميع

الأطفال الذين تطلّ بيوتهم عليها، فكانوا يلعبون ويركضون فيها من دون خوف. لكن بعد محاضرة مشروب المارتيني، بدأت بعض الأمهات يخشين من بيتيا، لكن لا يوجد ثمة سبب يدعو إلى الخوف منه لأن الأطفال لم يكونوا ما يسعى إليه، وإنما احتفظ بهذا الشرف للخمرة. ولم تكن حالته العقلية تشكّل خطراً على أي شخص آخر، لكنها كانت تسبب إزعاجاً للذين يشعرون بالإهانة بسهولة. وعندما التقى بأمّي أول مرة، قال لها: «لا بد أنك كنت جميلة في صباك، لكنك تقدمت في العمر الآن وامتلأ وجهك بالتجاعيد». كنّا نتمشّى في صباح يوم في الحديقة عندما دنا منّا بيتيا بمعطفه السميك ولفاعه وقفازاته ليعرّف نفسه لأمي وأبي، وكان هذا ما قاله؟ كانت تلك أول جملة تخرج من فمه بعد كلمة «مرحبا»؟ فأمسكتُ نفسي وفتحتُ فمي لأوبّخه، لكن أمّي وضعت يدها على ذراعي وهزّت رأسها وأجابت بلطف، «نعم، أرى أنك رجل صادق ينطق بالحقيقة».

«طيف التوحّد»: لم أكن قد سمعت بهذا المصطلح قبل الآن. يخيّل إليّ أنني بريء قليلاً في بعض الأمور، ولم يكن مرض التوحّد بالنسبة إليّ أكثر من داستن هوفمان في فيلم «*رجل المطر*»، وآخر يُطلق عليه بقسوة «*الأبله العبقري*» وهو يتلو قوائم فيها أرقام هامة ويرسم خرائط مفصّلة على نحو لا يصدق عن مانهاتن من ذاكرته. وقالت أمّي لا بد أن بيتيا مصاب بطيف توحّد شديد. ولم تكن متأكدة ما إذا كان مصاباً بالتوحّد ذي الأداء الوظيفي العالي، أم بمتلازمة أسبرغر. وفي أيامنا هذه، لم تعد تُعتبر متلازمة أسبرغر تشخيصاً منفصلاً، بعد أن أُدرجت في الطيف من حيث مقياس «شدّة الإصابة بالمرض». ففي ذلك الحين، منذ بضع سنوات فقط، كان معظم الناس لا يعرفون شيئاً عن هذا المرض مثلي، وكان المصابون بمتلازمة أسبرغر يوضعون غالباً في فئة المرفوضين الذين يشار إليهم

بأنهم «مجانين». قد يكون بيتيا غولدن مصاباً بهذا المرض، لكنّه لم يكن في أي حال من الأحوال مجنوناً، بل ولا حتى قريباً من الجنون. إنه شخص استثنائي، ضعيف، موهوب، واهن.

من الناحية الجسدية فهو شاب أخرق، وعندما يُثار أحياناً، يصبح أخرق كذلك في فمه، فيتلعثم ويتأتئ، ويغضب من حماقته. ولديه أيضاً ذاكرة حفظ قوية تفوق ذاكرة أي شخص عرفته طوال حياتي. إذ يمكنك أن تذكر له اسم أي شاعر، بايرون، على سبيل المثال، فيلقي عليك قصيدة *دون جوان* لعشرين دقيقة من دون توقف، وعيناه مغمضتان. «*أريد بطلاً: بطلاً نادر الوجود/ عندما تبعث في كلّ سنة وفي كلّ شهر بطلاً جديداً/ حتى، بعد أن تُتخم المخازن بالرياء/ يكشف الزمن أنه ليس البطل الحقيقي*». وفي سعيه للبطولة، قال إنه حاول أن يكون شيوعياً ثورياً عندما كان في الجامعة (كامبردج التي تركها قبل أن يحصل على شهادة الهندسة المعمارية بسبب مرضه)، لكنه اعترف بأنه لم يبذل جهداً كافياً ليصبح طالباً متفوقاً، بالإضافة إلى مساوئ ثروته. كما أن حالته الصحية لم تجعله منظماً وكفؤاً، فلم يتمكن من أن يصبح ثورياً جيداً. وفي جميع الأحوال، لم تكن متعته الكبرى تكمن في الثورة، بل في النقاش والجدال. فلم يكن يحبّ شيئاً أكثر من أن يعارض كلّ من يبدي له رأياً، ثمّ يُرغم محاوره على الاستسلام بعد أن يستخدم معينه الذي لا ينضب من المعلومات الغامضة، المغرقة في التفصيل. وكان بإمكانه أن يجادل ملكاً على تاجه، أو عصفوراً على كسرة خبز. وكان يشرب أيضاً كميات كبيرة من الكحول. وعندما جلست معه لمشاركته الشراب في صباح أحد الأيام في الغاردنز - فقد كان يبدأ الشراب عند الفطور - كنت أدلق المشروب فوق إحدى النباتات عندما يكون سارحاً. كانت مجاراته ضرباً من المستحيل. لكن لم يكن يبدو أن للفودكا التي كان

يصنعها بنفسه ويشربها أي تأثير على ذلك الدماغ الضخم الذي لم تكن أسلاكه موصولة بشكل صحيح. وفي غرفته في الطابق العلوي في بيت غولدن، كان يجلس في الضوء الأزرق الذي يغمر الغرفة مع أجهزة الكمبيوتر، كما لو كانت تلك الأدمغة الإلكترونية أنداده الحقيقيين، أصدقاءه الأكثر صدقاً وإخلاصاً. وكان عالم الألعاب الذي يلج إليه من خلال تلك الشاشات عالمه الحقيقي، وأن عالمنا هو الواقع الافتراضي.

البشر مخلوقات يجب أن يتحمّلها ويتعايش معها، لكنه لا يرتاح إليها أبداً.

وكان أصعب ما يواجهه - في تلك الأشهر الأولى قبل أن نجد الإجابات لأنفسنا التي أخبرته أخيراً بأننا وجدناها، لكي يشعر بالارتياح، وهذا ما لم نتمكن من تحقيقه - لتجنّب الإفشاء بالأسرار العائلية، وذكر أسمائهم الحقيقية وأصولهم، وقصّة موت أمّه. إذا سألته سؤالاً مباشراً فإنه يجيبك بصدق تام لأن دماغه لا يمكن أن يجعله يكذب. لكن بدافع الولاء لرغبات أبيه، استطاع أن يجد وسيلة. فقد درّب نفسه على تعابير وأساليب التهرُّب من الإجابة، «لن أجيب عن هذا السؤال»، أو «ربما يتعين عليك أن تسأل شخصاً آخر». عبارات قد يتقبّلها طبعه بأنها حقيقية، فكان يسمح لنفسه بأن يقولها. وصحيح أنه كان يقترب أحياناً كثيراً من خط الخيانة. «بالنسبة إلى أسرتي»، قال لي ذات مرة، من دون قصد، كعادته (كان الحديث معه أشبه بسلسلة من القنابل العشوائية التي تتساقط من سماء تفكيره الزرقاء)، «انظر إلى الجنون المتواصل الذي كان سائداً في القصر أثناء عهد الاثني عشر قيصراً: زنى المحارم، قتل الأمّ، دسّ السمّ، الصرع، قتل الأطفال الرضع، نتانة الشرّ، وبالطبع، كان هناك حصان كاليغولا. الفوضى، يا ولدي العزيز، لكن عندما نظر الرومان

في الشارع إلى القصر، ماذا رأوا؟» ساد صمت فجأة، ثمّ أضاف، «لقد رأوا القصر يا ولدي العزيز. رأوا القصر اللعين ثابتاً لا يتحرك، لا يتغيّر، هناك. وفي داخله، كان الأقوياء يضاجعون عمّاتهم ويبتر أحدهم قضيب الآخر. أما في الخارج، فلا بد أن هيكل القوّة بقي على حاله. ونحن كذلك، أبي نيرو وإخوتي. وراء الأبواب المغلقة في بيت العائلة، أعترف بحرية، بأنه جحيم هناك. تذكّر إدموند ليتش في سلسلة محاضرات ريث. «إن الأسرة بخصوصيتها الضيّقة وأسرارها المبتذلة مصدر سخطنا كلّه». وهذا ينطبق تماماً على وضعنا يا صديقي. أما في ما يتعلق بالرومان الذين في الشارع، فإننا نتحد. نشكّل الدرع الدامي وإلى الأمام سرّ».

ما الذي يمكن قوله عن نيرو غولدن أيضاً - وعندما أنتهي، سيقال الكثير، كثير منه مخيف - لا يوجد أدنى شكّ في ولائه لابنه البكر. بمعنى ما من الواضح أن بيتيا سيظل على الدوام طفلاً في جزء منه، يتورط على نحو غير متوقع في حوادث مجنونة. كما لو أن طيف التوحد لا يكفي، فعندما جاء ليعيش بين ظهرانينا كان خوفه من ارتياد الأماكن العامة شديداً. ومن المثير للاهتمام، أن الغاردنز لم تكن تثير خوفه. وبسبب انفصالها التام عن المدينة من جوانبها الأربعة، فقد كان يعتبر نفسه، بشكل ما، في مرآة ذلك العقل المعطوب الغريب، أنه لا يزال يقبع «في داخل البيت». لكنّه نادراً ما كان يخرج إلى الشارع. وفي أحد الأيام، قرر أن يعتمد على طواحينه العقلية. ومتحدياً كراهيته للعالم غير المحمي، ومتحدّياً نفسه ليتغلّب على شياطينه، غاص بلا معنى في محطة المترو. فتملّك سكان البيت هلع شديد لاختفائه. لكن بعد بضع ساعات، جاء اتصال هاتفي من قسم الشرطة في كوني أيلاند حيث كان محتجزاً في زنزانة هناك، لأنه، عندما اعتراه الخوف في محطة المترو، أثار اضطراباً شديداً،

وعندما صعد ضابط الأمن إلى القطار في المحطة التالية، أخذ بيتيا يوجه له إهانات بأنه تابع بلشفيّ، وعميل سياسي، وعميل سرّي، فوضع ضابط الأمن الأصفاد في يديه، ولم ينقذ الموقف إلّا وصول نيرو في سيارة ليموزين ضخمة سوداء. وأوضح للشرطة وضع ابنه الصحي، وعلى غير المعتاد، استمعوا إليه وأعادوا بيتيا إلى حضانة أبيه. لقد حدث ذلك، ثم حدثت أمور أسوأ أيضاً. لكن نيرو غولدن لم يستسلم، ولم يتوقف عن البحث عن مساعدة طبية متقدّمة، وبذل كلّ ما بوسعه لمساعدة ابنه البكر. وعند جرد الحساب النهائي، الذي لا بد أن يكون ثقيلاً في كفّة ميزان العدالة، فلا بد أنه سيكون لمصلحته.

* * *

ما هي البطولة في الزمن الذي نعيشه الآن؟ ما هي النذالة؟ كم نسينا. إن كنا لا نعرف الجواب عن هذين السؤالين. فقد غشيت سحابة الجهل أبصارنا، وفي خضم ذلك الضباب، أشرق عقل بيتيا غولدن الغريب المُعَطّل، مثل ضوء هاد معتوه متقطع. يا له من وجود! فقد ولد ليكون نجماً، لكن ثمة خطأ قد حدث في أثناء البرمجة. كان متحدّثاً بارعاً، نعم؛ لكنه كان مثل علبة تلفزيون الكابل مليئة بشبكات برامج الحوار تنتقل كثيراً بين القنوات ومن دون سابق إنذار. وفي أحيان كثيرة، كنت تراه مبتهجاً بجنون، لكن حالته كانت تسبّب له ألماً عميقاً، لأنه كان يخجل من نفسه بسبب تصرفاته غير اللائقة، وعدم حدوث أي تحسّن على صحته، واضطرار أبيه وعدد من الأطباء على العمل باستمرار لكي يظل فاعلاً وإصلاحه عندما يصاب بعطب.

لقد تحمّل الكثير من المعاناة والألم. تحمّلها بنبل شديد. خطر

ببالي راسكولنيكوف، «الألم والمعاناة أمران حتميّان دائماً على الذكاء الشديد والقلب العميق. ويخيّل إليّ أن الرجال العظماء الحقيقيين، لا بد أنهم يعانون من حزن شديد على وجه الأرض».

وفي مساء يوم صيفي - كان ذلك خلال أول فصل صيف يمضيه آل غولدن بين ظهرانينا - أقام نيرو غولدن سهرة بهيجة ومبهرجة، فاضت أنوارها إلى خارج بيتهم الفخم وغمرت المرج الذي نتقاسمه جميعاً. وقد وظّفوا أفضل مروّجي ومنظّمي الحفلات في المدينة، وحضر الحفلة عدد مختار من «كلّ شخص» من مجموعة الوحوش في حديقة الحيوانات، بالإضافة إلينا، نحن جيرانهم. وفي تلك الليلة، كان بيتيا يتأجج، عيناه متوهجتان، يهذر مثل ساقية. رحت أراقبه وهو يدور ويرقص في بدلته الأنيقة «سافيل رو» في وسط وحول النجوم والمغنين والكتاب المسرحيين والعاهرات ورجال المال الذين كانوا يناقشون الأزمة المالية الآسيوية، والذين أعجبوا كثيراً بمعرفته الجيدة لمصطلحات مثل توم يوم غونغ، المصطلح التايلاندي للأزمة، وقدرته على مناقشة مصير العملات الغريبة، وانهيار البات، وتخفيض قيمة الرنمينبي، وكان يعبّر عن رأيه بقوله إذا كان الخبير المالي جورج سوروس سبب انهيار الاقتصاد الماليزي عندما باع الرينغيت على المكشوف. لعلي أنا فقط - أو أنا ووالده - لاحظنا اليأس القابع خلف حركاته، يأس عقل غير قادر على تنظيم نفسه، فبدأ يزداد انحداراً حتى أصبح كرنفالياً. عقل سَجَن نفسه، ويمضي سجناً مؤبداً.

في تلك الليلة راح يتحدّث ويشرب من دون توقف، وكان علينا جميعاً، نحن الذين كنّا هناك، أن نحمل شذرات من ذلك الكلام في ذكرياتنا حتى آخر يوم في حياتنا. كان حديثاً مجنوناً، غير عادي! فلم يكن هناك حدّ للمواضيع التي كان يتناولها والتي كان يستخدمها مثل

أكياس التدرّب على الملاكمة: العائلة البريطانية المالكة، لاسيّما الحياة الجنسية للأميرة مارغريت التي تستخدم إحدى الجزر الكاريبية كمخدع خاص لها؛ والأمير تشارلز الذي أراد أن يصبح سدادة قطنية لعشيقته؛ وفلسفة سبينوزا (كان يحبها)؛ وكلمات أغنية بوب ديلان (كان يردد كلمات أغنية «*سيدة الأراضي الواطئة ذات العينين الحزينتين*»، بوقار كما لو كانت مرافقة لأغنية «*السيدة الجميلة التي لا ترحم*»)؛ ومباراة الشطرنج بين سباسكي وفيشر (مات فيشر في السنة الماضية)؛ والتعصب الإسلامي (كان ضده)؛ والليبرالية الضعيفة (التي هادنت الإسلاميين، لذلك قال إنه يقف ضدها أيضاً)؛ والبابا الذي يطلق عليه اسم «*بنيديكت السابق*»؛ وروايات غلبرت كايث تشيسترتون (كان معجباً برواية *الرجل الذي كان يوم الخميس*)؛ وكرهه للشعر الذي يكسو أجساد الرجال؛ «والمعاملة غير العادلة» لبلوتو الذي خُفضت مرتبته مؤخراً إلى مرتبة «كوكب قزم» بعد اكتشاف كوكب أضخم، أيريس في حزام كايبر؛ والعيوب التي تعتري نظرية هوكنغ حول الثقوب السوداء؛ والضعف الذي ينطوي على مفارقة تاريخية لهيئة الانتخابات الأمريكية؛ وغباء الطلاب الذين ليسوا أعضاء في الهيئة الانتخابية؛ والجاذبية الجنسية لمارغريت تاتشر؛ و«الخمسة والعشرون في المئة من الأمريكيين» - في أقصى يمين الطيف السياسي - «الذين هم مجانين بما لا يدعو إلى الشك».

أوه، لكن هناك أيضاً إعجابه الشديد بالمسلسل الكوميدي *السيرك الطائر* الذي تؤديه فرقة مونتي بايثون! وبغتة، اضطرب وتلعثم وراح يبحث عن الكلمات المناسبة، لأن أحد المدعوين إلى العشاء، أحد أفراد عائلة بارزة تملك مسرحاً في برودواي، أحضر معه، ضيفاً آخر، وهو إريك آيدل من فرقة بايثون الذي اشتُهر بفضل نجاح مسرحيته الغنائية *سبامالوت* على مسارح برودواي، والذي وصل

عندما كان بيتيا يشرح للنحّات الأنيق الهادئ أوبا توور (الذي سنتحدّث عنه أكثر بعد لحظات) عن عدم حبّه للمسرحيات الغنائية الموسيقية بشكل عام، لكنه استثنى مسرحيتيْ أوكلاهوما وقصّة جانبية غربية فقط، وكان يذكر لنا خلسة مقتطفات من «*لا أستطيع أن أقول لا*» و «*هيا، أيها الضابط كروبك*»، وبينما كان يقول «إنّ جميع المسرحيات الغنائية الأخرى ليست إلّا خراء»، رأى بايثون واقفاً هناك يصغي إليه، فتضرج وجهه خجلاً، لكنه سرعان ما تدارك ذلك وضم مسرحية السيد آيدل الغنائية إلى قائمة المسرحيات الجيدة، فهتفت المجموعة بحماسة «انظر دائماً إلى الجانب البراق من الحياة».

لكن هفوته هذه أفسدت مزاجه. فجفف العرق الذي راح يتصبب من جبينه، وهرع إلى داخل البيت واختفى. ولم يعد إلى الحفلة ثانية. وبعد منتصف الليل، عندما غادر معظم المدعوين، وكان عدد من سكان البيوت المحيطة بالحديقة يستمتعون باستنشاق الهواء الليلي الدافئ، فُتحت نوافذ غرفة بيتيا بقوة في الطابق العلوي في بيت غولدن، وخرج الرجل ذو البنية الضخمة ووقف عند حافة النافذة، يترنح ثملاً، مرتدياً معطفاً سميكاً أسود طويلاً جعله يبدو مثل طالب من العهد السوفيتي الثوري. وفي حالته الهائجة تلك، جلس بتثاقل على حافة النافذة ودلّى ساقيه، وراح يصرخ رافعاً رأسه إلى السماء، «أنا هنا وحدي! أنا هنا بسبب نفسي! أنا هنا بسبب لا أحد! أنا هنا وحدي فقط!»

تجمّد الزمن. نحن الذين كنّا في الحديقة، تسمّرنا في مكاننا ونظرنا إلى الأعلى. وبدا أن أخويه اللذين كانا لا يزالان معنا في الحديقة غير قادرَين على أن يفعلا شيئاً مثلنا. ثم جاء أبوه، نيرو غولدن، بصمت من خلفه، وأمسكه من الوراء وضمّه إليه بقوة، ثم

سقط إلى الخلف مع ابنه على أرضية الغرفة. ثم اقترب نيرو من النافذة، وقبل أن يغلقها، لوّح لنا هاشاً بغضب.

«لا شيء يمكن رؤيته هنا. أيها السيدات والسادة، لا شيء يمكن رؤيته. تصبحون على خير».

* * *

بعد انقضاء فترة على تلك الحادثة التي كانت تشبه محاولة انتحار، لم يعد بيتيا غولدن يظهر من غرفته التي أُسدلت ستائرها، والتي كانت تنيرها أضواء اثنتي عشرة شاشة كمبيوتر وعدد كبير من المصابيح الزرقاء الشاحبة، والتي كان لا يغادرها أبداً، ويقبع فيها ليل نهار، لا يكاد يغمض له جفن، منهمكاً في ألغازه الإلكترونية، بما فيها اللعب بالشطرنج ضد خصوم إلكترونيين مجهولين يقبعون في كوريا واليابان،، وكما اكتشفنا لاحقاً، فقد أجرى دورة تدريبية مكثّفة في تاريخ ألعاب الفيديو وتطورها، وفهم برامج الألعاب الحربية التي استُنبطت في أربعينات القرن العشرين ليطبّقها على الحواسيب الإلكترونية Shadow of the Colossus و ENIAC، ثم ندفع باحتقار إلى ألعاب *التنس لشخصين*، و*حرب الفضاء*، و*ألعاب الرواق* الأولى، ثم إلى ألعاب عصر *Hunt the Wumpus*، و *Dungeons & Dragons*، ثم قفز إلى تفاهات *Pac-Man* و *Donkey Kong*، و *Street Fighter* و *Mortal Kombat*، والقائمة تطول حتى *SimCity* و *World of Warcraft* والأكثر تقدماً *Assassin's Creed* و *Red Dead Redemption* ثم إلى الألعاب الأكثر تطوراً التي لا تخطر ببال أحد منّا؛ ومشاهدة قصص تلفزيون الواقع المبتذلة؛ والعيش على سندويشات دبل كلوستر تشيز المشوية التي كان يحضّرها بنفسه على موقد كهربائي صغير؛ وخلال كل ذلك، كان

يكره نفسه والعبء الذي يتعين عليه أن يتحمّله. ثمّ تغيّر الطقس الذي في داخله، وانتقل من كراهية الذات إلى كراهية العالم، ولاسيّما، إلى أقرب هيئة تمثّل السلطة في العالم، وهي سلطة والده. ففي إحدى ليالي ذلك الصيف، اضطرني الأرق، صديقي الذي لا يفارقني، إلى مغادرة الفراش في حوالي الثالثة صباحاً، فارتديت ثيابي ورحت أتجوّل في الغاردنز لتنسم هواء الليل الدافئ. كان جميع سكان البيوت حولنا يغطّون في سبات عميق، إلّا سكان بيت واحد. فقد كان النور مضاء في إحدى نوافذ الطابق الثاني في بيت غولدن، الغرفة التي يتخذها نيرو غولدن مكتباً له. لم أتمكن من رؤية الرجل العجوز بوضوح، لكن كان من السهل عليّ أن أميّز خيال بيتيا بكتفيه العريضتين وقصّة شعره المسحوبة إلى الوراء. وما فاجأني هو حركات ذلك الخيال الحيوية، الذراعان تلوّحان بقوة، والجسد ينتقل من ساق إلى ساق. استدار قليلاً، ونظر إليه بشكل جانبي، وأدركت أنه كان يصرخ بغضب شديد.

لم أتمكن من سماع شيء لأن نوافذ غرفة المكتب عازلة للصوت. وكان بعضنا يشكّون في أنها مكسوة بزجاج مضاد للرصاص بسماكة بوصة، وقد منحت صورة بيتيا الصامتة هذه الفرضية مصداقية كبيرة. لماذا يحتاج نيرو غولدن إلى أن يكسو نوافذ بيته بزجاج مضاد للرصاص؟ لا توجد إجابة شافية عن هذا السؤال: لأن الأغنياء في نيويورك يشعرون بالحاجة إلى حماية أنفسهم بطرائق غير متوقعة. وفي أسرتنا الأكاديمية، كنا نبدي اهتماماً مسلياً عندما نرى غرابة أطوار جيراننا، الرسّام الذي يرتدي طوال الوقت بيجامة حريرية؛ ومحرّرة المجلة التي لا تخلع نظاراتها الشمسية مهما كان الوقت، وما إلى ذلك. لذلك، لم يكن الزجاج المضاد للرصاص شيئاً مستغرباً. وبشكل ما، فقد أكّد هذا المشهد بالإشارات قوة أداء بيتيا

غولدن الهستيري، مع أنني كنت من أشدّ المعجبين بالسينما التعبيرية الألمانية، وخاصة أعمال فريز لانغ. وفجأة برزت عبارة «*الدكتور مابوس*»، بغتة في رأسي. لكني أبعدت الفكرة عن رأسي لانشغالي بشيء آخر: ربما يكون بيتيا قد فقد صوابه فعلاً. لا مجازياً فقط، وإنما في الواقع. ربما يقبع وراء مرض التوحّد والخوف من ارتياد الأماكن العامة اضطراب عقلي فعلي، أو ربما جنون. ومنذ تلك اللحظة، قررت أن أراقبه بدقة أكبر.

عن أي شيء كان ذاك الجدال؟ لم تكن ثمة وسيلة تمكنني من معرفة ذلك، لكن بدا لي أنه تعبير عن تذمّر بيتيا من الحياة نفسها التي جعلته هكذا. وفي اليوم التالي، شوهد الرجل العجوز جالساً على مقعد في الغاردنز، غارقاً في التفكير، جالساً هناك مثل قطعة حجر، صامتاً، ساكناً، لا يمكن الدنو منه، وكان الظلام يخيّم على وجهه. لكن، بعد عدة سنوات، عندما عرفنا كلّ شيء، تذكّرت لماذا تذكرت فيلم لانغ العظيم، *الدكتور مابوس المقامر* في تلك الليلة الصيفية في الحديقة تحت نافذة نيرو غولدن الصامتة المضيئة. بالطبع لأن قصّة الفيلم تدور حول مهنة عقل إجرامي مدبر.

* * *

لم يصل أو يتسرب أي تلميح أو إشارة عما جرى من أحداث مثيرة في الحفلة التي أقامها آل غولدن إلى الصحف (أو إلى أيّ من مواقع الثرثرة على صفحات الإنترنت، أو إلى أيّ من مكبّرات الصوت الرقمية الأخرى التي ولدتها التكنولوجيا الحديثة). فعلى الرغم من وجود عدد من الأشخاص المشهورين في قائمة المدعوين، وعلى الرغم من طاقم المساعدين الذين كانوا يحومون حول المدعوين، والذين قد يكون المال السهل قد أغراهم للتستر على

مكالمة هاتفية مثيرة للشهوة، إذ يبدو أن قانون الصمت الذي يعيشه آل غولدن يغمر كلّ من دخل إلى حيّز وجودهم، فلم تفلت همسة فضيحة واحدة من ميدان السرية القوي الذي يشبه قانون المافيا. وكان نيرو قد استأجر أقوى أفراد عشيرة مروّجي الدعاية في المدينة الذين لا تكمن مهمتهم في الترويج والدعاية لما يحدث، وإنما يكمن في قمعها وكبتها. لذلك، فإن ما يجري في بيت غولدن يظلّ حبيساً إلى درجة كبيرة في بيت غولدن. وبدأت أرى الآن أن نيرو غولدن يعرف في قرارة نفسه أن تصرّفه باعتباره واحداً من سكّان نيويورك لا ماضي له لن يدوم طويلاً وسيزول بسرعة. وأظن أنه كان يعرف أنه لن يتمكن في النهاية من إنكار الماضي، وأنه سيُكشف، وسيخرج إلى العلن. أظن أنّه كان يستخدم كل ما أوتي من قوة لتفادي الأمر المحتوم. «أنا رجل عقلاني»، قال لضيوفه على العشاء في تلك الليلة التي انهار فيها بيتيا. (كان ضعيفاً إزاء مديح الذات) «رجل أعمال، إذا كان يتعين عليّ أن أقول ذلك، رجل أعمال عظيم. صدّقوني. فلا يوجد أحد يعرف خبايا الأعمال التجارية أكثر مني، دعوني أقول لكم هذا. الآن، إن أمريكا تؤمن بقوة بالله وهذا شيء لا يعجبني، تتدثّر كثيراً بالخرافات، لكني لست ذلك النوع من الرجال. لا بد أن هذا الأمر يقف عائقاً أمام الأعمال التجارية. اثنان زائد اثنان يساوي أربعة، وهذا هو أنا. أما الباقي فهو مجرد طلاسم وهراء. أربعة زائد أربعة يساوي ثمانية. إذا أرادت أمريكا أن تكون ما بإمكانها أن تكون، بما تحلم بأن تكون، فعليها أن تبتعد عن الله وأن تتوجّه إلى ورقة الدولار. إن عمل أمريكا هو العمل. هذا ما أؤمن به». هكذا كان تأكيده الجريء (والمتكرّر غالباً) على الرأسمالية الواقعية، مما أكّد لي، بالمصادفة، أننا كنّا محقّين حول طبيعته اللادينية، لكن بالرغم من ذلك، فقد كان هو، وكانوا كلّهم، في قبضة مخيّلة هائلة: إن

الفكرة هي أنه يجب عدم إطلاق أحكام على الآخرين بسبب من كانوا ذات يوم، وما فعلوه ذات يوم، إذا أرادوا أن يصبحوا مختلفين. لقد أرادوا أن يبتعدوا خطوة إلى الوراء عن مسؤوليات التاريخ ويكونوا أحراراً. لكن التاريخ هو المحكمة التي يجب أن يمثل أمامها أخيراً جميع الرجال، حتى الأباطرة والأمراء. أتذكّر عبارة سكستوس إمبيريكوس الروماني التي صاغها الكاتب لونغفيلو في شكل آخر: إن طواحين الرب تطحن ببطء، لكنها تطحن بأحجام صغيرة جداً.

(٧)

لوكيوس أبوليوس غولدن، المعروف كذلك باسم آبوو، ابن غولدن الثاني الذي يحمل اسماً مستعاراً - لسبب ما، على الرغم من أنه في الحادية والأربعين من عمره، فإن هذه التسمية تلائم فتى أكثر مما تلائم رجلاً في عمره - كان أصغر من أخيه بيتيا بسنة واحدة، يفصل بين عيدَي ميلادهما أقل من اثني عشر شهراً، وينتميان إلى برج فلكي واحد (برج الجوزاء). كان رجلاً وسيماً ذا سحنة طفولية، لكن ابتسامته تشي بشيطنة عنزة شرّيرة، وله ضحكة عالية بهيجة فيها مسحة من الكآبة الدائمة على نحو لا يقاوم، ومناجاة متغيّرة باستمرار لرثاء جمع فيه مغامراته الفاشلة مع شابّات خارج دورات المياه في الملاهي في أوقات متأخرة من الليل (طريقته لإخفاء سلسلة طويلة من مغامراته الناجحة في هذا المجال). وكان يحلق شعر رأسه إلى حد قريب جداً من جمجمة رأسه - اعتراف ببدء زحف الصلع إلى رأسه - ويتدثّر بلفاع باشمينا ضخم، ولم تعد آراؤه تتوافق مع آراء أخيه الأكبر. وقالا كلاهما، في أحاديث منفصلة معي، إن أحدهما كان شديد القرب من الآخر في طفولتهما، لكن علاقتهما فترت مع الزمن بسبب تناقض مزاجيهما. وكان آبوو يجوب أنحاء المدينة، يستكشف كلّ ما يمكن أن تكشفه له، ولم يكن يتعاطف مع «قضايا» بيتيا. «أخي الغبي ذاك»، قال لي عندما كان يصادف أن نخرج معاً في

بعض الأحيان لاحتساء كأس من الشراب. ثم قال: «إنه قطّة مذعورة، يجب أن يحذر، فوالدنا يكره الضعفاء ولا يريد أن يراه قريباً منه. فما إن يعرف أنك ضعيف حتى تصبح في عداد الأموات. تصبح ميتاً منيوكاً». لكنه، كما لو أنه سمع ما قاله للتو، سمع صوت الدرع يتصدّع، فسحب كلامه على الفور وصحّح نفسه بقوله: «لا تعر ما قلته أيّ اهتمام. فقد شربت كثيراً، وفي جميع الأحوال، فإن هذه هي طريقتنا في الكلام. نقول أشياء سخيفة كثيرة، لا معنى لها».

سمعت هذا الكلام على أنه حسد. وكما يمكننا أن نرى جميعاً، كان نيرو غولدن يبدي اهتماماً كبيراً بابنه البكر المجروح نفسياً ويحيطه برعايته. ربما لم ينل آبوو الاهتمام الذي كان يرجوه من أبيه. (تساءلت كثيراً لماذا لا يزال أفراد أسرة غولدن الأربعة يعيشون تحت سقف واحد، خاصة بعد أن تبيّن أنهم ليسوا على وفاق، لكني عندما وجدت الشجاعة لأسأل آبوو عن هذا الأمر لم أسمع منه سوى إجابات تشي بالغموض، تعزى إلى «*ألف ليلة وليلة*» أو إلى رواية «*ماسة ضخمة كالريتز*» أكثر مما تعزى إلى أيّ شيء يمكن أن يُدعى الحقيقة. فقد كان يجيب، «والدنا هو الذي يعرف أين يقبع كهف الكنز، وهو الذي يجيب على كلمات افتح يا سمسم. وهذا ما يبقينا معاً لأننا نحاول أن نجد الخريطة» أو «لأن البيت، كما تعرف، مشيّد فوق كتلة من الذهب الصافي تحت الأرض. وكلّما تعين علينا أن نسدد ثمن شيء ما، فإننا نتوجه إلى القبو ونغرف قليلاً منه». كان كما لو أنّ البيت يمارس عليهم كلهم قوّة ما - البيت النَّسَبِيّ أو البيت الفعلي، يصعب الفصل بينهما أحياناً. لأنه مهما كان السبب الذي يجعل الشيء أسمك من الماء، فقد كانوا يشعرون بارتباط بعضهم ببعض، على الرغم من تدهور مشاعرهم الحقيقية بعضهم تجاه بعض مع مرور الزمن واتجهت نحو العداء المفضوح. القياصرة في

قصرهم، حياتهم كلها عبارة عن مقامرة عظيمة، يؤدّون رقصة الموت).

كان طمع آبوو بأمريكا جشعاً. تذكّرت أنه عندما كان يعيش هو وبيتيا هنا من قبل، كانا يقيمان مع والديهما في الشقة العلوية في برودواي خلال فترات العطلات الجامعية، وليس من المحتمل أنهما كانا يعرفان شيئاً عن البيت الذي اشتراه والدهما باسم شخص آخر، على مسافة ليست بعيدة عن المكان الذي يعيشون فيه، البيت الذي كان يجهزه لهما والدهما للمستقبل البعيد. كم كان آبوو سينمو جنسياً في تلك المدينة الحديثة الأكثر حزماً وشجاعة! لا عجب أنه كان سعيداً لأنه عاد إليها.

بعد فترة وجيزة من وصوله، طلب مني أن أحدّثه عن تلك الليلة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر التي انتُخب فيها باراك أوباما رئيساً. ففي تلك الليلة، كنت في حانة في وسط المدينة، وكانت سيدة بارزة من مجتمع مانهاتن الراقي تنتمي إلى الحزب الجمهوري تقيم حفلة في ليلة الانتخابات تلك مع منتج أفلام ينتمي إلى الحزب الديموقراطي. وفي الساعة الحادية عشرة ليلاً، عندما دفعت ولاية كاليفورنيا أوباما ليصل إلى خطّ النهاية، انفجرت الغرفة بالمشاعر الحماسية، وأدركت أنني، مثل الجميع، لم أصدّق أنّ ما حدث يمكن أن يحدث في الواقع، مع أن الأرقام قبل ساعتين كانت تشير بوضوح شديد إلى فوز أوباما. ولم تكن إمكانية سرقة انتخاب آخر بعيدة عن تصورنا، فامتزجت مشاعر الارتياح مع مشاعر البهجة. فعندما تأكدت الأغلبيّة من أنه لم يعد بإمكانهم سرقتها الآن، قلت مطمئناً نفسي، وأحسست بالدموع تنهمر على وجهي. عندما نظرت إلى آبوو بعد أن حكيت له القصة، رأيت أنه كان يبكي أيضاً.

بعد تلك اللحظة الكبيرة التي كنا ننتظرها في تلك الحانة، قلت

له، إنني تمشّيت في الشوارع في منتصف الليل، وذهبت إلى روكفلر سنتر ويونيون سكوير وشاهدت جموع الشبان مثلي تشرق بالمعرفة بأنه، ربما لأول مرة في التاريخ، غيّروا بملء إراداتهم مسيرة بلدهم. كنت أشرب في التفاؤل الذي كان يتدفّق من حولنا، ومثل شخص حسود، صغت هذه الفكرة: «والآن طبعاً، سيخيب أملنا». وقلت إنني لم أكن فخوراً بها، لكن هذه هي الكلمات التي تبادرت إلى ذهني.

«إنك رجل محبط بينما أنا رجل حالم»، سأل آبوو وهو لا يزال يبكي، «لكن أموراً فظيعة حدثت لي ولأسرتي. أما أنت فلم يحدث لك أو لأسرتك شيء فظيع قط».

بفضل والديَّ، عرفت آنذاك شيئاً عن آبوو «أشياء فظيعة» - لكنّي تساءلت عن سبب دموعه. هل يمكن أن يكون وصوله الأخير نسبياً إلى أمريكا، بلده الجديد، هو الذي جعله يبكي نتيجة الانتخابات؟ هل ارتبط بالبلد في شبابه بقوة ويشعر الآن بانبعاث ذلك الحبّ الذي فُقد منذ زمن بعيد؟ أم هي دموع شخص عاطفي، أم دموع تماسيح؟ أزحت عن تفكيري هذا السؤال وقلت لنفسي، عندما تتعرّف عليه أكثر فإنك ستجد الجواب. فقررت أن أتخذ خطوة أخرى لأصبح جاسوساً في بعض الأوقات، وأصبح من الواضح لي تماماً أنه يجدر التجسس على هؤلاء الأشخاص. أما بالنسبة إلى ما قاله عنّي، فلم يكن دقيقاً تماماً، لأنني كنت، بشكل عام، متحمساً جداً لأن يصبح أوباما رئيساً، لكنه كان ضرباً من التنبؤ، لأنني، مع مرور السنوات، ازداد إعراضي عن النظام. وبعد ثماني سنوات، عندما أعرب شبان أصغر مني سناً (معظمهم من الشباب والبيض وخريجي جامعات) عن رغبتهم في هدم ذلك النظام والإلقاء به جانباً، لم أوافق لأنه بدا أن هذه البادرة الكبيرة بمثابة تعبير عن الرفاهية الفاسدة ذاتها التي يدّعي

أنصارها أنهم يمقتونها، وعندما يظهر هذا النوع من المبادرات فلا شك أنها تؤدي دائماً إلى أشياء أسوأ مما كانوا قد نبذوه. لكنّي بدأت أفهم الآن سبب الإعراض والغضب، وذلك لأن معظمه كان الغضب الذي تملّكني أنا أيضاً، حتى لو انتهى بي الأمر لأن أصبح شخصاً مختلفاً، أكثر حذراً، وفي عيون الجيل الذي سيعقب جيلي، ستكون هناك نقطة حقيرة في الطيف (السياسي).

كانت له ميول صوفية، يجذبه كلّ شيء روحاني، لكنه، كما أقول، يخفي عنّا الكثير من مشاعره، مع أنه لا يوجد سبب يدعو إلى إخفائها، لأن النيويوركيين مغرمون بنظم الإيمان الغريبة مثله. فقد وجد ساحرة، *ماي دي سانتو* (أمّ القديسين) في منطقة غرين بوينت، وتبعها في عبادة إلهها (أوريشا) المفضّل في فناء بيتها الضيق، وكذلك الخالق الأعلى أولودوماري. لكنّه لم يكن وفياً لها على الرغم من أنها علّمته أسرار السحر. ثم اتبع بحماسة مماثلة كاهن الكابالا اليهودية في شارع كنال ستريت الذي يدعى آيدل والذي كان بارعاً في أساليب الكابالا العملية المحرّمة التي تهدف من خلال السحر الأبيض إلى التأثير على المجال الإلهي نفسه وإلى تغييره، والتأثير على العالم أيضاً. واتّجه أيضاً بحماسة زائدة إلى عالم اليهودية البوذية الذي شجعه عليه أصدقاء وجدوا إغراء في حماسته، وراح يتأمّل مع الجماعات المتزايدة في المدينة «البوغوس» - موسيقيين كلاسيكيين، نجوم سينما، ممارسي اليوغا - ومارس *يوغا ميسور* وبرع في قراءة ورق التارو، ودرس الدلالات السحرية للأعداد، واشترى من مكتبات بيع الكتب القديمة كتباً تسبر أغوار السحر، فيها معلومات حول رسم الأشكال الخماسية والدوائر السحرية لكي يكون الساحر الهاوي في مأمن عندما يركّب تعويذاته السحرية.

وسرعان ما اكتشف أنّه رسّام ذو موهبة عالية، يتمتع ببراعة تقنية عظيمة تشبه براعة دالي (لو أنها وظفت في استخدامات أفضل)، رمزية في عصر يقول إن الكليات لا توجد إلّا في الذهن. وكانت معظم رسومه، الذكورية والأنثوية، عارية، توجد في داخلها، أو محاطة بأيقونات رمزية عن دراساته الغامضة، زهور، عيون، سيوف، كؤوس، شموس، نجوم، نجوم خماسية، وأعضاء جنسية ذكورية وأنثوية. وبعد فترة من الزمن، أصبح عنده محترف قبالة ساحة يونيون سكوير، وبدأ يرسم لوحات ذات ألوان براقة عن نيويورك، وعن سيدات من صفوة المجتمع (نعم، معظمهن سيدات، بالإضافة إلى بعض الشابات الجذابات) اللاتي كن يشعرن بسعادة كبيرة لأن يتعرّين أمامه ليرسمهن في عالم ثري بالمعاني الروحية السامية، تلتف أزهار الخزامى حولهن، أو يسبحن في أنهار الجنة أو في جهنم، قبل أن يعدن إلى معابد الثروة التي يعشن فيها. وبسبب قدرته التقنية الفائقة، طوّر بسرعة سلاسة في الأسلوب مما يعني أن بإمكانه أن ينهي لوحة في يوم واحد أو في نحو يوم، أيضاً، وقد جعله ذلك محبوباً في جميع الأوساط. وأقام أول معرض فردي له في عام ٢٠١٠ رعته مؤسسة بروس للجودة العالية، أقيم في صالة عرض في حيّ تشيلسي، واستمد عنوانه من نيتشه، *ميّزة أن تمتلك نفسك*. وبدأ يشتهر كفنان، أو كما كان يقول بشيء من التواضع المتهكم، أصبحتُ «مشهوراً في أكثر من عشرين حيّاً من أحياء المدينة».

لقد غيّرتهما أمريكا، بيتيا وآبوو - أمريكا، تلك الذات المقسّمة - استقطبتهما كما كانت أمريكا نفسها مُستقطبة، وبدأت حروب أمريكا، الخارجية والداخلية، تصبح حروبهما هما أيضاً، لكن في البداية، لو كان بيتيا قد جاء إلى نيويورك كشخص واسع الاطلاع يشرب الكحول بإفراط، ويخاف العالم الذي وجد أن العيش فيه مشقّة

مستمرة، ثمّ جاء آبوو، كفنان رومانسي رزين، وحضريّ منحلّ، يغازل كلّ ما يراه لكن برؤيا واضحة تمكّنه من رؤية الناس البسطاء كما تُظهر لوحاته: الذعر في عينَي الأرملة اللتين أخذتا تخبوان، والجهل في وقفة بطل الملاكمة من دون قفازين، وشجاعة راقصة الباليه والدم في نعليها مثل رواية «*الأخت القبيحة*» التي تقطع أصابع قدميها لتحشر قدميها في حذاء سندريلا الزجاجي. قد تمثّل لوحاته أيّ شيء لكنها لا يمكن أن تكون متملّقة. قد تكون قاسية جداً. وعلى الرغم من ذلك، فقد تدافع الناس إلى باب محترفه يحملون شيكات بمبالغ ضخمة. فالشخص الذي يرسمه آبوو غولدن، ويثبّته على لوحته، يصبح شيئاً مرغوباً فيه، شيئاً ثميناً. يصبح شيئاً هاماً. وفي الوقت نفسه، وبعيداً عن محترفه، كان يجري في شوارع المدينة، يتشرّبها كلّها مثل وايتمان الشابّ، محطات المترو، النوادي، محطات الكهرباء، السجون، الثقافات الثانوية، الكوارث، المذنّبات الملتهبة، المقامرون، المصانع التي بدأت تلفظ أنفاسها، الملكات الراقصات. كان بعكس أخيه، يحب الخروج كثيراً، وأصبح يُنظر إليه على أنه مخلوق سحري، هارب من إحدى القصص الخيالية، ومع ذلك لم يكن أحد متأكداً ما إذا كان مسحوراً أم أن هذا مقدر له.

كان يرتدي ثياباً مبهرجة أكثر من ثياب أخيه الأكبر، وكانت هيئته تتغير كثيراً. وكان يضع عدسات لاصقة بألوان عديدة، وكان أحياناً يضع لوناً مختلفاً في كلّ عين، ولم أعرف حتى الآن ما هو لون عينيه الطبيعي. وكانت ملابسه تشمل جميع أنواع الأزياء التي شهدها الكوكب. ففي إحدى نزواته، كان يخلع شال الباشمينا ويرتدي الدشداشة العربية، أو الداشيكي الأفريقي، أو الفيشتي الهندي الجنوبي، أو يرتدي قمصاناً زاهية الألوان الشائعة في أمريكا اللاتينية، أو، عندما يكون في مزاج معتدل فإنه يرتدي بدلة إنكليزية

من قماش التويد تتألف من ثلاث قطع فُصّلت له خصيصاً. وقد يُشاهد في الجادّة السادسة وهو يرتدي تنورة طويلة أو تنورة اسكتلندية. هذا التقلّب في المزاج شوّش الكثيرين منّا حول توجّهه الجنسي، لكنه، على حد علمي، كان يحب الجنس الآخر بشكل طبيعي. وصحيح أنه كان بارعاً في تقسيم نفسه، إلا أنه أبقى مجموعات مختلفة من الأصدقاء في صناديق مغلقة بإحكام، ولم يكن أحد يقبع في صندوق يعرف الأشخاص الموجودين في الصناديق المختلفة الأخرى. لذلك، ربما كانت له حياة سرّية تتجاوز حدود حبّه للجنس الآخر، بل ربما كان فاسقاً، منحلاً، ولا أظن أن هذا الأمر غير وارد. وكما سنرى، فإنه لم يكن أخاً في عائلة غولدن التي تعتبر الهوية الجنسية مشكلة. لكنه، في أثناء استكشافاته الروحيّة، لا بد أنه أقام عدداً من الصلات الغريبة التي تؤمن بالقوى الخارقة، والتي لم يكن يبدي اهتماماً بمناقشتها. لكن بعد أن أُميط اللثام عن كل شيء الآن، يمكنني أن أبدأ بإعادة تشكيل تلك الحياة التي طالما حرص على إخفائها.

كان لدينا اهتمام مشترك بالسينما، وكنّا نحبّ قضاء فترة بعد الظهر في نهاية كلّ أسبوع في مركز IFC أو في منتدى الأفلام نشاهد أفلام *قصة طوكيو* أو *زنجي أورفو* أو *سحر البرجوازية الخفي*. وبسبب تلك الأفلام اختُصر اسمه ليردد صدى راي مخرج فيلم *آبوو الخالد*. اعترض أبوه، اعترف لي. «يقول إننا رومان، ولسنا بنغاليين. لكن هذه مشكلته وليست مشكلتي». ووجد نيرو غولدن أن مواعيد عرض الأفلام التي نذهب لمشاهدتها مضحكاً، فعندما كنت أذهب لانتظار آبوو كان نيرو يقف أحياناً في الفناء الخلفي الصغير المطلّ على الغاردنز، ويستدير ليصبح مواجهاً البيت، ويجأر «أبوليوس! وصلت صديقتك».

ملاحظة أخيرة حول اسمه: فقد كان يتحدّث بإعجاب شديد عن مؤلف رواية *الحمار الذهبي* في القرن الثاني. «لقد ورث الرجل مليون سيسترتي (عملة رومانية قديمة) من أبيه في الجزائر، ومع ذلك، فقد كتب عملاً أدبياً رائعاً». وقالوا عن اسمه واسم شقيقه الأكبر أيضاً: «لو كان بيتيا الإله الإغريقي أو حتى أيقونة الإله الإغريقي السكير الشبق، فلا بد أنني ذلك الحمار المنيك». (ثمّ يهزّ كتفيه بلا مبالاة). لكن في ساعة متأخرة من الليل، عندما يجرع بضع كؤوس، كان يقلّب الفكرة في رأسه فتبدو مناسبة أكثر، لأنه، صدقاً، من بين الاثنين، فهو الإله الإغريقي السكير الشبق، أما بيتيا المسكين، فهو غالباً الحمار ذو الأذنين الطويلتين.

في الليلة التي أقام فيها آل غولدن الحفلة في الغاردنز، التقى بيتيا وآبوو بالمرأة الصومالية، وبدأت الصلات التي كانت تربط بين أفراد العشيرة تتفكك.

* * *

كان قد اصطحبها معه إلى الحفلة صاحب صالة العرض التي تعرض فيها لوحاتها، والتي أصبحت كذلك، وإن لم يكن بالمطلق، الصالة التي يعرض فيها آبوو لوحاته: رجل وغد أشيب الشعر يدعى فرانكي سكوتوفوتشه اشتُهر في شبابه عندما رسم الأحرف NLF بارتفاع اثنتي عشرة بوصة على إحدى لوحات كلود مونيه الثلاث الضخمة *لزنابق الماء* في متحف الفنّ الحديث، وذلك احتجاجاً على حرب فيتنام، مقلداً بذلك عمل المخرّب المجهول الذي خدش، في السنة نفسها، عام ١٩٧٤، الأحرف IRA (الجيش الجمهوري الآيرلندي) بارتفاع قدمين في الزاوية اليمنى السفلى من لوحة بيتر بول روبنس «*سجود المجوس*» في كنيسة جامعة كينغ، بكامبردج. وهو

تصرف اعترف سكوتوفوتشه، عندما كان يتفاخر بأنه ناشط يساري شاب، بمسؤوليته عن عمل ذلك. لكن اللوحة رُممت بسهولة، وخسر الجيش الجمهوري الآيرلندي حربه، وانتصر الفياتكونغ في حربهم، وواصل صاحب صالة العرض عمله المميّز، واكتشف من بين فنانين كثيرين آخرين، النحّاتة التي تحفر على المعدن، أوباه توور.

وتعني أوباه «وردة» أو «زهرة» باللغة الصومالية، وتُكتب أحياناً أوباكس لأن حرف إكس باللغة الصومالية صوت حلقي، وبما أن حناجر الناطقين باللغة الإنكليزية تجد صعوبة في نطقه، حرف ساكن بلعومي ناتج عن احتكاك اللسان بالشفتين، فقد اعتُبر «أوباه» تنازلاً مبسّطاً للعجز البلعومي لغير الناطقين باللغة الصومالية. وهي فتاة جميلة شأن جميع نساء القرن الأفريقي، لها عنق طويل، وذراعان جميلتان أنيقتان. وفي ذلك المساء الصيفي الطويل، بدا أنه أصبحت لبيتيا شجرة مزهرة يستطيع أن يستند إلى جذعها ويرتاح تحت أغصانها، وتلتئم جراحه في ظلّ نسماتها العليلة طوال حياته. وفي ذات لحظة من تلك الأمسية، غنّت: لا الأغنية الصومالية المليئة بالزغاريد التي توقّع الجميع أن تنثال من تلك الشفتين الممتلئتين، وإنما قصيدة باتي سميث الشهيرة التي تخاطب الحبّ نفسه، المليئة بالظلام والرغبة، بتكراراتها الغادرة، المريحة، «*لا أستطيع أن أؤذيك الآن، لا أستطيع أن أؤذيك الآن*. . .» وما إن أنهت أغنيتها، حتى أحسّ بالضياع، فهرع نحوها ووقف أمامها ميتاً، مرتبكاً. يغشاه التدفق المفاجئ للحبّ المستحيل الذي لا يمكن وصفه، وراح يهذي ويثرثر أمام فتاة أحلامه التي اكتشفها للتو، عن هذا وذاك، عن الشعر، وعن فيزياء الجزيئات الذرّية، وعن الحياة الخاصّة لنجوم السينما، فأنصتت باهتمام وبجديّة، وتقبّلت كلّ عباراته المفككة المتناقضة كما لو كانت طبيعية تماماً، وشعر، لأول مرة في حياته،

بأن أحداً قد فهمه. ثمّ بدأت تتكلم وأنصت إليها مسمّراً في مكانه، نمس أمام أفعى الكوبرا. ثم استطاع أن يردد حرفياً كلّ كلمة انثالت من فمها الرائع.

قالت إنها استلهمت أعمالها الأولى من الفنانين البدائيين الذين التقت بهم أثناء زيارتها إلى هاييتي والذين كانوا يقطعون براميل النفط إلى نصفين، ثم يمهّدونها ويسطحونها. وباستخدام أسهل وأبسط الأدوات - مطارق ومفكات - يقطعونها ويطرقونها ويجعلونها في صور عرائش متشابكة لأغصان أشجار ونباتات خضراء وطيور. وحدّثت بيتيا مطولاً عن استخدام منفاخ النار لقطع الفولاذ والحديد إلى أشكال متشابكة، وأرته صوراً عن أعمالها على هاتفها الخليوي: بقايا سيارات ودبابات محطّمة (مقصوفة؟)، تحوّلت إلى أشكال متشابكة جميلة، واختُرق المعدن بزخارف رشيقة اكتسبت رقة وبهجة بحد ذاتها. وحدّثته بلغة عالم الفنّ عن *حرب الرموز*، *والتناقضات المرغوبة*، بمفردات تخصصية عالية مجرّدة لا يفهمها إلا الاختصاصيون، وحكت له عن سعيها الحثيث لخلق أشكال وصور تثير *التعاطف وتخلق توازناً بالإضافة إلى صدام بتغاير الأفكار والمواد وتناقضها*. وتحدّثت أيضاً عن *الحماقة في اتخاذ مواقف متناقضة متطرّفة، مثل مصارع في توتو*. كانت محدّثة بارعة، ذات شخصية مؤثّرة، وكانت سريعة في الكلام بحيث لا تكاد تكون مفهومة، تدفع يدها إلى شعرها وتخلله بأصابعها، ثمّ تمسك برأسها وهي تتكلّم، لكنه انفجر في النهاية، وقال (أرغمه مرض التوحّد على قول الحقيقة)، «أنا آسف، لكنّي لم أفهم شيئاً مما قلتِه».

كره نفسه على الفور. أي غباء، وعلقت كلمة «أحبّك» في حنجرته، وقدّم لحبيبته الرائعة الكراهية بدلاً من الإعجاب؟ الآن ستكرهه وسيكون ذلك مبرّراً، وستصبح حياته ملعونة من دون معنى.

حدّقت به للحظة طويلة ثمّ انفجرت في ضحكة شافية، وقالت: «إنها آليّة دفاع»، وأضافت، «يشعر المرء بالقلق من أنه لن يؤخذ بجديّة إذا لم تكن لديه معرفة كافية بالنظرية، لاسيّما إذا كان ذلك المرء أنثى. في الحقيقة فإن أعمالي تتكلّم بوضوح عن نفسها. إني أدفع الجمال إلى داخل الرعب وأريده أن يزعجك وأن يحثك على التفكير. تعال لزيارتي في *رينبيك* وأَلقِ نظرة».

إني على يقين الآن - وأنا أجمع لغز عائلة غولدن، وأحاول أن أجمع ذاكرتي من جديد من تسلسل الأحداث بدقة من تلك الليلة الهامة، وأدوّنها كما أتذكرها - بأن الأمور في تلك اللحظة من تلك الليلة لم تعد على ما يرام بالنسبة إلى بيتيا، عندما بدأت رغبته في قبول دعوة أوباه تتصارع مع الشياطين التي أرغمته على الخوف من العالم الخارجي. وأبدى حركة غريبة بذراعيه، نصف عاجز، نصف غاضب، ودخل على الفور في مناجاة بسلسلة سريعة من الكلام المتناقض حول أي شيء يخطر بعقله الحزين. وازداد مزاجه قتامة وهو يجادل في مواضيع متنوعة، حتى وصل أخيراً إلى موضوع مسرحيات برودواي الموسيقية وكراهيته لمعظمها، ثمّ جاءت قصة *البايثون* المحرجة واختفائه داخل البيت، ثمّ حزنه الشديد على حافة النافذة. لم يكن الحبّ، لدى بيتيا، بعيداً عن اليأس.

* * *

أمضى فترة الصيف كله حزيناً، حبيساً في غرفته الغارقة في الضوء الأزرق، يلعب ويستنبط (كما اكتشفنا بعد ذلك) ألعاب كمبيوتر بالغة التعقيد والجمال، ويحلم بذلك الوجه الذي يطارده من وراء قناع الوقاية من شرارات اللهب أثناء قطع الفولاذ الذي يتحرّك في يدها وهي تخلق خيالاً ورهافة من ذلك المعدن الغليظ. كان

يعتبرها بطلاً خارقاً، إلهته ذات منفاخ النار. كان يريد، قبل كل شيء، أن يكون معها، لكنّه يخشى من الرحلة، أمير تغمره المشاكل لا يستطيع ملاحقة سندريلا التي تلاشت واختفت. ولا يستطيع أن يتصل بها ويحدّثها عن مشاعره. كان مثل قارة جانحة من الثرثرة فيها منطقة محرّمة من الشلل الشفوي. وأخيراً عرض عليه آبوو الذي رثا لحال شقيقه أن يساعده: «سأستأجر سيارة ذات نوافذ غامقة، وسنمكّنك من لقائها».

ثم أقسم آبوو أن هذا هو دافعه الوحيد: أن يتمكن بيتيا من اجتياز حدود خوفه وأن يحاول مع الفتاة، لكن ربما لم يكن يقول الحقيقة.

وهكذا استجمع بيتيا شجاعته واتصل بأوباه توور التي دعت الأخوين لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في بيتها، وكان متفهماً عندما قالت له، «البيت محاط بسياج صلب قوي، لذلك، يمكنك أن تعتبره مكاناً داخلياً مغلقاً، مثل الغاردنز تماماً في بيتكم. إذا قبلت ذلك، فإني أستطيع أن أريك أعمالي المعروضة في الحديقة، بالإضافة إلى الأعمال المعروضة في المحترف».

عندما بدأ ضوء النهار يتلاشى، كانت لا تزال ترتدي ثياب العمل المتسخة، وكان شعرها مرفوعاً إلى الأعلى ويتدلّى من فتحة قبعة بيسبول رُسِم عليها شعار فريق *يانكي*، مقدمتها إلى الخلف، وكانت قد رفعت القناع الواقي للتو فتدلّى من زاوية مرفقها: من دون أن تبذل أي جهد كانت رائعة الجمال. «هنا، أريدك أن ترى هذه»، قالت، وأمسكت بيد بيتيا، وقادته فوق الأرض التي تناثرت حولها التماثيل العملاقة المتشابكة التي صنعتها، مثل ذلك الدرع المخرّم للآلهة الضخمة، ومثل أنقاض ساحة معركة شكّلت منها جنيات ذات أصابع رقيقة. ومن دون تذمر، واثقاً من وجود السياج الذي لم يره

في ذلك الضوء الخافت، ولا حتى في ضوء البدر اللامع في السماء. وطافت معه أرجاء البيت الريفي الواطئ الطويل الذي تعيش فيه، وقادته إلى البقعة بين البيت الريفي والمكان الذي تعمل فيه، وقالت: «انظر». وعند سفح الأرض التي تنحدر بعيداً، أثار مشهد نهر هدسن الجاري، العريض، الفضّي دهشته. وللحظة طويلة، لم يعد يفكّر في السياج، ولم يعد يسأل إن كان محاطاً بشكل آمن أم كان مكشوفاً بشكل خطير أمام كلّ شيء مخيف في العالم، وعندما بدأ يسأل، «هل هناك. . .» وعندما بدأت يده ترتعش أمسكتها بقوة وقالت: «النهر هو الجدار. إنه مكان آمن لنا جميعاً». وقَبِل ما قالته، ولم يخف، ووقفت هناك تراقب الماء ثم رافقت الأخوين إلى داخل البيت لتناول العشاء.

عاد إلى نفسه المهذارة مرة أخرى في الضوء الأصفر الدافئ الذي يغمر مطبخها، وراح يأكل الدجاجة مع الكاري والمانغا التي أعدّتها بنفسها، حلاوتها تلسع سقف حلقه بالتوابل اللاذعة الممزوجة فيها. لكنه عندما بدأ يتحدّث بلا توقف عن شغفه بعالم ألعاب الفيديو، وتخللت أحاديثه حكايات عن آخر الألعاب وقراءة قصائد عن النهر بتأثير من النهر المتلألئ، شردت، وطال الليل، وتجاوزت لزيارة موعدها، وانتاب أوباه توور شعور مفاجئ، متصاعد. خيانة. كيف لم تتزوّج بعد، سألتْ بيتيا، شابٌ مثلك، أنت لُقطة. وبينما كانت تقول ذلك انزلقت عيناها إلى آبوو *الذي كان* لا *يزال* متسمّراً في جلسته، قال لي، لا أفعل شيئاً، لكن، بيتيا اتّهمه بعد ذلك بأنه غمغم، كنت تتمتم بشيء، *أيها الوغد، لقد مارست عليها السحر الأسود*، بينما حاول هو، بيتيا، أن يردّ على أوباه، تلعثم بالكلمات، منذ زمن طويل، نعم، واحدة، لكن منذ ذلك الحين لم يكن هناك سوى الانتظار، انتظار حتمية عاطفية، وعندما كانت تكلّمه كانت

تنظر إلى أخيه. والآن، هل وجدت الحتمية العاطفية، الغزل، لكن عينيها كانتا مركزتين على آبوو الذي كان يتمتم، كما قال بيتيا، لكنه هو نفسه أنكر لي أنه كان يغمغم.

أعرف ماذا فعلت، أيها الجرذ، صرخ بيتيا لاحقاً، وقد تكون قد وضعت شيئاً في طعامها أيضاً، وقد أخفت التوابل طعمها، مسحوق دجاج شرّير أعطته لك ساحرتك في غرين بوينت، *والتمتمة*، ماذا كنت تقول، هيكس، هيكس، هيكس.

وآبوو المتجهم، زاد الطينة بلة، أين هو ابن أبي المدلل الآن؟ ماذا عن اثنين زائد اثنين يساوي أربعة؟ وأربعة زائد أربعة يساوي ثمانية؟ أنا لم أفعل شيئاً. لا شيء.

لقد نكتها، صاح بيتيا.

نعم. لقد فعلت ذلك. أنا آسف.

قد تكون الأمور قد أخذت منحى مختلفاً. لم أكن هناك. لعل لسان بيتيا الثرثار قد انعقد طوال تلك الليلة، أخرسه الحبّ، واحتكر آبوو الحيوي، المحنك، الكلام والمرأة. ربما هي، أوباه، المرأة الدمثة اللطيفة عادة، غير المتهوّرة عادة، قد فوجئت بأنها وجدت نفسها تستسلم فجأة لاشتهاء الأخ الخطأ، زميلها الفنان، النجم الصاعد، زير النساء، الفاتن. إن دوافع الشهوة غامضة حتى للتوّاقين والمشتهين، المشتهي والمشتهى. *أنا أخون/أكثر الأجزاء نبلاً تخون* جسدي كله، شاعر أفون، سوناتا رقم ١٥١. وهكذا دون أن نعرف تماماً لماذا وكيف، فإننا نصيب من نحبّ بجراح قاتلة.

بيت مظلم. ألواح أرضيّة تصرّ. حركات. لا يوجد سبب يدعو إلى التدرب على المشهد الميلودرامي. في الصباح، علامة الذنب بادية على وجهَي المذنبين كليهما، تسهل قراءتها مثل عنوان بارز. بيتيا الثقيل، الضخم، وآبوو الحليق الرأس، الرشيق، والمرأة بينهما

مثل غيمة عاصفة. لا يوجد ثمة شيء يمكن توضيحه، قالت. هذا ما حدث. أظن أن عليكما كليكما أن تذهبا. ثمّ سُجن بيتيا بخوفه من العالم في سيارة أخيه المستأجرة ذات النوافذ الغامقة يرتجف من شدة الغضب والإحساس بالمهانة في المقعد الخلفي، ثلاث ساعات من الرعب الصامت وهما في طريق عودتهما إلى المدينة. في لحظات كهذه، قد تتحوّل أفكار رجل إلى جريمة قتل.

(٨)

بعد مضي ثمانية عشر عاماً على ولادة آبوو، تورط الرجل العجوز في علاقة خارج إطار الزواج ولم يتوخ الحذر فأدى ذلك إلى حمل قرر ألّا يجهضه، لأنه في رأيه، هو من يتخذ قراراته دائماً. وكانت الأمّ امرأة فقيرة لم يُكشف عن هويتها (سكرتيرة؟ عاهرة؟) ولقاء مبلغ مالي محدد أعطت الطفل لأبيه لكي يربيه، وغادرت المدينة، واختفت من حياة ابنها. وهكذا، مثل الإله ديونيسوس، ولد الطفل مرّتين، مرّة من رحم أمّه، ومرّة إلى عالم أبيه. وكان ديونيسوس، الإله، غريباً، دخيلاً دائماً، إله البعث والوصول، «الإله الذي يأتي». وكان مخنثاً أيضاً، «رجل توجد فيه صفات امرأة». إن اختيار أصغر أبناء نيرو غولدن هذا الاسم المستعار لنفسه في لعبة تغيير الأسماء الكلاسيكية يدل على أنه كان يعرف شيئاً عن نفسه قبل أن يعرفه الآن، مع أن الأسباب التي ذكرها في ذلك الحين لاختيار الاسم كانت، أولاً، لأن ديونيسوس جاب أرجاء الهند، وربما كان جبل نيسا الأسطوريّ الذي ولد يقع في شبه القارة، وثانياً، لأنه كان إله المتعة الحسّية، ليس ديونيسوس فقط، وإنما كذلك، في تجسيده الروماني، باخوس، إله الخمرة والنشوة والفوضى، التي جميعها - قال ديونيسوس غولدن - تبدو مضحكة. لكنه سرعان ما أعلن أنه يفضّل بأن لا يُعرف بالاسم الإلهي بالكامل، وصار يُعرف باللقب البسيط المؤلف من حرف «دي».

لم يكن اندماجه في العائلة سهلاً. فمنذ البداية، كانت علاقاته مع أخويه غير الشقيقين سيئة. وطوال فترة طفولته، كان يشعر بالإقصاء. وكانا يسمّيانه *ماوكلي* وينبحون حوله بطريقة مضحكة وهما ينظران إلى الأعلى نحو القمر، لأن أمّه الذئبة كانت عاهرة الأدغال، أما أمّهما فهي ذئبة روما. (هنا يبدو أنهما قرّرا أن يكونا رومولوس وريموس، مع أن آبوو أنكر ذلك لي لاحقاً، أو أنه أوحى بأنها فكرة تدور في رأس دي، لا في رأسه هو). كانا قد أتقنا للتو اللغتين اللاتينية واليونانية عندما كان دي لا يزال يتعلّم كيف يتكلم، وكانا يستخدمان هاتين اللغتين السرّيتين كي لا يفهم أحاديثهما. لكنهما أنكرا ذلك لاحقاً أيضاً، لكنه اعترف بأن الطريقة التي دخل فيها إلى العائلة، والفجوة العمرية بينهم أيضاً، سببت صعوبات كبيرة، وأثارت أسئلة تتعلق بالولاء والمودّة الطبيعية. أما الآن، وبعد أن غدا شاباً، عندما يكون دي غولدن بصحبة أخويه فإن صحبتهم تتأرجح بين التزلف والغضب. ومن الواضح أنه كان يريد أن يُحبّ وأن يكون محبوباً. كان يغمره مدّ عاطفي يُغدقه على الناس وكان يرجو أن يغمره هذا المدّ مقابل ذلك. وعندما لم تكن تحدث هذه العواطف المتبادلة، كان يحسّ بالانكسار والغضب وينكفئ على نفسه. كان في الثانية والعشرين من عمره عندما أصبح البيت الذهبي ملكاً للعائلة. وكان يبدو أحياناً عاقلاً وحكيماً أكبر من عمره. وفي أحيان أخرى، كان يتصرّف مثل طفل في الرابعة من عمره.

وفي طفولته، عندما كان يستجمع شجاعته ويسأل والده وزوجة أبيه عن المرأة التي أنجبته، كان والده يرفع يديه ويغادر الغرفة. أما زوجة أبيه فكانت تستشيط غضباً. «دع الأمر»، صاحت ذات يوم مشؤوم، وقالت: «لم تكن امرأة ذات شأن. لقد ذهبت، مرضت، وماتت».

كيف يبدو الأمر إذا كنت *ماوكلي*، ولدتك امرأة غير ذات شأن، ثم تخلّى عنه أبوه بقسوة شديدة، وفي الظلام في خارج البيت مات إحدى الميتات الكثيرة التي ماتها ذلك المنسي المسكين؟ ثم سمعتُ قصّة فظيعة من آبوو، بعد أن كُسر قانون الصمت. فقد كانت هناك فترة مرّت فيها علاقة الرجل العجوز وأمّهما بصعوبات كثيرة. فقد صاح في وجهها غاضباً، فردّت عليه بغضب أيضاً. انتصبتُ في جلستي ورحتُ أنصت باهتمام شديد، لأن هذه هي أول مرة في أحاديثي مع عائلة غولدن، تظهر فيها المرأة التي لا وجه لها، ولا اسم لها، زوجة نيرو - شيء عاثر الحظ منذ زمن بعيد - على خشبة المسرح، وتفتح فمها؛ ولم يكن نيرو الذي ظهر، بحسب القصّة، وهو يصيح ويصرخ، فتردّ عليه زوجته بالصراخ أيضاً، هو نيرو نفسه الذي أعرفه، ذلك الشخص القادر على التحكّم بأعصابه، الذي ظهر هنا كرجل متحذلق متبجح.

في جميع الأحوال، انقسمت العائلة إلى معسكرين اثنين بعد هذا الانفجار. فوقف الصبيّان الأكبر سنّاً إلى جانب أمّهما، واصطف ديونيسوس غولدن إلى جانب أبيه بقوة وأقنعه بأن زوجته، أمّ بيتيا وآبوو، لا تصلح لأن تدير البيت. فدعا نيرو زوجته وطلب منها أن تسلّمه المفاتيح. ولفترة من الزمن، أصبح دي المسؤول الذي يصدر التعليمات ويطلب المواد اللازمة ويقرّر نوعية الطعام الذي يجب أن يُطهى في البيت. وكانت هذه بمثابة إهانة، عار على الجميع. وارتبط إحساسها بشرفها إلى درجة كبيرة بتلك الحلقة الحديدية المهيبة التي لا يزيد قطرها على ثلاث بوصات والتي يتدلى منها عشرون مفتاحاً، كبيراً وصغيراً: مفاتيح المخزن، ومفاتيح القبو الذي تخزّن فيه صناديق متينة مليئة بسبائك ذهبية وأشياء أخرى يملكها الأغنياء، ومفاتيح خاصة للفتحات والشقوق السرّية المختلفة المنتشرة في أنحاء

القصر التي تخبئ فيها أشياء لا يعرفها أحد غيرها: رسائل غرامية قديمة، ومجوهرات حفلة زفافها، وشالات قديمة. كان كلّ ذلك يمثّل رمز سلطتها على البيت، وكانت كبرياؤها معلّقةً في حلقة المفاتيح تلك. كانت عشيقة الأقفال، ومن دون ذلك الدور لم تكن شيئاً. وبعد أسبوعين من القرار الذي اتخذه زوجها بتسليم حلقة المفاتيح، حاولت سيدة البيت التي انتُزعت منها سلطتها أن تنتحر، فابتلعت حبوباً، وجدها آبوو عندما وقعت على الدرج المبلط بالرخام. ثم جاءت سيارة الإسعاف. كانت تمسك برسغ آبوو بقوة فقال له رجال الإسعاف، نرجو أن تأتي معنا، لأن تمسكّها بك يعني شيئاً هاماً. يعني أنها تتمسّك بالحياة.

وفي سيارة الإسعاف، أدى أحد الممرّضين دور شرطي جيّد، والآخر دور شرطي شرير - أيتها الكلبة الغبية إنك تبثين الخوف في عائلتك، أتظنين أنه لا يوجد لدينا شيء نفعله أهم منك. لدينا أشياء خطيرة علينا أن نعالجها، إصابات حقيقية، حالات إسعاف طارئة لا يسبّبها المرء لنفسه، لذلك يجب أن نتركك تموتين - لا، إنها امرأة مسكينة، لا تكن قاسياً عليها هكذا، لا بد أنها حزينة جداً. لا بأس يا عزيزتي، سنعتني بك، وستتحسّن حالتك، لكلّ غيمة خيط فضيّ - فليذهب الخيط الفضيّ إلى الجحيم، إنها لا تملك حتى غيمة، انظر إلى بيتها، إلى نقودها. هؤلاء الناس يظنون أننا ملك لهم - لا تستمعي إليه يا عزيزتي، هذا هو أسلوبه، فنحن هنا لنعتني بك، أنتِ في أيد أمينة الآن. كانت تحاول أن تهمس بشيء، لكن آبوو لم يفهم ما كانت تحاول أن تقوله. كان يعرف ماذا يفعلان. كانا يحاولان ألّا يجعلاها تغيب عن الوعي. وبعد أن أجروا غسيلاً لمعدتها الذي اضطر إلى رؤيته لأن يدها كانت لا تزال متشبّثة برسغه، ثم صحت ووجدت نفسها راقدة في أحد أسرّة المستشفى، فقالت له: إن ما

كنت أحاول أن أقوله لك في سيارة الإسعاف يا بني، هو أنني أرجو أن توجه لكمة إلى أنف هذا الوغد. ثم عادت إلى البيت منتصرة لأنها استعادت مكانتها كرّبة المنزل، وتوسّل إليها الابن الخائن الذي لم يكن ابنها وطلب منها أن تغفر له، فقالت إنها سامحته، لكنها، في حقيقة الأمر، لم تسامحه قط، ولم تكلّمه بقية حياتها إلّا نادراً. أما هو فلم يكن يريد حقاً أن تسامحه لأنها قالت إن أمّه امرأة غير ذات شأن وإنها تستحقّ كلّ ما أصابها. ثم صفق إخوته أبواب المودة في وجهه، وقالا له إنه محظوظ لأنهما ليسا رجلَين عنيفين. فابتلع كبرياءه والتمس مغفرتهما أيضاً. لكنها لم تأت بسرعة. لكن مع مضي السنوات، بدأت تنمو بينهم مودة متحفظة، علاقة ضعيفة ظنّ الغرباء أنها تنم عن حبّ أخوي صامت، لكنه لم يكن أكثر من تسامح متبادل. وحامت في الهواء أسئلة لم تُسأل، أسرار غامضة: لماذا بذل الشاب الذي كبر ليصبح دي غولدن كل ما بوسعه لكي يدير البيت بنفسه، وأن يهين زوجة أبيه ليحقق بذلك رغبته؟ هل فعل ذلك ليثبت أنه ينتمي إلى هذا البيت؟ أم، ويمكن فهم ذلك بسهولة، لينتقم للمرأة التي أنجبته والتي ماتت؟

«لا أعرف»، قال آبوو رافضاً أن يجيب عن سؤالي. «يمكنه أن يكون خراء استثنائياً عندما يريد».

* * *

من إحساسه الحادّ بالفرق المتجذّر في عدم شرعيّته، أقام دي غولدن شكلاً من أشكال النخبوية النيتشوية لتبرير عزلته. (عند دراسة الرجال في عائلة غولدن، يصادف المرء دائماً ظلّ السوبرمان) «كيف ينبغي أن تكون هناك 'مصلحة عامة'» استشهد بقول الفيلسوف في الغاردنز. إن هذه العبارة تناقض نفسها: جميع الأشياء العامة تكون

قيمتها ضئيلة على الدوام. وفي النهاية يجب أن تكون كما كانت دائماً: «فالأشياء العظيمة تظل للعظماء، والأعماق السحيقة تظل للمتعمقين، والفروق الدقيقة والاهتزازات للراقين، وباختصار، فإن كلّ ذلك نادر للنادرين». أصابني ذلك بالذهول لأنني أدركت ضعفي بالفلسفة من شاب يدّعي أنه أكبر من سنه الحقيقي ببضعة أشهر. في واقع الأمر كان دي يتقن فن التصنّع، من نمط دوريان غراي، نحيل، رشيق، يكاد يكون مخنثاً. وكان يصوّر نفسه بأنه الشخص الوحيد من بين جميع أفراد عشيرته الذي يتمتع بالقدرة على العظمة، وأنه الشخص الوحيد الذي يتمتع بعمق في الشخصية التي تمكّنه من الغوص في أعماق الحزن، وأنه الشخص الوحيد الذي يندر وجوده - يبدو في موقع دفاعي مباشر. لكني أشفق عليه كثيراً، لأنني وجهت إليه ضربة قاسية، ونحن جميعاً نقيم جدراننا، أليس كذلك، بل إننا لا نعرف أننا نقيمها ضدّ من، وأي قوة ستقتحمها أخيراً وتحطم أحلامنا الصغيرة.

كنت أرافقه أحياناً لنستمع إلى الموسيقى. كان يحبّ مغنية ذات شعر أحمر تُدعى آيفي مانويل تعزف أسبوعياً في وقت متأخر من الليل في حانة في شارع أورتشارد. كان تضع أحياناً تاجاً على رأسها لتثبت أنها ملكة، وكانت تغنّي أغاني لمغنين آخرين، أغاني من قبيل «*هائجة هي الريح*» و «*المعطف المطري الأزرق المشهور*» و «*تحت الجسر*»، ثم تنتقل لتغني بضع أغانٍ خاصة بها، وكان دي يجلس أمامها إلى طاولة حديدية سوداء مستديرة صغيرة، يغمض عينيه ويتمايل على أنغام باوي وكوهين، ويدندن كلمات يؤلفها بنفسه على لحن أغنية «*الفلفل الحار*». أشعر أحياناً بأنني لم أولد بعد، وفي أحيان أخرى أشعر بأنّني لا أريد أن أكون قد ولدت. كانت آيفي مانويل صديقته لأن، كما قال - غير مازح - كلّ الفتيات غير الشاذات يرغبن في

مصادقته، أما آيفي فهي فتاة سحاقية، لذلك كان من الممكن أن يصبحا صديقين. كان أكثر شبان عائلة غولدن وسامة، كما تستطيع أن تؤكد ذلك بسهولة تامة أيّ مرآة سحرية، وقد يكون أكثرهم خداعاً أيضاً. فقد كنّا نحن الذين نقيم في البيوت المطلة على الغاردنز ضحايا انفتاحه الجريح، وأصبح أيضاً الشخصية البارزة في الحيّ كله. وقال إنه ينزعج كثيراً عندما يوليه الآخرون الانتباه، وقال إن الناس ينظرون إليه حيثما ذهب. هناك دائماً شخص ينظر إليّ، كما لو أنني شخص مهم، كما لو كانوا يتوقّعون منّي شيئاً. تحامل على نفسك، قالت له آيفي، لا أحد يريد منك خراءً. فابتسم ابتسامة عريضة وخفض رأسه متظاهراً بأنه يعتذر. كانت وسامته قناعه كما هو قناع آبوو؛ إذ يقبع تحت السطح شخص كئيب وحزين في معظم الأحيان. ومنذ البداية، فقد كان الشخص الذي يقبع في داخله شديد الظلمة، مع أنه جاء إلى هذا العالم مثل الشمس المشرقة، برأس يغطيه شعر أبيض - أشقر. ثم اغمقّ الشعر وأصبح كستنائياً، وصارت جوانب شخصيته غائمة أيضاً. فقد كان هناك انحدار متكرّر نحو الاكتئاب. ولم تثر آيفي ضجة حول ميولها الجنسية، وكموسيقية لم تشأ أن توسم نفسها بعلامات محددة. «لا أجد مانعاً في أن أخرج مع أي شخص، لكني لا أظن أن لهذا علاقة بالموسيقى التي أعزفها»، قالت، «فأنا أحبّ من أحبّ، ولا أريد ألّا يستمع الناس إلى الموسيقى التي أعزفها بسبب ذلك». لكن جمهورها كان يميل كثيراً نحو الإناث، نساء كثيرات بالإضافة إلى الشابّ الوسيم الذي لم يكن يريد أن ينظر إليه الناس، وإليّ.

كان جميع أفراد عائلة غولدن يحكون قصصاً عن أنفسهم، قصصاً حذفوا منها أو زيّفوا فيها المعلومات الرئيسية المتعلقة بأصولهم. كنت أستمع إليها لا على أنها قصص «صحيحة» وإنما

كدلالات تشير إلى شخصياتهم. فالحكايات التي يرويها الشخص عن نفسه تكشف عنه بطرائق لا يستطيع أن يكشفها السجلّ. كنت أعتبر أن هذه الحكايات «يرويها» لاعبو الورق، الإيماءات والحركات اللاإرادية عندما يرمون أوراقهم - طريقة حك الأنف عندما تكون الرمية قوية، وطريقة لمس شحمة الأذن عندما تكون ضعيفة. إذ يراقب اللاعب البارع جميع الجالسين إلى الطاولة ليكشف عن نواياهم. وهكذا حاولت أن أراقب وأستمع إلى قصص رجال عائلة غولدن. لكني، في إحدى الليالي، عندما ذهبت مع دي إلى تلك الحانة في شارع أورتشارد لنستمع إلى آيفي مانويل وهي تغنّي أغنية باوي «تشه تشه تشه» وأغنية ميتشيل «*ألا يبدو أنها ذاهبة دائماً*» وأغنية مضحكة غريبة مستوحاة من الخيال العلمي من أغانيها الشخصية تدعى «المُهلك» التي تحكي عن فائدة زمن السفر بالنسبة إلى منقذي الجنس البشري المحتملين. ثم جلست معهما نحتسي البيرة في الحانة التي خلت من الزبائن الآن. لقد نسيت أكثر القصص وضوحاً. وأظن أن آيفي هي التي أثارت الموضوع الذي أخذ يزداد تعقيداً وهو موضوع الجنوسة، وردّ دي بحكاية قصّة من الأساطير الإغريقية. فقد وقعت هيرمافروديت ابنة هيرميس وأفروديت في غرام حورية تدعى سالماسيس وتوسلت لزيوس بأن يوحّدهما معاً إلى الأبد، وأن يصبحا كائناً واحداً، هما الاثنان في جسد واحد شريطة أن يظل عضواهما الجنسيان ظاهرين. في ذلك الحين، خيّل إليّ أنها وسيلة للتعبير عن مشاعره بالقرب من آيفي مانويل، وكيف يمكنهما أن يتّحدا إلى الأبد كصديقين، لكنّه كان يقول لي أشياء أكثر غرابة، ولم أكن أعرف كيف أنصت إليه. أشياء عنه.

لم تكن مسألة التحوّل تكمن في أنها ليست عشوائية. فقد اعتدى على فيلوميلا زوج أختها تيريوس واغتصبها؛ وبلسانها الذي قُطع،

هربت منه في هيئة عندليب، حرّة تشدو بأحلى صوت. وكما في قصّتيْ سالماسيس وهيرمافروديت، فإن الآلهة تسمح بتحوّل الأجساد إلى أجساد أخرى في ظل ضغوط الحاجات الملحّة - الحبّ، الخوف، التحرر، أو الوجود في جسد واحد من أجل حقيقة سرّية لا يمكن الكشف عنها إلّا بواسطة طفرتها.

كان يضع في جيبه طوال الوقت ثلاثة دولارات فضّية ليستطيع التنجيم بالنجمة السداسية الصينية القديمة. لقد تكهّن بواحدة منها في تلك الليلة في الحانة في شارع أورتشارد. خمسة خطوط متقطعة، وخط متواصل في الأعلى. قال: «ثلاث وعشرون»، ووضع العملات المعدنية جانباً. لا أعرف شيئاً عن «أي تشينغ»، لكني بحثت في الغوغل في وقت لاحق من تلك الليلة عن النجمة السداسية. ففي عصر محركات البحث أصبحت المعرفة في متناول اليد. وتسمّى النجمة السداسية ٢٣، «تعرية» وتوصف بنجمة الانشطار. وتعني الخطوط الداخلية الثلاثة «هزة» و «رعد».

«لنعد إلى البيت»، قال، وغادر دون أن يلتفت إلى الوراء. تركته يذهب. فأنا لا ألحق الأشخاص الذين يبدوا أنّهم سئموا من صحبتي. لعل حسّاسيتي أعاقت فهمي، فربما هناك أسباب أخرى غير الكبرياء والنرجسية والخجل لأنه يخاف من أين يكون مراقباً.

* * *

دائماً في البداية، قليل من الألم للتخفيف من حدّته، جرح ليلتئم، حفرة لتمتلئ. ودائماً في النهاية فشل - فالألم لا يشفى، والجرح لا يلتئم، والباقي، خواء كئيب.

* * *

حول السؤال عن طبيعة الطيبة الذي سألته منذ بداية هذه القصة، يمكنني على الأقل أن أردّ رداً جزئياً: حياة الشابّة التي أُغرمت بديونيسوس غولدن في عصر أحد الأيام على رصيف شارع بواري، ووقفت بجانبه وغمرته بذلك الحبّ الراسخ في كلّ شيء أعقب ذلك - أي، بالنسبة إليّ، أحد أفضل التعاريف عن حياة جيدة وجدتها في أثناء وجودي لفترة قصيرة نسبياً، الضيّق الأفق نسبياً. *"Le bonheur écrit à l'encre blanche sur des pages blanches"*، قال لنا مونرلان - «*تُكتب السعادة بحبر أبيض فوق صفحة بيضاء*» - وأضيف أن الطيبة مراوغة لتثبيتها في كلمات كالبهجة. ومع ذلك يجب أن أحاول، لأن ما وجده هذان الاثنان، وتشبّثا به، لم يكن أقل من ذلك - السعادة التي تسببها الطيبة، وتعزّزها أيضاً ضدّ الاحتمالات الاستثنائية. إلى أن تقضي التعاسة عليها.

منذ أول يوم رآها فيه - كانت ترتدي قميصاً أبيض وتنّورة ضيّقة سوداء، وتدخّن سيجارة فرنسية من دون فلتر على الرصيف خارج «متحف الهوية» - وفهم أنه لا توجد جدوى من محاولة كتم أسراره عنها لأنها تستطيع أن تقرأ ما يدور في خلده بوضوح شديد، كما لو أن هناك شريطاً مضيئاً من الأخبار معروض على جبينه.

«قالت آيفي إننا يجب أن نلتقي»، قال، «ظننت أنها فكرة غبية».

«ولماذا أتيت في هذه الحالة؟» قالت، وأشاحت بوجهها، وبدا أن الملل يعتريها.

فقال لها: «أردتُ أن أراكِ، لأعرف إن كنت أريد أن أراكِ». فأثار كلامه هذا اهتمامها، لكن بدا غامضاً.

«قالت لي آيفي إن أسرتك منفية بطريقة أو بأخرى وأنت لا تبدي اهتماماً بمناقشة الأمر»، قالت، عيناها واسعتان بعرض البحر، «لكن بينما تقف هنا، أرى الآن أنك ربما تعيش في منفى من ذاتك، وقد

يكون ذلك منذ أول يوم ولدت فيه». قطّب وجهه، لا بد أنه انزعج. «وكيف عرفتِ ذلك؟» سألها بحدّة، «هل أنتِ أمينة متحف أم كاهنة ساحرة؟»

«ثمة نوع معيّن من الحزن»، أجابت، وهي تنفث سيجارة غولواز، تشبه آنا كارينا في فيلم *بييرو المجنون* «يكشف عن اغتراب شخص عن هويته».

«هذا الهوس المعاصر بالهوية يثير اشمئزازي»، قال، ربما بتأكيد، «إنه وسيلة لتقييدنا لكي يصبح أحدنا غريباً عن الآخر. هل قرأت آرثر ماير شليزنجر؟ إنه يعارض إدامة التهميش من خلال تأكيد الفروق». كان يرتدي معطفاً شتوياً ويعتمر قبعة فيدورا لها حافة مرفوعة من الخلف لأن الصيف قادم لكنه لم يأت بعد، مثل امرأة تقدم وعوداً كاذبة عن الحبّ.

«لكننا نحن كذلك، كلّنا غرباء»، قال بهزة خفيفة في الكتفين، وتقطيبة خفيفة في الوجه، «الفكرة هي أن تصبح أكثر دقّة حول نوع الغرباء الذين نختار أن نكونهم. ونعم، فقد قرأت ذلك الرجل الأبيض الميت العجوز المستقيم. يجب أن تطلّع على عمل سبيفاك حول الجوهرية الاستراتيجية».

«هل تريدين أن نذهب إلى مكان آخر لنشرب قليلاً من الويسكي»، سألها. كان لا يزال يبدو منزعجاً عندما سألها، وظلت تعتبره شخصاً بسيطاً بحاجة إلى مساعدة ذكيّة. كان في جوربها وراء ربلتيْ ساقيها درزات سوداء. قالت: «ليس الآن».

«الآن، يجب أن تدخل وتتعلّم حقائق العالم الجديد».

«وما رأيك، في وقت لاحق؟»

«في وقت لاحق، لا».

أمضيا تلك الليلة معاً في شقّتها في الجادّة الثانية. تحدّثا في

أمور كثيرة ولم يمارسا الجنس الذي يُغالى في تقديره، كما قال. لم تجادله، لكنها سجلت ملاحظة عقلية. في صباح اليوم التالي نزل ليشتري كرواسان وقهوة وويسكي وسجائر وصحيفة يوم الأحد. كانت المفاتيح فوق الطاولة المصنوعة من خشب المهاغوني في البهو، شيء أشبه بصندوق ينتصب على قوائم. لم تكن تحفة قديمة وإنما تقليد متقن الصنع. رفع الغطاء ورأى مسدّساً قابعاً فوق بطانة مخملية حمراء صغيرة، مسدّساً موشّى باللؤلؤ، المقلّد جيداً أيضاً، ربما. رفعه، أدار الأسطوانة، وضع فوهته على صدغه، ثم قال إنه لم يضغط على الزناد، لكنّها كانت تراقبه من خلال شق باب غرفة النوم وسمعت النقرة عندما طرق زند المسدس تجويفاً فارغاً. ثم قال: «وجدت المفاتيح، سأجلب طعام الفطور».

«انتبه، لا تدلق شيئاً على الأرض»، قالت له، «لا أريد أن تتسخ السجادة في البهو».

ريا، هذا كان اسمها. يا لها من فتاة. تكبره بثلاث أو أربع سنوات فقط، لكنها تشغل منصباً هاماً في المتحف، كما كانت تغني بعض أغاني الحبّ في بعض الأمسيات في حانة تقع في شارع أورتشارد، وتصنع أسلوب ثيابها الخاص بها من الدانتيل القديم والحرير الأسود، غالباً مع قماش مطرّز بالورود ورسوم شرقية وهندية وصينية. إنها فتاة نصف هندية ونصف سويدية أمريكية. كان اسمها الإسكندنافي الطويل، زاخارياسن. كان اسماً يصعب على الأمريكي أن ينطقه، وكما أصبح اسمه دي غولدن، أصبح اسمها ريا زي.

من الأبجديّة تبدأ جميع أسرارنا.

«تعال وتعلّم عن العالم الجديد». يوجد متحف للهنود الحمر في شارع بولينغ غرين، وهناك المتحف الأمريكي الإيطالي في شارع مالبري، والمتحف الأمريكي البولندي في شارع بورت واشنطن،

وثمة متحفان لليهود، واحد في شمال المدينة والآخر في جنوبها. من الواضح أنها متاحف تهدف إلى تحديد الهوية أما - متحف الهوية - فهو يهدف إلى لعبة أكبر. كان القيّم على المتحف الذي يتمتع بشخصية مؤثّرة، أورلندو وولف، يهدف إلى تحديد الهوية ذاتها، القوة الهائلة الجديدة في العالم، القوية مثل أيّ نظرية لاهوتية أو عقيدة، أصبحت الهوية الثقافية والهوية الدينية والأمّة والقبيلة والطائفة والعائلة كلها ميادين متعدّدة تنمو بسرعة كبيرة. وفي قلب متحف الهوية يكمن سؤال هوية *الذات*، بدءاً من الذات البيولوجية ثم ينتشر ليشمل أموراً أكثر بكثير. هوية الجنوسة التي تناثرت وتشظت كما لم يحدث في التاريخ الإنساني من قبل، واشتُقت مفردات جديدة كاملة تحاول فهم وإدراك إمكانيات التحوّل الجديدة.

«لقد مات الله وملأت الهوية الفراغ»، قالت له عند مدخل قسم الجنوسة، عيناها تشعّان حماسةَ مؤمنٍ حقيقي، «لكن تبيّن أن جنس الآلهة غير معروف منذ البداية».

كان شعرها الأسود مقصوصاً ويكاد يلتصق بجلدة رأسها. قال لها: «قَصّة شعرك رائعة».

كانا يقفان في وسط أصص وأختام وتماثيل حجرية من آكاد وآشور وبابل. «الأمّ العظيمة، يقول بلوتارك، كانت إلهة خنثى - فيها كلا الجنسين، لم ينفصل أحدهما عن الآخر بعد».

يتمنى أن يستأجر سيارة قديمة بيضاء وحمراء ذات غطاء قابل للطي وذات زعانف، يطوفان بها أنحاء أمريكا. سألها، «هل رأيتِ المحيط الهادي؟ قد يكون محبطاً مثل جميع الأشياء الأخرى».

واصلا سيرهما. كان المتحف معتماً، تتخلله أشياء مضاءة لامعة مثل هتاف في دير. «قد تكون هذه الأشياء التي تعود إلى العصر الحجري كاهنات متحولات جنسياً»، قالت، «ينبغي أن تنتبه

جيداً. إنها هامة بالنسبة إلى الأشخاص المتوافقين جنسياً كما هي بالنسبة إلى المتحوّلين جنسياً من ذكر إلى أنثى».

أعادته هذه الكلمة إلى طفولته. فجأة بدأ يدرس اللغة اللاتينية ثانية، باهتمام شديد ليحطم قوّة أخويه لأنهما أبعداه عنهما عندما كانا يستخدمان لغة روما السرّية. «حروف الجرّ التي تأخذ حالة النصب»، قال، «قبل، مع، ضدّ، مقابل، الخ، إضافي، لا تهتم. سيزالبين وترانسالبين غول. فهمت. جبال الألب تقسّم الآن الجنسين».

«لا أحبّ هذه الكلمة»، قالت.

«أي كلمة؟»

«الجنس».

أوه.

«في جميع الأحول فإن الله لم يمت»، قال، «ليس في أمريكا على الأقل».

من ذكر إلى أنثى، ومن أنثى إلى ذكر. بدأت الكلمات تتدفق عليه الآن، عدم تأكد المرء من جنسه، الفرق بين المرأة والأنثى، الجنس غير المتوافق، الشذوذ الجنسي، غير الثنائي، ومن ثقافة الهنود الحمر، الثنائي الروح. كان لدى سيبيل، إلهة فريجي، خدم تحوّلوا من ذكور إلى أناث يُطلق عليهم اسم *غاليا*. وفي الصالة الأفريقية، هناك *أغول* المتحوّل من أنثى إلى ذكر من قبيلة لوغبارا، وأمازونيات أبومي المخنّثات، والملكة حتشبسوت التي كانت ترتدي ملابس رجال ولها لحية زائفة. وفي صالة آسيا، وقف أمام التمثال الحجري لأرداناريشفارا، الإله النصف امرأة. «من جزيرة إلفينتال»، قال، وضرب يده على فمه. «لم تسمعيني أقول ذلك»، قال لها بشراسة حقيقية.

«كنت سأريك ملابس فاونخوان من الأوبرا الصينية التي يرتدي

فيها الممثلون ثياب الجنس الآخر»، قالت، «لكن ربما يكفي لهذا اليوم».

«يجب أن أذهب»، قال.

«سأشرب ذلك الويسكي الآن»، أجابته.

وعند الفطور، في صباح اليوم التالي، انتصبت في جلستها تحت الشراشف البيضاء وراحت تتناول قطعة كرواسان، وتدخّن سيجارة وبيدها كأس ويسكي أخرى، غمغمت بصوت هامس، «أعرف اسم البلد الذي لن تسمّيه، وأعرف أيضاً اسم المدينة التي لن تتحدّث عنها»، همست هذه الكلمات في أذنه.

«أظن أنني مغرم بك»، قال، «لكني أريد أن أعرف لماذا تحتفظين بمسدّس على الطاولة الصغيرة في البهو».

«لأقتل الرجال الذين يظنون أنّهم مغرمون بي»، أجابت، «وقد أقتل نفسي أيضاً، لكني لم أحسم أمري بعد».

«لا تخبري أبي بما تعرفينه»، قال، «وإلا فلن تكوني بحاجة إلى أن تحسمي أمرك».

* * *

أغمضُ عينيَّ وأُدير الفيلم في رأسي. أفتح عينيَّ وأكتب نصه، ثمّ، أعود وأغمض عيني مرة أخرى.

(٩)

ها هي فاسيليسا، الفتاة الروسية. إنها رائعة الجمال. بل قد يقول أحدهم إنها مذهلة. شعرها أسود طويل، جسدها ممشوق وفارع الطول أيضاً، واستثنائي. وتشارك في مسابقات الجري لمسافات طويلة. لاعبة جمباز، متخصّصة في رقص الجمباز الإيقاعي. تقول إنها كانت ستنضم إلى فريق الألعاب الأولمبيّة الروسي عندما كانت شابة. إنها في الثامنة والعشرين من عمرها الآن. كانت في ذروة الشباب وهي في الخامسة عشرة. اسمها الكامل: فاسيليسا أرسينيفا. مسقط رأسها سيبيريا، وتدّعي أنها تتحدّر من أسرة المستكشف العظيم فلاديمير أرسينييف الذي ألّف عدة كتب عن المنطقة، من بينها الكتاب الذي تحوّل إلى فيلم *كوروساوا ديرسو أوزالا*، لكن هذا النسب غير مؤكّد لأن فاسيليسا، كما سنرى، كذابة ذكية، تتقن فن الخداع. وتقول أيضاً إنها نشأت وتربت في قلب الغابة، غابة *تايغا* الضخمة التي تغطّي معظم أرجاء سيبيريا، وإن عائلتها تنتمي إلى قبيلة نانيا التي يعمل رجالها في الصيد وجمع الفراء وأدلاء في الغابة. وهي تقول إنها ولدت في السنة التي أقيمت فيها الألعاب الأولمبيّة الصيفية في موسكو، وكانت بطلتها المفضلة، عندما كبرت، لاعبة الجمباز العظيمة *نيللي كيم*، النصف كورية والنصف تترية. وكان قد قاطع ألعاب موسكو تلك خمسة

وستّون بلداً، بما فيها الولايات المتّحدة. لكن إقامتها في أعماق الغابة أبعدها عن السياسة، مع أنها سمعت بسقوط جدار برلين وهي في التاسعة. كانت سعيدة لأنها بدأت ترى عدة مجلات، وأرادت أن تسافر إلى أمريكا وأن تُعشق هناك وأن ترسل دولارات أمريكية إلى أسرتها في الوطن.

وهذا ما فعلته حقاً. وهكذا غادرت الحظيرة. وها قد أصبحت في أمريكا، في مدينة نيويورك بالتحديد، وكانت بين حين وآخر، تسافر إلى فلوريدا حيث كانت تحظى بإعجاب شديد، وتجمع قدراً من المال من العمل الذي تمارسه الجميلات عادة. وقد اشتهاها عدد كبير من الرجال، لكنّها لم تكن تبحث عن رجل فقط. وإنما كانت تبحث عن رجل يحميها، تبحث عن قيصر.

ها هي فاسيليسا. تمتلك دمية سحرية. فعندما كانت طفلة، أرسلتها زوجة أبيها الشريرة إلى بيت *بابا ياغا*، الساحرة التي تلتهم الأطفال، والتي تعيش في أعماق الغابة. إن الدمية السحرية هي التي ساعدتها على الهرب لتبدأ في البحث عن قيصرها. هكذا تحكي القصة. لكن هناك أشخاص يروونها بطريقة مختلفة، فهم يقولون إن *بابا ياغا* أكلت فاسيليسا، التهمتها كما التهمت جميع الأطفال الآخرين، وعندما التهمتها، اكتسبت الساحرة العجوز القبيحة جمال الفتاة الصغيرة - فأصبحت، في ظاهرها، صورة طبق الأصل عن فاسيليسا، الجميلة، مع أنها ظلت في داخلها *بابا ياغا* ذات الأسنان الحادّة.

وها هي فاسيليسا في ميامي. فتاة شقراء الآن، وستلتقي بقيصرها قريباً.

* * *

في شتاء عام ٢٠١٠، قبل بضعة أيام من حلول عيد الميلاد، سافر رجال آل غولدن الأربعة، بعد أن استمعوا إلى التحذير الذي أصدرته هيئة الأرصاد الجوية بحدوث عواصف شديدة، ورافقتهم فيس وبلاذر مع اثنين من مساعدي نيرو الموثوق بهما، وأنا، جنوباً من مطار تيتربورو على متن طائرة لم أتمكن من معرفة نوعها إلى أن أخبرني آبوو بأن هذه الطائرة تُعرف للذين يستخدمونها بانتظام باسم P.J وهكذا تفادينا العاصفة الثلجية الهائلة. وفي المدينة التي غادرناها، سرعان ما بدأ الجميع يشتكون من بطء عمل كاشطات الثلوج، وانتشرت مزاعم بأن هذا التباطؤ كان متعمّداً وذلك احتجاجاً على قيام حاكم المدينة بلومبرغ بتخفيض الميزانية. وهطل الثلج بارتفاع عشرين بوصة في سنتراك بارك، وزاد ارتفاعه على ستّ وثلاثين بوصة في مناطق في ولاية نيو جيرسي. وحتى في ميامي، كان شهر كانون الأول/ ديسمبر أكثر الأشهر المسجّلة برودة في تاريخ الولاية، لكن هذا يعني أن درجة الحرارة بلغت ٦١ فهرنهايت (١٥ درجة مئوية)، وهي حرارة معتدلة، وليست باردة فعلاً. وكان الرجل العجوز قد استأجر عدة شقق في قصر ضخم في إحدى الجزر الخاصّة قبالة رأس شاطئ ميامي، ونعمنا بالطقس الدافئ معظم الوقت. وقد أحبّ بيتيا الجزيرة التي يوجد فيها ميناء واحد للعبّارات يصل الجزيرة باليابسة، ولم يكن يسمح للغرباء بأن تطأ أقدامهم تلك التربة المسحورة إلّا بإذن من المقيمين فيها. وكانت الطواويس، سواء أكانت طيوراً أو بشراً، تتبختر وتتهادى هنا دون الخشية من أن تراها عيون متطفلة. وكان الأغنياء يكشفون هنا عن ركبهم وعن أسرارهم ولم يكن أحد يحكي عنها. وهكذا أقنع بيتيا نفسه بأن الجزيرة مكان مغلق ولم يعد يخاف مما يقبع خارجها وحوّل التذمر إلى ظلال.

- أوه، إذاً أنت لا تعرف ما هي P.J أيضاً؟ إنها تعني طيارة خاصّة يا عزيزي. أهلاً بك.

دعاني آبوو - آبوو الاجتماعي، وليس دي، الشاب الذي تغلّفه سحابة من الظلام - لأن أذهب معهم. «اذهب»، قالت لي أمّي، مع أنني لن أكون في البيت لأمضي فترة العطلة. «استمتع برحلتك، لم لا؟» لم أعرف آنذاك أنّني لن أتمكن من الترحيب بقدوم المسيح الطفل المتخيّل أو بحلول السنة الجديدة الحقيقية مع أمّي وأبي مرة أخرى. فلم يكن بمقدوري أن أتكهن بما سيحدث، لكنني أشعر بأسف مرير.

كان آبوو في وضعه الطبيعي، يتكلّم بلباقة مع أصحاب البلايين الروس في الجزيرة ويغوي زوجاتهم لكي يرسمهن، ويُفضّل رسمهن شبه عاريات. كنت أتبعه مثل كلبه المخلص. ولم تلحظ زوجات أصحاب البلايين وجودي. كان ذلك أمراً رائعاً، فالتخفّي أمر اعتدت عليه، وكنت أفضّله في أحيان كثيرة.

أما دي غولدن: فقد أحضر معه ريا وكانا يمضيان معظم وقتهما معاً. وكان الخدم يخدمون - وكان للحاشية حاشية - وأحدثت الآنسة فاس هرجاً، ورفيقتها الأصغر، الآنسة بلاذر ضجيجاً - وأمضى أفراد عائلة آل غولدن أيامهم بهدوء. أما أنا، رفيقهم الأليف تان تان، فقد أمضيت وقتاً سعيداً أيضاً. وفي عشيّة رأس السنة الجديدة، أقامت الجزيرة حفلة ثرية لسكّانها الأثرياء، وأُطلقت الألعاب النارية الباهظة المعتادة، وقُدِّمت أفضل أنواع سرطانات البحر، ورُقصت أجمل الرقصات، وأعلن نيرو غولدن عن رغبته في النزول إلى حلبة الرقص.

تبيّن لي أن الرجل العجوز يجيد الرقص. «كان عليك أن تراه قبل بضع سنوات في عيد ميلاده السبعين»، قال لي آبوو، «فقد كانت

جميع الفتيات الجميلات يصطففن ليأخذن دورهن في مراقصته، وكان يرقص معهن الفالس والتانغو والبولكا، وأنواع الرقصات الأخرى. انضم إلى الراقصين. لم يكن يقفز عندما راح يرقص الديسكو، ولم يكن يدور كما كان شائعاً في أيامنا». الآن بعد أن أصبحت أعرف أسرار العائلة، أصبح بإمكاني أن أتخيّله واقفاً في الشرفة الضخمة المطلة على البحر في بيت الأسرة في مستعمرة ووكشاور، وأتخيّل الحسناوات من الطبقة الراقية في مجتمع بومباي وهنّ سعيدات بين ذراعيه. بينما تنظر زوجته المخدوعة المهملة - «بوبيا سابينا» التي سأستمر في أن أطلق عليها هذا الاسم، تساير أهواء سلالة جوليو كلاوديان، حانقة، لكن بصمت، وهي تقف جانباً. والآن، حتى بعد أن تقدم به العمر وتجاوز الرابعة والسبعين لم يفقد توازنه أو مهارته. ومرة أخرى، كانت هناك شابّات ينتظرن أن يراقصهن. كانت إحدى تلك الفتيات فاسيليسا أرسينيفا التي استمدت شعارها في الحياة من يسوع المسيح، الإنجيل برواية القدّيس متّى، الفصل الرابع، الآية التاسعة عشرة «*اتبعاني، أجعلكما تصيدان الناس*». كان توقيتها ممتازاً. فما إن دقت الساعة معلنة السنة الجديدة، في منتصف الليل أو في ساعة السحر، حتى ألقت بصنارتها المصيرية، وما إن بدأت تراقصه، حتى لم تعد فتاة أخرى تستطيع مراقصته. كانت هي آخر من يراقصه.

ها هي فاسيليسا. إنها ترقص مع قيصرها. تطوقه بذراعها وهذا ما يقوله وجهها: لن أتركك. كانت أطول قامة منه، تنحني قليلاً لكي يقترب فمها من أذنه، وأذنه تميل نحو فمها ليفهم ما تهمس له. ها هي فاسيليسا، تدخل لسانها في أذنه، تحدّثه بلغة صامتة من دون كلمات يفهمها جميع الرجال.

* * *

يقع بيت فاندربيلت في وسط الجزيرة. أُرجِعُ الشريط إلى بدايته: ها هو وليام كيسام فاندربيلت الثاني في يخته الذي يزيد طوله على مئة وخمسين قدماً، يُجري صفقة تبادل مع متعهد البناء كارل فيشر. اليخت مقابل الجزيرة. تصافحا على اتفاقهما هذا. ها هو بيب ريبوزو الذي اتُّهم في فترة ووترغيت بأنه «وسيط نيكسون المرتشي»، ينضمّ إلى مجموعة اشترت الجزيرة من الرجل الذي اشترى الجزيرة من الرجل الذي اشترى الجزيرة من فاندربيلت. للجزيرة تاريخ. يوجد فيها مرصد. وفيها، كما ذُكر آنفاً، طواويس. وفيها أسرار. وفيها غولف. وفيها طبقة راقية.

وموسم العطل البارد هذا في بيت فاندربيلت، بعد رقصة عشية رأس السنة الجديدة على حلبة الرقص المكسوة بخشب الباركيه المصقول الناعم في الهواء الطلق بين الأشجار المزدانة بشرائط الأضواء، وقدور النحاس المشتعلة، والموسيقى الحيّة الصادحة، والنساء المزدانات بجواهرهن البراقة، والحرّاس الذين يحرسون الجواهر والرجال الذين اشتروا تلك الجواهر والمعجبين بما يملكونه. وفي الجزيرة أيضاً فصل شتاء وفصل ربيع يكثر الحديث عنهما. علاقة حبّ بين شهري نيسان/أبريل وتشرين الثاني/نوفمبر. نقودي مقابل جمالك. ليصافح أحدنا الآخر من أجل ذلك.

* * *

السنة الجديدة مخصصة للرقص، وعندما توقّفت الموسيقى قالت لنيرو بلهجة آمرة، اذهب إلى البيت ونم. أريد أن تكون مرتاحاً من أجلي عندما نبدأ عملنا الحقيقي. فعاود طائعاً إلى سريره مثل ولد مطيع، وراح أبناؤه ينظرون بدهشة، لأن هذا لا يمكن أن يحدث في الواقع، تقول نظراتهم. لا يمكنه أن ينحدر إلى هذا الدرك. لكنه هو

الآمر الناهي، ولا يستطيع أن يعارضه أحد. وفي الليلة التالية، أمر بإفراغ الشقّة التي استأجرها ليقيم بها هو ومساعداه الاثنان، وينقل الموظفين وأبناءه إلى الشقق الثلاث الأخرى المستأجرة التي توجد فيها غرف نوم احتياطية عديدة. وهكذا أصبح الآن يقيم وحده في الطابق السابع، ينظر إلى الأسفل إلى قمم أشجار النخيل، يرى هلال الشاطئ الصغير والمياه المتلألئة وراءه. طعام العشاء - أنواع مختلفة من القريدس، وشرائح اللحم والجبن، وسلطة الكرنب، وأفوكادو، وسلة مليئة بالفواكه، وتيراميسو للحلوى - يبعث بها أحد المطاعم الراقية على الجانب الجنوبي من نهر ميامي، وتُمدُّ على المائدة. ويوجد أيضاً ثلج وكافيار وفودكا ونبيذ. وفي الوقت المحدد تماماً، لا دقيقة قبل، ولا دقيقة بعد، تأتي إلى باب غرفته، ملفوفة بهدايا من الذهب، وخلف فستانها قوس ليتمكّن من فكّه بسهولة.

اتفقا على أنهما لا يريدان أن يأكلا.

ها هي فاسيليسا الجميلة تمنح نفسها إلى قيصرها.

الليلة الأولى والليلة الثانية. أول ليلتين في السنة الجديدة، تعرض متاعها. تدعه يرى جودة ما تعرضه عليه، لا جسدياً فقط، بل عاطفياً أيضاً. وهنا أرجع إلى الوراء وأتوقّف، خجل، ألوذ إلى رصانة مفاجئة، لأنني، بعد كلّ هذا، كيف ينبغي لي أن أفترض؟ أقول إنني عرفتهم كلهم. لقد رأيتها مثل ضباب أصفر تحك ظهرها عليه، تفرك خطمها عليه، هل أقول، تلعق بلسانها زوايا مساءه؟ هل أجرؤ، وهل أتجاسر؟ ومن أنا، في جميع الأحوال؟ فأنا لست أميراً، مرافق لورد، ينفذ رغباته، سعيد لأن أكون مفيداً. وفي أحيان أخرى، أكاد أكون الأبله. . . لكن، لنضع الشعر جانباً، لديّ رغبة شديدة لأن أتوقّف الآن. أتخيّلها للتو. ربما تجثو الآن إلى جانبه

على السرير. نعم، تجثو كما يخيّل إليّ. تسأله، أهذا ما قصدت؟ أم هذا؟ هل هذا ما كنت تقصده بالتحديد؟

إنه الملك. يعرف ماذا يريد. و: كلّ ما تريد، تقول، عندما تريده، فهو لك. وفي الليلة الثالثة، ناقشته في أمور العمل. لم يكن ذلك صدمة بالنسبة إليه. بل هذا يسهّل الأمور. أمور العمل هي المجال الذي يرتاح فيه. تُخرج بطاقة مطبوعة بحجم بطاقة بريدية. تقول هيا نناقش الأمور بالتفصيل.

من الواضح أنني لن أقيم في البيت الواقع في شارع ماكدوغال. إنه بيت الأسرة، لك ولأبنائك. وبما أنني لست زوجتك، فإنني أحد أفراد أسرتك. لذلك تستطيع أن تختار: (أ) بيت في حيّ الويست فيليج، لراحتنا كلينا، لكي لا يزعجنا أحد، أو (ب) في الإيست سايد من مانهاتن، لكي نبتعد قليلاً، لمزيد من الخصوصية. جيد جداً، (ب)، هذا ما أفضّله أنا أيضاً. وماذا عن حجم الشقّة، ألن تكون مؤلفة من غرفتيْ نوم على الأقل؟ وربما غرفة إضافية لنجعلها استوديو للفن؟ جيد! وهل سيكون ملكاً لي أم سيكون مستأجراً، وإذا كان كذلك، فإلى كم سنة؟ حسناً، فكّر في الأمر. الآن لنتحدث عن السيارة، وسأترك لك ذلك: (أ) سيارة مرسيدس ذات سقف قابل للطي، (ب) BMW سلسلة ٦، (ج) .Lexus SUV أوه، (أ)، جميل جداً، أحبّك، كم أنت رائع. والآن جاء دور السؤال، أين ستكون لديّ حسابات: في (أ) بيرغدورف (ب) بارنيز (ج) في كليهما. فيندي غوتشي برادا، غني عن القول. إكوينوكس، سوهو هاوس، إفري هاوس، انظر إلى القائمة. مسألة التعويض الشهري. سأفعل ما تراه مناسباً. كما ترى فإن الأوراق تتألف من فئة العشرة، والخمس عشرة، والعشرين. أنصح بالسخاء في هذا المجال. نعم، بآلاف الدولارات يا عزيزي. ممتاز. لن تندم. سأكون رائعة معك. إني

أتكلّم الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية واليابانية والماندرين والروسية. وأجيد التزلج على الجليد، والتزلج على الماء، وركوب الأمواج، والركض، والسباحة. لا أزال أحتفظ بمرونة شبابي الرياضي. وفي الأيام القادمة سأعرف كيف أرضيك أكثر مما تعرف أنت نفسك، وإذا كانت هناك حاجة إلى أدوات للمساعدة على ذلك، وإذا كان علينا أن نبني غرفة، غرفة خاصة لنا، نطلق عليها اسم غرفة اللعب، فإني سأحرص على أن تُبنى بعناية شديدة وبأعلى درجات السرية، ولن أنظر أبداً إلى رجل آخر، ولن يلمسني رجل غيرك، ولن أقبل أيّ محاولة للتودد إليّ، أو سماع تعليقات غير مناسبة. إنك تستحقّ ذلك، ويجب أن أكون ملكاً لك بالكامل، أقسم لك. هذا كلّ شيء الآن، لكن هناك موضوع آخر سأحدّثك عنه لاحقاً.

إنه موضوع الزواج، تقول له، مخفّضة صوتها إلى أقصى مستوى من بحتّه وإغوائه. ولأنني سأكون زوجتك، فإن ذلك سيكون شرفاً لي وسأنال منزلة رفيعة. عندما أكون زوجتك سيكون لديّ كلّ ذلك. وحتى يحين ذلك، نعم، أنا سعيدة، أنا أكثر النساء إخلاصاً وولاء، لكن شرفي مهمّ بالنسبة إليّ. أظن أنك تفهم قصدي. طبعاً، فأنت أكثر رجل متفهم رأيته في حياتي.

(١٠)

أكرّر: لقد غصت عميقاً ولم يعد بإمكاني أن أتوقّف الآن. يجب أن أستمرّ في التخيّل، يجب أن أواصل صندوق الفرجة. ضع عشرة سنتات أخرى لتشاهد العرض. نعم: في مخيّلتي فهو فيلم الآن. شاشة عريضة بالأبيض والأسود.

أبناء نيرو غولدن الثلاثة، بيتيا، وآبوو، ودي، اثنان منهم أكبر بكثير في السنّ من عشيقة أبيهم الجديدة، أما الابن الثالث، فإنه يصغرها بأربع سنين فقط، وارتبك الجميع ولم يعرفوا ماذا يفعلون. وعلى الرغم من الفروق في العمر بينهم جميعاً، فإن هذه مسألة عائلية هامة، لذلك اجتمعوا معاً لمناقشة الأمر، لكنهم لم يتمكنوا من وضع خطة محددة. اجتمعوا في مكان بعيد عن الشقق المستأجرة، ووقفوا في غرفة ضيّقة على شاطئ الجزيرة الصغير الخاوي بسبب برودة الطقس التي في غير موسمها. فقد انخفضت درجة الحرارة، وهبّت ريح عاتية، وكانت الغيوم تندفع بسرعة، التهديد الذي سرعان ما تحقق بهطول أمطار، فاعتمروا قبعات، وارتدوا معاطف ووضعوا لفحات، وبدوا مثل مثقّفين تشيكيين يتآمرون وهم يقفون على شاطئ في بوهيميا، يلاحظون بدقة، مثل قطارات. وعلى الرغم من تجهّم الرجلين الأكبر سنّاً، كانت ريا زي ترافق دي، تتشبث به بقوة

كما لو أن الهواء سيجعلها تطير إذا لم تفعل ذلك. كان عمر ريا يقارب عمر فاسيليسا.فكّر دي في ذلك، لكنه لم يذكره قط.

الكاميرا تراقبهم في صورة مقرّبة جداً حتى يبدأوا الكلام، لكننا سنأخذ لقطات عريضة عندما نسمع أصواتهم.

بيتيا

(يبدي مخاوفه نظرياً، بطريقته السمجة)

يكمن جوهر حياة شخص عظيم في الاختيار بين عمل ما هو صحيح وما يريد أن يفعله. فربما كان أبراهام لنكولن، الذي كان مصارعاً ماهراً ويستمتع بمباريات جيدة، يفضّل أن يمضي وقته فوق حصيرة على أن يبدأ حرباً قُتل فيها اثنان في المئة من السكان تقريباً، حوالي ستمئة وعشرين ألف شخص، لكن ما فعله كان الشيء الصحيح. ولا ريب في أن ماري كوري كانت تفضّل أن تمضي وقتاً مع ابنتها بدلاً من أن تُقتل بواسطة إشعاع بالأشعّة السينية، لكن احزروا ما هو النشاط الذي اختارته. أو خذوا حالة المهاتما غاندي الذي كان يرتدي، عندما كان شاباً، بدلة إنكليزية مفصّلة له خصيصاً كانت أجمل بكثير من الإزار الذي أصبح يرتديه. لكن الإزار، من الناحية السياسية...

آبوو

(يقاطع ما يمكن أن يتحوّل إلى مناجاة طويلة)

ينبغي لأبينا أن يعرف أنه ليس من المناسب أن يجري وراء فتاة روسية، دعوني أتجنّب كلمة هنا، لاعبة جمباز روسية.

لقطة دائرية مقربة جداً، تدور حولهم على الرمل الذي تتناثر ذراته، أعلى قليلاً من رؤوسهم، تنظر إلى الأسفل مثل طائرة مراقبة من دون طيّار.

دي

سيتزوّجها. هذه خطّتها. لن تفتر همتها ولا يستطيع أن يقاوم.

بيتيا

إذا تم الزواج، فإن مسائل قانونية عديدة ستنشأ وستظهر مشاكل كبيرة لمكانة أقرب الأقارب، ولمنفّذ الوصية، ومسألة الميراث الأوسع. ولا يُعرف أيضاً أين سيتم الزواج لمناقشة الفرق بين القوانين في ولايتي فلوريدا ونيويورك.

آبوو

أبونا ليس رجلاً أحمق. لعله كذلك الآن، أحمق بالنسبة إليها، لكنه في المسائل الجوهرية ليس رجلاً أحمق. إنه يصنع صفقات طوال حياته. سيحرص على إبرام اتفاقية متينة قبل الزواج.

بيتيا

(يرتفع صوته حتى العويل، يعكس صوت الريح المتصاعد)

سيحدّثه عنها؟

(صمت)

لا أستطيع.

(صمت)

لن يعجبه ذلك.

آبوو

يجب أن نفعل ذلك كلنا.

دي

(يهز كتفيه، يستعدّ للانسحاب)

لا أعبأ بالنقود. اتركوا الرجل العجوز يفعل ما يريد.

يستدير هو وريا ويهمّا بالمغادرة.

ريا

(لآبوو وبيتيا)

هل فكّرت في أنّها قد تسعده، وأن تجد له في قلبها مكاناً لتحبّه؟ لكن حتى لو كانت تدّعي ذلك، فهذا جيد. الأشياء الجيدة هي التي تقلل من البؤس العالمي، أو الظلم، أو كليهما. فإذا قللت من شقائه ولو لفترة قصيرة، حتى بالاحتيال، فإن هذا شيء جيد. إني أرى الحياة التي صنعها لكم جميعاً. إنه مثل سقف عظيم وأنتم تحتمون تحته. وإذا ابتعدتم خطوة واحدة عنه فإنكم ستعلقون في وسط العاصفة، كلّكم، أما الآن فهو هناك. إنه هناك حتى لو لم يكن هناك. لكنّه ليس بيتاً تسكنون فيه فقط. إنه رجل ولديه احتياجات رجل، أن يشتهي وأن يكون مُشتهى. لماذا تريدون إنكار ذلك؟ أتتصورون أنه بسبب عمره فقط سيتوقف عن ذلك؟ دعوني أقول لكم. ليس مهماً كم هو عمرك. فالعمر لا يتوقّف أبداً.

بيتيا

(يكرر، بخجل، حزيناً بينما لا يزال المطر يهطل)

لا يتوقّف أبداً، لا يتوقّف أبداً، لا يتوقّف أبداً، لا يتوقّف أبداً، لا يتوقّف أبداً، لا يتوقّف أبداً، لا يتوقّف أبداً، لا يتوقّف أبداً، لا يتوقّف أبداً، لا يتوقّف أبداً، لا يتوقّف أبداً، لا يتوقّف أبداً، لا يتوقّف أبداً، لا يتوقّف أبداً ، لا يتوقّف أبداً، لا يتوقّف أبداً...

يشتد هطول المطر. قطرات ماء تبلل عدسة الكاميرا. تبهت الصورة شيئاً فشيئاً حتى تصبح بيضاء.

(١١)

هذه أعزّ صديقة لفاسيليسا، ومدربتها الشخصية على اللياقة البدنية، لنقل إنها تدعى ماشا. ماشا امرأة ضئيلة الجسم، بنيتها أصغر حجماً من بنية فاسيليسا، لكنها قوية جداً. إنها سحاقية، وأيضاً، حتماً، شقراء. ماشا تريد أن تصبح ممثلة سينمائية. عندما سمع نيرو غولدن ذلك، قال لها: «عزيزتي، بهذا الطموح، فأنت الحجم المناسب، لكنك على الساحل الخطأ».

مدّد الرجل العجوز إقامته في الجزيرة وبقي فيها أبناؤه والحاشية أيضاً بعد إعادة ترتيب أماكن السكن. فقد انتقلت فاسيليسا إلى شقّة نيرو مع صديقتها ومدربتها الشخصية على اللياقة البدنية، وانتقل الآخرون كلهم إلى غرف أخرى. لم يكن أحد مسروراً بهذا التغيير إلّا نيرو وفاسيليسا وماشا. وفي الليلة التي انتقلت فيها السيدتان إلى شقّة نيرو، اصطحبهما لتناول الطعام في أحد المطاعم. هناك عدة مطاعم جيدة في الجزيرة لكن نيرو كان يريد أفضلها على الإطلاق، وبغية الذهاب إلى أفضل مطعم يجب أن يذهبوا بسيارته السبور «بنتلي». جلست فاسيليسا بجانبه، وتكورت ماشا في المقعد الخلفي، وصعدت السيارة إلى العبّارة ليتوجهوا إلى المطعم الإيطالي المشهور الذي كان قد طلب منه الطعام الذي لم يؤكل في أول لقاء لهما. في المطعم الإيطالي المشهور، شربت السيدتان في خضم

حماستهما جرعات كثيرة من الفودكا، بينما لم يشرب نيرو الذي سيقود السيارة للعودة إلى البيت كثيراً. وعندما عاد الثلاثة إلى الجزيرة، كانت السيدتان تقهقهان بصوت عال وتتغنجان في حركاتهما كثيراً. كان نيرو راضياً وسعيداً. عندما عاد إلى الشقّة تناول جرعتين من الفودكا. لكن الأحداث جرت بعد ذلك بشكل غريب. فقد انحنت المدرّبة الشخصية نحو فاسيليسا الجميلة وطبعت قبلة على فمها، فبادلتها فاسيليسا القبلة. ثمّ خيّم صمت على الغرفة بينما واصلت السيدتان معانقتهما، وراح نيرو غولدن الجالس على كرسيه ذي المسندين يراقبهما من مسافة قريبة، مصدوماً، وانتابه شعور بأنه أحمق. والأكثر من ذلك، نهضت السيدتان من دون أن تولياه أي اهتمام، وأطفأتا الأضواء في غرفة الجلوس كما لو أنه لم يكن موجوداً، ودخلتا إلى غرفة نومه - غرفة نومه! - وأغلقتا الباب وراءهما.

في غيابهما، كان الاستهتار بإطفاء النور هو ما أثار غضبه. في بيته! في وجوده! كما لو أنه لم يكن شيئاً أو أحداً! غضبه كشف له خطأه المريع. فقد رأى نفسه رجلاً عجوزاً مخدوعاً، وازدادت حدّة كبريائه الآن الذي طالبه بأن يعود إلى رشده، ويرجع إلى نفسه الحقيقية، هو ذلك الرجل القوي، العملاق المالي، متعهد البناء سابقاً وقطب تجارة الفولاذ، ربّ عائلته، العملاق الذي يقف بعنفوان في باحة البيت الذهبي الفسيحة، الذي كان ملكاً وسيظل ملكاً في المستقبل. استوى واقفاً وترك المرأتين وحدهما في غرفة النوم تفعلان ما تشاءان، وخطا خطوات ثابتة نحو باب الشقّة.

بجانب الباب توجد خزانة صغيرة وضعت على الرفّ فوق المعاطف المعلّقة حقيبة جلدية صغيرة. كان الرجل العجوز يؤمن دائماً بتحوّل الأشياء، ويعرف أنه مهما بدت الأرض صلبة تحت

قدميك، فقد تتحوّل في أي لحظة إلى رمال متحركة وتشدك إلى الأسفل. كن مستعدّاً باستمرار. كان مستعدّاً للانتقال العظيم من بومباي إلى نيويورك، وهو مستعدّ لهذا الانتقال الأصغر الآن. يُنزلُ من على الرف الحقيبة الليلية، ويتأكّد من وجود مفاتيح الشقق الأخرى في جيب بنطاله حيث يجب أن تكون، وغادر بهدوء. لم يصفق الباب وراءه. كان يعرف أنه توجد في الشقّة المجاورة التي ينام فيها بيتيا مع بعض المساعدين، غرفة صغيرة للخادمة لا يشغلها أحد. لم يكن نيرو بحاجة إلى غرفة فاخرة الآن. إنه بحاجة إلى باب يغلقه وراءه سرير. كان هذا يكفي. وفي الصباح سيعالج ما يجب أن يعالجه ويستعيد كلّ قوّته. سيعود رأسه ليسيطر على قلبه مرة أخرى. دخل إلى غرفة الخادمة. خلع سترته وربطة عنقه وحذاءه، وغير مبال بالأشياء الأخرى، غطّ في النوم.

* * *

لقد استخفّ بها. كان تقييمه لضعفه ولتصميمها خاطئاً. كان يقبع تحت قوّته تلك شعور بالوحدة استطاعت أن تشمّها كما يشمّ كلب صيد طريدته الجريحة. الوحدة ضعف، وهذه هي بابا ياغا تقبع تحت جلد فاسيليسا الجميلة. وإذا أرادت، فإنها تستطيع أن تلتهمه. يمكنها أن تلتهمه الآن.

هل أنت مستيقظ؟ يا حبيبي، كم أنا آسفة. كم خجلت من نفسي. كنت سكرانة، أنا آسفة. فأنا أسكر بسرعة. أنا في غاية الأسف. كنت أعرف أن في جعبتها دائماً شيئاً تخبئه لي، لكنّي لم أكن أتوقّع ذلك. لقد طردتها ولن نراها ثانية، أقسم لك، لقد أصبحت الآن خارج حياتي، لم يعد لها وجود بعد الآن. أرجوك سامحني. أنا أحبّك، أرجوك اغفر لي هذه المرة، ولن تضطر لأن

تغفر لي مرة أخرى. سأعوّض لك عن ذلك بمئة طريقة وطريقة، سترى، سيكون همي كل يوم أن أنسيك ما حدث، وأن تسامحني. كنت ثملة فاعتراني شيء من الفضول. حتى أنني لا أحبّ النساء، أنا لست هكذا. حتى أنني لم أحبّ ما فعلته. في الحقيقة، أغمي عليّ وغططت في النوم، وعندما استيقظتُ، طبعاً، أصبت بالهلع، يا إلهي، ماذا فعلت. هذا الرجل الذي لم يبد لي إلا كلّ طيبة. أعتذر من أعماق قلبي، أقبّل قدميك، سأغسل قدميك بدموعي وأجففهما بشعري، حتى أنني ظننت لخمس ثوان أن هذا قد يثيرك. كان ذلك غباء مني، غباء سبّبه المشروب، أنا آسفة جداً، فعندما أسكر قد أصبح مستهترة قليلاً، جامحة قليلاً، لذلك لن أسكر مرة أخرى إلّا إذا أردت أنت أن أسكر، إلّا إذا أردتني أنت أن أصبح جامحة ومستهترة في أحضانك، عندها ستكون غاية متعتي أن أمتعك بتلك الطريقة. سامحني، اقبل عاري واعتذاري المتواضع. أين أنت، دعني أجيء إليك. دعني آتي للحظة واحدة فقط وأعتذر أمام وجهك، عندها إذا طلبت مني أن أغادر، فإني سأغادر فوراً، فأنا أستحق ذلك. أعرف ذلك، لكن لا تدعني أذهب دون أن تمنحني فرصة واحدة لأن أقول لك في وجهك أن تعذرني. لقد أخطأت، لقد ارتكبت خطأ جسيماً، لكنّي كنت ثملة، وأطلب منك أن تراني واقفة أمامك والعار يجللني، وقد تجد في قلبك مكاناً لتعذرني، أن ترى فيّ كلّ الحبّ، كلّ الامتنان، أن ترى أن الحبّ كله يقف أمامك، ومن أجل ذلك، أرجو أن تسمح لي بأن أدخل، أرجو ألّا تغلق الباب في وجهي، أرجو أن ترى الحقيقة في عينيّ وأن تغفر لي؛ وإذا لم تر ذلك، فلن تعود لدي حقوق عندك، سأحني رأسي وأذهب ولن ترى وجهي ثانية، لن ترى خجلي العاري مرة أخرى، لن ترى أبداً جسدي يرتعش وأنا أبكي أمامك لأغسل عاري. لن تراني أبداً، لن ألمسك ثانية، أشياء كثيرة،

مرة أخرى، أبداً، أشياء كثيرة لن تتكرر مرة أخرى. إذا طردتني فإني سأذهب، لكن بما أنك رجل عظيم، فإنك ستدعني أبقى، فمن شيم الرجل العظيم أن يسامح. كان هذا أمراً تافهاً، غباء، ويمكنك أن ترى ذلك وتدعني أبقى، لكن دعني آتي إليك، سآتي إليك الآن، كما أنا، حيثما كنت، إذا أردتني أن أركع أمام باب غرفتك عارية فإني سأفعل ذلك، سأفعل أيّ شيء تطلبه مني، كلّ شيء، فقط دعني آتي إليك، حيثما كنت، فقط اسمح لي أن آتي.

إذاً هذه هي اللحظة. يستطيع أن يغلق الهاتف في وجهها، ويقلّل من خسائره، ويعود طليقاً. لقد رآها على حقيقتها، لقد نُزع القناع وكشفت عن نفسها، وكلّ كلماتها لا يمكن أن تجعله لا يرى ما رآه، أو لا يشعر بما حدث عندما أطفأتا الضوء ودخلتا إلى غرفة نومه - غرفة نومه! - وأغلقتا الباب. بوسعه أن ينسحب الآن.

لقد راهنت بكلّ شيء على الطلقة الواحدة التي بحوزتها: بأنه لا يريد أن يرى ذلك المشهد، ألّا ينتابه ذلك الشعور. بأنه يريد أن يشعل الضوء، ويفتح باب غرفة النوم، ويراها هناك، وحيدة، تنتظر. بأنه سيحكي لنفسه هذه القصّة، قصّة حبّ حقيقي، وسيدخل إلى تلك القصّة.

لم يغلق الهاتف في وجهها، بل ظل ينصت. عاد إلى الشقّة حيث تنتظره. وبالطبع اعتذرت له بشتى الطرق، والكثير من تلك الطرق سرّته، لكن لم يكن ذلك سوى السطح. فتحت ذلك الغشاء تقبع الحقيقة، وأصبحت تعرف مدى قوّتها الآن، أصبحت تعرف أنها، في علاقتهما، هي الأقوى وستظل الأقوى دائماً، وأنه لا توجد أشياء كثيرة يمكنه أن يفعلها حيال ذلك.

La Belle Dame sans Merci hath thee in thrall.

(السيدة الجميلة التي لا ترحم جعلتك عبداً لها)

أرجوك. لا أطلب تعاطفاً أو شفقة بسبب أصولي الفقيرة. أولئك الذين لم يعرفوا الفقر قط هم الذين يظنون أن هناك شيئاً يشي بالشفقة حول الفقر، ولهذا الرأي، فإن الردّ الملائم الوحيد هو الاحتقار. لن أتوقّف طويلاً لأصف المشاق التي كابدها أفراد أسرتي مع أنهم كانوا مختلفين. فهناك مسألة الطعام، ومسألة الثياب، ومسألة الدفء، لكن لم تكن هناك قط، إلى حد ما، مسألة حول كفاية المشروب الذي كان أبي يتناوله، ولعلي أقول كفاية مفرطة. فعندما كنت طفلة صغيرة، انتقلنا إلى بلدة نوريلسك القريبة من غولاج نوريلاغ سابقاً التي، بالطبع، أُغلقت منذ حوالي ستّين سنة، لكنها خلّفت وراءها البلدة التي بناها السجناء أصلاً. وعندما بلغت الثانية عشرة من عمري، عرفت أنه لا يسمح لأي شخص غير روسي بدخول البلدة، ولم تكن مغادرتها سهلة أيضاً. هكذا أفهم الظلم الشيوعي، وكذلك، بعد ذلك، الظلم غير الشيوعي لكني لست معنية بمناقشة الأمر. وسكر أبي أيضاً. إن الفقر وضع مقزز وعدم التمكن من التخلص منه شيء مقزز أيضاً. ولحسن الحظ، فقد برعت في جميع الأشياء، سواء الجسدية أم العقلية، وهكذا استطعت أن آتي إلى أمريكا وإني أشعر بالامتنان الشديد من أجل ذلك، لكني أعرف أيضاً أن وجودي هنا هو ثمرة جهودي التي بذلتها، لذلك فإني لست مضطرة لأن أشكر أحداً على ذلك. لقد تركت الماضي ورائي، وها أنا أجد نفسي هنا، أرتدي هذه الثياب، الآن. الماضي حقيبة مكسورة من الورق المقوّى مليء بصور أشياء لم أعد أريد أن أراها. وعن التحرش

الجنسي لن أقول شيئاً مع أنه حدث أيضاً. كان هناك عمّ، وبعد طلاق والديَّ أصبح لأمّي عشيق. أُغلق الحقيبة. إذا أرسلت نقوداً إلى أمّي في الوطن فهذا يعني أنني أقول، أرجوك، أبقِ الحقيبة مغلقة. وعليّ أن أسدد فواتير المستشفى لعلاج أبي من السرطان. أرسل له نقوداً لكن لا توجد بيني وبينه أي علاقة. أُغلقت القضية. أشكر الله أنني جميلة لأنه سمح لي بأن أدع القبح خارج حياتي. إني أركّز على المضي إلى الأمام، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. أنا أركّز على الحبّ.

إن ما يدعوه الناس الحبّ، كما يقول المتهكمون، هو حاجة حقاً. وإن ما يسميه الناس *إلى الأبد*، كما يقول المتهكمون المجردون من الحبّ، فهو استغلال فعلاً. إني أعلو على هذه الاعتبارات التي هي قاعدة. إني أؤمن بقلبي الطيب وبقدرته على حبّ عظيم. الحاجة موجودة، هذا شيء واضح، لكن يجب إشباعها، هذا شرط مسبق لا يمكن أن يولد الحبّ من دونه. على المرء أن يسقي التربة لكي ينمو النبات. ومع رجل عظيم، على المرء أن يوائم عظمته معه، وبذلك يصبح عظيماً في لطفه، ويتوصّل إلى اتفاق، وهذا شيء طبيعي، إنها، كما قد يقول أحدهم، سقاية التربة. أنا امرأة واقعية، لذلك فإني أعرف أنه يجب بناء بيت قبل أن يعيش المرء فيه. أولاً، ابنِ بيتاً صلباً، وعش فيه حياة سعيدة، إلى الأبد. هذا هو أسلوبي في الحياة. أعرف أن أبناءه خائفون مني. ربما كانوا خائفين على أبيهم، أو ربما كانوا خائفين على أنفسهم، لكنّهم لا يفكّرون إلّا بالبيت، ولا يفكّرون في الحياة التي في داخل ذلك البيت. إنهم لا يفكّرون في الحبّ. أما البيت الذي أبنيه فهو بيت الحبّ. يجب أن يفهموا ذلك، وإذا لم يفهموا، فإني سأواصل البناء بالرغم

من كل شيء. نعم، إنهم يسمّونه البيت الذهبي، لكن ما فائدة ذلك إذا لم يكن الحبّ يعشش في كلّ غرفة من غرفه، في كلّ زاوية من كلّ غرفة فيه؟ إنه الحبّ الذهبي، لا المال. إنهم لم يحتاجوا إلى أي شيء طوال حياتهم، هؤلاء الأبناء. ما الذي كانوا يحتاجون إليه في حياتهم؟ إنهم يعيشون في داخل تعويذة سحرية. خداع ذاتهم هائل. يقولون إنهم يحبّون والدهم لكنّهم يخلطون بين الحاجة والحبّ. إنهم بحاجة إليه. هل يحبّونه؟ يجب أن أرى دليلاً أكبر قبل أنا أتمكن من الإجابة عن ذلك. يجب أن يكون هناك حبّ في حياته إذا استطاع.

ذاك الذي مع ساحرته، يجب أن يفهم أن أباه ساحر حياته. وذاك الذي مع فتاته الغريبة، يجب أن يفهم أن أباه هو هويته. وذاك المتصدع الرأس، يجب أن يفهم أن أباه هو ملاكه.

إن جلّ همهم يتركّز حول الميراث. يجب أن يفهموا ثلاثة أشياء. أولاً، هل صحيح أنه بعد أن أمنح هذا الرجل حبّي، فإنه سيلقي بي إلى الشارع؟ طبعاً لا، لذلك يجب توخي الحذر، هذا أمر مفروغ منه. وثانياً، وقّعت الاتفاق المتعلق بعلاقتنا الذي طلب مني أن أوقّعه، كما أراد، من دون أي جدال. هذه هي ثقتي، هذه ثقتي المحبّة. لذلك، جميعهم محميون ولا يوجد سبب يجعلهم يخشونني. وثالثاً، فإن أكثر ما يخشون منه هو أن أنجب لهم شقيقاً أو شقيقة. إنهم يخشون من رحمي. يخافون من رغبة رحمي في أن يمتلئ، مع أنهم لا يعرفون إن كان والدهم لا يزال قادراً على أن يكون أباً أم لا، لكن على الرغم من ذلك، فهم خائفون. إزاء كل ذلك، فإني لا أكترث. يجب أن يفهموا أنني امرأة ذات انضباط ذاتي دقيق. أنا قائدة نفسي وجسدي هو الجندي الذي ينفّذ كل ما يأمره به قائده

بطاعة تامة. في هذه الحالة، فإني أفهم ما قاله، الرجل الذي أحبّه. كان واضحاً. وفي عمره، فإنه غير مستعدّ لأن يعود إلى نقطة الصفر، إلى البداية، لأن يصبح أباً، لأن يصبح لديه طفل: صراخه، بكاؤه، خراؤه، لأن ينجب طفلاً لن يراه عندما يطعن في السن. هذا ما قاله لي. هذا أحد شروط الاتفاق الذي وقّعت عليه. لقد وقّعت على شرط عدم إنجاب طفل. وهكذا أمرتُ جسدي ورحمي. لن أنجب طفلاً من هذا الرجل الذي أحببته. حبّنا هو الطفل. لقد ولد ذلك الطفل للتو، ونقوم بإرضاعه وتغذيته. هذا، ما يريد أن يفعله، وأريد أنا أيضاً. رغبته هي رغبتي أيضاً. هذا هو الحبّ. هكذا ينتصر الحبّ على الحاجة. هؤلاء الأبناء بكلّ احتياجاتهم، يجب أن يتعلّموا معنى الحبّ مني ومن أبيهم.

مناجاة بابا ياغا في داخل جلد أرسينيفا

أنتظر زمني. أجلس، أطبخ، أغزل، بعينين حزينتين. إني صامتة وأتركه يتكلّم. هذا جيد. إني أنتظر زمني.

كلّ شيء خطة استراتيجية. هذه هي حكمة العنكبوت. بصمت، يغزل بصمت. دع الذبابة تطنّ. قبل أن ألتهمها وأكسوها بالجلد، أستلقي فوق الموقد في كوخي، لكن الكوخ ينتصب فوق ساق دجاجة، وأنتظر، ثم يأتون إليّ، ويصبحون الطعام الذي أقتات عليه، وفي النهاية جاءت هي أيضاً، الفتاة التي أريدها، وبدلاً من أن أبتلعها، غصت في داخلها وتركتها تبتلعني هي. لا يهم كيف تبدو! لقد أكلتها حتى عندما تركتها تأكلني. إنها حيلة هضميّة خاصة: استحواذ عكسي من الآكل

بواسطة المأكول. لذلك الوداع، لها سيقان دجاجة لكن في الغابة! إلى اللقاء إلى الأبد، رائحة روسية نتنة! الآن هل أنا معطّرة وأكتسي بثوب الجمال، عيناي وراء عينيها، أسناني وراء أسنانها.

كلّ ما تفعله زائف، كلّ كلمة تقولها كذب، لأنني أنا هنا في داخلها، أسحب خيوطها، ألقي بشبكة كلماتها وتصرفاتها حول الذبابة الصغيرة، ذلك العجوز الأحمق. يظن أنّها تحبّه! ها ها ها ها ها! قيق، قيق! إنه أمر جيد.

انظر كيف سأعيش الآن! السيارات، أنواع الطعام، الفراء. لا إعلان تجاري طائر بعد الآن! أكره الإعلانات التجارية الطائرة بقدر ما أكره الطيران فوق سيقان الدجاج أو بواسطة عصا المكنسة. أبصق على الرحلات التجارية. انظروا إليّ وأنا أسافر في طائرات خاصة مثل ملكة! أدخل طائرتي الخاصة، وكلّ ما يحيط بي يتذلل ويسعى إلى إرضائي، وبهجتي، وراحتي. أتحسس نعومة سريري وثيابي الخارجية الأنيقة. أصبح عندي مدرب شخصي جديد. لا أمارس الجنس معه! كوني حذرة!

في العالم التقليدي، من المعروف أنّ تحوّل الأنثى من جميع الأنواع أسهل بكثير من تحوّل الذكر. فالمرأة تغادر بيت أبيها، وتخلع اسمه كأنها تخلع جلداً قديماً، وترتدي اسم زوجها كما ترتدي ثوب زفاف. يتغيّر جسدها ويصبح قادراً على احتواء أجسام أخرى، ثمّ يلفظها. إننا معتادون على وجود أناس في داخلنا، يملون علينا مستقبلنا. لعل حياة المرأة تكتسب معناها من خلال هذه التحوّلات، هذا الابتلاع والطرد، أما بالنسبة إلى الرجل فإن العكس هو الصحيح. إن التخلي عن الماضي يجعل الرجل بلا معنى. ما الذي يفعله هؤلاء الرجال في عائلة غولدن

إذن، هل يهربون إلى اللامعنى، إلى العبث؟ ما هي تلك القوة التي تبعد هؤلاء الرجال عن معنى ومغزى حياتهم؟ إنهم سخيفون. المنفى رجل فارغ يحاول أن يمتلئ بالرجولة ثانية، شبح يبحث عن لحم وعظم ضائع، سفينة تبحث عن مرساة. هؤلاء الرجال فريسة سهلة.

- ماذا؟ ما الذي يقوله ذلك الغبي؟ الابن الأصغر؟ «هذا زمن تحولات عديدة، أجناس كثيرة، والعالم أكثر تعقيداً مما تظن، ساق دجاجة، امرأة عنكبوت!» هل هذا ما يحاول أن يقوله لي، يحدّق بي وهو يتعلّق بذراع عشيقته التي تنتمي إلى الموجة الجديدة؟ سنرى، أيتها الفطيرة الحلوة. سنرى كيف ستسير الأمور، ومن يقف سيضحك في النهاية، يدخّن سيجارة في نهاية العالم. أنت ديونيسوس، وأنا أعترف، غريب الأطوار قليلاً، أما أنا بابا ياغا، أغرب أخت من بينهن كلهن. أنا بابا ياغا الساحرة. -

أخفي هذا الصوت في أعماق نفسي، في مكان عميق جداً إلى حدّ أنها، أنا نفسي، تستطيع أن تقنع نفسها بأنها لا تستطيع أن تسمعه، بأنّه ليس صوتها الفعلي. فعلى مستوى الجلد واللسان، فإن صوتاً مختلفاً يتكلّم، وتحكي لنفسها قصّة مختلفة، تكون فيها تقية وأعمالها مبرّرة، كلاهما وفق المعايير الأخلاقيّة، وتجريبياً، بحسب الأحداث التي تجري حولها. بواسطته، العجوز، الملك في البيت الذهبي، من هو، كيف يعاملها، ما هي عيوبه. لكن ها هو، الصوت العميق يتكلّم، يأمرها في أعمق مستوى، مستوى جزيئات التعليمات، متشابك داخل الأحماض الأمينية الحلزونية الأربع لكيانها، الذي هو كياني أيضاً. هذا هو أنا. إنها هي أنا.

(١٢)

كان من الصعب على أصغر أبناء غولدن أن يتخلّى عن عادة الانكفاء والعزلة. فهو يشعر بالوحدة منذ نعومة أظفاره لأنهم كانوا يعتبرونه طفلاً شاذاً ثمرة علاقة غير شرعية. كان مقبولاً جزئياً، ومرفوضاً جزئياً في البيوت الكبيرة التي كان يضطر لأن يطلق عليها بيته، أولاً في بومباي، ثمّ في نيويورك. وحتى عندما يكون بين جموع كبيرة من الناس، كان يشعر بالوحدة، وحتى الآن، برفقة ريا وحدها، كانت تنتابه مشاعر وجد، في البداية، أنه يصعب تسميتها. لكنه وجد أخيراً الكلمات المناسبة: صحبة، رفقة. بدأ يتحوّل إلى نصف كيان مشترك. بدت كلمة حبّ غريبة على شفتيه وعلى لسانه، مثل زائر طفيلي قادم من كوكب آخر، لكن، سواء احتلّت المريخ أم لا، فمن المؤكد أن الكلمة هبطت إلى فمه، وظلت هناك وتجذّرت. أنا عاشق، قال لنفسه أمام مرآة الحمّام. بدا له أن الوجه المنعكس في المرآة يتكلّم بالتزامن مع وجهه الذي هو في واقع الأمر وجه شخص آخر، شخص لا يعرفه. بدأ يصبح ذلك الشخص، قال لنفسه، ذات يجهلها. بدأ الحبّ يحرّك فيه قوى سرعان ما ستغيّره تماماً وستذهب إلى غير رجعة. لقد قبعت هذه المعلومات في أفكاره وبدأت فكرة التحوّل الوشيك تعدّل الأمور في عقله، تماماً كما بدأت كلمة حبّ تؤثر على كلامه. أما المعرفة فهي التي، لفترة من الزمن، كبتها.

كان أوّل من انتقل من البيت الكائن في شارع ماكدوغال. «ليفعل الرجل العجوز ما يشاء»، قال لأخويه في فلوريدا، لكن ذلك لم يكن يعني أن عليه أن يبقى ويراقب ما يجري. وفي أحد الأيام، وصلت فاسيليسا أرسينيفا، يتبعها عدد كبير من الحقائب الغالية الثمن مما يعني أن نيرو غولدن ربما لم يكن أول محسن لها. من الواضح أنها تجاوزت الاتفاق الأولي الذي أبرماه والذي لا يوجد فيه شرط المساكنة. وبعد فترة قصيرة، حزم أصغر أبناء نيرو حقائبه وذهب ليسكن في الحيّ الصيني حيث وجدت ريا لهما شقة صغيرة نظيفة في الطابق الثالث في بناية من دون مصعد طُليت جدرانها بلون سمك السالمون الوردي، وطليت إطارات النافذة بلون أصفر ناصع. وفي الطابق الثاني تحتهما، كانت تسكن *مدام جورج تاروت: رؤية الطالع بكرة الكريستال لكشف المستقبل*، أما في الشقة التي على مستوى الشارع، فتوجد شركة *ران ران التجارية المحدودة*، ببطاتها المدلّاة، وشمسياتها الزرقاء والوردية المخطّطة التي تظلّل صواني منتجاتها، وصاحبة هذه الشركة هي السيدة الشرسة، السيدة ران صاحبة البناية والتي دأبت أيضاً على رفض جميع طلبات تغيير المصابيح عند مدخل البناية، وكانت ترفض أيضاً رفع درجة حرارة التدفئة عندما يشتد البرد. وأصبحت ريا على الفور على خلاف مع السيدة ران لكنها، أي ريا، لم تكن تريد أن تتخلّى عن الشقّة وذلك لأن سطح البناية المجاورة يقع خارج نافذة غرفة الجلوس مباشرة، ويمكنهما فتح النافذة المتحركة في الأيام المشمسة والقفز إلى السطح الذي كان أشبه بباحة خلفية مكشوفة تحت السماء.

بدآ يرتديان ملابس متشابهة، ففي الشتاء، كانا يرتديان سترة جلدية كالتي يرتديها سائقو الدراجات النارية، ويضعان واقية شمسية، ويعتمران قبعة براندو. وكان يضيف أحياناً وراء الظل لطخاً

من ظلال العيون مثلها، فيظن الناس أنهما توأم. وكانا كلاهما شاحبَي الوجه، نحيفين، كأنهما هاربان من فيلم بيت الفن نفسه. وفي الربيع، كانت ريا، وهو أيضاً، تجعل أطراف شعرها الأسود مدبّبة، ومثل غوث موريو كانت تجلس على السطح وبيدها غيتار كبير الحجم، وتغني أغنية حبّهما، *“Elle avait des yeux, des yeux d'opale / qui me fascinaient, qui me fascinaient”* (لها عينان، عينان من العقيق/ تسلب عقلي، تفتنني)، وسيجارة تتدلّى من زاوية فمها،

“Chacun pour soi est reparti
Dans le tourbillon de la vie...”
(كلّ إنسان يمضي وحده
في زوبعة الحياة)

مكتبة
t.me/t_pdf

هكذا تطوّرت علاقتهما: إلى شيء من الحبّ، نعم، لكن أيضاً إلى شيء شائك، خشن، وكان ذلك خطأه، قالت، لأنّها أحبته بكل جوارحها منذ البداية، وهي شخص تريد أن تكون كلّ شيء أو لا تكون شيئاً، أما هو فيقع في مكان بين هذا وذاك.

«نعم، أحبّك، لذلك فإننا نعيش معاً، لكنّك لا تمتلكني، لأن عائلتك تعرف الكثير عن امتلاك الأشياء، أما أنا فلست ملكاً لأحد، ويجب أن تتفهم حرّيتي. بالإضافة إلى ذلك، هناك أشياء هامة عنك لا تحكيها لي، ويجب أن أعرفها».

عندما قالت ذلك، أحسّ بالدوار، كما لو أن العالم كله قد بدأ يتطاير إلى شظايا، وكان أكثر ما يخشاه هو العالم المتشظّي وما يعنيه له، فالأغنية على حق، إن الحياة زوبعة *tourbillon*. لكنّه أخبرها كلّ شيء، توسل إليها، اعترف لها بكل أسرار العائلة مثل طفل في أول

اعتراف له. «حتى أنني لا أعرف لماذا سايرت أبي في كل ما يريد»، قال: «نغادر هناك، نأتي إلى هنا، نغيّر هويّاتنا، كلّها. المرأة التي ماتت في الفندق ليست أمّي. حتى أنني لم أكن أحبّها. حتى أني لا أعرف من هي أمّي التي اختفت، لذلك أظن أنه قتلها منذ زمن بعيد. أو أن رئيس شركة - زي هو الذي أمر بقتلها».

«ما هذه، شركة - زي؟»

فقال: «إنها المافيا. زد تعني العرّاب، زامزاما ألانلكار. هذا ليس اسمه الحقيقي».

هزّت كتفيها غير عابئة، ثم قالت: «أتريد أن تعرف لماذا أضع مسدساً في الدرج؟ سأقول لك. إنه أشبه ببرنامج تلفزيوني رديء. فقد سكر أبي زاتشارياسن وقتل أمّي عندما أتيت لزيارتهما في البيت في عيد الشكر، ورحت أجري في الشارع أصرخ طالبة النجدة، فأطلق عليّ النار وأنا أجري وهو يصيح: سأجدك، سأقتلك. كان قد فقد صوابه تماماً في ذلك الوقت. فقد عقله بالكامل. كان يعمل طيّاراً في شركة طيران نورث ويست، لكن بعد أن اندمجت مع شركة دلتا، بدأت الشركة تخفض عدد العاملين فيها، وطُرد من العمل لسوء مزاجه، فبدأ يشرب بكثرة وساءت الأمور وأصبح شخصاً مخيفاً. كان يعيش مع أمّي في ميندوتا هايتس، بولاية مينيسوتا، وهي ضاحية راقية في المدينة التوأم، وكان الراتب الذي تتقاضاه أمّي أعلى من راتبه. كانت أمّي يتيمة، فقد مات والداها وورثت مبلغاً من المال اشترت به البيت والسيارة، ونشأتُ أنا هناك ودرستُ في مدرسة جيدة، لكن بعد أن فَقَدَ أبي وظيفته، بدأت المعاناة. في ذلك الوقت كنت قد أنهيت دراستي الجامعية، فقدّمت طلباً للحصول على منحة دراسية في جامعة تافتس، وتقدّمت لشغل وظائف مختلفة، وعملت في المدينة، لكن بعد جريمة القتل تلك، غادرتُ ميندوتا هايتس بسرعة وأغلقت ذلك

الفصل من حياتي إلى الأبد، لكني لا أزال أحتفظُ بالمسدس. ومع أنه حُكم عليه بالسجن لمدد تقارب مليون سنة من دون وجود إمكانية للتخفيف من مدة سجنه أو منحه عفواً، فإني لا أزال أحتفظ بالمسدس».

عزفت الأغنية على الغيتار مرة أخرى، لكنها لم تغنّها.

«كما ترى فإن قصتي الحزينة أفضل من قصتك»، قالت أخيراً، «وسأقول لك لماذا وافقتَ على خطّة أبيك المجنونة. لقد وافقت لأنكَ كنتَ هناك، من المكان الذي أتيت منه، لم تكن حرّاً لكي تكون من يجب أن تكون، لأن تصبح من يجب أن تصبح».

«وما معنى ذلك».

«هذا ما أنتظر سماعه منكَ».

* * *

إنه الشيء الذي تعود إليه باستمرار منذ أن أخبرها عنه، ماذا فعل لزوجة أبيه، إهانته لها، ومحاولتها الانتحار. إنك شخص محبّ، إني أرى ذلك، قالت له، لكن ما لم أفهمه هو كيف انحدرت إلى هذا الدرك.

فقال لها أظن أن الكراهية قد تكون رابطة عائلية قوية مثل رابطة الدم أو الحبّ. فعندما كنت صغيراً، كانت الكراهية هي الصلة التي تربطني بالعائلة، وهذا ما دفعني لأن أفعل ما فعلته.

هذا لا يكفي، قالت، هناك أشياء أخرى.

وصلت سيارة الليموزين إلى مستودع في شارع بوشويك حيث كان عليها أن تفحص بعض المصنوعات اليدوية الواردة من جنوب آسيا إلى متحف الهوية. تعال، قالت تحثّه، يرتبط اثنان من تلك المصنوعات على الأقل بزيارة ديونيسوس إلى الهند، لذلك أظن أنك

ستجد اهتماماً بهما. لم تكن تثق بالتاجر. فقد أُرسلت لها وثائق تؤكد أنّ المواد قد صُدِّرت بشكل قانوني من الهند، لكن ربما كانت هذه الوثائق مزورة. وقالت له إنه قبل صدور قانون الآثار القديمة وكنوز الفن الهندية ، كان يصعب تهريب تلك المواد إلى خارج البلاد لأنهم لم يكونوا يعرفون إلى من يجب أن يقدموا الرشوة. لكن منذ عام ١٩٧٦ ، أصبح المصدّر يعرف من هم المفتشون الذين سيتعامل معهم، فأصبح الأمر واضحاً ومباشراً. فالمقتنيات معقّدة بسبب مسائل تتعلق بالمصدر. ومع ذلك، فإنه يجدر أن تأتي وتلقي نظرة.

توجد لوحة لديونيسوس محاطة بفهود ونمور لكنها لم تبد اهتماماً بها. أما القطعة الأخرى فهي طاسة رخامية حُفر على أطرافها موكب نصر. إنها مجموعة رائعة، صاخبة، من الآلهة الإغريقية، والحوريات، والحيوانات، يقف في وسطهم الإله. تقول له: انظر كيف أن قسماته أنثوية. إنه يقف على الحدّ بين الجنسين، حتى أنك لا تعرف إن كانت إلهة أم إلهاً. تنظر إلى دي وهي تكلّمه. ثمة سؤال لم يُسأل في عينيها، فيشيح بوجهه.

ماذا، قال. ما هذا. ماذا تريدين.

يقيناً إن هذه القطعة ليست مصدّرة بشكل رسمي، تقول للتاجر، وتعيد له الطاسة. الوثائق غير مقنعة. لا يمكننا أن نقتنيها.

إنهما في السيارة في طريقهما إلى البيت. عندما اقتربا من جسر مانهاتن شاهدا أعمال إنشاءات على الطريق فتباطأت حركة المرور إلى حدّ أشبه بالزحف. هيا، قالت، فأنت لم تأت إليّ بالصدفة، لم تأت إلى «متحف الهوية» لأنك لم تكن مهتماً بما نستكشفه فيه. وزوجة أبيك، لعل شيئاً فيك يريد أن يموت، جزءاً منك لا يريد أن يظل حيّاً، لذلك دفعتها إلى حافة الموت. هذا ما يجب أن تقوله لي. لماذا أردت أن تحلّ محلها؟ أي شطر منك كان يريد أن يكون هي،

الأمّ، ربّة البيت، مع مفاتيح البيت، مسؤولاً عن الواجبات المنزلية؟ لماذا كانت تلك الحاجة ملحّة بقوة حتى فعلت هذا الشيء الجامح؟ نعم، يجب أن أعرف كلّ ذلك. لكن قبل أن أعرف، يجب أن تعرف أنت نفسك سبب ذلك.

دعيني أنزل من السيارة، قال، أوقفي السيارة المنيوكة.

حقاً، أجابت دون أن ترفع صوتها، هل تريد أن تنزل حقاً.

أوقفي السيارة اللعينة المنيوكة.

* * *

ثم وجد صعوبة في تذكّر الشجار الذي دار بينهما، لم يتذكّر إلّا الأحاسيس التي أثارتها كلماتها، الانفجار الذي حدث في دماغه، الرؤية الضبابية، القلب النابض، الرعشة التي لا بد أن حماقة اتّهاماتها هي التي سبّبتها، خطأ هجومها المهين. أراد أن يستدعي قاضياً جباراً ليعلن أنها مذنبة، لكن لم تكن هناك عين تراقبهما من السماء، ولا ملاك يسجّل ما حدث بينهما. أراد أن تعتذر. اللعنة. يجب أن تعتذر. كثيراً.

عاد غاضباً إلى البيت في شارع ماكدوغال، لم يقل شيئاً لأحد. متدثّراً بعاصفة تحذّر الجميع بأن يدعونه وشأنه. لم يكلّم مايا طوال أربعة أيام. وفي اليوم الخامس، اتّصلت به. بدت هادئة ورزينة كعادتها. تعال إليّ إلى البيت. أريد شريكاً في السرير. أريد. . . شركة - ززززز.

بدأ يضحك، لم يتمالك نفسه، ثمّ أصبح من السهل أن يقول: آسف آسف آسف.

سنتحدّث عن ذلك، قالت.

* * *

كانت تجلس على أرضيّة الغرفة تقرأ كتاباً. على رف الكتب الصغير في الشقّة في الحيّ الصيني كانت تحتفظ باستمرار بسبعة كتب، بعض الأعمال المشهورة - لخوان رولفو، وإلسا مورانت، وآنا ألديماتوفا - وأعمال أخرى أقل شهرة، «*بيض أخضر ولحم خنزير*، *الشفق*، *صمت الحملان*، *والبحث عن أكتوبر الأحمر*». وكانت قد اختارت أن تقرأ أخماتوفا.

ستسمع الرعد وتتذكّرني،
ويخيّل إليك: أنها تريد العواصف. ستكتسي
حافة السماء بلون قرمزي داكن،
وقلبك، كما كان آنذاك، سيحترق.

«عندما أُنهي كتاباً»، قالت، «ينتهي هو أيضاً معي وأمضي. أتركه على مقعد في حديقة كولومبوس بارك. قد لا يريد الصينيون الذين يلعبون الورق أو لعبة غو الكتاب الذي أتركه، الصينيون الذين يشعرون بالحنين ينحنون بحزن أمام تمثال سان يات - سين، وهناك الأزواج الذين يغادرون مبنى البلدية حاملين بأيديهم شهادات عقد قرانهم وتتلألأ في عيونهم نجوم براقة، يتمشون للحظات بين راكبي الدراجات والأطفال، يبتسمون لأنهم يعرفون حبّهم الذي أصبح مجازاً في الآونة الأخيرة، وأتخيّل أنهم قد يحبّون أن يكتشفوا الكتاب، كهدية من بلدية المدينة احتفاء بيومهم الخاصّ هذا، أو لعل الكتاب يريد أن يكتشفهم. في البدء، كنت أوزع الكتب، وعندما أجلب كتاباً جديداً، ألقي بالكتاب القديم. أحتفظ دائماً بسبعة كتب فقط. لكني بدأت أكتشف أن أشخاصاً آخرين بدأوا يتركون كتباً في المكان الذي أترك فيه كتبي، ويخيّل إليّ أنهم يتركونها لي، فبدأت أملأ مكتبتي بالهدايا العشوائية من غرباء مجهولين، ولم أعد أعرف

ماذا سأقرأ بعد ذلك، فأنتظر حتى تناديني الكتب المتروكة: أنتِ، أيتها القارئة، أنتِ لي. فلم أعد أختار ما أقرأه، أجول بين القصص التي ألقت بها المدينة إليّ».

وقف عند المدخل، نادماً، أخرق. حدّثته دون أن ترفع عينيها عن الصفحة. جلس بجانبها، مولياً ظهره إلى الحائط. مالت نحوه، قليلاً فقط، حتى تلامس كتفاهما. كانت ذراعاها متصالبتين، يداها تعانقان كتفيها. مدّت إصبعاً ولامست ذراعه.

قالت: «إن كنت تدخّن سجائر، فسيكون لدينا شيء مشترك».

قطع.

* * *

«اليوم التالي»، قال. إنه اليوم التالي، يوم في الزمن الحاضر. «ها نحن في اليوم التالي»، قال، «وغداً، واحد من اليومين المستحيلين. ها نحن، وإنه غداً».

«أنا روح حرّة»، قالت، ولوت فمها باستخفاف، لا شيء خاصّ، يقول فمها. «لكنك مقيّد بالسلاسل في كل مكان. في داخلك أصوات لا تنصت إليها، العواطف تتأجج في داخلك لكنك تكبتها، وأحلام مزعجة تتجاهلها».

«أنا لا أحلم أبداً»، قال، «أحياناً فقط وبلغة أخرى، بالألوان، لكنّها دائماً أحلام مسالمة. البحر الهادر، عظمة جبال الهملايا، أمّي تنظر إليّ وتبتسم، ونمور ذات عيون خضر».

فقالت: «إني أسمعك، عندما لا تشخر، فإنك تصرخ غالباً، صرخة تشبه صرخة بومة أكثر منها عواء ذئب. من... من... من... هكذا أنت. هذا هو السؤال الذي لا تستطيع الإجابة عنه».

يتمشيان في شارع بويري، والرصيف حولهما مليء بالحفر نتيجة أعمال الحفريات. آلات حفر الرصيف تهدر بقوة ويستحيل سماع أي أحد يتكلّم. يلتفت نحوها ويحرك شفتيه صامتاً. لا يقول شيئاً في الواقع. يفتح فمه ويغلقه فقط. تتوقّف آلة الحفر لدقيقة.

«هذا هو ردّي»، قالت.

قطع.

* * *

يمارسان الحبّ. لا يزال الوقت في الغد، لا يزال بعد الظهر، لكن الشهوة تعتمل فيهما كليهما ولا يريان سبباً يدعو إلى الانتظار حتى حلول الظلام. وعلى الرغم من ذلك، يغمضان أعينهما. للجنس مظاهر عديدة أحادية الجانب حتى عندما يكون هناك شخص آخر حاضراً، تحبّه وترغب في إمتاعه. لكن لا تعود هناك حاجة إلى رؤية الشخص الآخر عندما يتقن العاشقان ممارسة الطرق التي يحبذانها. فقد أصبح جسد كل منهما يعرف جسد الآخر، وقد تعلّم جسد كلّ منهما كيف يتحرّك بشكل ينسجم مع الحركة الطبيعية للآخر. ويبدأ فم كل منهما يعرف كيف يجد فم الآخر. وتعرف أيديهما ماذا يجب أن تفعل. لا، تختفي كلّ الحافات الصلبة، وتصبح مضاجعتهما سهلة وسلسة.

هناك طريقة تنجح غالباً، صعوبة تظهر عادة. فهو يعاني من مشكلة تحقيق انتصاب والحفاظ عليه. يراها جذّابة للغاية، يحتجّ كثيراً في كلّ لحظة فشل، عند كلّ ارتخاء، لكنها تشعره بأنها تتقبّل ذلك وتضمّه إليها وتعانقه. في بعض الأحيان ينجح للحظة ويحاول أن يلجها، لكن ما إن يبدأ الولوج حتى يرتخي فيبدأ يضغط بعضوه المرتخي على شيئها. لا يهتما بذلك، لأنهما اكتشفا عدة سبل ناجحة

أخرى. كانت جاذبيته لها شديدة إلى حدّ أنها تكاد تبلغ ذروة الرعشة من أول لمسة يلمسها، وهكذا، باللمسات والقبلات، باستخدام أعضائهما الثانوية (اليدين، الشفتين، اللسان)، كان يوصلها إلى لحظة الشغاف فتبدأ تضحك في متعة منتهية، وتصبح متعتها متعته، وفي غالب الأحيان، لا يجد نفسه مضطراً لأن يقذف. كان يرضى بإرضائها. يتحولان إلى مغامرين ومستكشفين أحدهما لجسد الآخر وتمضي الأمور، بشدة أكثر قليلاً، ويجدان في ذلك متعة كبيرة. تفكّر، لكنها لا تقول ذلك علناً، أن الصعوبة المعتادة لدى الشباب هي أنهم ينتعظون على الفور، وعدة مرات، لكن يعوزهم الصبر، والتحكم بالذات، ويفتقرون إلى المجاملات والمداعبات، وينتهي بهم بعد دقيقتين. أما تلك الساعات الطويلة من المداعبة فهي ممتعة أكثر بكثير. إن ما تقوله، وقد فكّرت فيه كثيراً قبل أن تقوله: يبدو كما لو أننا امرأتان. يبدو الحال آمناً جداً، فاسقاً جداً، لكليهما. الثاني بسبب الأول.

هناك. قالتها. إنها على الملأ. إنه مستلق على ظهره يحدّق في السقف. للحظة طويلة لا يجيب. ثمّ:

نعم، يقول.

صمت طويل آخر.

نعم، ماذا، تسأل بصوت خفيض، يدها على صدره، أصابعها تداعبه.

نعم، قال. أفكّر في ذلك. أفكّر في ذلك كثيراً.

فلاش باك. حركة دائرية.

كان ذلك في السنة التي جاء فيها مايكل جاكسون لزيارة بومباي. مامبي. بومباي. تشاهد على التلفزيون في نشرات الأخبار

رجال يعتمرون عمائم وردية وزعفرانية اللون في المطار، يتقافزون بشكل مسعور على أنغام موسيقى *دُهل*. لافتة قماشية كبيرة معلقة في قاعة القادمين كُتب عليها بأحرف كبيرة **ناماست مايكل ناماست من هيئة المطارات في الهند**. وكان مايكل جاكسون في قبعة سوداء وسترة حمراء ذات أزرار ذهبية يحيّي الراقصين. *أنتِ حبّي الخاصّ أيتها الهند*، يقول. *ليبارككم الله على الدوام*. الصبي دي في الثانية عشرة من عمره يجلس في غرفة نومه، يشاهد الأخبار، يتعلّم كيف يسير على سطح القمر، يردد كلمات الأغاني المشهورة، الكلمات كلها مدوّنة أمامه، بكاملها. يا له من يوم عظيم! وفي صباح اليوم التالي، يركب السيارة التي يقودها سائق متوجهاً إلى المدرسة. يهبطان من التلّة إلى شارع مارين حيث يوجد ازدحام شديد عند شاطئ تشوباتي. وفجأة، رآه، مايكل جاكسون، بلحمه ودمه، يمشي بين السيارات الواقفة! يا إلهي يا إلهي يا إلهي يا إلهي يا إلهي. لكن لا، بالطبع ليس هذا مايكل جاكسون الحقيقي. إنه *هيجرا*(*). *هيجرا* يشبه مايكل لكن بهيئة عملاق يعتمر قبعة مايكل السوداء ويرتدي معطفاً أحمر بأزرار ذهبية. يا له من تقليد رخيص. كيف تتجاسر على عمل ذلك. هيا اخلعها. إنها ليست لك. يلمس هيجرا بيده اليمنى حافة القبعة ويؤدي دورات سريعة في وسط السيارات المكتظة، يمسك أريبته/أريبتها. يحمل *هيجرا* جهاز تسجيل مكسوراً تصدح منه أغنية «سيّئ». هيجرا، بوجهه المطلي باللون الأبيض وأحمر الشفاه يحرك شفتيه. يا له من شيء مقزز. شيء لا يقاوم. شيء مرعب. كيف يمكن السماح بذلك. وقف *هيجرا* الآن أمام نافذة سيارته، الميلورد الشاب الذاهب إلى مدرسة الكاتدرائية، ارقص معي، أيها السيد

(*) مصطلح يطلق على المخصيّين والمتحولّين جنسياً في جنوب آسيا.

الشاب، ارقص معي. صاح من وراء النافذة المغلقة، ضغط بشفتيه الحمراوين على الزجاج. *هاتو، هاتو*، يصرخ السائق، ملوّحاً بذراعه، هيا ابتعد، لكن *هيجرا* أخذ يضحك، ضحكة عالية تشي بالاحتقار، ثم ذهب مبتعداً إلى الشمس.

حركة *دائرية*.

عندما أريتني تمثال أردهاناريشفارا قلتِ، من جزيرة إليفانتا، أغلقت فمي ولم أقل شيئاً. لكن نعم، فأنا أعرفها/أعرفه منذ زمن بعيد. إنه التقاء شيفا وشاكتي معاً، قوى الكينونة والعمل في الربوبية الهندوسية، النار والحرارة يجتمعان في جسد هذا الإله الواحد الثنائي الجنس. *أردها*، نصف، *ناري*، امرأة، *إيشفارا*، إله. ذكر من جانب، وأنثى من الجانب الآخر. إني أفكّر فيه/فيها منذ أن كنت صبياً. لكن بعد أن رأيت *هيجرا* تملّكني الخوف. كان الجميع يخافون من *هيجرا*، ينفرون منه قليلاً، وأنا كذلك. وكنت مفتوناً به أيضاً، هذا صحيح، لكنّي كنت أخاف أيضاً من الحقيقة بأنني كنت مفتوناً به. ما علاقتهم بي، هؤلاء النساء - الرجال؟ كان كل ما أسمعه عنهم يجعلني أرتجف. خاصة *العملية*. إنهم يسمونها كذلك، *عملية*، باللغة الإنكليزية. يتناولون الكحول أو الأفيون، لكن ليس مخدراً. يقوم بهذا العمل *هيجرا* آخر، ليس طبيباً. خيط يُعقد حول العضو التناسلي لبتره، ثمّ سكين مقوّسة طويلة تبتر العضو. تُترك المنطقة المسحوجة تنزف، ثمّ تُكوى بزيت حار. في الأيام التي تعقب ذلك، حتى يلتئم الجرح، يظل الإحليل مفتوحاً بعمليات جسّ متكررة. وفي النهاية، تظهر ندبة مجعّدة، تشبه المهبل وتُستخدم كمهبل. وما علاقة ذلك بي، لا شيء، فأنا لست مولعاً بعضوي الجنسي إلّا هذا، هذا، أوخ.

ماذا قلتَ الآن، قاطعته. لست مولعاً بعضوك الجنسي.

لم أقل ذلك. هذا شيء لم أقله.
قطع.

* * *

ريا جالسة على أرضية الغرفة، تقرأ من كتاب «استناداً إلى ما يقوله الشاعر -كهنة الشيفية، شيفا، هو *أمرناي - أبار*، أمّ وأب معاً. يقال إن براهما هو الذي خلق البشرية عندما حوّل نفسه إلى شخصين اثنين: الذكر الأول، *مانو سفايامبهوفا*، والأنثى الأولى، *ساتاروبا*. لقد فهمت الهند دائماً الخنثوية، رجل في جسد امرأة، امرأة في جسد رجل».

دي في حالة هياج شديد، ينتقل من جدار أبيض إلى جدار أبيض، يضرب الجدار بقضبته ما إن يصل إليه، ثم يستدير ويمشي، ويصل إلى الجدار الآخر، يضربه، ثم يستدير، ويمشي، ويصل إلى الجدار، ويضربه، وهكذا.

لا أعرف ماذا تحاولين أن تفعليه لي. عملك في المتحف يدمّر رأسك. هذا هو أنا. أنا لست شخصاً آخر. هذا هو أنا.

لا ترفع ريا عينيها. تواصل القراءة بصوت عال. «قلة من *الهيجرا* يستقرون في أماكنهم الأصلية. إن عدم تقبّل الأسرة ورفضها له قد يفسّر هذا الاقتلاع من المكان. فبعد أن تعيد تكوين نفسها ككائنات، تنبذها عائلاتها الأصلية في كثير من الأحيان، فينقل *الهيجرا* هويّاتهم الجديدة إلى أماكن جديدة حيث تتكوّن من حولهم أسر جديدة تضمهم إليها».

توقّفي، صاح. لست مستعداً لسماع هذا الكلام. إنك تريدين أن تجرّيني إلى الحضيض؟ أنا ابن نيرو غولدن الأصغر. أتسمعينني؟ الابن الأصغر. لست مستعدّاً.

«'عندما كنتُ طفلاً كنت أسلك سلوك الفتيات وكانوا يسخرون مني ويوبّخونني لأنني كنت أتصرّف كالبنات'. 'غالباً ما كنت أقول لنفسي إنني يجب أن أعيش مثل صبي، وبذلت كلّ ما بوسعي لكنّي لم أستطع'. 'نحن أيضاً جزء من الخلق'». ترفع عينيها عن الكتاب، تغلقه، ثم تستوي واقفة، تخطو نحوه وتقف أمامه مباشرة، وجهها يكاد يلتصق بوجهه. وجهه غاضب، وجهها خال من أي تعبير، ويبدو محايداً تماماً.

أتعرف؟ تقول. عدد كبير منهم لا يجرون *العملية*. لا يجرونها أبداً. فهي ليست ضرورية. الشيء المهمّ هو من يعرفون ماذا هم.

هل وجدت هذا الكتاب على مقعد الحديقة؟ سألها. حقاً؟

هزّت رأسها، ببطء، بحزن، لا، طبعاً لا.

سأذهب الآن، قال.

غادر. في الخارج، كان الشارع في عصر ذلك اليوم الحار مزداناً بزينة مبهرجة، صاخب، مزدحم. إنه الحيّ الصيني.

(١٣)

حشرة عملاقة. آفة متوحشة. بقّة دودية. استيقظ غريغور سامسا في صباح أحد الأيام من كوابيس مزعجة ليكتشف أنّه تحوّل في سريره إلى *ungeheuren Ungeziefer*. اختلف الناس على أفضل ترجمة لهذه العبارة، لأنها لم تحدد طبيعة هذا المخلوق بدقة في قصّة كافكا. قد يكون صرصاراً عملاقاً. عاملة التنظيف تقول إنها خنفساء. حتى هو نفسه يبدو أنه غير متأكد تماماً. وفي جميع الأحوال، فهي شيء مريع، لها ظهر مدرّع وساقان مرخيتان قليلاً. لقد تحوّل إلى *ungeheuren Ungeziefer* إلى شيء لا يريد أحد أن يكونه. شيء أشاح الجميع بوجوههم عنه برعب شديد، ربّ عمله، أسرته، حتى حبيبته وأخته التي كانت تحبّه. شيء ميّت، في النهاية، يجب وضعه في صندوق القمامة لكي يتخلص منه عامل النظافة. هكذا بدأ يصبح، قال دي لنفسه، مسخاً، حتى هو. راح يسير في شوارع المدينة، شارداً في هذه الأفكار السقيمة. ومع أن الشمس كانت مشرقة اعتراه شعور بأن الظلام يغلّفه - بأنه، بدقة أكثر، ينيره ضوء كشّاف ليتفحّصه الجميع ويصدرون حكماً عليه، لكنه كان محاطاً ببخار عفن أسود لم يتمكن من التعرف على وجوه القضاة الذين سيصدرون الحكم عليه. وما إن وصل إلى باب بيت والده حتى أدرك أن قدميه أرجعتاه إلى شارع ماكدوغال. فتش عن المفتاح في

جيبه، ثم دخل إلى البيت، راجياً ألّا يرى أحداً من أفراد أسرته. لم يكن مستعداً لذلك. لم يكن هو نفسه. فإذا رأوه فقد يرون أن تحوّله مكتوب على جسده كله فيصرخون مرعوبين، *Ungeziefer*... لم يكن مستعداً لذلك.

كم بدا البيت من الداخل غريباً عليه الآن! لم يكن ذلك نتيجة للسبب الواضح وهو أن عشيقة والده فاسيليسا أرسينيفا قد بدأت بتنفيذ خطّة «تحديث» شاملة لتغيير ديكورات البيت ما إن انتقلت إليه، فارتقت بذلك درجة على سلّم المودة لتتبوأ مكانة «عشيقة تقيم في البيت». كان الإصبع الرابع في يدها اليسرى لا يزال عارياً، لكن، جميع أبناء غولدن اتفقوا على أنه قد لا ينقضي وقت طويل حتى يلمع فيه خاتم ألماس، وبعد خاتم الألماس، لا بد أن عقداً من الذهب سيطوق عنقها. من المؤكد أنها بدأت تتصرّف على أنها صاحبة البيت. فقد أعيد طلاء البيت كله بلون محار رمادي أنيق، واستُبدل كلّ شيء قديم أو كان في طريقه إلى الاستبدال بكلّ شيء جديد و«راق» - الأثاث، البسط، التحف الفنية، الأضواء، مصابيح الطاولة، منافض السجائر، إطارات الصور. وطلب دي أن تبقى غرفته على حالها، فاحترمت طلبه، لذلك ظلّ، على الأقل، هناك شيء مألوف في البيت. لكنّه أدرك أن إحساسه بالغرابة لم يكن نابعاً من إعادة تغيير الديكور، وإنما من نفسه هو. فعندما كان يسير في الممر ثم يصعد الدرج، يعتريه هاجس، إحساس بأن كلّ شيء سيتغيّر، وأن التغيير أشبه بكارثة، وأن سبب هاجسه لا يكمن في الطلاء بلون المحار أو الأرائك المخملية الفضية اللون، وليس معلّقاً في ستائر غرفة الجلوس الجديدة، أو يتوهج في الثريا الجديدة المعلّقة في غرفة الطعام، أو يومض في مواقد الغاز الجديدة التي سيسخّن لهبها في الشتاء سريراً من الحصى سيتألّق ببهجة عصرية.

صحيح أن هذه البيئة المتجددة لم تعد المدرسة القديمة، العالم المعاش الذي خلقه نيرو غولدن الذي عاشوا فيه أول ما وصلوا. كان مهووساً بشيء آخر غير طبيعي مزعج، تحاشته النسخة السابقة، أيضاً نوع من تقليد الحياة، بشكل ما. لكن لا! لم يكن السبب هو البيت. بل التغيير في نفسه. فهو نفسه الظلام الذي أحس أنه يحيط به، القوة التي تقرّب الجدران وتخفّض الأسقف، مثل بيت في فيلم رعب، ويخلق جواً من الظلم والخوف من الأماكن الضيّقة. في الحقيقة أصبح البيت متألقاً أكثر من قبل. وأنه هو الذي تحوّل إلى الظلام.

كان يجري مبتعداً عن الشيء الذي يعرف أيضاً أنه يتحرّك نحوه. كان يعرف أنه قادم، لكن ذلك لا يعني أنه كان يحبّ ذلك. كان يكرهه، لكن لا يمكن تجنّب الحقيقة، وهذا ما خلق العاصفة التي تحيط به الآن. أراد أن يدخل إلى غرفته ويحبس نفسه فيها. أراد أن يختفي عن الأنظار.

عندما أفكّر في شخصية دي في هذه اللحظة الحرجة، فإني أتذكّر رائحة إي. أدورنو: «إن أرقى أشكال الأخلاق هو أن لا تشعر بالراحة في بيتك». نعم، يجب أن تكون منزعجاً بارتياح، حائراً ومضطرباً أمام السهل، أن تشكّ وتتساءل حول الفرضيات المسلّم بها عادة وبسعادة، أن تخلق لنفسك تحدّياً يعتبره معظم الناس الفضاء الذي يشعرون فيه أنهم تحرروا من التحديات؛ نعم! هذه هي الأخلاق التي رُفعت إلى درجة تكاد تدعى البطولة. في هذه الحالة، كانت تشيع في فضاء «بيت» دي غولدن مودة وحميمية أكثر مما تشيع في بيت العائلة نفسه؛ لم يكن شيئاً أقل من جسده هو. فلم يكن يشعر بأنه منسجم مع في جسده، يعاني، بحدّة، هذا التنوع الهام الجديد في مشكلة العقل/ الجسد. ذاته اللاجسدية، العقل، بدأ يصرّ

على الكينونة التي أنكرها الجسد، ذاته الجسدية، وكانت النتيجة معاناة جسدية وعقلية.

خيّم الصمت على البيت الذهبي. وقف لحظة على بئر درج الطابق الثاني أمام جناح أبيه. كان الباب مغلقاً، لكن باب الغرفة الذي بجانبه، الغرفة التي كانت سابقاً غرفة نوم احتياطية، تحوّلت الآن إلى غرفة ثياب فاسيليسا أرسينيفا، كان مفتوحاً، يكشف تحت أشعة شمس بعد الظهر عن رفّ فوق رفّ من الثياب والفساتين البراقة، ورفّ فوق رفّ من الأحذية ذات الكعوب العالية جداً. إن ذلك سيصبح مشكلة بالنسبة إليّ، سقطت الكلمات إلى وعيه من سفينة قائدة مجهولة تحوم في الأجواء وراء خطّ كارمان(*)، وحدود دواستك القصوى ضخمة جداً، لا تستطيع أن تستخدمك لأن قدميك كبيرتان جداً، أنا أكرهك جداً لأن قدميك كبيرتان جداً. نعم، فاتس والر، ماذا قلت. والآن هاتان القدمان الكبيرتان جعلتاه يمشي من تلقاء نفسه، مباشرة إلى وسط تلك الغرفة حيث رائحة عشب البتشول أقوى من أي مكان آخر في البيت، الرائحة التي جلبته إلى هذا البيت لتغطي على جميع الروائح التي كانت تعبق. فاسيليسا أرسينيفا، صامتة ومزهوة بنفسها متعجرفة كالقطط، تترك أثرها حيثما ذهبت. وتمتد يداه إلى تلك الفساتين، ويدفن وجهه في الترتر المعطّر، يتنشقّه بعمق، ثم يطلق زفيراً، ثم شهيقاً. ثم انحسر الظلام من حوله، وتوهّجت الغرفة بضوء قد يكون السعادة.

منذ متى يقف هنا؟ خمس دقائق أو خمس ساعات؟ لا يعرف. مشاعر عديدة تتصارع في داخله. أصبحت نفسه عبارة عن دوّامة من الاضطرابات، لكن يا لروعة ذلك، يا لروعة نعومة ملمس القماش

(*) خط يقع على ارتفاع ١٠٠ كيلومتر فوق الأرض من مستوى سطح البحر، ويستخدم عادة للتفريق بين الغلاف الجوي للأرض والفضاء الخارجي.

على خدّه، يا لروعة الإحساس بالفتنة، بالروعة، كيف يمكنه أن ينكر ذلك، لكن ماذا سيعقب ذلك، ما هي الخطوة الصحيحة التالية.

وكانت فاسيليسا واقفة عند الباب، تراقبه. «هل أستطيع أن أساعدك»، قالت له.

هل يمكنني مساعدتك، حقاً؟، كما لو كان هذا محلاً لبيع الألبسة ووجّهت إليه تهمه بالسرقة. كانت تقف هناك بعدوانية سلبية، بهدوء شديد، بل حتى أن شفتيها افترتا عن ابتسامة خفيفة. لا تتعالي عليّ يا سيدتي، *هل يمكنني مساعدتك*، لا، ربما لا. حسناً، إنه في خزانة ثيابها، يتشمم فساتينها، هذا حقيقي، لكن أيضاً ليس من اللائق قول ذلك. أم أنها مجرد مشكلة لغوية، قد يكون سؤالاً تعلّمته من كتيب تعلّم العبارات، فهي لا تفهم حالات الصرف أيضاً. إن طرح سؤال بهذه الطريقة يبدو عدوانياً عندما، ربما، ولعلها قصدت ذلك حرفياً، تريد أن تساعدني حقاً وتسألني كيف يمكنها أن تفعل ذلك. إنها لا تصدر حكماً عليّ، وهي ليست غاضبة، وإنما تمدّ يداً حقاً لتساعدني، لا أريد أن أسيء الظن في قراءتها هنا، فالوضع محرج، لكن نعم، ها هي تدنو مني، وها هي تعانقني الآن، وها هو كتيب آخر لتعلم العبارات، «لنرَ ماذا يمكننا أن نفعله من أجلك».

بدأت فاسيليسا تُخرج الثياب قطعة قطعة وتضعها عليه، هذا؟ هذا؟، سألته، ولتطمئنه قالت: «كنا، أنا وأنت متشابهين»، وأضافت، «في الشكل. رشيق، هل هي الكلمة الصحيحة». نعم، هزّ رأسه، هذه هي الكلمة. «رشيق مثل شجرة الصفصاف»، تابعت، هي نفسها مطمئنة لهذا التأكيد. «لا بد أن أمّك كانت طويلة وممشوقة القوام، مثل عارضة أزياء».

تسمّر في مكانه، ثم قال: «أمّي كانت قحبة». بدأ يرتعش، «لقد باعتني لأبي واختفت في *قحبستان*».

«هس، هس»، قالت، «هس الآن. لندع ذلك ليوم آخر. أما الآن، فهذه اللحظة لك. جرّب هذا».

«لا أستطيع. لا أريد أن أفسد ثيابك».

«لا عليك. لديّ الكثير منها. هيا اخلع قميصك، أدخل هذا في رأسك. أترى، إنه ضيّق قليلاً. ما رأيك؟»

«هل أستطيع أن أجرّب ذاك؟»

«نعم. طبعاً».

(أريد أن أتركهما وحدهما لدقيقة، لأعطيهما خصوصيتهما، مشيحاً ببصري بكل أدب وأتوقف عن تشغيل أنا - كاميرا الهاتف الخليوي، أو ربما أوجهها إلى الخلف. هذا هو بئر الدرج، ها هي الدرجات المفضية إلى بهو المدخل حيث لا يزال حتى الآن، بعد إعادة الديكور، الكلب البالون يراقب، حيث سمكة البيرانا المخلّلة تزمجر من أحد الجدران، وتشرق كلمات الحبّ من ضوء النيون بلون وردي وأخضر متوهج كالنار فوق باب المدخل، وها هو الباب الأمامي، يُفتح. يدخل نيرو غولدن. لقد عاد الملك إلى قصره. أراقب وجهه. يتطلع حوله، منزعجاً. يريدها أن تكون واقفة هنا لاستقباله، أين هي، ألم تقرأ نصّه. يعلّق قبعته وعكازه على المشجب في قاعة المدخل وينادي).

«فاسيليسا»

(تخيّل أنا - الكاميرا الثابتة أجري الآن بسرعة إلى الطابق العلوي، إلى الغرفة حيث تقف هي والشاب مرتدياً ملابسها وقد تسمّرا في مكانهما عندما سمعا صوته، وهي، فاسيليسا، تنظر إلى دي وتفهم أنه لا يزال يخاف من أبيه).

«سيقتلني. إنه سيقتلني. أوه، يا إلهي».

«لا، من المؤكد أنه لن يقتلك».

تعيد إليه ثيابه التي كان يرتديها.

«هيا ارتديها. سألهيه».

«كيف؟»

«سآخذه إلى الطابق العلوي...».

«لا».

«... إلى غرفة النوم وسأغلق الباب. عندما تسمع أنني بدأت أحدث ضوضاء كثيرة، ستعرف أن الوضع أصبح آمناً لكي تخرج».

«ما نوع الضوضاء».

«لا بد أنك ستخمّن بنفسك ما نوع الضوضاء. لا يتعين عليّ أن أكون شديدة الوضوح».

«أوه».

تتوقّف عند المدخل قبل أن تنزل للقاء نيرو.

«ودي؟»

«*ماذا*! أقصد، آسف، نعم، ماذا؟»

«قد لا أكون ألف بالمئة كلبة شرّيرة».

«نعم. نعم. من الواضح. أقصد لا، من الواضح لا».

«أهلاً وسهلاً».

«شكراً».

تبتسم ابتسامة تشي بالتآمر. يجب أن أنهي المشهد هناك، صورة مقرّبة جداً لتلك الابتسامة الموناليزية.

* * *

في وقت لاحق.

تصالح مع ريا الصبورة، المتفهمة، وها هما بصحبة آيفي مانويل في المطعم الجامايكي الكائن بين شارعي هيوستن وسوليفان، يشربون

أنواعاً من الكوكتيل الخطيرة في ساعة متأخرة من الليل. أو هيا لنتخيّلها من جديد: الأشخاص الثلاثة يجلسون حول طاولة مستديرة بسيطة في استوديو أسود بالكامل، يحتسون مشروباتهم (الكوكتيلات الخطرة مقبولة، حتى في عالم النسيان)، العالم غير موجود إلّا بالنسبة إليهم وهم يناقشون مسائل عميقة حول اللغة والفلسفة. (مصدر متعمّد: فيلم جان-لوك غودار «*متعة التعلم*»، ١٩٦٩، بطولة جان بيير لود وجوليت بيرتو، الفيلم الذي اعتبره الكثير من النقاد فيلماً تعليمياً، لكن النزعة التعليمية مطلوبة أحياناً) في البداية، كانت معنويات دي متدنية، يقتبس عبارات من نيتشه (مؤلف كتاب *العلم المرح*) يسأل «السؤال الشوبنهاوري: إذاً هل للوجود أي أهمية؟ - السؤال الذي سيحتاج إلى قرنين من الزمن حتى يُسمع بعمق شديد». لكن رويداً رويداً، تبث فيه المرأتان الفرح والحيوية، تشجّعانه، تدعمانه، تتملقانه، ثمّ، بعد أن يعطي إيماءة صغيرة بالقبول ويبتسم بحذر، تعرّفانه شيئاً فشيئاً على مفردات مستقبله، مستقبل سيتوقّف فيه الضمير «خاصته» عن أن يكون «خاصته». كانت أول وأهم كلمة هي التحوّل. في الموسيقى، التغيير المؤقت من نغمة إلى أخرى. في الفيزياء، تغيير ذرّة، نواة، إلكترون، وما إلى هنالك، من حالة كوانتوم إلى أخرى، بانبعاث أو امتصاص الإشعاع. وفي الأدب، فقرة في نص تصل موضوعين أو قسمين ببعضهما بسلاسة. وفي الحالة الراهنة... في الوضع الحالي، العملية التي يتبنّى فيها أحدهم الخصائص الخارجية أو الجسدية بشكل دائم لنوع الجنس الذي يحدّدونه، مقابل خصائص نوع الجنس الذي حُدّد لهم عند الولادة. وقد تنطوي العملية أو لا تنطوي على إجراءات من قبيل المعالجة بالهرمونات وجراحة إعادة تحديد نوع الجنس.

* * *

«لا تفكّر في إجراء عملية جراحية»، قالت له المرأتان، «بل حتى لا تدع ذلك يخطر على بالك. فلم نصل إلىٰ تلك النقطة بعد». (عند تصوير هذا المشهد تستطيع الممثلتان أن تقرّرا من عليها أن تقول هذه العبارة أولاً. أما الآن، فلنقل إن ريا هي التي تقولها، ثمّ آيفي، وهكذا).

«يجب أن تقرر من أنت. ومن أجل ذلك، توجد مساعدة محترفة».

«الآن فقط تستطيع أن تكون متحوّلاً جنسياً، مشتهي تغيير الجنس، متخنّث، تحبّ ارتداء ثياب النساء. أي شيء تشعر أنها مناسبة لك. لا توجد ضرورة لاتخاذ خطوة إلى الأمام إلا إذا أحسست أنها مناسبة لك».

«توجد مساعدة محترفة لهذه الأمور».

«كان ذلك عندما كان الناس يضعون تسميات أمام أسمائهم: مثل آيفي المخنثة، أو ريا التي ترتدي ثياب الجنس الآخر. وهناك أيضاً تغيير الجنس. «انظروا، ها هي تأتي *سالي متغيرة الجنس*». لقد نشأ عالم المتحوّلين كله الآن. الآن أصبحت مجرد سالي أو مهما كان اسمها. لم يعد هناك تصنيف إلى فئات».

«لكن يجب أن تفكّر في الضمائر. فالكلمات هامة. فإذا تخلّيت عن من هو، فمن يكون؟ تستطيع أن تختار الضمير هم. إذا قرّرت أنك لا تعرّف هل أنت أنثى أم ذكر. فإن الضمير «هم» يعادل هوية جنس غير معروف. خاص جداً».

«هناك أيضاً *ze*».

«وهناك أيضاً *ey*».

«وهناك أيضاً *hir, xe, hen, ye, ne, per, thou, Mx*».

«كما ترى. توجد تسميات كثيرة».

«*thou* مثلاً مزيج من ذلك وواحد».

«*Mx* بدلاً من *Ms* وتُلفظ ميكس. أنا شخصياً أحبّ هذه التسمية».

«إنها أكثر من الضمائر، بشكل طبيعي. بعضها، قلت لك في المتحف في المرّة الأولى تلك. الكلمات مهمّة. يجب أن تكون متيقناً من هويتك إلا إذا كان يقينك هو أنك غير متأكد إلى أي فئة جنسية تنتمي».

«أو قد تكون transfeminine، لأنك ولدت ذكراً، وتنتابك مشاعر أنثوية عديدة لكنّك لا تشعر بأنك امرأة حقاً».

«المرأة هي كلمة منتزعة من البيولوجيا، وكذلك كلمة رجل».

«أو إذا لم تكن تنتابك مشاعر الأنوثة أو الرجولة، عندها قد لا تنتمي إلى أي من الجنسين».

«إذاً لا توجد عجلة. أمامك وقت طويل للتفكير».

«هناك أشياء كثيرة يجب تعلّمها».

«إن التحوّل مثل الترجمة. الانتقال من لغة إلى أخرى».

«بعض الناس يتعلمون اللغات بسهولة، والبعض الآخر يجدون صعوبة في تعلّمها. لذلك توجد مساعدة محترفة».

«فكّر في شعب *نافاجو* من الهنود الحمر. فهم يقرّون بأربعة أنواع من الجنس: فبالإضافة إلى الذكر والأنثى، هناك *نادليهي*، الروحان، تولد ذكراً، لكنها تؤدي دور امرأة، أو العكس بالعكس».

«تستطيع أن تكون ما تريد أن تكون».

«الهوية الجنسية لا تُعطى، إنها اختيار».

كان دي صامتاً حتى الآن، ثم تكلّم أخيراً. «ألم يكن الحديث معكوساً؟ إن كون المرء مثليّاً ليس اختياراً. إنها ضرورة بيولوجية؟ وهل نقول الآن إنها اختيار بعد كل شيء؟»

«إن اختيار هوية»، قالت آيفي مانويل، «ليس مثل اختيار حبوب في السوبرماركت».

«إن قول 'اختيار' يمكن أن تكون أيضاً طريقة للقول 'يُختار'».

«لكن هل هو اختيار الآن؟»

«لذلك توجد مساعدة محترفة. بالمساعدة، سيصبح اختيارك واضحاً بالنسبة إليك».

«سيصبح ضرورياً».

«عندها لن يكون اختياراً؟»

«إنها مجرد كلمة. لماذا تتمسكان بذلك؟ إنها مجرد كلمة».

تعتيم.

(١٤)

في الساعة السابعة من صباح يوم زفافه، يوم من أشدّ الأيام حرارة في الصيف، مع تحذيرات من حدوث أعاصير في تقارير الأرصاد الجوية، ذهب نيرو غولدن، كالمعتاد ليلعب التنس في ملعب التنس بين الشارع الرابع ولافاييت مع ثلاثة من مجموعة الأصدقاء/ الشركاء/ الزبائن المقربين. هؤلاء الرجال الغامضون الذين لا يزيد عددهم على خمسة رجال، يخيّل إليّ أن أحدهم يشبه الآخر شبهاً شديداً: فهم أجلاف، لون بشرتهم بلون الجوز بسبب تعرّضهم لفترات طويلة لأشعة الشمس الغالية في أماكن غالية، وشعرهم خفيف يكاد يلتصق برؤوسهم، ولهم فكّ قوي، وجوههم حليقة، صدورهم عريضة، وقد اكتست أرجلهم بشعر كثيف. وكانوا يبدون في ثيابهم الرياضية البيضاء مثل فريق من جنود البحرية المتقاعدين، سوى أن جنود البحرية لا يستطيعون شراء ساعات كالساعات التي يحملونها، فقد أحصيتُ ساعتيْ رولكس، وساعة فاشيرون كونستانتين، وساعة بياجيه، وأخرى أوديمارس وبيجيت. ذكور أقوياء، أغنياء، لم يعرّفهم علينا قط أو يدعوهم إلى الغاردنز لتبادل الأحاديث الاجتماعية. كانوا رجاله هو فقط، وقد احتفظ بهم لنفسه.

عندما سألت أبناءه كيف جمع الرجل العجوز ثروته، كنت

أحصل على إجابات مختلفة في كلّ مرّة. «من أعمال البناء»، «العقارات»، «خزائن حفظ الأموال»، «أعمال الرهانات على الإنترنت»، «تجارة الغزل»، «شحن البضائع»، «رأسمال المغامرة»، «النسيج»، «إنتاج الأفلام»، «هذا ليس من شأنك»، «الفولاذ». وبعد أن حدّدها لي والداي، الأستاذان الجامعيان، بدأت، بأقصى ما بوسعي، أبحث بهدوء عن الحقيقة، وأحقق في هذه المزاعم المتباينة إلى درجة كبيرة. واكتشفت أنّ الرجل الذي نعرفه باسم ن. ج. غولدن كان قد شكّل عادات سرية قبل أن يظهر بيننا بمدة طويلة، وكانت شبكة الواجهات الزائفة، والشركات الشبحية، والشركات بالوكالة التي أنشأها لحماية تعاملاته وصفقاته عن عيون العامة شديدة التعقيد بالنسبة إليّ - مجرد شابّ يحلم بالأفلام - ليخترق حياة الآخرين من مسافة بعيدة. فقد كانت له أصابع في فطائر عديدة، وله سمعة مهاجم مخيف. وقد غلّف نفسه بسريّة تامة، وكان مجهول الاسم، لكنه عندما أقدم على حركته، عرف الجميع من هو اللاعب. فعندما كان في البلد الذي لا يمكن تسميته كان يُلقب «بالكوبرا» وإذا تمكنت من أن أصنع فيلماً عنه ذات يوم، قلت لنفسي، فلربما أطلق عليه هذا الاسم، أو ربما «الملك كوبرا». لكن بعد دراسة متأنية، استبعدت هذين الاسمين. لأن العنوان المناسب جاهز لديّ.

قادتني تحقيقاتي إلى عملية الاحتيال في قضية سبيكتروم - الجيل الثاني السيئة السمعة التي ملأت عناوين الصحف ونشرات الأخبار في الآونة الأخيرة في البلد الذي لا يمكن تسميته. فقد تبيّن أن أعضاء في الحكومة التي لا اسم لها في البلد الذي لا اسم له، كانوا قد باعوا رخص تردّدات هواتف خليوية من خلال الرشوة والفساد إلى شركات مفضّلة بأسعار منخفضة جداً، وتمكّنت تلك الشركات المفضّلة جداً من جمع حوالي ٢٦ بليون دولار أمريكي كأرباح غير

مشروعة. وبحسب مجلة *التايم*، التي كان لا يزال عدد قليل من الناس يقرأونها في تلك الأيام، فقد احتلت المرتبة الثانية بين أعلى عشر أعمال فساد في قائمة الأقوياء، وجاء ترتيبها بعد قضية ووترغيت مباشرة. فقد قرأت أسماء وأخبار الشركات التي مُنحت تلك الرخص، واكتشفتُ نفس نوع الشبكة الأثيرة لدى نيرو، منظومة معقّدة من الشركات التي تملكها شركات أخرى تشتري فيها شركات أخرى أيضاً حصصاً وأسهماً كبيرة. وفي تقديري فإن نيرو كان القوة الكامنة وراء أكبر تلك الشركات، *إيغل تيليكوم* التي اندمجت مع شركة ألمانية تدعى *فيربندين إكستراتيتش*، ثمّ باعت خمساً وأربعين في المئة من أسهمها إلى *مورتاسين أبو ظبي* التي غيّرت اسمها إلى *مورتاسين - إي في للاتصالات*. ورُفعت دعاوى قانونية ضد العديد من الشركات الجديدة التي حصلت على تراخيص في سلسلة من المحاكم الخاصّة التي أنشأها المكتب المركزي للتحقيقات، أو ما يعرف اختصاراً ب (سي بي آي). كانت تلك لحظة «اكتشاف» بالنسبة إليّ. لم يكن بإمكاني أن أصدّق أن نيرو يستطيع أن يضع خططاً محبوكة بإتقان شديد كتلك، لكي يغادر بلده من دون أي سبب - لم يكن بإمكانه أن يتنبأ بموت زوجته في ذلك الهجوم الإرهابي على الفندق الأيقوني القديم - وتورطه المحتمل في هذه الفضيحة الهائلة وهو سبب مقنع أكثر بكثير ليقوم بالتحضيرات إذا ما اضطر إلى المغادرة فجأة. وبالطبع، لم أجرؤ على مواجهته بالشكوك التي تساورني. لكن فيلمي المتخيّل، أو سلسلة الأفلام التي أحلم بها، بدأت تزداد جاذبية؛ قصة مالية وسياسية مثيرة، أو سلسلة من هذه القصص المثيرة، يقع جيراني في صميمها. كان ذلك أمراً مثيراً للغاية.

تدفعني الأعراس دائماً إلى التفكير في الأفلام. (كلّ شيء

يجعلني أفكّر في الأفلام) داستن هوفمان في فيلم «*الخريج*» وهو يضرب بمطرقة على جدار زجاجي في كنيسة في سانتا باربرة ليخطف كاثرين روس من المذبح. الجدّات يرقصن في نيودلهي في الموسم الماطر في فيلم «*عرس الرياح الموسمية*»، وانسكاب النبيذ الذي ينذر بالشؤم على فستان العرس في فيلم «*صائد الأيل*». وإطلاق النار على رأس العروس في يوم زفافها في فيلم «*اقتل يا بيل: الجزء الثاني*». وبيتر كوك وهو يؤدّي مراسم الزواج في فيلم «*الأميرة العروس*». ومأدبة العرس التي لا تُنسى لتشين كيغ في فيلم «*الأرض الصفراء*»، حيث يُقدم للضيوف في حفل زواج صيني ريفي في إقليم شانكسي الفقير سمكات خشبية بدلاً من الطعام الحقيقي لعدم وجود سمك حقيقي يمكن تناوله، لكن يجب أن يُقدّم السمك في أي حفلة زفاف. أما عندما عقد نيرو غولدن قرانه على فاسيليسا أرسينيفا في الحديقة المشتركة بين شارعيْ ماكدوغال وسوليفان في الساعة الرابعة بعد الظهر، فلا بد أن يتبادر إلى الذهن أنه لا بد أن يكون أشهر مشاهد الأعراس التي صُوِّرت على الإطلاق، ما عدا أن كوني كورليون لم تكن ترقص مع أبيها هذه المرة، بل رقص الأب مع عروسه الشابّة، عندما تخيّلت الأغنية الإيطالية الأمريكية التي كتبها خصيصاً لهذا المشهد السينمائي والد المخرجة كارمن كوبولا وهي تعلو على الموسيقى الحقيقية وتغطي عليها في تلك اللحظة في الحديقة التي كانت تدعو إلى الرثاء تسجيلاً مبتذلاً لفرقة البيتلز تصدح بأغنية «*في حياتي*».

أعِد الشريط إلى الوراء لبضع ساعات: بعد أن عاد نيرو إلى البيت بعد انتهائه من لعب التنس، وهو يتصبب عرقاً كعادته، فقد كان يتعرق كثيراً، كما اعترف بصراحة، «يجب أن أصعد إلى الطابق العلوي لأن قميصي مبلل بالعرق». وبعد أن خلع قميصه وارتدى

برنس الحمّام الثقيل، دعا أبناءه الثلاثة للاجتماع في غرفة مكتبه. «تدور أسئلة في رؤوسكم أريد أن أحدّثكم عنها»، قال لهم، «في المقام الأول، لن يتغيّر شيء. فأنا لا أزال والدكم، هذا أولاً. أما فيما يتعلق بكما أنتما الاثنين، فإني سأظل أحبّ أمّكما المرحومة كما أحببتها من قبل، هذا ثانياً، أما أنت، أصغر أبنائي، فإني سأظل أشعر بالأسف للظروف التي أدت إلى ذلك، لكنّك تعرف هذا، وأنت ابني مثل أخويك الآخرين، هذا ثالثاً؛ لذلك، في الوضع الراهن، فإنكم تفهمون هذا. أيضاً، لندخل إلى صميم الوقائع: إذ تعرفون جميعاً أننا عقدنا اتفاقاً مبرماً قبل عقد القران وقّعت عليه فاسيليسا من دون أي اعتراض. ارتاحوا: فميراثكم بخير وهو آمن. سيبقى الوضع الحالي كما هو، بالنسبة إليكم وإليّ أيضاً. فبعد عدة عقود من كوني والدكم كلكم، فإن فكرة إنجاب طفل آخر غير واردة. طفل، قلت لها، طفل كلمة تتألف من ثلاثة حروف، وهذا أيضاً لم تعترض عليه. لن يكون لديكم أخ رابع، ولن تكون لديكم أخت أولى. الوضع الراهن. أعدكم بذلك في يوم عرسي. ولا أريد منكم سوى أن تقبلوا زوجتي. فلا يوجد ذهب يُحفر هنا، ولا إنجاب أطفال يسرقون الميراث. لم أكن ملزماً بأن أخبركم بهذه الأمور لكنّني ارتأيت أن أفعل ذلك. في عمري الآن، أطلب منكم أن تباركوا لي زواجي مع أن ذلك غير ضروري، ومع ذلك فإني أطلب ذلك منكم. أسألكم، أرجوكم أن تسمحوا لأبيكم بأن يحظى بيومه هذا بسعادة».

في الحديقة، بعد أن جاء القاضي وأدى مهمته وذهب، وأصبح نيرو وفاسيليسا زوجاً وزوجة رسمياً، رحت أراقبهما وهما يرقصان كما كانا يرقصان في فلوريدا. لقد بدأت السنوات تبتعد عن الرجل العجوز عندما بدأ يتحرّك، منتصباً، برشاقة كبيرة، يتحرك بخفة على قدميه. كان يبدي اهتماماً كبيراً بشريكته. لغة الرقص تهمس كلماتها

السحرية وتعيده شاباً مرة أخرى. وهي بين ذراعيه، وقد بُعثت قوّة جمالها، تقرّب شفتيها كثيراً من أذنه، ثمّ تقوّس ظهرها العاري وتميل مبتعدة عنه. كانت تقترب منه كثيراً ثم تبتعد عنه، بتناغم وإيقاع، تغمره بأقوى تعويذة سحرية من كلّ إغواء: تعال - واذهب. فعلت ذلك مرات كثيرة. كانت فاسيليسا تدعه يضمّها إليه ويحرّكها. تقول لنا من دون الحاجة إلى أن تقول لنا: أنا لا أعرف الخوف، أنا أمتلكه، وبكلّ قوّة جسدي الساحرة أمرته بأن يضمّني بين ذراعيه بقوة بحيث، حتى لو أراد، لن يستطيع أن يتركني أسقط.

هذا ليس رقصاً، قلت لنفسي، إنه تتويج.

كان أبناء نيرو يراقبون ويتعلّمون. كان بيتيا يراقب من مكان يكاد يكون خفياً وراء الإطار المخصص لتسلق الأطفال والزحليقة، يمسك بقضبان الإطار كما لو كانت قضبان سجن. وفي لحظة ما، وقفت إلى جانبه، وقال: «إن كمية الحبّ في والدنا محدودة. إنها لا تتوسّع ولا تتقلّص. والآن بما أنها ستنتشر وتتمدد أكثر فلم يبق لنا منها سوى قدر أقل». وعندما ألقت فاسيليسا نظرة نحوه، ابتسم ابتسامة عريضة، وقال: «من الأفضل ألّا نستثير عداء الملكة الجديدة»، قالها بجديّة كما لو أنه يفضي بسرّ رسمي، «فقد تقرّر أن نُقتل جميعاً في أيّ لحظة».

كان أخوه آبوو يقف تحت شجرة محاطاً بمجموعته المألوفة من المهتمين بالفنّ الذي قدموا من وسط المدينة، والرسامين، ومرتادي النوادي، والإيطاليين، وكان يقف بجانبه المدخّن الشره، بسترته المخملية السموكن المعتادة، وقميصه الأبيض ذي الياقة في شكل جناحِ، أندي دريشير، المحترف البخيل المشهور الذي توجد لديه نقطة ضعف لأسباب مجهولة. فقد كان أندي أيقونة نيويورك لكنه لم ينشر شيئاً منذ صدور ديوانيه الشعريين في ثمانينات القرن العشرين،

لكنه كان يعيش حياة جيدة إلى حد ما في أرقى أحياء المدينة من دون وجود مصادر دخل واضحة أو سبل مالية أخرى. تخيّلته وهو يقيم في شقة صغيرة لا يوجد فيها حمّام يتناول طعام قطّة من العلبة مباشرة ثمّ ينفض الغبار عن سترته المخملية ويخرج ليحضر السهرات المخملية ويبتسم باستسلام حَرّان للشباب الوسيمين وينبح بشكاويه المعروفة بحدّة. وكانت قائمته بالأشياء والناس الذين يعترض عليهم تطول باستمرار وهي تضم حالياً: ارتياد السينما، ومحافظ نيويورك بلومبرغ، ومفهوم الزواج، سواء أكان مثليّاً أم طبيعياً، ومفهوم مشاهدة التلفزيون عندما يكون بإمكان المرء أن يمارس الجنس، والأجهزة الآلية (من كلّ الأنواع، لاسيّما الهواتف الخليوية المتطوّرة)، وحيّ إيست فيليج، ولوحات فيها رسوم ونصوص في محترفات مصمّمي الأزياء (التي كان يدعوها سرقة منظّمة)، والسيّاح، والكتّاب الذين نشروا كتباً. ووجّه إهانة إلى ريا المسكينة في ذلك اليوم (ثم أهان الجميع) بسخريته من «متحف الهوية» الذي تعمل فيه ريا، والفكرة بأنه مهما كان جنس المرء فهو الذي يختار ما يحسّ به. «سأشتري شقّة بعشرة ملايين دولار في الأسبوع القادم»، قال لريا وأضاف، «اسأليني كيف يمكنني أن أفعل ذلك»، فوقعت ريا في الفخ وسألته، فجاء الجواب، «أوه، أنا الآن ملياردير، إني أعتبر نفسي غنياً، لذلك فأنا كذلك».

بعد ذلك، بقيت ريا قريبة جداً من دي، وشاهدا معاً الملكة الراقصة في لحظة انتصارها. الجميلة تلتف وتلتف بين ذراعي الوحش العشيق، ومن حولها الحديقة، ونحن، المدعوين وغير المدعوين، الحقيقيين والمتخيلين، وبدأ المساء يقترب، وأشعلت خيوط أضواء الزينة التي تتخلل الأشجار مزاج ديزني المسحور. وكان أبي وأمّي، الأستاذان الجامعيان يرقصان معاً سعيدين، لا ينظران كلاهما إلى

أحد آخر؛ وانضممنا بسعادة، أنا ويو لنو فنو الحزين الموظف في الأمم المتحدة، والسيد آريبيستا الأرجنتيني، والأرستقراطيون الحقيقيون من مجتمع الغاردنز، وفيتو وبلانكا تاغليابو، والبارون والبارونة سيلنانت، بمساعدة كميات وفيرة من الشمبانيا، وتناولنا طعاماً لذيذاً جُلب من أفضل المطاعم في المدينة، وشعرنا، في ذلك الوقت السعيد القصير من خارج الزمن بأن العرس يمكن أن يشيع أحياناً، السعادة، معاً، وكمنفردين. وحتى لاعبو التنس الخمسة الذين تزيّن أرسغهم ساعات باهظة الثمن، ارتسمت بسمات عريضة على وجوه ليست معدّة للابتسام وهزوا رؤوسهم كأنهم يشعرون بالسعادة تجاه الآخرين في الغاردنز، وصفّقوا للرقص الملكي.

وظل هناك عدد من الأشخاص منفصلين عن الجميع. لكن عندما كانت الموسيقى تصدح وحلّ الظلام وتصاعد المرح، بدأوا يتحلّقون حول بعضهم أكثر وأكثر، كأنهم كانوا يقولون للآخرين، ابتعدوا عنا، لا تقتربوا منا، فإننا لا ننتمي إليكم. كانوا شباناً ذوي شعر طويل مملّس منسدل إلى ظهورهم، وأطلقوا لحى خفيفة من نوع اللحى التي يطلقها المصممون، وكانت تصدر عنهم حركات جسدية غير مريحة، يرتدون بدلات توكسيدو غير ملائمة، وأكمام قمصان بيضاء تبرز خارج أكمام ستراتهم، رجال من دون صحبة نساء، يشربون الماء أو الصودا أو لا يشربون شيئاً، يحكّون أقدامهم بالأرض، يدخّنون بشراهة، وفجأة، قلت في نفسي، لعل حدس *عرّابي* لم يولد من مشاهدته للثلاثية مرات عديدة، لعلي كنت أنوي شيئاً، لأنه بدا لي أن هؤلاء الأشخاص متوسّلون، أشخاص جاؤوا لحضور يوم سيدهم الكبير لكي يقبّلوا خاتمه. أم أنه (الآن بدأ مجاز العصابة السينمائية يؤثر عليّ حقاً) أصبح يبدو أنهم بدأوا يزدادون لهيباً. أدرت الفيلم في رأسي: مسدسات تظهر فجأة من داخل

الجيوب المنتفخة للبدلات التي فُصِّلت على مقاسهم لكنها لم تكن تلائمهم، والدم يتطاير في يوم العرس بعد وقوع مأساة.

لم يحدث شيء من هذا القبيل. فقد كان هؤلاء السادة المحترمون يعملون في مجال الفنادق، وأُعلمنا بأنهم شركاء في شركات وأعمال السيد غولدن. قيل لي ذلك كما لو أنه قيل لي إنهم يعملون في تجارة زيت الزيتون: صحيح، قد يكون ذلك، لكن قد لا تكون هذه هي الحقيقة كلّها أيضاً.

وقف أكبر أبناء العريس بجانب المائدة التي غُطّيت بمفرش ذهبي حيث كان الجائعون ينتظرون صواني الطعام الذي يؤكل باليد وهي تشقّ طريقها في مجموعة متنوعة من فطائر السجق. خطرت ببالي فكرة. «هيه، بيتيا»، ومضيت أقول، محاولاً أن أبدو طبيعياً بقدر ما أستطيع، «ماذا تعرف عن قضية سبيكتروم *الجيل الثاني*؟» فاكتست وجهه مسحة من الاضطراب، ربما لأنه كان لكلمة سبيكتروم صدى فوري مختلف على أسماعه، وربما لأن ذاكرته الخارقة وغريزته لقول الحقيقة كانتا تتصارعان مع الوعد بالسرية الذي قطعته عائلة غولدن على نفسها. وقرّر أخيراً بأن لا يشمل الردّ الوعد الذي قطعه على والده، وهكذا، لم يكن في دائرة الحظر. «الضجّة التي أثيرت حول الاتصالات»، قال، «هل أعدد لك قائمة الشركات المتورطة؟ أدونيس، وناهان، وأسكا، وفولغا، وأزور، وهدسون، ويونيتيك، ولووب، وداتاكوم، وتيليلينك، وسوان، وأليانز، وأيديا، وسبايس، وإس تل، تاتا. ويجب أن أضيف أن شركة تيلينور اشترت في سنة ٢٠٠٨ معظم أسهم شركة مجموعة يونيتيك للاتصالات، وهي تشغّل حالياً اثنتين وعشرين رخصة باسم يونينور. وتعمل داتاكوم باسم فيديوكون. وتمتلك شركة سيستيما الروسية معظم الأسهم في شركة تيليلينك التي غيّرت اسمها إلى إم تي إس. وكانت سوان أصلاً شركة

تابعة في مجموعة ريلايانس. واشترت أيديا شركة سبايس. وتمتلك كل من *البحرين للاتصالات* ومجموعة *صحاري* حصصاً كبيرة في *إس تل*. وقد رُفعت حالياً دعوى للمصلحة العامة وستحال قريباً إلى المحكمة العليا. ويُتوقع أن يُسجن أكثر من وزير وعدداً من مديري الشركة التنفيذيين لمدد متفاوتة. ويتم تقييم قضية سبيكتروم *الجيل الثاني* ذات الخمسة ميغاهيرتز بالميغاهيرتز».

فقلت: «لاحظت أنك لم تذكر إيغل، أو فيربيتندين إكستراتيك، أو مرتاسين».

«لقد ذكرت الشركات التي وردت أسماؤها في عملية الاحتيال».

«لكن الشركات التي ذكرتها لم تُتّهم بارتكاب أيّ مخالفة، ولا توجد أيّ إجراءات ضدّها. هل تفكّر في كتابة فيلم عن هذه الحقيقة المدهشة والحتمية الملوّثة بانتشار الفساد في شركات الهواتف الخليوية في ذلك البلد البعيد؟ إذا كان الأمر كذلك، فيجب أن تقوم بدور البطل الرئيسي، لأنك وسيم جداً. أتعرف يا رينيه، يجب أن تكون حقاً نجماً سينمائياً».

كان ذلك شيئاً جديداً حدث له في ذلك الصيف. فقد قرّر بيتيا مؤخراً، بعكس الأدلة البادية أمام أعين الجميع، إلّا عينيه، بأنّني أكثر الرجال وسامة في العالم. في البداية، قال إنني «أكثر وسامة من توم كروز»، ثمّ أصبحت «أبدو أجمل من براد بيت بكثير»، وأصبحت الآن «أكثر وسامة من جورج كلوني بمئة مرة». المجد يبهت ويتلاشى، توم، براد، جورج، قلت لنفسي. لم يكن بيتيا يعبّر عن شوق رجل شاذ جنسياً، وإنما كان يقول ذلك وفق ما يراه، كدأبه، وكان كلّ ما بوسعي أن أفعله هو أن أشكره.

«شيء من هذا القبيل»، أجبته، «لكنني لا أظن أن فيه دوراً يصلح لي».

«هذا شيء سخيف»، قال، «اكتب دوراً على الفور، دوراً رئيسياً. الدور الرومانسي الأساسي. فأنت وسيم وجذاب يا رينيه. إني جادّ في ما أقوله. أنت شخص مثير جنسياً».

لعل الأعراس تُظهر الرومانسية فينا جميعاً.

* * *

وفي لحظة محدّدة في أثناء المرح والبهجة في تلك الليلة، لم تفتني ملاحظة غياب نيرو غولدن، وملاحظة أن النور كان مضاء في نافذة مكتبه، وغياب الرجال ذوي بدلات التوكسيدو التي لا تلائمهم أيضاً. وكان بيتيا في حلبة الرقص. لم يكن يجيد الرقص، ولم تكن حركاته متناسقة إلى حدّ أنها كانت تبدو سخيفة، بل وجدها الآخرون مضحكة، وحاول لاعبو التنس الخمسة كبت ضحكاتهم الذكورية، لكن لحسن الحظ كان بيتيا مستغرقاً في الموسيقى، فلم يلاحظ قهقهاتهم. ثمّ رأيت فاسيليسا ترقص مع صديقاتها، جميعهن فاتنات، جميعهن سماسرة عقارات، يقمن بتأدية نسختهن النيويوركية من الرقصات القوقازية التي تضم شموعاً وشالات والتصفيق بالأيدي وركلات وأحذية عالية. وبدلاً من قبعات الفراء والأزياء العسكرية، كنّ يرتدين فساتين رقيقة ولهن بشرة أنثوية ناعمة، ولم يُبدِ أحد أي شكوى أو تذمر، ورقصنا في داخل دائرة حول الفتيات اللاتي كن يرقصن، وصفقنا بتناغم وصحنا «هيه! هيه!» عندما كان يُطلب منا ذلك، وشربنا جرعات من الفودكا التي كانت تقُدّم إلينا، ونعم، كانت روسيا جيدة؛ كانت الثقافة الروسية جيدة، يا لها من أوقات روسية ممتعة، لنا كلّنا، ثمّ عاد نيرو غولدن ليظهر مرتدياً بدلة قوقازية كاملة، وهكذا وجدتُ على الأقل قبّعة فراء واحدة ومعطفاً عسكرياً أزرق واحداً بضفيرة وأزرار ذهبية، ورقصت الفتيات حوله كأنه

قائدهن، ملكهن، وهكذا كان، ولوّح بسيفه الشاشكا الخاص في الهواء فوق رؤوسهن، ورقصنا حولهم، وشربنا، وصحنا «هيه! هيه!» أكثر، وهكذا تزوّج نيرو فتاته الحسناء.

أما السادة الذين يعملون في مجال الفنادق في بدلات التوكسيدو غير الملائمة، فلم يظهروا ثانية.

***

سحابة صيفية غريبة زحفت إلى حديقة الغاردنز في تلك الليلة بعد منتصف الليل فجعلتها تبدو مسرحاً لقصّة أشباح يابانية، *أوغيتسو*، ربما، أو *كويدان*. وعاد جميع المدعوين إلى بيوتهم، وقام عمال نشطيون أرسلتهم شركة تزويد الطعام بعد أن نفحهم نيرو غولدن بنفسه إكراميات سخية بتنظيف الحديقة من بقايا الحفلة. وكان لا يزال فانوس واحد يتدلّى من غصن شجرة، ووصلت فتيلة شمعته إلى نهايتها. وتناهى إليّ نعيب واحد قد يكون منبعثاً من بومة، لكني قد أكون مخطئاً. وظهر في السماء قمر شاحب يتوهّج بشكل باهت من خلال سحب ماطرة متجمعة. لا بد أن إعصاراً سيهبّ قريباً. كان كلّ شيء لا يزال قبل هبوب العاصفة.

كما يحدث عادة، جافاني النوم في تلك الليلة. فارتديت بلوزة وبنطلون جينز أزرق وخرجت إلى الهواء المشبّع بالضباب الذي سرعان ما أصبح كثيفاً. كنت وحيداً في هذه الدوّامة، كأن الكون تلاشى ولم يبق أحد غيري. ثمّ تناهى إليّ من مكان بعيد صوت، تكرّر، وكان يزداد ارتفاعاً في كلّ مرة. كان صوت رجل غارق في بؤس شديد، ينشج بقوة. صرخة تمسّ شغاف القلب.

اقتربت على أطراف أصابعي، فضولي يصارع غريزتي الأكثر تحضّراً لأمنح الرجل الذي يبكي خصوصيته. لم أكن متيقناً من أن

الضباب سيخفيني، لكن بالرغم من ذلك، بذلت كلّ ما بوسعي لأكمن بين الشجيرات، وقد انتابني شعور بالخجل (لكن يجب أن أقول، ليس كثيراً) لانتصار رغبتي في التلصّص. وأخيراً رأيته، وأعترف، بأنني دُهشت من رؤية نجم الليلة اللامع، الذي يدور حوله كلّ شيء، العريس نفسه، جاثياً على العشب الرطب في منامته الغالية الثمن، يلطم بكلتا قبضتيه على صدره، ويندب مثل نادبة محترفة في جنازة. ما الشيء الذي جعله يخرج ويأتي إلى هذا المكان في هذه الساعة من الفجر، وجعله يغادر سريره الزوجي لينتحب في لحظة تلاشي القمر؟ زحفتُ إلى أقرب مسافة تجرأت على الاقتراب منها، وسمعت، أو هكذا خيّل إليّ، هذه الكلمات: «اغفرا لي! لقد قتلتكما كلتيكما».

دعوني أقول الآن إنني لست شخصاً يؤمن بالادعاءات الروحانيّة أو بالأشياء الخارقة للطبيعة. فلا يوجد لديّ وقت للجنّة أو جهنم، أو اليمبوس، أو أيّ مكان يمضي فيه المرء عطلته بعد الموت. وأؤمن بأنّني سأُخلق مرة أخرى، لكن لا كروث خنفساء ولا في هيئة جورج كلوني أو خليفتيه في الوسامة. وعلى الرغم من حماسة جويس ونيتشه وشوبنهاور، فإني لا أبالي بالتقمص، أو انتقال الأرواح. ربما كان فيلم المخرج التايلاندي أبيتشاتبونغ ويراسيثاكول «*العم بوون - مي الذي يستطيع أن يستدعي حياته السابقة*» هو الفيلم الأثير لديّ في تلك السنة، لكنّي لا أؤمن بأنه كانت لدى العمّ بونمي، أو لديّ أنا، أي فترة قضيتها في الماضي على الأرض. كما أنني لست مهتماً ببذور الشيطان، داميان، كاري، الطفل روزماري، وما إلى هنالك من الشخصيات التي يمكن أن تجدها على رفّ الأدب القصصي المثير. ولا يوجد لديّ وقت للملائكة أو الشياطين أو المخلوقات القادمة من البحيرات الزرقاء. كلّ ذلك جعلني عاجزاً عن

توضيح ما رأيته في تلك الليلة، ولماذا أحاول أن أقول لنفسي إنها ليست سوى هلوسة لأنني تناولت جرعة ثقيلة من الأمبيين (الذي لم يصرعني تماماً) ثمّ رحت أطوف تائهاً في الضباب: نوع من الاستيقاظ من كابوس. إلا أن هيئة نيرو النادم كانت حقيقية بما يكفي، وأن ما رأيته، وما أعرف أنني رأيته، وما أظنّ أنني أعرف أنّني رأيته، مع أن تفكيري العقلاني يرفض الفكرة، كان الضباب الذي أخذ يتجمّع حوله، كنوع من غشاء الهيولى، في هيئتين بشريتين، طيفا امرأتين تقفان أمام الرجل الجاثي تستمعان إلى أسفه المرير. لم ينبس الطيفان بكلمة واحدة، ولم يتحوّلا إلى هيئة صلبة تماماً، وظلا مشوّشين وغامضين، لكن الفكرة برقت في رأسي، بوضوح شديد كما لو أن أحداً نطق هذه الكلمات بصوت مسموع، بأنّ هاتين المرأتين هما والدتا أبنائه، الزوجة التي ماتت في تاج محل، والمرأة المسكينة التي هجرها والتي تخلت عن ابنها، والتي، كما قالت السيدة غولدن، ماتت ميتة لا يعرف أحد كيف، وحيدة في مكان يرتاده المعدمون ليموتوا فيه.

اغفرا لي! لقد قتلتكما كلتيكما. كيف يمكن فهم هذا التوسل الذي يقال في ليلة زفاف رجل؟ هل هو تعبير عن ذنبه لأنه وجد سعادة جديدة بينما ترقد المرأتان الميّتتان الحزينتان عند قدميه؟ أم لأنه اكتشف أن للماضي المحزن قبضة على عواطفه أقوى بكثير من الحاضر الضحل، حتى لو كان شاباً وجميلاً؟ وأين هي الآن السيدة غولدن الجديدة، وما رأيها بزوجها وهو يبكي ويناجي الأشباح في الحديقة؟ يجب القول إنها بداية غير موفقة. غصتُ في الضباب وعدتُ إلى سريري، حيث، ويا له من شيء غريب، غططت في النوم فوراً ونمت نوماً عميقاً.

في صباح اليوم التالي، أعلنت فاسيليسا عن المرحلة التالية من

خطّتها الرامية إلى تطهير البيت وإصلاحه وتجديده من أعلاه إلى أسفله، فليخرج كل شيء قديم! وليأتِ كل شيء جديد! مصابيح جديدة تحلّ محل المصابيح القديمة! ورضخ الرجل العجوز. لكن لم يكن الأمر بالنسبة إليها مجرّد ديكور داخلي، فقد فقالت: «في روسيا لسنا أغبياء إلى حد يجعلنا نعتقد بعدم وجود الشياطين». كان ذلك عندما كنتُ أسمع (كنتُ آنذاك زائراً معتاداً ومُرحباً به). «اعذرني يا رينيه، فأنا أتفهم أنك رجل شكوك، لكن الحقيقة ليست مسألة اختيار، وهي لا تبالي برأيك حول هذه المسألة. إن العالم كما هو دائماً. اذهب إلى الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا وسترى الناس الذين أحضرتهم عائلاتهم معهم والشيطان يقبع في عيونهم، أشخاص ملأتهم الكراهية، وكذلك أشخاص ينتهكون الحرمات والمقدسات، وأشخاص بذيئون، وأشخاص تعشش البرودة في قلوبهم. ثمّ، تبدأ. يأتي القسّ أولاً بالماء المقدّس وينثره ويتلو أيضاً فقرات من الإنجيل المقدّس، فيُخرج يسوع الشياطين منها ويبعدها، ويخرج ربي، صوت الرجل يخرج من امرأة، وترى رعدة تسري في الجسد، وتُصدر هسهسات وصرخات الانتقام من القسّ، لكن الماء المقدّس يحرقها، كما ترى، ويصيح عدة أشخاص كالحيوانات، مثل بقرة، مثل دبّ، مثل خنزير. ويحدث تقيّؤ وسقوط على الأرض. إنه شيء فظيع لكنه جيّد. أما في هذا البيت، فالأمر مختلف. قد لا يكون الأشخاص هم المسكونين، وإنما البيت نفسه. لقد جلبتَ معك الشرّ من البلد القديم وهو يعشش الآن في الجدران، داخل البسط والسجاجيد، في الزوايا المظلمة وفي المراحيض أيضاً. توجد أشباح هنا، قد تكون أشباحك، وقد تكون أشياء أقدم أيضاً، لذلك يجب طردها. إذا أردت أن ترى بأمّ عينيك عندما يأتي القسّ، فإني سأدعك تفعل ذلك. أعرف أنّك شابّ مبدع يبحث عن مواد، لكن قف هناك

بجانب مريم العذراء ولا تتكلّم إلّا عندما تبدأ ترتل كلمات يسوع: *يا إلهي يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطئ*. وليس من المهمّ إن كنت مؤمناً، لكن قلها فقط وستحفظك الكلمات وتبقيك في منأى عن الأذى والضرر».

في مكان بارز في «الغرفة العظيمة» في الطابق الأول الواسع من بيت غولدن، وضعت مؤخراً نسخة أولى نقية من أيقونة فيودوروفسكايا، لأمّ الرب، المعلّقة نسختها الأصلية في المصلّى الصغير في قصر ألكساندر، بعد أن قبّلت وجهها ريح قوّتها التي هبّت عبر النوافذ الواسعة المطلة على الغاردنز، ريح رطبة تعد بهطول أمطار: إلى يسار غرفة نوم آخر قيصرة من سلالة رومانوف، ألكساندرا، التي كانت تمضي ساعات طويلة في الصلاة للعذراء كلّ يوم. كان هذا أمراً مفاجئاً. ولم يُخفِ أبناء نيرو غولدن عدم إيمانهم بالدين، ومع أنني لم أسمعه يتحدّث عن ذلك، فإني أظن أن لدى والدهم المشاعر الإيمانية نفسها، وفي الواقع، فإنه المنبع، إذا جاز التعبير، لعدم اكتراثهم بالمعتقدات الدينية. وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت هذه اللوحة المقدّسة هدية زفاف نيرو إلى زوجته الشابّة، والآن، من دون جدال، وقف بجانبها أمام أمّ الرب، شابكاً يده بيدها، مطرق الرأس، وأشار إلى أن الأوان قد حان للبدء في طرد الأرواح، ودعا أبناء غولدن الثلاثة ليحضروا بوجوه صارمة، مقطبة، كما طلب منهم. وها هو القسّ الأرثوذكسي الروسي يتصدر الرتل هنا، لحية في خيمة، ثم يبدأ يرتل تراتيله ويرش الماء المقدّس فوق رؤوسنا جميعاً، وفي تلك اللحظة بالذات، أطلّ إعصار إيرين بوجهه، وتلبّدت السماء، وفُتحت أبواب السماوات، وغمر برق خاطف للأبصار الغرفة. وراح القسّ الروسي يصيح، وفاسيليسا تترجم كلماته.

شكراً لله، لأنّ ذلك قد تمّ.

عند ذاك، صاح نيرو غولدن أيضاً بصوت مرتفع، «أغلقوا الأبواب»، فهرع أبناؤه إلى النوافذ الكبيرة، وبينما فهمت أن هذا ردّ عمليّ على الريح والمطر الغزير، فهمتها فاسيليسا والقسّ بطريقة مختلفة. فارتعشت لحية القسّ، وارتعشت الخيمة التي تحيط بها أيضاً، وانبعثت كلمات روسية حماسية، ترجمتها السيدة غولدن الجديدة بانتصار، وأعادت صياغتها، «أغلقوا الأبواب لدرء الأمطار، لكن لا حاجة إلى إغلاقها في وجه الشياطين، لأنهم طُردوا من جسد زوجي، ولن يعودوا إليه أبداً».

مهما حدث في ذلك الصباح - وقد ساورني شكٌّ كبير في صحة طرد الأرواح - من المؤكّد أن نيرو لم يعد يتمشّى في الليل، ولم يعد يبكي فوق العشب في ليالي الصيف. وحسب علمي، لم يعد يتراءى له طيف المرأتين، وإذا ظهرا له، أصبح بإمكانه أن يتحكم بمشاعره، ويولي ظهره لهما، ولم يعد يذكر زياراتهما له لزوجته.

من معتكفه، في ذلك المساء، انبعث صوت عزف كمان *غوادانيني*، يعزف - بشكل معقول فقط - معزوفة باخ العاطفية بقوة *تشاكوني*.

* * *

في مساء يوم الإثنين، عندما بدأت الاضطرابات، أخذ نيرو غولدن زوجته فاسيليسا إلى مطعمها الروسي المفضّل في حيّ فلات أيرون لتناول طعام العشاء على شرف ميخائيل غورباتشوف الذي كان يزور المدينة لجمع تبرعات لجمعيته الخيريّة لعلاج السرطان. وأُجلسا إلى مائدة الشرف بجانب المليونير المهاجر مع زوجته ذات الميول الفنية. وكان المليونير المهاجر قد دخل عالم الصحافة

واشترى الصحف في الوقت الذي بدأت فيه الصحف تتوقّف عن العمل، لكنه كان يملك أيضاً، لحسن الحظ، فريق بيسبول، والمليونير المهاجر الذي يمتلك حصة كبيرة من الأسهم في سيليكون فالي، وزوجة فيها كمية كبيرة من السيليكون أيضاً. وإلى الموائد المجاورة الأخرى جلس أصحاب بلايين أقل مرتبة، يملكون مراكب أصغر، وفرق كرة قدم وشبكات تلفزيون بالكابل، وزوجات لسن بذلك القدر من الجمال والروعة. أما بالنسبة إلى فاسيليسا أرسينيفا، الفتاة القادمة من سيبيريا، فقد كان تواجدها بين هذه المجموعة من الصفوة برهاناً على أن حياتها أصبحت أخيراً جديرة بالاهتمام، وأصرّت على أن تلتقط صوراً مع كلّ شخص من هؤلاء النبلاء الروس (وبالطبع زوجاتهم أيضاً) لترسلها في رسالة نصيّة إلى أمّها على الفور.

قبل أن يغادرا البيت، عندما كانت في كامل أناقتها وجاذبيتها، جثت عند قدميْ زوجها، وأرخت بنطلونه وقدمت له خدمة، ببطء، وبطريقة احترافية، «لأنه»، قالت له، «عندما يأخذ رجل مثلك امرأة مثلي إلى غرفة كهذه، فيجب أن يعرف أين يقف معها». كان ذلك خطأً في التقدير غير معتاد لأنها كانت تجيد التقديرات الجنسية - لأن تأثير ذلك قد يجعل نيرو غولدن أكثر ريبة، لا أقل، فراح يراقب كلّ حركة تقوم بها في المطعم مثل صقر سيّئ الطبع، وعندما قُدِّم الطعام، سمك الرنغة بمعاطف حمراء، وملفوف محشي بلحم البقر غولوبتسي، والفرنيكي، والفوشكا، والهالوشكي، والفطائر الأوكرانية، ولحم العجل البيلميني، والستروغانوف، والفودكا المغطسة بالكشمش والتين، وفطائر البلينشيكي، والكافيار، كانت غيرته تزداد اتقاداً. كان يشعر كأنّها تقدّم قطعاً صغيرة من جسدها إلى جميع الرجال الموجودين، على مناديل ورقيّة حمراء صغيرة، تُؤكل

بشوكة كوكتيل صغيرة ذات شعبتين، مثل قطعة خبز صغيرة تُدهن بكافيار لذيذ الطعم. وبالطبع، كان جميع الجالسين إلى هذه المائدة ينتمون إلى الطبقة العليا، وكان جميع الرجال مع زوجاتهم، لذلك، كان الجميع يتصرّفون باحترام وتقدير، ثم قال له المليونير الذي لدى زوجته ميول فنية إنه رجل محظوظ لأنه تمكن من أسر «فاسيليسانا»، وقال المليونير صاحب الصحف الفاشلة وفريق البيسبول الناجح: «إنها مثل ابنتنا». وقال مليونير السيليكون فالي الذي زوجته من السيليكون: «يعلم الله كيف حصلت عليها»، وأبدى بيديه حركة بذيئة توحي بوجود شيء كبير داخل بنطاله، لكن الجميع شربوا كميات كبيرة من الفودكا، لذلك لم يقصدوا الإهانة، أو أنه لم يعتبرها إهانة، بل مجرد كلام يقوله الرجال. لكنه لاحظ بعد قليل أنها تلوّح لأشخاص في الجانب الآخر من الغرفة، فلوّحوا لها رداً على ذلك، وكان جميع أولئك الأشخاص رجالاً، خاصة، رجل واحد، شاب، طويل القامة، مفتول العضلات، لعله في الأربعين من العمر، ابيضّ شعره قبل الأوان بشكل غريب، يضع واقية شمس مع أن الوقت كان ليلاً، شخص قد يكون مدرّب تنس أو -كان هذا، لأسباب واضحة، المصطلح الذي يرفضه نيرو غولدن رفضاً قاطعاً - مدرّباً شخصياً. أو ربما كان مصفّف شعر، مثليّاً، وسيكون ذلك مقبولاً. أو نعم، لعله مليونير آخر، أصغر سناً من جميع الرجال الآخرين الموجودين، رجل يملك، مثلاً، يختاً أحمر كبيراً بُني في حوض سفن بنيتي في فياريجيو بإيطاليا، ومولع بأرقى أنواع السيارات التي تزيد قيمتها على مليون ونصف مليون دولار تُسمّى آلهة الريح *كويشوا*، وفتيات سريعات يذهبن معها. هذه احتمالية لا يمكن تجاهلها. «اعذرني»، قالت، «سأذهب وأحيّي أصدقائي». ثمّ ذهبت، وراح يراقبها، العناق، القبلات في الهواء. لم يكن هناك شيء غير لائق، لكن كان

ثمة شيء تفوح منه رائحة نتنة. لعله يجب أن يذهب ويدقق في هؤلاء الأصدقاء، أولئك الذين يُدعون أصدقاء. لعله يجب أن يلقي نظرة أقرب على تلك الشقراء التي يراها جيداً، صديقة ذلك الرجل، تلك الشقراء الرشيقة التي توليه ظهرها. يمكنه أن يرى العضلات في ذراعيها، نعم، تذكّرها، إنها تلك الكلبة. لعله يجب أن يقوم ويفصل رأسها المنيك عن جسدها.

لكن في ذلك الوقت، بدأ غورباتشوف يدير حديثاً معه، «إذاً الآن، يا سيد غولدن، بزواجك من هذه الزوجة الروسية الرائعة، فقد أصبحت واحداً منّا، يمكنني أن أقول ذلك، ويمكنني أن أرى أنك رجل على قدر من الأهمية، فاسمح لي أن أسألك. . .» إلّا أن هذا لم يكن غورباتشوف الذي يتكلّم، بل مترجمه الشخصي الذي لعله يدعى بافل، ينظر من فوق كتف غورباتشوف، من ورائه كأنه رأس ثان، وكان يتحدّث بسرعة بعد الرئيس السابق، وبدا كأنه يتكلم بالتزامن معه، وهذا يعني أنه إمّا أنه كان أعظم وأسرع مترجم، أم أنه كان يختلق جملاً وعبارات باللغة الإنكليزية، أو أنّ غورباتشوف كان يردد العبارات نفسها دائماً. في جميع الأحوال، لم يكن نيرو غولدن في غضبه الشديد والمتزايد من تصرّف فاسيليسا يسمح له بأن يستجوبه ضيف الشرف، فقاطعه ليسأل سؤالاً خاصاً به.

فقال: «حكى لي شركاء في العمل في مدينة لايبزيغ، في جمهورية ألمانيا الديمقراطية سابقاً، قصّة مثيرة للاهتمام، وسأكون مسروراً لأن أسمع تعليقك عليها». .

تجهّم وجه غورباتشوف، وسأله: «ما هي القصّة»، سأل رأسه الثاني، بافل.

«خلال الاضطرابات التي جرت في عام ١٩٨٩»، قال نيرو غولدن، «عندما لجأ المحتجّون إلى كنيسة توماسكيرتش، كنيسة باخ،

أراد الأمين العام للحزب الشيوعي في ألمانيا الشرقية آنذاك، إريش هونيكر، أن يرسل جنوداً مدججين بالسلاح لإبادة جميع المحتجين، ليضع حداً للثورة. لكن لكي يتمكن من استخدام الجيش ضدّ المدنيين، كان عليه أن يتصل بك لتمنحه إذناً بذلك، لكنك رفضت أن يفعل ذلك، ثمّ، بعد أيام فقط، سقط الجدار».

لم ينبس غورباتشوف ولا رأسه الثاني بكلمة.

«لذلك فإن سؤالي هو»، قال نيرو غولدن، «عندما تلقيتَ تلك المكالمة الهاتفية وسُئلت ذلك السؤال، هل كان رفضك غريزياً أم تلقائياً. . . أم أنك فكّرت في الأمر؟»

«ما الهدف من هذا السؤال؟» سأل غورباتشوف-بافل بوجهين مقطبين.

«الهدف هو إثارة مسألة قيمة الحياة الإنسانية»، قال نيرو غولدن.

«وما رأيك في الموضوع؟» سأل الغورباتشوفان.

«لقد علّمنا الروس دائماً»، قال نيرو، لم يكن ثمة شكّ الآن في نبرته العدائية المتعمّدة، «بأنه يمكن القضاء على حياة الفرد عندما تتعارض مع أسباب الدولة. إننا نعرف ذلك جيداً من ستالين، ومن جريمة قتل جورجي ماركوف بواسطة مظلّة سُممّ طرفها في لندن، ومن تسميم المنشق عن الاستخبارات الروسية (كي جي بي) ألكسندر ليتفينينكو بمادة البولونيوم، وذلك الصحفي الذي دهسته سيارة، وذلك الصحفي الذي مات بالمصادفة أيضاً. أما بالنسبة إلى القيمة الإنسانية، فإن الروس يرشدوننا إلى الطريق إلى المستقبل، وهذا ما تؤكده الأحداث في العالم العربي، وسيزداد ذلك قوة وحدّة قريباً. لقد مات أسامة، ولا توجد لديّ مشكلة. لقد ولّى القذافي، بوووف، فليذهب. لكننا سنرى الآن أن نهاية الثوريين ستأتي على يد الروس

قريباً أيضاً، وسيعيش الكثيرون حياة قاسية جداً. لا توجد للأحياء أهمية كبيرة في مخططاتهم العالمية».

خيّم صمت على المائدة. ثمّ تحدّث رأس غورباتشوف الثاني مع أن غورباتشوف نفسه لم يقل شيئاً، «جورجي ماركوف»، قال الرأس الثاني، «كان بلغارياً».

ثم أجاب غورباتشوف ببطء شديد، باللغة الإنكليزية، «ليس هذا هو المكان المناسب لمناقشة هذه المسألة».

«أستأذنك الآن»، أجاب نيرو، مومئاً برأسه. ثم رفع ذراعه فنهضت زوجته على الفور من طاولة أصدقائها ولحقت به إلى الباب. «ليلة رائعة»، قال له لجميع في الصالة، «شكرنا».

* * *

لقطة عريضة. شارع مانهاتن. ليلاً.

شاب، طويل القامة، مفتول العضلات، قد يكون في الأربعين من العمر، له شعر ابيضّ قبل الأوان على نحو غريب، يضع واقية شمسية مع أن الوقت ليل، شخص قد يكون مدرّب تنس أو مدرّباً شخصياً، يسير مع صديقته، امرأة شقراء رشيقة تشبه مدرّبة شخصية أخرى، في جادة برودواي باتجاه ساحة سكوير يونيون. يمرّان أمام دار سينما أي إم سي لويس في الشارع التاسع عشر. يتجاوزان محل أي بي سي كاربت، ثم الجادة الثالثة، الموقع قبل الأخير لأندي وارهول فاكتوري عند رقم ٨٦٠ برودواي، ثمّ الموقع الثاني، في بناية ديكير في الشارع السادس عشر. وبما أنهما وحدهما، ولا يوجد رجال أمن في المكان، قد لا يكون مليونيراً، ولا يمتلك يختاً أحمر كبيراً، أو سيارة قيمتها مليون ونصف مليون

دولار. بل مجرد رجل وحيد مع فتاة في المدينة بعد حلول الظلام.

صوت موسيقى. بشكل غير متوقّع هي أغنية من أغاني بوليوود، «توهي ميري شاب ني»، والكلمات مترجمة. أنت وحدك ليلي. أنت وحدك نهاري. الأغنية من فيلم عرض في سنة ٢٠٠٦، من بطولة كانجانا رانوت، واسم الفيلم «عضو في عصابة».

راوي (صوت)

استناداً إلى ما ورد في صحيفة *النيويورك تايمز*، فقد استفحلت جرائم القتل في أمريكا في تسعينات القرن العشرين، لكنها الآن في أدنى مستويات لها في التاريخ. وثمة مخاوف من أنّ وباء تفشي الهيروين وظهور العصابات العنيفة من جديد قد يدفعان إلى ارتفاع الأرقام مرة أخرى في بعض المدن: شيكاغو، لاس فيغاس، لوس أنجلوس، دالاس، ميمفس. لكن ما يدعو إلى التفاؤل، انخفاض معدل الجريمة في مدينة نيويورك بنسبة خمسة وعشرين في المئة بالمقارنة مع الفترة نفسها من السنة الماضية.

الرجل الذي يرتدي واقية شمسية والمرأة ذات العضلات البارزة يعبران الحديقة الآن، يسيران بين تمثال جورج واشنطن ومدخل محطة المترو.

لا تزال الأغنية، صوتها يعلو أكثر، من دون حاجة إلى ترجمتها:

أغنية

أوه أوه أوه أوه أوه أوه أوه أوه

أوه أوه أوه أوه أوه أوه أوه

أوه أوه أوه أوه أوه أوه أوه أوه أوه
أوه أوه أوه أوه أوه أوه أوه

عندما يتجاوز الشاب والمرأة الشقراء مدخل محطة المترو، يخرج منها رجل ثان، يتحرّك بسرعة، يضع على رأسه خوذة راكب دراجة نارية، يستلّ مسدساً له كاتم صوت، يطلق النار على الشابّ، طلقة واحدة في مؤخرة الرأس؛ وعندما يسقط وتفتح المرأة الشقراء فمها لتصرخ، يطلق عليها النار أيضاً، بسرعة كبيرة، طلقة واحدة، بين عينيها. تتهاوى على ركبتيها وتظل هكذا، الرأس محني، تركع، ميّتة. يستلقي الشابّ منبطحاً على وجهه أمامها. الرجل الثاني يبتعد بسرعة، لكنه لا يركض، ويسير باتجاه الناصية بين الشارعين الرابع عشر ويونيفرستي، متجاوزاً منطقة لاعبي الشطرنج، والمسدس لا يزال في يده. لا يوجد هناك لاعبو شطرنج، لأن الوقت متأخر جداً في الليل. هناك راكب درّاجة نارية آخر ينتظره. يرمي المسدس في صندوق القمامة عند ناصية الشارع، يصعد إلى الدراجة النارية وينطلق مع الرجل الآخر الذي يقود الدراجة النارية. الآن فقط، عندما تبتعد الدراجة النارية، يخرج رجال الشرطة من سيارات الشرطة المتمركزة حول الساحة، ويتحرّكون بسرعة نحو المرأة الجاثية والرجل المستلقي.

قطع.

مشهد داخلي. غرفة نوم نيرو غولدن. ليل.

فاسيليسا تغطّ في النوم في سريرهما الكبير ذي اللوح المذهّب المزخرف بالركوكو في مقدمة السرير. عينا نيرو مغمضتان أيضاً. ثمّ، في لقطة بالتأثيرات البصرية، «يخرج من جسمه» ويسير نحو

النافذة. هذه الذات – الشبحية شفّافة. الكاميرا، خلفه، ترى من خلاله حتى الستائر السميكة التي يفتحها قليلاً لينظر إلى الأسفل إلى الحديقة المشتركة. نيرو «الحقيقي» يظل نائماً في سريره.

نيرو (صوت)

أقول هذا بينما لا أزال أتمتع بكلّ قواي العقلية. أعرف أنه في نقطة تالية من قصّتي، سيتم التشكيك في سلامة عقلي، وقد يكون ذلك مبرراً. لكن ليس الآن، ليس بعد. لا يزال هناك وقت حتى أعترف بحماقتي، وللقبول أيضاً بأنها سترتد عليّ بطريقة سيئة. أن أفقد صوابي بسهولة بسبب وجه جميل. إني أفهم الآن أعماق مصلحتها الذاتية، برودة حساباتها وكذلك قلبها.

يعود الطيف **نيرو** بهدوء إلى سريره، و«يدخل» في **نيرو** «الحقيقي»، بعد ذلك لا نرى إلّا **نيرو** واحداً، بعينيه المغمضتين، بجانب زوجته النائمة.

هاتفها الخليوي يبدأ يرنّ، بوضع «الذبذبة». لا تستيقظ لكي تردّ.

يتذبذب الهاتف مرة أخرى، وهذه المرة **نيرو**، دون أن يتحرك، يفتح عينيه.

في المرّة الثالثة، تستيقظ **فاسيليسا**، تندّ عنها تأوهة، تمدّ يدها إلى الهاتف.

تستيقظ تماماً، تنتصب في جلستها على السرير، وبيدها الطليقة تمسك خدّها برعب. تتكلّم بسرعة بالروسية على الهاتف، تسأل أسئلة. ثمّ تصمت وتضع الهاتف.

للحظة طويلة يظلان كما هما، هي تجلس منتصبة في السرير

والرعب يرتسم على وجهها، وهو يستلقي بهدوء بعينيه المفتوحتين، يحدّق في السقف.

ثمّ، ببطء، تستدير لتنظر إليه، وتتغيّر قسمات وجهها. الآن، التعابير الوحيدة المرتسمة على وجهها هي تعابير الخوف.

لا يتكلّمان.

قطع.

القسم الثاني

(١٥)

حول الفئران والعمالقة، النسب المئوية، والفنّ

عندما سمع آبوو غولدن عن الحشد الضخم الذي سيضم المحتجّين على غطرسة البنوك التي بدأت تحتل منطقة مفتوحة في المنطقة المالية. وعندما ذهب ليلقي نظرة على تلك التظاهرة، وقد اعتمر قبعة بنما، وارتدى بنطالاً من قماش الكاكي، وقميص هاواي لكي لا يبدو بارزاً جداً، وجد نفسه مفتوناً بالسمة الكرنفالية التي اتسم بها الحشد، اللحى، الرؤوس الحليقة، مكتبة الإعارة، القبلات، الروائح، النشطاء المتحمسون، الحمقى، المجانين، الطهاة، الشباب، العجائز. «وحتى رجال الشرطة بدا له أنهم يبتسمون»، قال لي، «بصدق، بعضهم فقط، أما بعضهم الآخر فهم من نوع الكرومانيون (الإنسان البدائي) الذين تسرع وتنتقل إلى الجانب الآخر من الشارع عندما تراهم لتتجنّب الاحتكاك بهم». وأحبّ أيضاً المظاهر البصرية والأدبية لهذه التظاهرة، وقراءة الشعر، واللافتات المصنوعة من صناديق الورق المقوّى القديمة، والقبضات، وشارات النصر. وأكثر ما أثار إعجابه الدعم الذي قدّمه الأموات العظماء للمحتجّين. فقد قال لي: «كم هو رائع أن ترى غوته مستلقياً بين أكياس النوم، وغلبرت كايث تشيسترتون واقفاً في

الطابور ينتظر دوره ليحصل على صحن حساء، وغاندي وهو يلوي أصابعه في شكل تصفيق صامت يدعى الوميض - أو فعلاً، بالطبع، إنه غاندي لأن أحداً لم يعد يستطيع أن يهجي الكلمات. حتى هنري فورد كان موجوداً الذي انثالت كلماته إلى الحشد من خلال تقنية الميكروفون البشري». رافقته لأن حماسته الضاحكة قد أصابتني بالعدوى ورحت أراقب بإعجاب سرعة قلمه الرصاص ودقته وهو يرسم الحشد، وكما هو متوقع، كانت الأشباح الخالدة بين الحشد تلوح في رسومه، غوته يقيم قدّاساً مهيباً، «لا أحد مستعبد أكثر من أولئك الذين يعتقدون زيفاً بأنّهم أحرار»، و «غاندي» يتلو عبارته الشهيرة، «في البداية يتجاهلونك، ثمّ يثرثرون ويثرثرون ويثرثرون، وفي النهاية تنتصر أنت». «إنه لم يقل ذلك قط» قال آبوو، «إنها مجرد عبارة يتكرر ذكرها على الإنترنت، لكن ما الذي يجب عمله، لا أحد يعرف شيئاً». وبدا تشيسترتون وهنري فورد في معطفيهما الطويلين الرسميين غير المناسبين هنا، لكنّهما حظيا باهتمام الجمهور، لأن مشاعرهما تنحو إلى المال، «لقد استُنفدت طاقة ضخمة من الإبداع المعاصر» قال ج. ك «حول الدفاع عن سلوك الأقوياء الذين لا يمكن الدفاع عنهم»، وصاح هنري فورد الواقف بجانب نظام التجميع في مصنعه، «لو فهم شعب هذه الأمّة نظامنا المصرفي والنقدي، فإني أعتقد أنّ ثورة ستندلع صباح يوم غد». «إنه كلام مؤثر»، قال آبوو، «من المدهش كيف أن الإنترنت صنع منّا جميعاً فلاسفة». وفضّلت أنا شخصياً الكلمة التي ألقاها مفكّر مجهول بدا أن الجوع حافزه الرئيسي كان يقف على صندوق من الورق المقوى، «سيأتي يوم لن يبقى فيه أمام الفقراء شيء يأكلونه سوى الأغنياء»، ووبّخنا، وعلى صندوق آخر عبّر خطيب آخر عن الفكرة نفسه لكن ببلاغة أقوى. «كُلْ مصرفياً». وكان هذا المفكّر يضع قناع شخص مجهول، وجه غاي

فاوكيس الأبيض المبتسم ذي الشارب الذي اشتُهر بواسطة الأخوات وتشاوسكي في فيلمهما «*ثاء رمز للثأر*»، لكن عندما سألته عن اسم الرجل الذي يضع قناع وجهه، اعترف بأنه لم يسمع قط عن «مؤامرة البارود» ولم يتذكّر، يتذكّر الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر. هذه هي الثورة التي ينبغي أن تكون. لقد رسمها آبوو كلّها.

عُرضت هذه اللوحة في صالة يديرها فرانكي سوتوفوتش في شارع بويري، في بيئة «أكثر جرأة» من صالات العرض التي يملكها سوتوفوتش في حيّ تشيلسي. كان معرضاً مشتركاً مع جنيفر كابان، أبرز فنانة ناشطة في تلك اللحظة الجدلية، التي تمدّدت بكامل طولها أثناء الافتتاح في حوض حمّام مليء بأوراق العملة الزائفة، فرُحِّب بهما لكن سرعان ما سُخر منهما لمواقفهما الحزبية. ودافع آبوو عن صور الحمّام والوصمة الحزبية. «بالنسبة إليّ فإن الجانب الجمالي هو الأساس دائماً»، حاول أن يجادل، لكن روح العصر لم تكن تسمعه. وفي النهاية استسلم للأوصاف التي فرضت عليه وذلك القدر من الشهرة السياسية التي أُسبغت عليه. «الآن، لعلي أصبحت مشهوراً في أكثر من عشرين شارعاً»، قال لي، «بل ربما أصبحت مشهوراً الآن في أكثر من خمسة وثلاثين أو أربعين شارعاً».

أما في البيت في شارع ماكدوغال، فلم تمنح الشهرة الدعائية الجديدة لآبوو سوى قدر ضئيل من الاحترام. ولم يقل نيرو غولدن شيئاً عن ذلك، سواء أكان مديحاً أم إدانة، لكن خطّ شفتيه الرفيع كان يوحي بالكثير، وترك الأمر لزوجته لتعالج الأمر بسيل من الشتائم. توقفت فاسيليسا الجالسة على أرضيّة غرفة الجلوس والمحاطة بمجلات الديكور المنزلي المصقولة عن عملها لتنهال على آبوو بعبارات روسية لاذعة. «هؤلاء الشحاذون في الشارع، إنهم يثيرون الضوضاء وينشرون الأوساخ وما هو هدفهم من كلّ ذلك؟ هل

يظنون أن القوّة التي يهاجمونها ضعيفة جداً، وأنها ستنهار أمام الرعاع؟ إنهم مثل فأر يدوس قدم عملاق. والعملاق لا يشعر بشيء، بل حتى لا يبالي بأن يسحق الفأر. من يبالي، حقاً؟ سرعان ما سيهرب الفأر. ماذا سيفعلون عندما يحلّ الشتاء؟ إن الطقس سيسحقهم. لا حاجة لأن يبدد أحد أي جهد عليهم. وكذلك لا يوجد لديهم قادة، إن ما تحبّه هو جيش من الفلاحين، لا يوجد لديهم برنامج. لهذا السبب، فهم لا شيء. إنهم فأر لا رأس له. إنهم فأر ميّت لكنه لا يعرف أنه ميّت». وبحركة شبه تمثيلية ألقت عليه مجلّة ذات أوراق صقيلة «من تظن نفسك، اعذرني؟ أتظن أنهم عندما يعلنون ثورتهم سيضعونك بين نسبة التسعة والتسعين في المئة المقدّسة لأنك رسمت بعض اللوحات؟ في بلدي نعرف ماذا يحدث عندما تقوم الثورة. يجب أن تجثو معي أمام فيودوروفسكايا مادونا ونصلّي للعذراء المباركة في سبيل خلاصنا، لكي لا نُقتل في قبو لا نوافذ له على يد جيش الفأر الذي بلا رأس».

حدث تغيير في فاسيليسا غولدن الآن. ففي بعض اللحظات، عندما سقط الضوء على وجهها بطريقة ما، فإنها تذكّرني بديان كيتون في دورها في فيلم *العرّاب* التي يتجمّد وجهها وعقلها وقلبها لحاجتها اليومية لكي لا تصدّق ما الذي يحدّق في وجهها. أما كاي أدامز فقد تزوّجت مايكل كورليون ظناً منها أنه رجل طيب. أما فاسيليسا فقد تزوجت، إذا صح التعبير، شخصية مارلون براندو نفسه، لذلك لم تكن تعيش في ظل أي وهم حول انعدام الرحمة، وانعدام الأخلاق، والأسرار السوداء التي تعتبر الرفيق الحتمي للرجال ذوي النفوذ. وعندما يهبط الضوء على وجهها بطريقة أخرى، فمن الواضح أنّها لا تصبح ديان كيتون على الإطلاق. إنها متواطئة. إنها تشكّ في أنه ارتكب جريمة شنيعة لكنها أقنعت نفسها بأن تضع الشكّ جانباً لكي

تعيش الحياة التي اختارتها لنفسها، الحياة التي وجدت أنها تستحقها من أجل جمالها، وربما، لأنها كانت خائفة الآن. فهي لا تزال تؤمن بقوّتها عليه، لكنّها آمنت الآن بقوّته أيضاً، وأصبحت تعرف أنها لو حاولت أن تفرض قوتها على قوّته، فقد تكون العواقب عليها. . . وخيمة. وهي لم تأت إلى هذا البيت لكي تعرّض نفسها للعواقب الوخيمة، لذلك كان عليها أن تغيّر استراتيجيتها. لم تكن بريئة قط. لكن إثر عملية إطلاق النار في ساحة يونيون سكوير ازدادت قسوة. أصبحت أكثر وضوحاً حول الرجل الذي كانت معه في السرير وعرفت أنها يجب أن تلوذ بالصمت في حالات معينة إذا أرادت أن تعيش.

حول العائلة: تحقيق

- مرة أخرى يا سيدي: لماذا يهجر أحد وطنه، ويغيّر اسمه، ويبدأ حياته مجدداً في منتصف الطريق في العالم؟ - لماذا، بسبب الحزن، يا سيدي، موت زوجة الحبيبة الذي أخرجه عن طوره. بسبب الحزن، وضرورة تجاوزه ونسيانه، وقد تم تجاوزه بالتخلص من النفس. - معقول. ومع ذلك فإن المرء غير مقتنع تماماً. ومع ذلك، يجب التساؤل مرة أخرى: وماذا عن التحضيرات من أجل المغادرة التي سبقت وقوع المأساة؟ يجب أن يكون هناك تفسير لذلك، بالتأكيد؟ إنك تبحث عن نصّ ثانوي، إذاً؟ إنك تشكّ في حدوث إشكالات، أعمال مريبة، غشّ؟ إن الشخص بريء حتى تثبت إدانته. ولم توجّه أي اتهامات احتيال إلى هذا الأب في قضية سبكتروم - *الجيل الثاني*. نعم، إننا نقرّ بذلك. لا بد أن من يهرب من القانون، ويغيّر اسمه، فإنه يؤثر الابتعاد عن الأضواء؟ من المؤكد

أن شخصاً كهذا لن يثير جلبة حول نفسه في بلده الجديد؟ في حين أن هذا الرجل، وعلى نحو متزايد، وبإصرار، وبحيوية لا تنضب، أليس كذلك، يثير جلبة حول نفسه. - سيدي، إنه يفعل ذلك. الأمر الذي، كما تقول، يشير إلى البراءة. لكن المرء يفكّر أيضاً في قصة العقرب والضفدع. إذ يتصرّف العقرب وفق طبيعته حتّى لو كان ما سيفعله انتحاراً. بالإضافة إلى ذلك، أو بهدف التأكيد، فهو شخصية وقحة. فهو واثق، كما يمكن أن يشعر المرء، من أنه يتمتع بمناعة خاصة، يقبع آمناً في يقين حصانته ومناعته. ولو كان قد خالف القوانين حقاً، أو كيف يمكن للمرء أن يصيغها، الأشخاص الذين انسلخ عنهم - لأنه ليس بالضرورة أن يكون أشدّ خصوم المرء أشخاصاً ملتزمين بالقانون - فهو على يقين من أنهم لن يتمكنوا من الوصول إليه والنيل منه. إن وصول خصوم خطرين ليس أمراً غير محدود. فقد يكونون خطرين في عقر دارهم، لكن ليس من السهل أن يتمددوا خارجها، وهم لا يحاولون القيام بذلك - أو هكذا يخيّل إليّ. فهذا ليس مجال خبرتي. - لكن من الواضح أنّ نيرو يشعر بشكل متزايد بأنه في أمان تام، ومسلّح بهذا الاعتقاد الذاتي المتزايد الذي ينطلق منه، السقوط، الصراخ، ثم النهوض، والتأسيس، كما يقولون في هذه الأيام، علامته التجارية - كلمة لها معانٍ عديدة، يا سيدي، بما فيها هذه المعاني: علامة تعريف كانت توسم بالحرق على أجساد المجرمين أو العبيد. عادة، صفة، أو نوعية تسبّب للشخص خزياً أو عاراً على الملأ. مشعل. سيف - سنرى أيهما سينطبق، في هذه الحالة.

لأواصل: أصبح جلياً أن نيرو غولدن في أثناء انتخابات عام ٢٠١٢ لم يكن ينوي أن يعيش حياة هادئة. فمن بين الأطباق الأربعة والعشرين التي غمس فيها إصبعه في أثناء حياته السابقة، جاءت إليه

أعمال الإنشاءات والبناء بشكل طبيعي وظلت تحتل السمة الأقوى فيه، لذلك كانت كلمة **غولدن**، كلمة ذهبية، ملوّنة باللون الذهبي، منارة بضوء نيون ذهبي مشع، وكلّها بحروف كبيرة بارزة من الذهب، بدأت تظهر في محلات بيع القبعات الرئيسية في أرجاء المدينة، وخارج المدينة أيضاً، وبدأ الناس يتحدثون عن صاحب الاسم باعتباره لاعباً جديداً قوياً في أوساط النخب المنغلقة على نفسها كثيراً، والعدد القليل من العائلات والشركات التي تسيطر على أعمال البناء والإنشاءات في مدينة نيويورك الذهبية هذه.

- عائلات يا سيدي؟ عندما تقول عائلات هل تقصد أن تقول، إذا كان بإمكاني أن أصيغها برهافة، *عائلات*؟ - لا، يا سيدي، أو لا، ليس تماماً. فقد كانت صناعة البناء في عام ٢٠١٢ أنظف بكثير مما كانت عليه في السابق. ففي تسعينات القرن العشرين، كان يمتلك جميع شركات البناء الرعاع، وكانت عطاءاتهم متضخّمة كثيراً. أما الآن فقد تقلص تأثير العائلات الخمس. وفي بعض مواقع العمل التابعة لنيرو غولدن، كان من بين العمّال عمال غير نقابيين. وكان هؤلاء العمّال سيُقتلون قبل عشرين سنة. - إذاً فأنت تتحدث الآن عن أشخاص محترمين: دورونين، سوميدا، خورانا، سيلفيرشتاين، ستيرن، فيلدمان، أرستقراطيي العقارات. - ليس تماماً يا سيدي، كما قلت. فقد أذعن الرعاع. أما الآن فقد انتهى كل ذلك وأصبح كلّ شيء على المكشوف ويمكننا أن نشير إلى صفقات نيرو غولدن السرية مع هؤلاء الشركاء من قبيل أحفاد بيتروتشيو في فيلادلفيا «تشيكن ليتل» وليون، وآرسيمبولدو في أتلانتيك سيتي «ليتل آرتشي»، أنتونيوني، وفي ميامي فيدريكو «فريد المجنون» وبيرتولوكسي. ويمكننا أن نذكر أيضاً أنه في مدينة نيويورك، ارتفعت عدة أبراج لمصلحة غولدن شيّدتها شركة بونتي

وكواسيمودو كونكريت - عملية أبدى فيها فرانسيسكو «فرانيد البدين» اهتماماً قوياً، باليرمو، الذي يزعم أنه شخصية هامة في عائلة جينوفيس الإجرامية. - هل هذا معروف؟ - الآن، في نهاية قضية غولدن، أصبح معروفاً. والأكثر من ذلك، فمن الواضح أن نيرو غولدن كان يشعر بارتياح شديد في صفقاته ومعاملاته مع هؤلاء الأشخاص والعائلات التي تقف وراءهم. - كان يشعر بالارتياح. سيدي: بل كان مسترخياً تماماً.

سؤالان أخيران: هل كان تشيكن ليتل، وليتل آرتشي، وفريد المجنون، وفرانكي البدين يطلقون لحى خفيفة مبتكرة على ذقونهم العريضة؟ وهل كانوا يمتلكون، وفي المساء يرتدون أحياناً، بدلات توكسيدو لا تناسبهم؟ - ياسيدي: نعم.

ها هو نيرو غولدن، يرفع حظره على أجهزة الإعلام، يُري مصوراً من مجلة مجّانية ذات صفحات مصقولة بيته الجميل. (لم تعد هناك سرية الآن؛ بل أصبح كلّ شيء مكشوفاً) ها هو نيرو غولدن، يُري مجلة أخرى زوجته الجميلة. يقول عن زوجته إنها مصدر إلهامه، نجمه الهادي، مصدر «تجديده». أنا رجل متقدم في السن، يقول، وربما، بالنسبة إلى رجال مثلي، قد يكون قد آن الأوان للاسترخاء، والقيام برحلات باليخت، ولعب الغولف، وقضاء فصل الشتاء في فلوريدا، ونقل المسؤوليات. منذ فترة قريبة، كنت على وشك أن أفعل ذلك، مع أن أبنائي، يعلم الله، لا يبدون اهتماماً كبيراً بأعمال العائلة. هل تصدّق أن أصغر أبنائي يعمل حالياً لمصلحة نادي للشابات في مانهاتن، وهو يؤدي عملاً جيداً، وهذا أمر جيد، لكنني قد أحتاج إليه أيضاً، قليل من الاهتمام، من فضلكم. ثمّ فنان، وثمّ بيتيا. هكذا هي الحال. لكن هذه الهواجس لم تعد تقلقني، لأنني كرجل، ولدت من جديد. امرأة ستفعل ذلك

من أجلك. امرأة مثل السيدة غولدن، إنها إكسير الحياة، إنها تعيد شعر الرجل إلى اللون الأسود، تشدّ أسفل بطنه، تعيد أميالاً إلى ساقيه، وإلى عقله، نعم، وإلى عقله في الأعمال أيضاً، تشحذه مثل سكين. انظر إليها! هل يساورك أدنى شك في ما أقوله؟ هل رأيت صورها في مجلة بلاي بوي؟ طبعاً لا أخجل من ذلك، لماذا يتعين على المرء أن يخجل من ذلك؟ امتلاك جسد شخص، الاهتمام به وجعله رائعاً، أن لا ترى العار في الجمال، هذا هو التحرر. إنها مثال المرأة المتحرّرة، ومثال الزوجة أيضاً. جانبا العملة. نعم: أنا رجل محظوظ. هذا أمر مؤكد. إنها الجائزة الكبرى، لا ريب في ذلك.

(١٦)

حول الحبّ: مأساة

في اليوم الذي مات فيه والداي لم أكن في السيارة معهما. كان ذلك في عطلة نهاية الأسبوع في يوم الشهداء، عندما كانا ذاهبين في رحلة خارج المدينة، لكنّي غيّرت رأيي في آخر لحظة، وبقيت في المدينة لأن سوشيترا روي أرادت أن أساعدها في مونتاج فيلم فيديو لمصلحة دار أزياء إيطالية. بالطبع كنت مغرماً بسوشيترا، فكلّ من صادف هذه الكتلة الحيوية البشرية لا بد أن يقع في حبها ولو قليلاً، ولفترة طويلة كنت أخاف من طاقتها الهائلة، مكانة هذه المرأة، شعرها الأسود الذي يتطاير وراءها في الريح وهي تسير في الجادّة السادسة، تنورتها الزرقاء والذهبية تتوهّج فوق حذائها الرياضي، ذراعاها تنتشران في اثني عشر اتجاهاً مختلفاً مثل إلهة هندوسية تحاول أن تعانق المدينة برمّتها... وكنت أخشى كثيراً أن أعترف لنفسي بأنّني أُغرمت بها، أما الآن، فلم يعد ثمة شكّ حول ذلك. وكان السؤال الوحيد هو متى سأخبرها بذلك، أو إن كنت سأخبرها على الإطلاق. كان ثمة صوت في رأسي يقول أخبرها الآن، أيها الأحمق، لكن صوتاً ثانياً أعلى، صوت جبني، كان يجادل أحياناً بأنه مضى على صداقتنا وقت طويل، لذلك أصبح من المستحيل

تحويل الصداقة إلى حبّ رومانسي. وإذا حاول المرء ذلك وأخفق، فقد يصبح المرء بلا صداقة أو حبّ، وها هو إليوت بروفروك يجول في رأسي مرة أخرى، يتعذّب في صوتي الداخلي، *هل أجرؤ*، وحول السؤال الفظيع والمرعب لإعلان حبّي، *هل يجدر ذلك/ إذا كان المرء*، يسوّي *وسادة أو يلقي شالاً/ ويلتفت نحو النافذة*، ينبغي أن يقول: / «*ليس على الإطلاق/ ليس هذا ما أقصده، على الإطلاق*».

قرّرت أن أبقى وأعمل معها، وعندما ننهي عملنا، سنخرج لاحتساء البيرة وأعبّر لها عن حبي. نعم، سأفعل ذلك. لذلك لم أرافق أمّي وأبي في رحلتهما، ولهذا السبب، فإني لا أزال على قيد الحياة. لا، لا يوجد ثمة معنى للحياة والموت. فقد يحدثان أو لا يحدثان لأسباب تافهة، لا تتعلّم منهما شيئاً. لا توجد ثمة حكمة في العالم. جميعنا ضحايا الحظ. ها هي الأرض وهي جميلة جداً، ونحن محظوظون جداً لكوننا هنا بعضنا مع بعض، وإننا في غاية الغباء وما يحدث لنا شيء شديد الغباء، ولا نستحقّ حظّنا الغبي.

ما أقوله هراء. دعوني أحدّثكم عن الطريق.

كان الطريق السريع المؤدي إلى لونغ آيلند مليئاً بالقصص العائلية، وعندما اتجهنا بالسيارة في الصيف إلى البيت الذي استأجرناه بجانب الطريق السريع أولد ستون في حي سبرينغز - يمتلكه أحد النبلاء من جامعة كولومبيا كان قد أصيب بداء لايم وعانى الأمرّين لسنوات عديدة، ولم يعد يرغب في السفر إلى مملكة القُرَاد ووضعنا علامة على كلّ المعالم المألوفة. مينيولا، المقبرة هناك، لديّ عمّة وعمّ لأبي أوصيا بعد موتهما بأن أهزّ رأسي باحترام. غريت نك، ليتل نك، أفكار غاتسبي تبرز فينا جميعاً، مع أننا لم نمرّ بالقرب من ريمسينبيرغ حيث عاش ب. ج. ودهاوس لسنوات عديدة خلال منفاه بعد الحرب من إنكلترا، كنا نتخيّل غالباً،

أثناء سيرنا، كوناً خيالياً يمكن أن تقوم فيه مخلوقات من فيتزجيرالد ودهاوس بعضها بزيارة بعض. وقد يتطفّل بيرتي وستر وجيفز على عالم البيض الأقل كثافة، ويضع حمار بيرتي السخيف حوافره في حذاء نك كاراواي، وريغنالد جيفيس، آكل السمك، ويجد الرجل المحترم اللطيف المحبّ لسبينوزا وسيلة لكي يمنح غاي غاتسبي السعادة الأبدية بعد أن ينهي ديزي بيوكانان الذي يتوق إليه كثيراً. وديكس هيلز التي كان أبي يلفظها مازحاً بلكنة فرنسية دي *هييلز*. وقلت، كما كنت أقول دائماً، إن هذا الاسم يبدو لي أشبه بنجم مسلسل يُعرض في الفترة الصباحية. وويباندانتش؛ عندما عبرنا ذلك المنفذ الذي لا بد أن يحكي أي أب قصّة رئيس *أمة* مونتوكيت من الهنود الحمر قصته أو قصّة *ساشم* (زعيم) يحمل ذلك الاسم الذي باع معظم الجزء الشرقي من جزيرة لونغ آيلند إلى رجل إنكليزي يُدعى ليون غاردنر، ثم مات بالطاعون. وظهر ويباندانتش ثانية عندما وصلنا إلى الجزء الشرقي فتذكّر والداي قصّة ستيفن تالخوس، سليل وياندانتش الذي كان يقطع خمسين ميلاً يومياً بين مونتوك وساغ هاربر وإيست هامبتون. وفي وسط وياندانتش وتالخوس مررنا بجانب لافتة وجّهتنا نحو سيدة أمريكية من الهنود الحمر، خيالية تماماً، نهر شيرلي وايدينغ ريفر. في الواقع قادتنا هذه اللافتة إلى قبيلتين متميّزتين، واحدة تدعى وايدينغ ريفر والأخرى شيرلي، لكن شيرلي وايدينغ ريفر اتسعت في تراثنا التقليدي العائلي. وكهواة في قصص الخيال العلمي فإننا نضعها أحياناً في مصاف زعماء القبائل ما بعد التنبُّئيين، ثلاث قنابل هيدروجينية وانبعاث إشعاعات كثيرة، من مسرحية إيستوارد هو الكلاسيكية التي كتبها وليام تن في عام ١٩٥٨. وفي أحيان أخرى، تخيّلناها عملاقة مثل أمّ غريندل، أو عملاقاً من النوع الأسترالي أو أحد أسلافه، مشكّلة الصورة وهي تمشي.

كانا يستمعان إلى المذياع وهما يقودان السيارة. قناة الأغاني القديمة على الموجة ١٠١,١ التي تبث الموسيقى، وقناة WNYC التي تبث الكلمات، إلى أن اختفت الإشارة ثمّ انتظرا حتى ظهرت موسيقى إيست هامبتون، إشارة إلى أنّ عطلة نهاية الأسبوع على وشك أن تبدأ، ليالي موسيقى الروك الناعمة وطبق سرطان البحر، كانت تلك نكتة أخرى لأبي. وبين إذاعة نيويورك وإذاعة دبليو إي إتش إم كانت هناك كتب صوتية، وكانا يخططان في تلك السنة لسماع هوميروس. أظن ذلك - لا أستطيع أن أكون متأكداً، لكنّي أظن - أنهما عندما انطلقا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في يوم الشهداء ذاك كانا قد وصلا إلى الكتاب الرابع من الأوديسة، عندما كان تيليماخوس يزور قصر مينيلوس في اليوم الذي تزوجت فيه ابنته، ابنة هيلين طروادة المستردة، من ابن أخيل.

لذلك، ربما كانا يستمعان إلى المقطع الذي يروي فيه مينيلوس اليوم الذي جاءت فيه هيلين إلى الحصان الخشبي الضخم، وساورتها الشكوك في وجود محاربين يونانيين في داخله، وبخداع وإغراء هائلين قلّدت أصوات كلّ زوجاتهم (أتخيّلها تمدّ يدها وتمسّد بطن الوحش الخشبي بطريقة مثيرة جنسية وهي تتكلّم) بشكل شهواني إلى حدّ أن ديوميد ومينيلوس نفسه وأوليسيس أيضاً أرادوا أن يقفزوا ويخرجوا من بطن الحصان في ذلك الزمان والمكان؛ لكن أوليسيس تمالك نفسه ومنع رفاقه، ما عدا أنتيكلوس الذي كان سيصرخ، وكان سيفعل ذلك لولا أن أوليسيس وضع يديه القويتين على فمه، وبحسب بعض الروايات، فقد خنقه وسلبه حياته من أجل حماية اليونانيين المختبئين في بطن الحصان الخشبي. نعم، قد تكون تلك اللحظة الخالدة هي التي رنّت في أذنيهما، عندما ظهر ذلك الأنبوب المعدني الملقى على الطريق، ذلك القضيب المعدني المنيك الذي سقط من

شاحنة منيوكة، هل توقّف سائق الشاحنة، لا لم يتوقّف، بل حتى أنه عرف، لا، ربما لم يعرف. هل ربط الحمولة على شاحنته بإحكام، لا، بالتأكيد لم يفعل، لأنه كان في الطريق

الأنبوب المعدني

في المجاز المخصص للسيارات التي فيها راكبان وأكثر، كان والداي المحبوبان يقودان سيارتهما، ولم يكونا من ذلك النوع من الأشخاص الذين يقودون سيارتهم بسرعة، لا يا سيدي، فقد فضّلا أن يقودا بسلامة في المجاز المخصص للسيارات التي يوجد فيها راكبان وأكثر، المجاز الذي تُرسم عليه شارة ماسة، لأنه لماذا، من يهتمّ، لماذا، لكن في هذه المرة لم يكن الطريق آمناً تماماً لأن الأنبوب المعدني كان

يتدحرج

أقترب من الرعب ويجب أن أتوقف قليلاً حتى أتمالك نفسي وسأكتب المزيد لاحقاً.

لا.

لا، لا يوجد لاحقاً.

الآن.

كان طول الأنبوب سبعة أقدام. تدحرج إلى المجاز المجاور وأصاب سيارة أخرى بسرعة بحسب ما أسمته التقارير «ضربة سريعة». أخذ الأنبوب يفتل بسرعة، ثم ارتفع وقفز ثم ارتطم بزجاج سيارة والديَّ الأمامي وأصيب أبي في رأسه، وقُتل على الفور. وانحرفت سيارتهما التي لم يعد بالإمكان التحكم بها من المجاز الذي كانت تسير فيه، فانحرفت إلى مجاز المرور السريع، ونتيجة اصطدام عدة سيارات من جراء ذلك، قُتلت أمّي أيضاً. ولإخراجهما من السيارة، اضطرت خدمات الطوارئ إلى استدعاء فرقة الإنقاذ

لانتشال جسديهما. ونُقلا إلى مستشفى نورث شور الجامعي في بلينفيو، مقاطعة ناسو، حيث أعلن عن وفاتهما حال وصولهما إلى المستشفى. وفي منتصف الليل، بعد أن صرّحت بحبي لسوشيترا روي في تلك الحانة ذات الطراز البريطاني عند الناصية بين شارعي بليكر ولاغوارديا، وسمعت الخبر الذي لم أكن أتوقّعه بأنّها تكنّ لي كذلك مشاعر جياشة، جاءتني المكالمة.

وخلال جزء كبير من تلك السنة، لم أعد قادراً على التفكير. وكان كلّ ما سمعته هو الخفق المدوّي لأجنحة ملاك الموت العملاقة. لقد أنقذني شخصان. أحدهما سوشيتراي المحبّة الرائعة، الحبيبة الجديدة.

أما الشخص الآخر فهو السيد نيرو غولدن.

* * *

بعد كلّ حذرهما الذي يتسمّان به - **الذي لم ينقذ حياتهما، أليس كذلك، لأن طيش الآخرين يمحو حذرنا، رعونة أنبوب يندفع إلى الوراء ويصعد ويرتطم بوجه أبي الذي يُعتبر وجهي صدى سيئاً له، نحن الذين نأتي بعدهم لسنا إلّا صورة زائفة عن الأشخاص الحقيقيين الذين سبقونا وولّوا إلى الأبد، بغباء، بلا معنى، يقتلهم أنبوب عشوائي، أو قنبلة في ناد ليلي، أو طائرة من دون طيّار** - كان والداي قد نظما أمورهما جيداً. فقد كانت هناك جميع الوثائق القانونية اللازمة، مرتبة بعناية، التي كفلت مكانتي بأنني وريثهما الوحيد، وكان هناك مبلغ التأمين لتسديد ما تحتاج إليه ولاية هذه الورثة، وكان هناك مبلغ جيد من المال. لذلك، لم يكن عليّ الآن أن أغيّر ترتيباتي المنزلية، مع أنني قد أضطر إلى بيع البيت بعد فترة، لأنه واسع جداً، وسيصعب عليّ أن أسدد نفقات الصيانة

وضريبة الملكية **وإلى ما إلى هنالك، لم أكترث**. رحت أجوب الشوارع وأنا في حالة غضب شديد، وبغتة بدا لي أنّ كلّ الغضب المتجمّع في الهواء قد انهال عليّ أيضاً. كنت أشعر به، غضب الذين ماتوا ظلماً وبهتاناً، الشباب الذين أُطلقت عليهم النار وقُتلوا لأنهم كانوا يهبطون الدرج لا لسبب إلّا لأنهم ذوي بشرة سوداء، والطفل الصغير الذي أُطلقت عليه النار وقُتل لأنه كان يلعب بمسدس بلاستيكي في ملعب لأنه أسود البشرة، وجميع الموتى السود الذين يُقتلون يومياً في أمريكا، يصرخون بأنّهم كانوا يستحقون أن يعيشوا، وأستطيع أن أشعر أيضاً بغضب أمريكا البيضاء لأن عليها أن تتحمّل رجلاً أسود يقيم في بيت أبيض، والكراهية البغيضة التي تعتمل الذين يكرهون المثليين، والغضب الجريح الذي يعتري الذين يُستهدفون منهم، وغضب العمّال بعد ما حدث في كارثة البيوت، وسخط البلد المنقسم على نفسه بشراسة، إذ يعتقد الجميع أنهم على حقّ، وأن قضيتهم عادلة، وأنه لا مثيل للألم الذي يعانونه، وأنه يجب إيلاء الانتباه إليهم، وأنه يجب أن يوجّه الاهتمام إليهم، وإليهم فقط، وبدأت أتساءل عمّا إذا كنا كائنات أخلاقيّة أم مجرد همج عرّفوا تعصّبهم بأنه ضرورة أخلاقية، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يجب أن تكون عليها الأمور. فقد ربّاني هذان الأبوان البلجيكيان العزيزان اللذان غادرا هذه الدنيا على أن أؤمن بأنّ «الصح» و«الخطأ» هما أفكار تأتي بشكل طبيعي إلى الحيوان البشري، وأنّ هذه المفاهيم ولدت فينا، ولم تُصنع. كنا نظن أنه توجد «غريزة أخلاقيّة»: متصلة بالحمض النووي (D.N.A) كما هي، استناداً إلى ستيفن بينكر، «غريزة اللغة». كان هذا هو ردّنا العائلي على الزعم الديني بأنّ الأشخاص غير المتدينين لا يمكن أن يكونوا كائنات أخلاقيّة، وأن التركيبة الأخلاقيّة لأي نظام ديني يجيزها ويصادق عليها قاضٍ أعلى

يستطيع أن يمنح البشر فكرة كاملة عن الخير والشر. وكان ردّ أمّي وأبي على ذلك (Hogwash) «كلام فارغ»، أو كانا يرددان عبارة تعلّماها من أصدقاء أستراليين وراحا يستخدمانها ببهجة بأنها عبارتهما هما: (Horse puckie) «هراء، خراء». فقد جاءت الأخلاق قبل الدين وأن الدين هو الطريقة التي استجاب من خلالها أسلافنا إلى تلك الحاجة الداخلية. وإذا كان الأمر كذلك، فإن ما يتبع ذلك هو أن المرء يمكن أن يعيش حياة سعيدة، وأن يكون لديه إحساس قوي بالصح والخطأ، دون أن يدع إلهاً وأعوانه الدخول إلى الغرفة.

«إن المشكلة هي»، قالت أمّي الجالسة على مقعد في الغاردنز، «أنه على الرغم من أننا مبرمجون بحيث إننا نحتاج إلى الأخلاق، فإن البرنامج لا يخبرنا ما هو الصح وما هو الخطأ. فهذه الفئات فارغة في العقل وتتطلّب منّا أن نملأها بماذا؟ بالفكر. بالحكمة. بأشياء من هذا القبيل».

«إن أحد مبادئ السلوك البشري العامة، كما تبين لي»، أضاف أبي، وهو يمشي أمامها جيئة وذهاباً، «أنه في جميع الحالات تقريباً، يعتقد كلّ شخص بأنه على حقّ، وأن كلّ من يعارض رأيه فهو مخطئ».

عندها انضمّت إليه أمّي، وأضافت، «ونعيش أيضاً في زمن لا يوجد فيه اتفاق تقريباً على أية مسائل وجودية، بل إننا لا نستطيع أن نجمع على ما هي الحال، وعندما يثار جدل حول طبيعة الشيء الحقيقي، هكذا يجب أن تكون طبيعة الأشياء الجيدة».

عندما يتحدثان بهذه الطريقة، يصبحان مثل راقصين، أو لاعبيْ كرة الريشة، كلماتهما تنتقل بتناغم، وترمي مضاربهما كرة الريشة ذهاباً وإياباً، إياباً وذهاباً. «لذلك فإن الفكرة القائلة بأننا نمتلك

غريزة الأخلاق لا تحمل في طياتها الفكرة بأننا نعرف ماذا يجب أن تكون تلك الأخلاق. وإذا كان هذا صحيحاً، فإن الفلاسفة سيصبحون عاطلين عن العمل وسنعيش في عالم أقل مماحكة وجدلاً». وأشار أبي إليّ بإصبعه وقال: «أترى؟ أتفهم هذا؟» فرحت أهزّ رأسي مثل تلميذ مدرسة وأقول نعم يا أبي، نعم يا أمّي، لقد فهمت، نتّفق كلّنا على هذا، هذه أمور نعرفها.

«نعم، لكن هل تعرف أنه توجد كلمة لها؟» سألني أبي.

كلمة لماذا، يا أبي.

«تعريف: القدرة الفطرية المفترضة للعقل البشري لكي يدرك مبادئ الأخلاق والقيم الأساسية. إنه مصطلح فلسفي فني، يبيّن المبدأ الفطري في الوعي الأخلاقي لكلّ شخص الذي يوجّهه إلى ممارسة الخير ويمنعه عن ممارسة الشرّ».

لا، يا أبي، وما هي تلك الكلمة.

«*Synderesis*» قالت أمّي، «هل سمعت بكلمة أفضل؟»

«لا توجد كلمة أفضل من هذه»، قال أبي موافقاً، «تذكّرها يا بني، فهي أفضل كلمة في العالم».

كان هذان هما الصوتين اللذين لن أسمعهما ثانية أبداً.

وكانا مخطئين. فالجنس البشري متوحش، وليس أخلاقيّاً. لقد عشت في حديقة مسحورة، لكن الهمجية، اللامعنى، الغضب قد تسلق من فوق الجدران وقتل أكثر شيء أحبّه.

* * *

لم أر في حياتي قط جثمان شخص حتى رأيت جثمانيْ والديَّ في مشرحة مينيولا. كنت قد أرسلت لهما ثياباً، وقام بهذه المهمة أحد مساعدي سوشيترا. واخترت تابوتين على الإنترنت، كما يختار

المرء صناديق غالية الثمن ليُحرقا فيها. اكتظّ بيتنا بأساتذة جامعيين، ذكوراً وإناثاً، جاؤوا لمساعدتي. لقد حصلت على كلّ المساعدة في العالم من كبار الخبراء في الفنّ السومري، ومن أساتذة في فيزياء الجزيئات الذرّية الفرعية، وخبراء في التعديل الأول لدستور الولايات المتحدة الأمريكية، وأدبيات الكومنولث. لكن لم يستطع أحد أن يساعدني على أن ألقي نظرة على الجثمانين. أوصلتني سوشيترا إلى المشرحة بسيارتها الجيب القديمة، وبما أنه لم تكن هناك طريقة تجعلنا نتحدّث عمّا كنا بحاجة إلى التحدّث عنه، فقد غصنا في كوميديا سوداء، وتذكّرنا على نحو خاص «جثث الأسبوع» المريعة من مسلسل «*ستة أقدام تحت الأرض*» القديم الذي تعرضه قناة إتش بي أو. وكان المشهد الأثير لديّ هو مشهد المرأة في سهرة مع مجموعة من النساء في سيارة ليموزين طويلة مستأجرة وقد وقفت وأخرجت جسمها من الفتحة المفتوحة في سقف السيارة لتعبّر عن سعادتها فارتطم وجهها بمؤخرة شاحنة رجل قاطف كرز. ثم أصبح من مهمّة الممثلين في المسلسل إصلاح وتسوية وجهها المسطّح.

ثمّ في غرفة مضاءة جيداً، عربتا مستشفى يرقد عليهما بشكل أفقي كائنان تحت شراشف، كائنان أفقيان كانا ذات يوم كائنين أفقيين فوق سطح مختلف أكثر نعومة، توحّدا مبتهجين - قد يكون بشكل أخرق - أو ربما لا - لم أستطع أن أتخيّل أن يكون والداي شيطانَي جنس لاهثين، لكنّي لم أردهما أن يكونا عاجزين أيضاً - والنتيجة هي هذا الكيان الفارغ الخالي من التفكير يقف إلى جانب العربتين ليتأكد من أنّهما لم يعودا قادرين على القيام بالعمل الذي أحضره إلى الوجود، أو إلى أيّ شيء آخر.

لقد بذلوا كلّ ما بوسعهم في المشرحة. ذهبت إلى أمّي أولاً وكانوا قد أزالوا ملامح الرعب من وجهها وأي شظية زجاجية أو

قطعة معدنية ثقبتها، ولاحظت أنّهم وضعوا لها مكياجاً يفوق ما كانت تضعه عندما كانت على قيد الحياة. إنها هي، وتأكدت أنها هي، وبدت لي أنها في سلام، أو أنني أقنعت نفسي بأنّها تبدو في سلام. ثم توجّهت إلى أبي وجاءت سوشيترا ووقفت ورائي وأسندت خدها إلى ظهري وطوقت خصري بذراعيها. حسناً، قلت، حسناً، ورفعت الشرشف. ثمّ بكيت أخيراً.

* * *

بعد حرق الجثمانين بيوم واحد، عبر نيرو غولدن الغاردنز وجاء لزيارتي في بيتنا - لم يكن ثمة معنى لكلمة «بيتي»، ففي كل شبر منه يتواجد طيفا أبي وأمي - ونقر بعكازه على النافذة الكبيرة. لم أكن أتوقع ذلك على الإطلاق - الملك يقرع باب يتيم من عامة الناس - بل حتى رأيته في البداية كإسقاط غير واقعي لمخيلتي. فبعد الحادثة التي قضى فيها والداي ارتخت قبضتي من الأشياء الواقعية. كانت توجد سيدة مسنّة، السيدة ستون، تعيش في بيت يطلّ على الغاردنز (في بيت مؤلف من أربع غرف ذات سقوف عالية في الطابق الأول في بناية مقسّمة إلى عدة شقق)، تتحدّث كثيراً عن الأشباح. لم أذكرها من قبل، وقد أتركها وشأنها بعد ظهور ضيفنا هذا. كان الأطفال في الغاردنز يطلقون على هذه السيدة اسم قبعة لشغفها بالقبعات الشمسية العريضة الحواف، أرملة توفي زوجها منذ عدة سنوات. وكان زوجها المتوفى يملك مزرعة في تكساس وعندما اكتشف البترول تحت أرضه تخلّى عن تربية الأبقار وانتقل إلى عيش حياة مترفة وأصبح من هواة جمع الطوابع العالمية. وكانت السيدة ستون قد أوقفتني أيضاً بالقرب من صالة الألعاب الرياضية لتحدّثني عن ألم الفقدان. موت في الأسرة، أيضاً مثل طفل رضيع، سمح

لغرباء أو أشباه غرباء بأن يقتربوا منه ويحدّثوه. «لم أر زوجي بعد أن رحل قط»، أفضت له، «يبدو أنه كان سعيداً لأنه ذهب بعيداً. حتى أنه لم يبذل أي جهد ليتصل بي في أي وقت. تعيش وتتعلّم. وفي إحدى الليالي رأيت في زقاق ماكدوغال فتى مراهقاً يرتدي زياً خاصاً - طفلاً أسود في زيّ جميل مبهرج - يسير على ركبتيه. لماذا كان يسير على ركبتيه، تساءلت، فلا يوجد تاريخ ديني هنا. لكني فهمت أخيراً. فلم يكن يمشي على ركبتيه على الإطلاق. فقد ارتفع مستوى الشارع في الزقاق مع مرور الزمن وكان يمشي على مستوى الأرض القديم ولم أره إلّا ماشياً على ركبتيه. ربما كان عامل إسطبل، يسير في الزقاق ليعمل في الإسطبلات القديمة التي كانت موجودة هناك في ثلاثينات القرن التاسع عشر لخدمة ساحة واشنطن سكوير نورث. أو ربما كان خادماً يعمل لدى غيرترود ويتني التي كانت تعيش هناك، كما تعرفون، عندما أسّست متحفها. في جميع الأحوال، شبح، طيف محسوس. ولم يكن ذلك كلّ شيء»، فاعتذرت منها وغادرت. لكن قصص أشباح الحيّ بدا أنها بدأت تلاحقني في تلك الأيام الكئيبة. شبح آرون بير يخيّم على القرية يبحث عن عاهرات. أشباح موسيقية، أشباح مسرحية، يرتدون ملابسهم المسرحية ويمثّلون في الشتاء في شارع كوميرس ستريت. لم تكن ذاتي القديمة تبدي اهتماماً، لكن ذاتي الجديدة اليتيمة كانت تسمح للناس بأن يحكوا قصصهم، وفي الليل، حاولت أن أسمع ضحكات والديَّ يتردّد صداها في الغرف الخاوية. كنت في هذا المزاج عندما رأيت نيرو غولدن عند النافذة الكبيرة وخيّل إليّ أنه طيف. لكنّه كان شخصاً من لحم ودم.

«هل تسمح لي بالدخول»، قال ودخل قبل أن أسمح له - وعندما دخل، وأسند عكازه إلى الحائط وجلس على كرسي أبي

المفضّل، قال: «أنا رجل مباشر، يا سيد رينيه، صريح، ولا أجد حاجة إلى اللفّ والدوران. لذلك، فإني أقول لك عن خسارتك بأنها خسارتك *أنت* وحدك. فقد ذهب والداك، لا تشغل تفكيرك بهما، ولم يعد لهما وجود. اهتمّ بنفسك. لا يتعلق الأمر بأنّك جُرحت ويجب أن تبرأ فحسب، وإنما أنهما لم يعودا الآن يقفان بينك وبين القبر أيضاً. هذه هي الرجولة. أصبحت الآن في الخطّ الأمامي والقبر يتثاءب من أجلك. لذلك، احصل على الحكمة؛ تعلّم كيف تكون رجلاً. إذا وافقت، فإني سأعرض عليك مساعدتي».

كان هذا كلاماً مؤثراً. فإذا كان يهدف إلى انتشالي من حزني من خلال استثارتي، فقد نجح. لكن قبل أن أفتح فمي وأقول شيئاً، رفع يده ليقاطعني، وقال: «إني أرى ردّة فعلك في وجهك الذي احتشدت فيه غيوم عاصفة منذرة. بدّد هذه الغيوم! إن غضبك غير ضروري. فأنت شابّ وأنا عجوز. أطلب منك أن تتعلّم منّي. بلدك فتي. ويفكّر المرء بطريقة مختلفة عندما تقبع خلفه آلاف السنين. أما بلدك فلم يبلغ من العمر حتى مئتين وخمسين سنة. وأقول لك أيضاً إنني لم أفقد بصري بعد، لذلك فإني أعي اهتمامك ببيتي. وبما أنني أعتبرك رجلاً طيباً، فإني أغفر لك هذا، والبديل هو أن أقتلك، ها ها ها. وأفكر - الآن بعد أن أصبحت رجلاً - أنك تستطيع أن تتعلّم منّا كلّنا في عائلة غولدن، الأمور الجيّدة والأمور السيّئة، وما يجب أن تفعله، وما يجب ألّا تفعله. فمن بيتيا يمكنك أن تتعلّم كيف تحارب ما ليس ذنبك، وكيف تلعب عندما لا تكون أوراق اللعب في مصلحتك. وآبوو، من الأفضل ألّا تكون مثله. لعله لم ينجح في أن يكون عميقاً. ومن ديونيسوس، ابني المعذّب، تعلّم الغموض والألم».

«ومنك؟»

«بالنسبة إليّ يا سيد رينيه: لعلك أصبحت تعرف أنني لست قدّيساً دائماً. فأنا رجل صعب ومتبجّح ومن عادتي أن أكون متفوقاً، وآخذ ما أريده، وأزيح ما لا أريده عن طريقي. لكن عندما تكون وجهاً لوجه أمامي فيجب أن تسأل نفسك هذا السؤال: هل يمكن أن تكون طيباً وشريراً في وقت واحد؟ هل يمكن أن يكون أحد طيباً وسيئاً في آن معاً؟ إذا كنت تصدّق سبينوزا وتوافق على أنّ كلّ شيء مقرر ومحتوم بالضرورة، فهل يمكن أن تدفع الضرورات رجلاً إلى ارتكاب أعمال خاطئة وأعمال صالحة؟ من هو الرجل الطيب في هذا العالم الحتمي؟ بل هل الصفة هنا تعني شيئاً؟ عندما تحصل على الجواب، أخبرني. لكن قبل أن يحدث كلّ هذا، الليلة، سنخرج معاً إلى وسط المدينة، ونشرب».

* * *

لاحقاً

«الموت، إننا نتعامل معه، نقبله، ثم نمضي»، قال نيرو غولدن، «فنحن الأحياء، لذلك يجب أن نعيش. الشعور بالذنب، لكن، هذا سيّئ. إنه يبقى ويضرّنا». كنّا في صالة الشاي الروسية - مكانه المفضّل - نحمل كؤوساً صغيرة مترعة بفودكا باردة جداً. رفع كأسه محيياً، شربَ، شربتُ. هذا هو سبب وجودنا هنا، والطعام - بليني وكافيار وفطائر ودجاج كييف - أكلنا لكي نشرب أكثر.

«إذا عدنا إلى البيت ولم نسكر»، قال لي نيرو غولدن، «نكون قد أخفقنا. يجب أن نصل إلى حالة لا نعرف فيها كيف وصلنا إلى البيت».

أطرقت رأسي بوقار، وقلت: «موافق».

جرعة أخرى. «المرحومة زوجتي، خذ حالتها مثلاً»، ووخزني

نيرو بإصبعه، «لا تتظاهر بأنك لا تعرف القصّة. أعرف الألسنة الفالتة في بيتي. لا عليك. بالنسبة إلى موتها، شكّل حزناً كبيراً، لكنه لم يكن في الواقع مأساة، لم يرقَ إلى مستوى المأساة». جرعة أخرى. «أصحّح نفسي. بالطبع كانت مأساة شخصية. مأساة لي ولأبنائي. لكن المأساة العظيمة تكون عامة، أليس كذلك».

«نعم».

«إذاً. فكرتي. أن الجانب التدميري بالنسبة إليّ، الجانب التدميري الذي غيّر الحياة، لم يكن حقيقة الموت وإنما حقيقة المسؤولية. مسؤوليتي، هذه هي المسألة. هذا ما يطاردني عندما أتمشى في الليل في الغاردنز».

في هذه المرحلة من المساء، بدأت أرى أن مهمّتي تكمن في مواساته مع أن الغرض من مجيئنا إلى هنا هو مواساتي. فقلت: «لقد تشاجرتما، وهذا يحدث. لا تتحمل وزر موتها. في الكون الأخلاقي، فإن القاتل وحده هو المذنب بجريمة القتل، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فسيكون الكون سخيفاً أخلاقياً».

كان صامتاً، يشرب. كان الندل يحومون حولنا لجلب مزيد من الفودكا. «دعني أضرب لك مثالاً مختلفاً»، قلت، وقد اعتراني شعور بالانتشاء الآن، ووجدت نفسي في أعالي قمم التفكير، وأحسست بأنني ابن والديَّ حقاً، «افترض أنني أحمق».

«أحمق بكل معنى الكلمة ونتن أيضاً».

«أتصوّر ذلك، حسناً».

«افترض أنني أقف يومياً أمام بيتك وأسيء لك ولأسرتك».

«هل تستخدم كلاماً بذيئاً؟»

«أسوأ العبارات. أشتمك أنت ومن تحبّ بأقذع العبارات».

«سيكون ذلك شيئاً لا يطاق، هذا أمر طبيعي».

«إذاً، عندك مسدس في البيت».

«كيف عرفت ذلك؟»

«أفترض ذلك».

«آه، فرضية. ممتاز. مفهوم. مسدس افتراضي».

«وتأخذ هذا السلاح المفترض وهل تعرف ماذا تفعل؟»

«أطلق النار عليك».

«تطلق النار عليّ في القلب وأموت. احزر ماذا يجعلك ذلك».

«يجعلني سعيداً».

«يجعلك قاتلاً».

«يجعلني سعيداً وقاتلاً».

«تصبح مداناً بجريمة قتل ولا يوجد في المحكمة محام يقول، سيدي القاضي، كان رجلاً أحمق».

«لا».

«حتى عندما يُقتل الحمقى فإنهم ليسوا مسؤولين عن موتهم. القاتل وحده هو الذي يتحمّل وزر الجريمة».

«أهذه فلسفة؟»

«أريد المزيد من الفودكا. الفلسفة تكمن في القنينة».

«أيها النادل».

بعد جرعة أخرى، سكر، ثم قال: «أنت شابّ، ولا تعرف ما هي المسؤولية. أنت لا تعرف ما هو الشعور بالذنب أو ما هو الخجل. إنك لا تعرف شيئاً. هذا غير مهم. لقد مات والداك. هذا هو الأمر الواضح الآن».

«شكراً»، قلت، ثم، لم أعد أتذكّر.

انتهى.

* * *

«في البدء»، قالت سوشيترا، الجالسة بجانب سريري عندما اشتكيت من أن رأسي يؤلمني، «في البدء كان هناك الحزب الشيوعي الهندي الرسمي (ح ش هـ) لكن تعاني الهند من مشكلة سكانية وتتجاهل أحزابها اليسارية أيضاً مسألة تحديد النسل. لذلك بعد حزب ح ش هـ شُكِّل حزب ح ش هـ (م)، الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي)، والحزب الشيوعي الهندي (اللينيني - الماركسي) الذي يعرف كذلك باسم ح ش هـ (م - ل). هل يكفي أحزاب؟ حبيبي، لا تزال الحفلة من أولها. حاول أن تعدّ. الآن هناك الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي - اللينيني) التحرير، بالإضافة إلى الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي - اللينيني) ناكسالباري، وكذلك الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي - اللينيني) جاناشاكتي، بالإضافة إلى الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي - اللينيني) النجمة الحمراء، ودعنا لا ننسَ الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي - اللينيني) الفريق المركزي، أو دعنا لا ننسَ أن نذكر المركز الشيوعي الثوري الهندي (الماوي - اللينيني - الماركسي)، هذا إذا لم نذكر شيئاً عن الحزب الشيوعي لولايات الهند المتحدة أو الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي - اللينيني) العلم الأحمر، أو الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي - اللينيني) الديمقراطية الجديدة، أو الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي - اللينيني) المبادرة الجديدة، أو الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي - اللينيني) سومناث، أو الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي - اللينيني) اللجنة المركزية الثانية، أو الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي - اللينيني) البلشفي. أرجو أن تواصل تركيزك معي. وتنتشر المجموعات والأحزاب المنشقة الأخرى أيضاً، فهناك المركز الشيوعي الماوي الذي اندمج مع مجموعة حرب الشعب لتشكيل المركز الشيوعي الماوي الهندي. أو لعل المركز الشيوعي

الماوي الهندي اندمج مع الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي - اللينيني) مجموعة حرب الشعب وأسّس الحزب الشيوعي الهندي (الماوي). لا يستطيع المرء أن يلاحظ هذه الفروق بسهولة. أقول لك كلّ هذا لكي أوضح لك قرار أمّي وأبي البنغاليين، اثنان من أصحاب الأعمال يحبّان الرأسمالية عالقين في كلكتا بين الرافانا المتعدّدة الرؤوس للحزب الشيوعي الهندي (يورانيوم -بلوتونيوم)، الرؤوس الحربية للانشطار النووي من اليسار، ويهربان لكي يستقر بهما المقام في ضاحية أتلنتا، ألفاريتا، في جورجيا حيث ولدتُ. قد تكون هذه فكرة جيّدة، وفي الحقيقة، كانت فكرة جيّدة من الناحية الاقتصادية، لأنهما نجحا في إنجاز مجموعة واسعة من المشاريع: صالونات تجميل، مخازن لبيع الألبسة، وكالة عقارية، خدمات للشفاء الروحاني، وكما ترى فقد انتشرا هما أيضاً. لكن لسوء الحظ، فقد أثمرت المؤسسات السياسية في اليمين الهندوسي أيضاً وتضاعف عددها فوق الأرض الأمريكية الخصبة، وانبثقت فروع مغتربة من راشتريا سوايامسيفاك سانغ، وازدهرت فيشوا هيندو باريشاد، وترعرع حزب بهاراتيا جاناتا، بالإضافة إلى أن منظمات جمع التبرعات كانت توصل الدولارات إلى هذه الجهات نفسها. وهكذا هرب والداي من دوّامة ليقعا في دوّامة أخرى، وعندما بدآ يحضران حفلات عشاء RSS البهيجة، وأخذا يتحدثان بإعجاب عن الشخص الذي يشبه صدره البرميل والذي كانا يطلقان عليه اسم نامو، كان عليّ أن أحبّهما وأغادرهما وأهرب، وهكذا جئت إلى مدينة نيويورك حيث أبذل جهدي الآن لأجعلك تضحك، وسيكون من اللطف منك في هذه اللحظة على الأقل أن تبتسم ولو قليلاً».

«وهذه فكرتك»، قلت، «عن علاج الصداع الشديد بعد المشروب».

فيما يتعلق بالجهد الذي تبذله: فقد كانت سوشيترا تفعل ذلك كلّ يوم، كلّ دقيقة من كلّ يوم. ولم أعرف في حياتي أحداً يعمل نصف ما تعمله، ومع ذلك كان يتوفر لديها وقت للمتعة، وهو الوقت الذي كنت فيه محظوظاً لكي تضمني إليها. كانت تستيقظ في وقت باكر من الصباح، وتؤدي أعمال البيت بسرعة، ثم تجري إلى مكتبها، وكانت تبذل كل ما لديها من طاقة أثناء النهار، ثم تجري على ضفة نهر هدسون أو على جسر بروكلن ثم تعود إلى البيت وهي لا تزال نضرة مثل أقحوانة، وفي المساء تكون أنيقة للغاية عندما تضطر إلى حضور أي مناسبة: افتتاح صالة عرض، افتتاح فيلم، حفلة عيد الميلاد، ليلة كاريوكي، موعد معي على العشاء، وبالرغم من ذلك فقد كان يتبقى لها طاقة كافية لممارسة الحبّ بعد كلّ ذلك. وكعشيقة، كان لها القدر نفسه من الطاقة، حتى لو لم يكن أصلياً، لكنّي لم أكن أتذمر. فأنا نفسي لست ذلك الإله الجنسي، وفي ذلك الوقت، كان حبّ امرأة طيبة ينتشلني من الحفرة السوداء. وكانت مودّة نيرو غولدن القاسية والليالي التي كنت أشاركه فيها في احتساء الفودكا بكثرة، بالإضافة إلى أن حبّ سوشيترا روي المفعم بالعواطف، الرائعة، انتشلني من كآبة تلك الأيام. وتذكرت قصّة المسعفين اللذين كانا في سيارة الإسعاف، أحدهما يؤدي دور شرطي طيب، والآخر يؤدي دور شرطي سيّئ عندما حاولت السيدة غولدن أن تضع حداً لحياتها، وأدركت أنني أنا الذي يجب وضعه تحت المراقبة هذه المرة لكي لا أقدم على الانتحار.

كان هناك صمت في السماء، أو، الكلب في باردو

كانت مدينة نيويورك هي أمّي وأبي خلال فترة الصيف كلها إلى

أن تعلّمت كيف أعيش من دون أب وأمّ، وأن أقبل، كما نصحني نيرو أن أقبل مكانتي كشخص يتصدر الطابور الواقف بانتظار آخر عرض سينمائي. وكالعادة، كانت السينما هي التي ساعدتني، «*الختم السابع*» لأنغمار بيرغمان، الذي رأى المخرج العظيم بنفسه أنه «غير جيد» بينما قدّرناه نحن كثيراً. الفارس (ماكس فون سيدو الذي سيؤدي دور الفنان الممل فريدريك في فيلم «*هنّا وأخواتها*» ومينغ عديم الرحمة الخالد في فيلم *فلاش غوردن*) وهو عائد من الحملات الصليبية إلى وطنه يلعب الشطرنج مع الموت الذي يضع قلنسوة سوداء ليؤخّر اللحظة الحتمية، ليتمكّن من رؤية زوجته ثانية قبل أن يوافيه الأجل. الفارس المحطّم والقاضي المتهكم، فيلم بيرغمان «*كيشوت وسانشو*» غير المضحك، يبحث عن طيور هذه السنة في أعشاش السنة الماضية. كان بيرغمان يريد معالجة مسائل دينية، لأنه ينتمي إلى أسرة متدينة جداً، لكن بالنسبة إليّ لم يكن من الضروري أن أرى الفيلم بهذه الطريقة. وكان العنوان مستمداً من سفر الرؤيا، *ولما فتح الحمل الختم السابع، حدث سكوت في السماء نحو نصف ساعة* (سفر الرؤيا ٨-١). بالنسبة إليّ، فإن الصمت في السماء، وعدم ظهور الرب، هما حقيقة الرؤية العلمانيّة للكون، ونصف الساعة يعني طول حياة إنسان. وكشف فتح الختم السابع أن الرب غير موجود في أي مكان، ولا يوجد شيء يقوله، وأنّ الإنسان مُنح فسحة حياته الصغيرة ليعمل فيها، بينما كان الفارس يريد أن يقوم بعمل هام. الزوجة التي أردتُ أن أراها قبل أن أموت كانت حلمي لأنني مخرج سينمائي. العمل الهام هو الفيلم الذي أحلم بإخراجه، فيلمي عن الحديقة المشتركة (الغاردنز) التي أعيش فيها التي تعجّ بكائنات حقيقية ومتخيّلة مثل شخصيات مجموعة ألتمان وعائلة غولدن في بيتهما في الطرف المقابل لبيتي. «العمل» هو الرحلة

و«الزوجة» هي الهدف. قلت شيئاً من هذا القبيل لسوشيترا فهزّت رأسها بجديّة، وقالت: «لقد حان الوقت لتنهي سيناريو فيلمك وتبدأ تكسب نقوداً».

وفي غضون ذلك، العاصمة العظيمة، تضمني إلى صدرها وتحاول أن تلقنني دروس الحياة. القارب في البحيرة حيث أبحر ستيوارت ليتل يذكّرني بجمال البراءة، والبقعة في شارع كلنتون حيث كانت جوديث مالينا لا تزال على قيد الحياة ومسرحها *الحيّ* الذي كان لا يزال يجد متعة في أن يتعرّى حدّثني عن المدرسة القديمة بأن لا تستخف بشيء. وفي ساحة يونيون سكوير لا يزال لاعبو الشطرنج يلعبون ولعل الموت يلعب هناك أيضاً، ألعاباً سريعة خاطفة تقبض على الحياة كما لو أنه لا توجد قيمة لها أو أنها ليست سوى ألعاب بطيئة، أو في ساعات الاسترخاء تسمح للملاك الأسود بأن يدّعي أنه يحترم الحياة في حين لا يزال يجنّد شركاءه في اللعب من أجل رقصه *البشع*. وحدّثتني الغيابات بالإضافة إلى الحاضرات: واختفت محلات بيع الأحذية من الشارع الثامن، واختفى الشذوذ من الأحياء الغربية الشمالية في مانهاتن حيث كانت مايا شابير تدير ذات يوم محل تشيز *وأنتيك*، وعندما سُئلت عن السبب، كانت تحبّ أن تجيب، «لأنني أحبّ هذه الأشياء». وحيثما سرتُ ضمتني المدينة بين ذراعيها وهمست في أذني همسات لكي تُدخل الطمأنينة إلى نفسي.

في ليلة افتتاح معرض آبوو الثاني في قاعة سوتوفوتش بويري بعد شارع من متحف الهوية (كانت هذه اللوحات جميلة وسريعة وبارعة فنياً وتضج بالنشاط وشعبية لكنها لم تثر مشاعري)، لوحات لوري أندرسن الكبيرة التي تصوّر تجربة كلبها المحبوب لولابيل من فصيلة الكلب-الجرذ على مدى تسعة وأربعين يوماً في باردو، المنطقة التي

تقبع بين الموت والبعث في الديانة البوذية التيبتية، والتي عرضت في أماكن عديدة في المدينة. وقفنا، أنا وسوشيترا، أمام واحدة من أكبر اللوحات التي تصوّر ذلك الكلب ذا الوجه الجميل يحدّق فينا بعينين واسعتين من دار البقاء، عندما تشكّلت كلمات «لا بأس بها» فجأة في داخلي ثمّ قلتها بصوت مسموع «لا بأس بها»، قلت، وارتسمت ابتسامة عريضة على وجهي. «لا بأس بها، لا بأس بها، لا بأس بها». وارتفع ظلّ منّي وبدا المستقبل ممكناً، وبدا أنه بالوسع تحقيق السعادة وبدأت الحياة من جديد. وبعد ذلك بفترة طويلة، عندما عدت بذاكرتي، أدركت أن ذلك كان في اليوم التاسع والأربعين بعد وفاة والديَّ.

لا أؤمن بذلك الشاعر، لكن ها هي.

«ومضة! أحبّك! لكن أمامنا أربع عشرة ساعة فقط لإنقاذ الأرض!»

كنت في قبضة نوع من البهجة العارمة في تلك الليلة، وتملّكني شعور سام بأنني غفرت لوالديّ لأنهما ماتا وغفرت لنفسي لأنني بقيت على قيد الحياة. عدت أنا وسوشيترا إلى الغاردنز وعرفت أنه حان الوقت لأن أفعل الشيء المحرّم. فقد كنا في نشوة الحياة، فتحنا علبة «القمر الأفغاني» المحفوظة منذ فترة طويلة وبدأنا نستنشق منها. وتفتحت في الحال العيون الثالثة في غددنا الصنوبرية كما كان أبي يقول بأنها ستُفتح، وفهمنا أسرار العالم. ورأينا أنّ العالم لم يكن بلا معنى ولا سخيفاً، وأن له، في الواقع، معنى وشكلاً عميقاً، لكن ذلك الشكل والمعنى لم يكونا ظاهرين لنا حتى الآن، محجوبين في الطلاسم الهيروغليفية وفي القوّة الباطنية، لأن إخفاء المعنى عن

الجميع من مصلحة سادة العالم إلّا المتنورين. وفهمنا أيضاً أن الأمر يعود إلينا لإنقاذ الكوكب وأنّ القوة التي ستنقذ الكوكب هي الحبّ. ومع دوران رأسينا، فهمنا أنّ ماكس فون سيدو في دور مينغ عديم الرحمة، الاستبدادي، النزواتي، الذي يرتدي عباءة العبقري الشرّيرة الحمراء اللامعة بطريقة سيئة في قصة الخيال العلمي المصورة بالرسوم، قادماً لغزو الجنس البشري، وأنه، إذا غبش وجه مينغ أحياناً وبدأ يشبه وجه نيرو غولدن، فإن هذا غير منصف بسبب رقته ولطفه تجاهي في الآونة الأخيرة، لكن هل يمكن أن يكون المرء شريراً وطيباً في آن معاً، سألنا أنفسنا، فأجاب *القمر الأفغاني* بأن التناقض الشديد واتّحاد الأضداد هما أكثر أنواع الغموض عمقاً. فهذه الليلة مخصصة للحبّ، قال *القمر الأفغاني*، الليلة مخصصة للاحتفال بالأجساد الحيّة وتوديع أجساد أحبّائنا الذين غادرونا، لكن بعد أن تبزغ الشمس في الصباح، لن يكون هناك وقت نضيعه.

(١٧)

إن كنتَ مديناً لمصرف بدولار واحد فإنك تُتهم بالسحب من دون رصيد، وإذا كنت مديناً لمصرف بمبلغ بليون دولار فإنك تكون غنياً والمصرف يعمل لمصلحتك. تصعب معرفة مدى ثراء نيرو غولدن الذي أصبح اسمه ينتشر في كل مكان في تلك الأيام، في كلّ شيء، بدءاً من المقانق المقلية إلى الجامعات الاستثمارية، الذي كان يطوف حول مركز لينكولن وهو يفكّر في التبرّع بوحدة لتجديد قاعة أفيري فيشر هول إذا أُسقط الاسم القديم ورُفع محله اسم غولدن بحروف كبيرة بارزة من ذهب. *والوحدة* هي التعبير المختزل الذي يستخدمه اسمه ليعني «مئة مليون دولار». مئة مليون دولار هو ثمن الدخول إلى عالم الأثرياء حقاً، فلا تُعتبر حقاً أحداً حتى تكون لديك *وحدتك*. كان اسمه يطوف بتلك *الوحدة* في أرجاء المدينة، كأنها تريد أن تضع نفسها في *مهرجان تريبيكا السينمائي*، لكن ذلك سيكلّف أقل بكثير من وحدة كاملة، لذلك بدا المهرجان السينمائي أخيراً كأنه علف دواجن. إن ما أراده اسمه حقاً هو أن يكون مرفوعاً فوق *ملعب اليانكي*، الأمر الذي سيؤكد أن اسمه غزا نيويورك. وبعد ذلك، يمكنهم أن يرفعوه فوق مبنى بلدية المدينة.

افترضتُ أنّه جلب معه أموالاً طائلة عندما جاء إلى الغرب، لكن كانت تدور إشاعات كثيرة مفادها أن كلّ مشاريعه ذات تسهيلات

اقتراضية، وأن كل مشاريعه الضخمة التي تحمل اسمه ما هي إلّا خداع وغش وأن الإفلاس هو الظلّ الذي يرافق اسمه حيثما أخذه معه. لقد فكّرت فيه لا كمواطن من مدينة نيويورك وإنما من مدينة أوكتافيا المخفيّة التي وصفها ماركو بولو لكوبلاي خان في كتاب *كالفينو*، مدينة من بيت عنكبوت معلّقة في شبكة ضخمة فوق غور سحيق بين جبلين. فقد كتب كالفين «إن حياة سكّان أوكتافيا هم أقل غموضاً من سكان المدن الأخرى، لأنهم يعرفون أن الشبكة ستدوم لمدة طويلة جداً فقط». وفكّرت فيه أيضاً كواحد من تلك الشخصيات في أفلام الرسوم المتحركة، ربما كانت شخصية وايل إي. كايوتي التي لا تتوقف عن الجري على حافات الوديان السحيقة، لكنها لا تتوقف عن الجري، متحدّية قانون الجاذبية، إلى أن تنظر إلى الأسفل فتقع. إن معرفة استحالة المحاولة تؤدي إلى نهايتها المفجعة. وواصل نيرو غولدن طريقه، ربما، لأنه لم ينظر إلى الأسفل قط.

طوال أشهر عديدة، كنت مشغولاً بإغلاق بيتنا، واحتفظت بالأشياء التي أردت الحفاظ عليها في مستودع صغير في مانهاتن، المستودع الذي عُلّقت لافتة مضحكة على جداره الخارجي المطلّة على الطريق السريع، *في نيويورك ستّ فرق ألعاب رياضيّة محترفة، وأيضاً فريق الميتس، وإن لم تكن تحبّ زواج المثليّين، فلا تتزوج مثليّاً*، و *«في بيت أبي منازل كثيرة»* (يوحنا ١٤/ ٢) *من الواضح أن المسيح لم يكن واحداً من سكّان نيويورك*، *وتذكّر، إذا غادرت المدينة، عليك أن تعيش في أمريكا*. نعم، ها ها، فهمت، لكن مزاجي بدأ يعتكر مرة أخرى، باذلاً كلّ ما بوسعي لكي لا أُظهر ذلك عندما أكون مع سوشيترا، لكنّها كانت تعرف ما أمرّ به. ثمّ حان الوقت لعرض البيت للبيع وجاءت فاسيليسا غولدن إليّ في الغاردنز وطوقتني بذراعيها وطبعت قبلة على خدي وقالت، دعني أفعل ذلك

من أجلك، ولنحافظ على ذلك داخل العائلة، ورأيت أنها كانت في غاية اللطف لتقول ذلك، فهززت رأسي ولم أنبس بكلمة، وتركتها تهتم بمسألة البيع.

مرة أخرى، يصعب عليّ أن أكون موضوعياً حول عائلة غولدن في تلك السنة. فمن ناحية، كان هناك لطف نيرو تجاهي، والآن رقة زوجته أيضاً. ومن الناحية الأخرى، كان يبدو أن هناك شكوكاً في أنه كان من الداعمين المتحمسين لحملة رومني الرئاسية، وكانت ملاحظاته عن الرئيس وزوجته تقترب من التعصب الأعمى، *بالطبع فهو يحب المثليين، وأنه متزوّج من رجل*، وكانت هذه من بين ملاحظاته المعتدلة. وكان غالباً ما يحكي «نكتته المضحكة عن الجمهوريين»، تلك النكتة عن الرجل الأبيض العجوز الذي كان يتوجّه إلى أحد حراس البيت الأبيض بعد انتهاء الإدارة الحالية، على مدى عدة أيام متتالية، وكان في كلّ مرّة يطلب أن يلتقي بالرئيس أوباما. وفي المرّة الثالثة أو الرابعة، قال له الشرطي المستاء: يا سيدي، لا تزال تأتي إلى هنا ولا أزال أقول لك إن السيد أوباما لم يعد رئيس هذه الولايات المتحدة، ولم يعد يقيم في هذا العنوان. ومع أنك تعرف ذلك فإنك لا تزال تأتي وتسأل السؤال نفسه وتسمع الجواب نفسه، فلماذا تظل تسأل؟ فأجابه الرجل المسن الأبيض ، أوه، لأنني أريد أن أسمع ذلك.

إني أقبل ذلك، مع أنني خشيت بالنيابة عن نيرو أن يهيمن جانبه المظلم عليّ. وأعطيته ليقرأ القصّة القصيرة العظيمة بعنوان *«الظلّ»* لكريستيان هانز أندرسن التي تحكي قصّة رجل ينفصل عنه ظلّه، ويطوف في جميع أرجاء العالم، فيصبح أرقى من «صاحبه» الأصلي، ثم يعود ليغوي ويتزوج الأميرة التي خطبها الرجل، ومع الأميرة (العديمة الرحمة) يُحكم على الرجل الحقيقي بالموت. أردت أن

يفهم الخطر الذي تقبع فيه روحه، إذا كان يُسمح لشخص غير مؤمن أن يستخدم تعبيراً كهذا، لكنّه لم يكن من قراء الأدب، فأعاد إليّ الكتاب الذي فيه القصّة، وأشار بيده علامة الرفض، وقال: «أنا لا أحبّ القصص الخيالية».

لكن بعد ذلك. . . استدعياني كلاهما، الزوج والزوجة، لألتقي بهما، وأعلنا قرارهما المتعلق بي «إن ما يجب أن تفعله»، قالت لي فاسيليسا غولدن، «هو أن تأتي لتعيش معنا في هذا البيت. فهو بيت كبير وفيه غرف كثيرة، واثنان من الأبناء الثلاثة لم يعودوا يترددون عليه كثيراً، أما الابن الثالث، بيتيا، فإنه قلما يخرج من غرفته. لذلك يوجد متسع لك وستكون رفيقاً ممتازاً لنا كلينا».

«بشكل مؤقت»، قال نيرو غولدن.

فقالت فاسيليسا: «مع الفتاة، من يعرف ماذا سيحدث، إن كنت تريد أن تنتقل لتسكن معها، أو قرّرتما الانفصال، فإن الزمن كفيل بمعرفة ذلك. لا تضغط على نفسك. فأنت لست بحاجة إلى مزيد من الضغط الآن».

«في الوقت الحالي فقط»، قال نيرو غولدن.

كان عرضاً سخياً حقاً - عرضاً قصير الأجل بالطبع - قُدّم بنيّة صادقة تامة، ولم أر كيف يمكنني أن أقبله. فتحتُ فمي لأعترض فرفعت فاسيليسا يد إمبراطورة، وقالت، «الرفض غير وارد أبداً. اذهب واحزم حقائبك وسنرسل أشخاصاً لجلبها إلى هنا».

وهكذا، انتقلت في خريف عام ٢٠١٢ لأقيم في البيت الذهبي، مؤقتاً، في *الوقت الحالي*، وقد انتابني، من ناحية، شعور بامتنان عميق، مثل عبد مُنح غرفة نوم في قصر، ومن ناحية أخرى، انتابني شعور بأنني أجريت صفقة مع الشيطان. وكانت الوسيلة الوحيدة لمعرفة أيّ شعور منهما ينتابني، تكمن في أن أتمكن من فكّ جميع

الألغاز التي تحيط بنيرو، حاضره وماضيه، لأتمكن من أن أحكم عليه بشكل صحيح، وربما كان القيام بذلك من داخل جدران البيت أفضل بكثير من خارجها. فقد فتحا الأبواب وسحباني إلى عالمهما، ثمّ أصبحت الحصان الخشبي المنتصب في داخل بوابات طروادة، ويقبع في داخلي أوديسيوس والمحاربون الآخرون. وتقف أمامي، هيلين الأمريكية هذه. وقبل أن تنتهي قصّتنا، فإني سأخونهما، وسأخون المرأة التي أحببتها، وسأخون نفسي. وستحترق الأبراج العارية الصدر.

* * *

كان «الصبية»، أبناء نيرو يأتون لزيارته يومياً، وكانت تلك الزيارات لقاءات غير عادية، بالتحدّث عن سلطته الهائلة عليهم، التي لم تكن لقاءات أب مع أبنائه أكثر مما هي لقاءات إجلال وانحناءات والقبعة في اليد يؤديها تابعون لسيدهم. وأدركت أنّ أيّ معالجة لفيلم، خياليّ بالطبع، يجب أن يعالج هذه العلاقة الاستبدادية الغريبة. ولا شك أن بعضاً من تفسير ذلك سببه مالي. فقد كان نيرو سخياً بالمال، ليتمكن آبوو من تبوؤ مكانة في مونتوك ويمضي أسابيع في الرسم والاستمتاع أيضاً. وأبدى الشابّ دي غولدن في الحيّ الصيني جميع المظاهر بأنه يعيش حياة تقشف، وكان يعمل في هذه الأيام متطوّعاً في أحد النوادي المخصصة للفتيات في مانهاتن، فاضطر لأن يعيش على راتب ريا، لكن الحقيقة هي، عندما أسرعت فاسيليسا لتخبرني، أنّه كان يأخذ النقود التي يعيطها له والده، فقالت: «عنده مصاريف كثيرة الآن»، لكنها لم تسهب في الحديث عن ذلك، شأن جميع قاطني البيت الذهبي الذين لم يكونوا يتناقشون في الأمور الهامّة بينهم، كما لو كانت أسراراً، على الرغم من أنهم

يعرفون جيداً أنّ كل واحد منهم يعرف كلّ شيء عن الآخر. لكن ربما، قلت في نفسي، كانت الجلسات بين الأب وأبنائه تشبه أيضاً جلسات الاعتراف، حيث يعترف «الأبناء» «بذنوبهم»، وأنها ، على نحو ما، وإلى حدّ ما، جلسات تكفير وكفارات غير معروفة، «مغفور لك». هكذا تُكتب، قلت لنفسي. أو احتمالية مثيرة أكثر، ربما. فلعل الأبناء هم الكهنة بالنسبة إلى الأب والأب هو الذي يجلس على كرسي الاعتراف. قد يكون لدى كلّ واحد منهم أسرار الآخر، وأن كلّ واحد منهم يمنح الآخر الغفران والسلام.

في العادة تسود أجواء هادئة في البيت الكبير، وهو شيء رائع بالنسبة إليّ. فقد أعطوني غرفة في أعلى طابق لها شبابيك وفيها سقف مائل تطلّ على الغاردنز، وكنت راضياً جداً بذلك، وكنت مشغولاً جداً. فبالإضافة إلى مشروعي السينمائي الطويل الأجل، كنت أعمل مع سوشيترا في سلسلة أفلام فيديو قصيرة لمصلحة شبكة كابل «فود»، وجوه سينمائية مشهورة تتحدّث عن لحظات سينمائية أثيرة لديها، المشهد الرئيسي في فيلم «*مراقبة القطارات بعناية*» لجيري مينزيل، وتوشيرو ميفيون وهو يقدّم شخصية محارب الساموراي الرثّ في فيلم *سانجورو* لكوروساوا؛ وأول مشهد لمايكل ج. بولارد في فيلم كلايد وبوني للمخرج آرثر بن («*وسخ في أنبوب الوقود - فجرته فقط*»)، *والطاووس* الشتوي الذي ينشر ريش ذيله في فيلم *أ*ماركورد للمخرج فيليني، والطفل الذي يسقط من نافذة ويعلو ويهبط دون أن يصاب بأذى في فيلم مصروف *الجيب* للمخرج تروفو، واللحظات الأخيرة في فيلم *العا*هرة للمخرج روبرت روسن، («أيها الرجل البدين، إنك تلعب البليياردو بشكل رائع» - «وأنت أيضاً، فاست إدي»)، والفيلم المفضّل لديّ شخصياً، لعبة عود الثقاب في فيلم *السنة الماضية في ما*رينباد للمخرج ألين ريسني، بطولة ساشا

بيتويف ذات الوجه الصواني، الدراكولي («إنها ليست لعبة إذا لم تكن تستطيع أن تخسر» -«أوه، أستطيع أن أخسر، لكنّي لا أخسر أبداً»). وكنا قد صوّرنا للتو عدداً من الممثلين والمنتجين الأمريكيين الموهوبين الشباب (غريتا غيرويغ، وويس أندرسن، ونوح باومباتش، وتود سولوندز، وباركر بوزيي، وجايك بالترو، وكلوي سيفيغني) معربين عن إعجابهم بهذه الأفلام الكلاسيكية، وكنت أشحذ مهاراتي في عمليات المونتاج على جهاز الكمبيوتر النقال لديّ بتجميع المواد في قطع مدة كلّ منها ثلاث دقائق فقط ستُنزّل على مجموعة واسعة من المواقع على شبكة الإنترنت. وقد تركت سوشيترا هذا العمل لي بينما تفرغت هي لفيلمها الأول ككاتبة ومخرجة، متجاوزة الخطّ من جانب الإنتاج، وكنّا كلانا منهمكين في عملنا، نلتقي معاً في ساعة متأخرة من الليل لنتبادل ما جرى لكل واحد منا في يومنا، ونتناول الطعام بسرعة ونسهر إلى وقت متأخر، ونمارس الجنس بسرعة أو نغطّ في النوم منهكين يضم أحدنا الآخر، إمّا في الغرفة الفنية العلوية أو في شقّتها الاستوديو. وفي أعقاب المأساة، هكذا عدت إلى البهجة.

وفي أوقات فراغي، كنت أدرس ما يجري في البيت الذهبي: أعمال التنظيف، المساعدة في مطبخ، ذهاب العامل الماهر غونزالو وإيابه، بشكل خفي كما لو كان يبدو عالماً افتراضياً، أطياف أطفال في عمر ما بعد - الحقيقي. أما السيدتان اللتان تشبهان التنين فلا ريب أنهما حقيقيتان، تصلان صباح كلّ يوم تئزان بالحيوية، تنعزلان في غرفة بجانب مكتب نيرو، ولا تظهران ثانية حتى تعودا تئزان في الليل مثل زنابير هاربة عبر باب مفتوح. وكانت جميع الأصوات تبدو مكتومة كما كانت قوانين العلم نفسها تعمل في داخل تلك الجدران بقفازات بيضاء.

وكان نيرو نفسه يمكث معظم الوقت في مكتبه في البيت، على الرغم من أنّ مباني شركات غولدن الرئيسية تقع في وسط المدينة في برج يملكه شخص مزعج يدعى غاري «غرين» غوينبلين، غنيّ مبتذل لا يستطع نيرو أن يلفظ اسمه بشكل صحيح، والذي كان يحبّ أن يطلق على نفسه اسم «الجوكر» لأنه ولد بشعر أخضر زيزفوني اللون بشكل لا يمكن تفسيره. وبمعطفه الأرجواني، وبشرته البيضاء، وشفتيه الحمراوين، جعل غوين*بلين* نفسه صورة طبق الأصل عن الشرّير في أفلام الرسوم المتحركة المشهورة، وبدا أنه سعيد في هذا الشبه. ووجد نيرو أن صاحب المبنى رجل لا يطاق، وأعلن لي ذات مساء، فجأة، ومن دون مقدمات - أن هذه هي طريقته، سلسلة أفكاره تنبثق أحياناً من نفق فمه، ويصبح أيّ شخص يصادف أنه يكون موجوداً في الجوار، المحطة التي يتوقّف عندها لفترة وجيزة - «عالم واحد، عندما يسمحون لنا بالدخول، سأكون أول الواقفين عند الباب». استغرقتُ لحظة حتى فهمت أنه لم يكن يتحدّث عن العولمة الشاملة، وإنما عن مركز تجارة عالمي لن يكون جاهزاً ليشغله أحد إلّا بعد سنتين، وأعلن عن نيته مغادرة مبنى الجوكر والانتقال إلى البرج الجديد الذي أقيم في المكان الذي حلّت فيه المأساة. «ففي الطوابق العليا يمكنني أن أعقد صفقات رائعة»، قال موضحاً، «خمسون، ستّون طابقاً، حسناً، يمكن ملؤها، أما التي فوقها؟ فبعد ما جرى لا يريد أحد أن يستأجر مكاناً في ذلك الفضاء الجوي. لذلك فهي صفقة عظيمة. أفضل صفقة في المدينة. يجب شغل كلّ ذلك المكان الفارغ. أنا شخصياً، أتوجّه إلى أي مكان توجد فيه صفقة. في أعلى السماء؟ حسناً. إذاً خفّض السعر، سآخذه. إنها صفقة. الصاعقة لا تضرب مرّتين».

نادراً ما كان العاملون عنده يرونه. كان يترك شعره يطول. بدأت

أتساءل عن طول أظافر قدميه. فبعد هزيمة رومني تعكّر مزاجه وأصبح نادراً ما تراه حتى زوجته وجميع سكان البيت. واعتاد على النوم في سرير قابل للطي في غرفة مكتبه في البيت، وكان يطلب بيتزا في ساعة متأخرة من الليل. وفي الليل، كان يتصل هاتفياً بالموظفين الذين يعملون عنده في البلدان المختلفة - على الأقل يخيّل إليّ أنّهم موظفون عنده - وفي مانهاتن أيضاً. والقاعدة التي كان يتبعها هي أن يهاتفك في أيّ لحظة في أثناء النهار أو الليل، ويتوقّع منك أن تكون مستيقظاً ومستعداً لمناقشة أي شيء يُدخل السرور إلى نفسه، سواء أكان ذلك يتعلق بالعمل أو بالنساء أو بمقالة نُشرت في الصحف. وكان يتكلّم لساعات طويلة مع زملائه على الهاتف، وكان عليهم أن يقبلوا ذلك. وفي مساء أحد الأيام في الغاردنز، عندما كان في مزاج رائق، رسمتُ على وجهي أكثر الابتسامات براءة، وسألته هل فكّر قط في هاوارد هيوز، فأجاب، «ذاك الرجل الغريب الأطوار». «أنت محظوظ لأن لديّ نقطة ضعف تجاهك. لا تقارنّي أبداً بذلك المجنون». وفي الوقت نفسه، بدأ يتراجع أكثر حتى من النظرة الإنسانية. وتُركت فاسيليسا لتمضي عدة أيام في صالون التدليك أو في المحلات المختلفة في جادة ماديسون، ولتتناول طعام الغداء مع صديقاتها في مطعم بيرغدورف أو سانت أمبرويوس. إذا أهملت امرأة جميلة لفترة طويلة، فستنشأ بعض المشاكل. ما هي الفترة التي تُعتبر طويلة جداً؟ خمس دقائق. أيّ شيء أكثر من ساعة: الكارثة تنتظر.

أضحى البيت تعبيراً عن جمالها وعن شدّة حاجتها. وعلى الجدران الرمادية بلون المحار علّقت مرايا ضخمة فيها مرايا أصغر مربعة الشكل، لبعضها زاوية، ولُوّن بعضها بلون قريب من الأسود، تعبّر بشكل ما عن الرسم التكعيبي، الحاجة إلى منظورات عديدة في

الوقت نفسه. وأقيمت في الغرفة الواسعة مدفأة كبيرة جديدة، تقارع بوهجها الطقس البارد، ومُدَّ سجّاد جديد حريري الملمس تحت القدمين بلون الفولاذ. كان البيت لغتها. وأصبحت تكلّمه من خلال تجديد البيت، مدركة أنه رجل يتأثّر بما يحيط به، وكانت تقول له من دون كلمات إنه إذا احتاج ملك إلى قصر، فإن ذلك القصر، يحتاج، لكي يكون فخماً، إلى ملكة.

ونجح ذلك رويداً رويداً. فعندما حلّ عيد الميلاد، كان قد شفي من نصر الانتخابات الرئاسية، وطوّر حرباً كلامية قويّة ضد المنافس المهزوم، أسوأ منافس على الإطلاق، كان يقول خلال وجبات الطعام، وهو يوجّه شوكته نحونا لكي يؤكد فكرته، فلم يكن هناك منافس أكثر ضعفاً في تاريخ المنافسة، حتى أنك لا تستطيع أن تمسيه منافساً حقيقياً، فلم يكن هناك ثمة تنافس، وإنما كان مثل رجل أعلن استسلامه قبل أن توجّه إليه لكمة، لذلك دعونا لا نخطئ في اختيار مهرج في الجولة التالية، لنتأكّد من أنّه رجل ذو شأن، يستطيع أن يقود. في المرة القادمة. بالتأكيد.

وفي يوم حفل التنصيب، تحسّن الطقس في البيت الذهبي كثيراً. ولم يُسمح بمشاهدة مراسم التنصيب على شاشة التلفزيون، لكن مزاج الملك والملكة كان رائقاً، ويدعو إلى الغزل. كنت أعرف أنّ طقس نيرو غولدن الداخلي يتغير كثيراً، وكلّما تقدم به العمر، ازدادت نقطة ضعفه الجنسية تجاه مفاتن زوجته، وأعرف أن غرفة النوم هي المكان الذي تجري فيه التعديلات والتغييرات اللازمة في أجوائه الشخصية. لكني لم أكن أعرف آنذاك ما أعرفه الآن - أنّه ليس على ما يرام. فقد أدركت فاسيليسا التي أثبتت أنها سيدة التوقيت أن دورها قد جاء وقد أدّته على أكمل وجه. وقبل أيّ واحد منّا، رأت ما الذي أصبح شديد الوضوح لنا جميعاً بشكل محزن: أنه بدأ يضعف، وأن الوقت

الذي لن يعود إليه أصبح وشيكاً. لقد شمّت أولى علامات ذلك الضعف القادم كما تشمّ سمكة القرش قطرة دم في الماء وتهاجم فريستها بشراسة.

كلّ شيء استراتيجية. هذه هي حكمة العنكبوت.

كلّ شيء طعام. هذه هي حكمة سمك القرش.

مناجاة العنكبوت للذبابة، أو مناجاة سمكة القرش لفريستها

إنك ترى لأنها صُنعت خصيصاً بتلك البلّورات الخاصّة التي تتوهّج بتلك الطريقة الخاصة عندما يأخذها اللهب هكذا، تتوهّج مثل قطع الماس في مغارة علي بابا التي لم أكن أعرف حقاً أنها تدعى سمسم نعم كان هذا هو اسم المغارة هل كنت تعرف ذلك جيداً هذا ما قرأته في إحدى المجلات لذلك عندما يقول *افتح يا* سمسم فإنه يخاطب المغارة باسمها وطالما ظننت أنها كانت مجرد كلمة سحرية، سمسم!، لكن لا عليك فإن النار هي التي أتحدّث عنها النار التي أشعلتها لأمثّل النار في قلبك النار التي في داخلك التي أحبّها. إنك تعرف ذلك. أعرف أنك تعرف. لذلك ها هنا نحن كما كنّا، هل أنت سعيد، سعادتك هي العمل العظيم في حياتي لذلك آمل أن تجيب نعم، الآن يجب أن تسأل إن كنتُ سعيدة، وأجيب، نعم، لكن. الآن ستقول كيف أستطيع أن أقول لكني عندما أعرف أين كنتُ عندما وجدتني وأين أنا الآن وأوافق أنك أعطيتني كلّ شيء أعطيتني حياتي لكن الجواب لا يزال نعم لكن، لا يزال نعم وتوجد لكن. ليس من الضروري أن تسأل ما الذي يجب أن تعرفه. أنا

امرأة شابّة. مستعدة لأن أكون أكثر من حبيبة على الرغم من كوني حبيبتك تأتي في المقام الأول دائماً بالنسبة إليّ، أنت الأول دائماً بالنسبة إليّ، لكنّي أريد أيضاً أن أكون، أنت تعرف ما أتمنى أن أكون، أمّاً. وأفهم نعم بأنّ هذا ينتهك بنود تفاهمنا لأنني قلت إنني سأتخلّى عن ذلك من أجلك وإن حبّنا سيكون طفلنا لكن الجسد يريد ما يريده والقلب أيضاً، لا يمكن إنكاره. لذلك هنا حيث أقف يا حبيبي وإنها محنة ولا يمكنني أن أرى إلّا طريقاً واحداً أمامي مع أنه يحطّم قلبي، لذلك فإني أقول لك وقلبي يتحطّم عندما أقولها بسبب احترامي الفائق لك، واحترامي أيضاً لشرفي الذي يُلزمني بأن أحترم بنود تفاهمنا بأنني يجب يا حبيبي أن أتركك. إني أحبّك كثيراً لكن بسبب احتياجات جسدي الشاب وقلبي المحطّم يجب أن أذهب وأجد طريقة ما أنجب فيها طفلاً مع أن الفكرة بأن لا أكون معك تدمّرني هذا هو الجواب الوحيد الذي أستطيع إيجاده، ولذلك، يا حبيبي، يجب أن أقولها لك. إلى اللقاء.

* * *

في لعبة الشطرنج، لا تكاد الحركة المعروفة باسم مناورة الملكة تُستخدم لأنها تتخلى عن أقوى قطعة في لوحة اللعب في مجازفة غير مأمونة. ولا يحاول الإقدام على مناورة كهذه إلّا أبطال الشطرنج الحقيقيين لأنهم يستطيعون دراسة حركات عديدة أمامهم، ويدرسون كلّ الاحتمالات، وبذلك يتأكدون من نجاح التضحية التي قاموا بها: التضحية بالملكة لقتل الملك. وقد استخدم بوبي فيشر خلال لعبة القرن، عندما كان يلعب بالقطع السوداء، مناورة الملكة على نحو مدمّر في مباراته مع دونالد بيرن. وخلال الفترة التي أمضيتها

في البيت الذهبي، علمت أن فاسيليسا أرسينيفا غولدن كانت طالبة تواقة «للعبة الملكية»، وكان بإمكانها أن تريني الحركات الاثنتين والعشرين المشهورة «كش ملك» التي استخدم خلالها بطل الشطرنج الروسي ميخائيل تال حركة التضحية بالملكة ليضع خصمه، ألكساندر كوبلينز، في موضع حرج. كنا نلعب، أنا وفاسيليسا، الشطرنج خلال فترات بعد الظهر الكسولة، عندما تكون سوشيترا منهمكة في عملها، وكانت تربح باستمرار، لكن بعد انتهاء اللعبة، كانت تريني كيف فعلت ذلك، وتصرّ على ضرورة أن أرفع مستواي في اللعب. وعندما أتذكّر ذلك، أرى أنّها كانت تعلّمني أيضاً لعبة الحياة، إلى حدّ أنها كانت تريني الحركة التي ستُقدم عليها قبل أن تحرّكها. وعندما طلبت الطلاق من نيرو غولدن، فهمتُ أعماق ذكائها. فقد كانت الحركة الرابحة.

طلبها هذا هزّ كيانه. في البداية كان يعاملها بفظاظة، ويتشاجر معها بصوت مرتفع على بئر الدرج خارج مكتبه، فيهرع سكان البيت الأشباح للتواري عن الأنظار، ويشير بحدّة إلى أنّ اتفاقهما المالي سيصبح باطلاً في حال خروجها من البيت، وإلى أنّها ستخرج خاوية الوفاض إلّا من خزانة من الألبسة المبهرجة الألوان وبعض الدمى. «انظري إلى أين سيوصلك هذا الأمر»، جأر، ودخل إلى معتكفه وصفق الباب. وبهدوء، ودون أن تحاول أن تفتح الباب الذي صفقه، دخلت إلى خزانة ملابسها وبدأت تحزمها. ذهبتُ لأراها، وسألتها، «إلى أين ستذهبين؟» في تلك اللحظة، عندما صوّبت القوة المتوهجة في نظرتها عليّ، رأيت، لأول مرة، الساحرة الملكة من دون قناع، وخطوت خطوة إلى الوراء مبتعداً عنها. فضحكتْ، لكن ضحكتها تلك لم تكن ضحكة تلك الحسناء المعتادة، بل شيء أكثر وحشية. «لن أذهب إلى أي مكان»، زمجرت، «سيأتي إليّ زاحفاً

على يديه وركبتيه ويتوسل إليّ كي أبقى وسيقسم أن يمنحني كلّ ما يشتهيه قلبي».

هبط الليل، الليل الذي كان يزيدها قوة. كان الصمت يخيّم على البيت. بيتيا في غرفته التي يغمرها الضوء الأزرق مستغرقاً في نفسه وما وراء شاشات أجهزة الكمبيوتر. وكانت فاسيليسا جالسة في غرفة النوم الرئيسية والباب مفتوح، منتصبة على الجانب المخصص لها على السرير، مرتدية ثيابها، وحقيبة ليلية جاهزة عند قدميها، شابكة يديها في حضنها، وكانت جميع الأضواء مطفأة ما عدا ضوء قراءة صغير يرسم صورة خيالها. أنا، الجاسوس، أقف عند مدخل غرفتي، أنتظر. وعندما أعلنت الساعة منتصف الليل تحقّقت نبوءتها. فقد سحب النغل العجوز نفسه مهزوماً إليها ليعترف بصاحبة الجلالة، وراح يتوسل إليها لكي تبقى، وأذعن لشروطها. وقف أمامها مطرق الرأس حتى مدّت يدها إليه وسحبته إليها فسقطت على وسادتها، ثم أوحت إليه مرة أخرى بوهم أنه هو السيّد في بيته على الرغم من أنه كان يعرف، بالإضافة إلى الآخرين، أنها هي من يتربع على العرش.

- طفل.

- نعم.

- حبيبي. تعال إليّ.

وأطفأت مصباح القراءة.

(١٨)

عندما انطلقت في الحياة، مبحراً تحت راية إلهام حياة والديَّ، كانت خطّتي هي أن أبذل قصارى جهدي لأن أكون - أعترف علناً هنا بأنني استخدمت الكلمة سابقاً - رائعاً. فأي شيء آخر يستحق الوجود؟ نابذاً رينيه المملّ، العادي، ولّيت وجهي نحو الذاتية الموسوعية ذات المعرفة الواسعة الاستثنائية، وانطلقت مع أرغو المتخيّل بحثاً عن الصوف الذهبي، دون أيّ معرفة حقيقية أين تقع مدينة كولخيس خاصتي (إلا إذا كانت تقع بالقرب من دار سينما) أو كيف يمكنني أن أسير نحوها (إلّا إذا كانت الكاميرا السينمائية هي أقرب شيء إلى مقود في متناول يدي). ثمّ وجدت نفسي محبوباً من امرأة جميلة، واقفاً على عتبة الحياة في فيلم يشتهيه قلبي. وفي هذا الوضع السعيد، بذلت ما بوسعي لأحطّم ما صنعته في الماضي.

يواجه المراسل على جبهة القتال كلّ يوم خياراً: هل يشارك أم لا يشارك؟ وهو أمر شديد الصعوبة عندما يكون بلدك يقاتل، وشعبك يشارك في القتال، لذلك عليك أن تشارك أنت أيضاً. لكن عندما لا تكون تلك المعركة معركتك، بل حتى لا تكون حرباً، وإنما أشبه بمباراة سعياً لنيل جائزة، فتجد نفسك بالمصادفة جالساً في مقعد أمام الحلبة. ثم، فجأة، يمدّ أحد المتصارعين ذراعه مثل حبيب يدعوك للمشاركة في نزال ثلاثي. في هذه اللحظة، سيتراجع الشخص

العاقل، أو على الأقل، الحذر، ويغادر المكان بأسرع ما بوسعه.

لكني لم أفعل ذلك. أفهم أنّ ما يعنيه هذا ليس جديراً بالإعجاب تماماً. وما يتبع ذلك، فإن رواية كيف أنني شاركت في الحرب، أقل إثارة للإعجاب. لا لأنني خنت مضيفي في عقر داره، والمرأة التي أحببتها والتي أحبّتني فقط، وإنما لأنني خنت نفسي أيضاً. وبعد أن فعلت ذلك، فهمت أنّ الأسئلة التي كان نيرو غولدن قد طلب أن أتأملها عندما أفكّر فيه تنطبق عليّ أنا أيضاً. هل يمكن أن يكون الرجل طيباً وسيئاً في الوقت نفسه؟ هل يستطيع الشرّ أن يتعايش مع الطيبة، وإذا كان الأمر كذلك، فهل يبقى لهاتين الكلمتين أي معنى عندما تُحشران في هذا التحالف المزعج، وربّما المتناقض؟ قلت لنفسي، عندما ينفصل الخير والشر فقد يصبحان مدمرين بالقدر نفسه، فيصبح القديس مخيفاً وخطيراً كما الشرير الوغد. لكن عندما يُمزج الصواب والخطأ معاً بمقادير صحيحة، كما يُمزج الويسكي مع النبيذ الحلو، وهذا ما يشكّل كوكتيل مانهاتن الكلاسيكي للحيوان البشري (نعم، بمقدار من المرارة وقشرة برتقال خفيفة، يمكنك أن تضيف هذه العناصر كما تشاء، بالإضافة إلى قطع الثلج في الكأس أيضاً). لكني لست متأكداً من أنني فهمت فكرة ين ويانغ هذه. ربما كان اتّحاد الأضداد لتشكيل الطبيعة البشرية هو ما أقنع به البشر أنفسهم لتبرير نقائصهم. لعلها فكرة جيدة، لكن في الواقع فإن الأعمال الشرّيرة تفوق الأعمال الصالحة. لا يهم، فمثلاً، كان هتلر لطيفاً مع الكلاب.

بدأ الأمر هكذا: فقد طلبت مني فاسيليسا، كما كانت تطلب مني أحياناً عندما أقمت في البيت الذهبي أن أرافقها في جولة تسوّقها إلى محلات الأزياء الراقية في جادّة ماديسون. *فأنا أثق بذائقتك يا عزيزي، وكلّ ما يريده نيرو أن أكون مثيرة جنسياً، وكلما تعريت*

أكثر، كان أفضل، لكن هذا غير صحيح، أليس كذلك، ونحن نعرف ذلك، لأن الشيء المستور يكون أحياناً أكثر فتنة وإغراء من المفضوح والمكشوف. وقالت لي سوشيترا، أصدقك القول فأنا لا أرغب في أن أذهب لشراء الثياب، وفي غالب الأحيان، فإني أشتري ثيابي، عندما أشتريها، على الإنترنت، وبسرعة. إن الذهاب إلى محلات الأزياء الراقية من أدنى اهتماماتي. لم تكن سوشيترا معادية للموضة بالمطلق - فلديها أصدقاء يعملون في مجال الأزياء، وترتدي الفساتين التي يقدمونها لها - لكنّها لا تحبّ زيارة المحلات والتسكع فيها وهذا أحد الأشياء الكثيرة التي جعلتني أحبّها. أما فاسيليسا، فقد كانت بيوتات الثياب الفاخرة مسرحها، وكان جمهورها يصفّق لها عندما تدخل إلى أحد تلك المحلات، مقوّسة الظهر، تنظر من وراء كتفها إلى نفسها في المرآة، ثمّ إلى المرآة البشرية التي كنت أمثّلها، ثمّ تعود تنظر إلى نفسها، فيصفّق لها أثناء ذلك سرب صغير من الحاضرين. وبالفعل، فقد كانت تبدو امرأة استثنائية في كلّ ما تضعه على جسمها، فهي واحدة من المئة امرأة أو المئتين في أمريكا كلها اللاتي تصنع لهن هذه الثياب، ومثل أفعى كانت تستطيع أن تنسلّ في داخل جلود كثيرة متعددة ثم تخلعها، تنتقل بخفة من هذا إلى ذاك، ولسانها الصغير المتشعّب يلعق زوايا شفتيها، تأقلم نفسها وتُعبد، تلبس، كما تفعل الأفاعي، لتقتل.

في عصر ذلك اليوم، كان هناك بريق إضافيّ في جمالها، بريق يبهر الأبصار، كما لو أنها، هي التي لم تكن بحاجة أبداً إلى الدخول إلى قسم التجميل، كانت تبذل كل ما بوسعها لتفعل ذلك. وكان المساعدون والمساعدات في محلات كثيرة، فينديفيني، غوجشيستي، برادارلينغ، يستقبلونها بتملّق أكبر بكثير مما اعتادوا عليه. وكانت تعتبر أن ذلك أقلّ بكثير مما تستحقّه. وبعد كلّ هذا الإعجاب

والتبجيل، في الطابق السابع في محلات بيرغدورف غودمان، وهي تنساب في طريقها إلى المطعم، تذكر أسماء العاملين الذين سيخدمونها أولاً، ثم تتجاهلهم، لكن في أثناء تجاهلهم فإنها تحظى أيضاً بإعجاب نساء نحيفات يرتدين ثياباً غالية الثمن من شتى الأعمار، ثم تجلس إلى «الطاولة المخصصة لها» بجانب النافذة، تنحني إلى الأمام مسندة مرفقيها إلى الطاولة، اليدان مشبوكتان تحت ذقنها، وتحدق في عيني، وتسألني السؤال الكارثي.

«رينيه، هل أستطيع أن أثق بك؟ طبعاً، مئة في المئة؟ لأنني يجب أن أثق بشخص ولا أظن أن هناك أحداً غيرك».

كان هذا، كما تذكر كتب النحو اللاتينية القديمة، سؤال *nonne*، وهو سؤال يُتوقّع أن يكون الجواب عليه «نعم»، وهذه هي الأسئلة الوحيدة التي تسألها فاسيليسا غولدن، أسئلة يكون الجواب عليها نعم، هل ترغب في أن تذهب معي للتسوّق، هل يبدو شكلي جيداً، هل يمكنك أن ترفع سحاب فستاني، هل ترى أن البيت جميل، هل تريد أن تلعب الشطرنج، هل تحبّني. كان يستحيل الإجابة بلا، لذلك، بالطبع، كنت أقول نعم، لكنّي أعترف بأنني كنت مجازياً أوافق على طلبها كاذباً. يا لي من جرذ صغير! لا عليك، فجميع الكتّاب لصوص، ولم يكن عندي عمل كثير في تلك الأيام، فأجيبها: «طبعاً، ماذا».

فتحت حافظة نقودها واستلّت منها رسالة مطوية ودفعتها نحوي عبر الطاولة، وقالت: «اصمت». صفحتان ورقيتان من مختبر تشخيص طبي في مانهاتن. نتائج اختبارات عديدة لفاسيليسا ونيرو غولدن. استعادت الصفحة المتعلقة بها، وقالت: «هذه ليست مهمّة. بالنسبة إليّ كلّ شيء تمام التمام». نظرتُ إلى الورقة التي بقيت في يدي. لا أجيد قراءة هذا النوع من الوثائق، ولا بدّ أنها لاحظت

الاضطراب الذي بدا على وجهي، فمالت نحوي كثيراً عبر الطاولة. «هذا سيمينوغرام»، همست، «فحص البذرة». آه. ونظرت إلى المقاييس والتعليقات المختلفة. لم تكن هذه الكلمات تعني لي شيئاً. الحركة. قلة النِّطاف. حيوية الـ NICE. «ماذا يعني كلّ هذا»، دمدمت. تنهّدت تنهيدة مليئة بالحسرة: هل الرجال جميعاً عديمي الفائدة حتى لو كانوا يتحدثون عن أمور تهمّ رجولتهم كثيراً؟ قالت بهدوء شديد، وهي تنطق الكلمات بطريقة مبالغة فيها حتى أفهم. يعني *أنه رجل طاعن في السن* ولا يمكنه *أن يصبح أباً لطفل. أنا* متيقنة من ذلك *بنسبة تسعة وتسعين في المئة*.

الآن فهمت التوتر الذي يعتريها والذي جعلها ترفع صوتها. فقد لعبت لعبتها الكبيرة، واستسلم نيرو - ثمّ كان هذا. «كأنه فعل ذلك قصداً»، قالت بالصوت المنخفض جداً نفسه، «ما عدا أنني أعرف أنّه لا يعرف. يظن نفسه نمراً، آلة، وأن باستطاعته أن ينجب أطفالاً لمجرد أن يلقي نظرة على امرأة بطريقة مغوية. إن هذا سيصعقه كثيراً».

«ماذا ستفعلين؟»

فقالت: «تناول طعامك الآن. سنتحدّث بعد الغداء».

كان الثلج يكسو أرض سنترال بارك، وخطيب مشرّد يدندن أغنية وهو في طريقه إلى الكاروسيل. إنه من الرعيل القديم، رجل محموم يهذي بكلمات: رجل أبيض، لحية رمادية كثة، قبعة صوفية يخفضها حتى حاجبيه، بدلة عمّال جينز، قفازات بلا أصابع، نظّارات جون لينون بعدسات مستديرة من دون إطار. وكان يبدو أنه كان ينبغي أن يعزف على لوح غسيل في إحدى الفرق الجنوبية التي تعزف على الأباريق. لكن لم تكن في صوته أي مسحة للهجة الجنوب، وكان لدى هذا الرجل رأي يعبّر عنه بمفردات مبهرجة بعض الشيء. أراد

أن يخبرنا بأن حياة الرجال والنساء الخاصة في أمريكا ألغتها الحياة العامة للأسلحة التي لم تعد تسعى إلى شيء أقل من القتل، وفي النهاية، غزو الجنس البشري. ففي أمريكا ثلاثمئة مليون سلاح فعال، يقارب عددها عدد سكان الكرة الأرضية، يحاولون خلق مجال حيوي صغير وذلك بالتخلّص من أعداد كبيرة من البشر. لقد انبعثت الحياة في الأسلحة! وأصبح لها عقول الآن! وتريد أن تفعل ما تفعله بطبيعتها، أي، أنها تريد أن تقول، هيا أطلق النار. وتُمكّن هذه الأسلحة الفعالة السادة المحترمين من أن يطلقوا النار على قضبانهم وهم واقفون ليلتقطوا صوراً ذاتية عارية، باووو، ويشجّعون الآباء على إطلاق النار على أطفالهم *عَرَضَاً* في حقل الرماية الآمن مئة بالمئة، *عَرَضَاً*، لا يظن ذلك، باووو، ويستميلون الأطفال الصغار لإطلاق النار على رؤوس أمهاتهم وهنَّ يقدن سيارة الأسرة ذات الدفع الرباعي، بلللام! بل لم يتح له حتى الآن أن يتحدّث بعد عن القتل الجماعي، تا تا تا تا، الحرم الجامعي، تا تا تا تا! مراكز التسوّق! جرذ، تا تا تا تا! *فلوريدا* المنيوكة، تا تا تا تا! حتى أنه لم *يبدأ* يتحدّث عن انبعاث الحياة في مسدسات الشرطة، وقيام أفراد الشرطة بسلب حياة السود، أو أسلحة المحاربين القدامى المجنونة تدفع المحاربين القدامى المجانين هؤلاء إلى قتل أفراد الشرطة بدم بارد. لا! حتى أنه لم *يبدأ* يتحدّث عن ذلك. ما كان يحدّثنا عنه اليوم في الحديقة الشتوية هو أن *الآلات القاتلة تغزونا*. لقد دبّت الحياة في السلاح البليد، مثل لعبة تنبعث فيها الحياة في فيلم رعب، كما لو أن الدبدوب المحشو يستطيع أن يفكّر الآن وفيمَ كان يفكّر؟ إنه يريد أن يمزّق حنجرتك. كيف يمكن لأي شخص حتى أن يفكّر في حياته الصغيرة الخاصّة عندما يسقط هذا الخراء؟

وضعت دولارين في العلبة عند قدميه ومضينا. فليس هذا الوقت

هو المناسب للدخول في حديث عن المادة الثانية في الدستور. «سأقول لك ما سأفعله»، قالت فاسيليسا، «سأحمي نيرو من الاطلاع على هذه المعلومات. اجلس هنا. سنقوم بتزوير الوثيقة». جلسنا إلى إحدى الطاولات. أخرجت قلمها وعدّلت الأرقام المكتوبة باليد. قالت: «الحركة I، رقم روماني، هذا سيّئ. هذا يعني الحركة صفر، ومن دون الحركة لا توجد حركة إلى الأمام، تفهمني. أما إذا وضعت V صغيرة بعد I، هكذا، تصبح الحركة الآن IV، تمام، هذه A-OK. وهنا، تركيز الحيمن، ٥ ملايين لكلّ مليلتر، منخفض جداً، والآن سأضع ١ صغيرة أمام الـ ٥، فتصبح ١٥ مليوناً، هذا طبيعي بحسب منظمة الصحة العالمية، بحثت عنها. وهكذا، هنا، وهنا، وهنا. تحسّن، تحسّن، تحسّن. أترى؟ أصبح الآن بحالة جيدة. أصبح الآن قادراً تماماً على أن يكون أباً».

في الحقيقة صفّقت بيديها. كانت قوة ابتسامة السعادة التي ملأت وجهها تكاد تستطيع أن تقنع الشخص الذي أطلقتها عليه (الذي هو أنا) بأن الخيال حقيقة، بأن تزييف تشخيص سيغيّر ذلك التشخيص في العالم الحقيقي. تقريباً، لكن ليس تماماً. «قد يرضي هذا غروره»، قلت، «لكن الطفل لن يأتي بواسطة طائر اللقلق، أليس كذلك».

«طبعا لا»، قالت.

«ثم ماذا، هل ستستمرين في التظاهر بأنك تحاولين لفترة من الزمن ثمّ تحاولين إقناعه بأن يتبنّى طفلاً؟»

«التبنّي أمر غير وارد».

«إذاً لا أفهم ما تقصدينه».

«سأبحث عن متبرع».

«متبرع بالمني».

«نعم».

«كيف ستجعلينه يوافق على ذلك إذا لم يكن يعرف أن حيواناته المنوية لا تعمل؟»

«لن يوافق على ذلك أبداً».

«هل ستأتين بمتبرع للحيوانات المنوية من دون أن تخبريه؟ كيف يمكنك أن تفعلي ذلك؟ ألا توجد وثائق يجب توقيعها؟ أليست موافقته ضرورية؟»

«لن يوافق أبداً».

«كيف إذاً؟»

مدّت يدها عبر الطاولة وأخذت يدي في يديها.

«عزيزي رينيه»، قالت، «هنا يأتي دورك».

* * *

لاحقاً:

«لا أريد طفلاً من شخص غريب»، قالت، «لا أريد أن أحبل بواسطة أداة. أريد أن أحبل بالطريقة الطبيعية، من شخص أثق به، شخص أعتبره فرداً من العائلة، رجل وسيم محبوب يستطيع بسهولة، لا تشعر بالحرج من قولي هذا، أن يثيرني. أرجو أن تعتبر كلامي هذا بمثابة إطراء. أريد أن أفعل ذلك معك».

فقلت: «فاسيليسا، هذه فكرة فظيعة. فلن تكون خداعاً لنيرو فقط، وإنما ستكون عملاً قذراً لسوشيترا أيضاً».

فقالت: «لن يكون خداعاً، ولن يكون قذراً بأي شكل من الأشكال، ما عدا لأسباب تعود إلى تفضيلنا الشخصي. لا أريد أن أتدخّل في علاقة حبّك. ستفعل ذلك سراً».

* * *

لاحقاً.

«نيرو، رينيه»، قالت وهي حالمة قليلاً، «يبدو أن لديكما الاسم نفسه تقريباً، مقاطع الحروف نفسها تقريباً، لكن بطريقة مقلوبة فقط. أترى؟ إنه القدر».

بدأت ندف الثلج تهطل. *كان الثلج يهطل خفيفاً، خفيفاً يسقط*. رفعت فاسيليسا ياقة معطفها، ودون أن تنبس بكلمة دسّت يديها في عمق جيبيها وسارت باتجاه الغرب. محاطاً بالبياض الذي سيصفه راويكم المندهش في وقت لاحق على أنها تجربة الخروج من الجسد. فقد بدا له أنه سمع صوت موسيقى شبحية، كما لو كان الكاروسيل المغلق يعزف «معزوفة لارا» من فيلم *جيفاغو*. وبدا له أنه كان يرفرف فوق كتفه اليمنى، يراقب نفسه وهو يتبعها من دون إرادة منه عبر حديقة السنترال بارك باتجاه ساحة كولومبوس سكوير. كان جسده مستسلماً لها تماماً في تلك اللحظة وأصبح مطيعاً لأوامرها، كما لو أنها ساحرة من ساحرات هاييتي وقد تناول في مطعم بيرغدورف غودمان ما يسمّى بخيارة زومبي التي شوّشت تفكيره وجعلته عبداً لها طوال الحياة. (أعرف أنني بالانتقال إلى صيغة الشخص الثالث والزعم أن إرادتي استسلمت لها، فإني أقول ذلك حتى أُعفى من إطلاق أي حكم أخلاقي عليه. وأدرك أيضاً «أن لا حول له ولا قوة في ذلك»، إن هذا ليس دفاعاً قوياً. اسمحوا لي بأن أقول ذلك على الأقل: فأنا أدرك ذلك).

لقد خبت مخيّلة هو - أنا - جولي كريستي، وكان هو - أنا - يفكّر بدلاً من فيلم «*سكين في الماء*» للمخرج بولانسكي. زوج وزوجة يدعوان شخصاً إلى مركبهما، وينتهي الأمر بأن تمارس المرأة الجنس مع هذا الرجل المتطفّل. لا بد من أنني رأيت نفسي، قلقاً، مثل ذلك المتطفّل، النقطة الثالثة في مثلث. لعل زواج الزوجين في

الفيلم كان سيئاً. ومن الواضح أن المرأة انجذبت لهذا المتطفّل فلم تعترض على مضاجعته. كان المتطفّل صفحة فارغة كتب عليها الزوج والزوجة قصّتهما. وكذلك أنا، أتابع خطوات فاسيليسا لتتمكن من كتابة قصّة مستقبلها بالأسلوب الذي قرّرت أنا كيف يجب أن يُكتب. كنّا الآن في شارع الستين غرباً، وها هي تنسلّ عبر أبواب الفندق بخمس نجوم. تبعتها إلى المصعد وصعدنا إلى الطابق الثالث والخمسين، متجاوزين بهو الطابق الخامس والثلاثين. كان مفتاح الغرفة معها. كانت قد خطّطت كلّ شيء، وفي قبضة ذلك الاستسلام الثقيل الفضولي، كنت أفتقد الإرادة لأمنع ما سيحدث.

«ادخل بسرعة»، قالت.

* * *

لاحقاً.

ثمة قول كنت أنسبه دائماً إلى فرانسوا تروفو، مع أنه يبدو الآن أنّني لا أستطيع أن أجد أيّ دليل على أنه هو الذي قاله. إذاً، بتلفيق، قال تروفو «يكمن فنّ السينما في أن توجّه الكاميرا إلى امرأة جميلة». وبينما رحت أحدّق في صورة فاسيليسا غولدن المنعكسة على نافذة تجري وراءها مياه نهر هدسون الشتويّة، فقد بدت لي مثل إلهة سينمائية هربت من الأفلام التي كنت أحبّها، تخرج من الشاشة وتتجه إلى قاعة السينما مثل جيف دانيلز في فيلم *وردة القاهرة الأرجوانيّة*. وتذكرت أورنيلا مووتي وهي تسحر سوان في فيلم بروست للمخرج شلوندورف؛ وفاي دوناوي في دور بوني باركر بفمها الملتوي الشهواني تأسر وارن بيتي في فيلم *بوني وكلايد بارو*؛ ومونيكا فيتي في فيلم لأنتونيوني وهي تنكمش وتتكور بشكل إيروتيكي في زاوية وتدمدم *لا يا لو سو*؛ وإيمانويل بيرات وهي لا ترتدي شيئاً سوى

الجمال في فيلم *الحسناء المشاغبة*. وتذكّرت غوداردیت، وسيبيرغ في فيلم *منقطع النَّفَس*؛ وكارينا في فيلم *بييرو المجنون* وبريجيبت باردو في فيلم *الاحتقار*، ثمّ حاولت أن أوبّخ نفسي، مذكّراً نفسي بالانتقاد الشديد لموجة السينما النسوية الجديدة القوية، ونظرية لورا مولفي «*النظرة الذكورية*» التي اقترحت فيها أنّ المشاهدين يضطرون إلى رؤية هذه الأفلام من وجهة نظر الذكور الذين يحبون الجنس الآخر، وتنحدر المرأة إلى شيء، وما إلى ذلك. وبرز مايلر في رأسي أيضاً، *سجين الجنس*، لكنّي طردته من تفكيري فوراً. وفيما يتعلق بموضوع وعيي الذاتي: نعم، فإني أدرك الواقع بأنّني أعيش كثيراً في تفكيري، غارقاً بعمق في الأفلام والكتب والفنّ، لذلك تصبح حركات قلبي، خيانات طبيعتي الحقيقية، غامضة بالنسبة إليّ في بعض الأحيان. وفي المناسبات التي يجب أن أصفها الآن، كنت مضطراً لأن أواجه مباشرة من أنا حقاً ثمّ أعتمد على رحمة امرأة لمساعدتي. وها هي، تقف أمامي: شيطانتي الملكة، إلهة الانتقام، التي ستصبح أمّ ابني.

* * *

لاحقاً.

في البداية، كان سلوكها عملياً، جاداً، حاسماً، يقترب من الفظاظة. «هل تريد أن تشرب شيئاً؟ هل سيكون ذلك مفيداً لك؟ لا تكن مثل تلميذ يا رينيه. فنحن شخصان بالغان. هيا صبّ لنفسك كأساً، وصبّ لي واحدة أيضاً. فودكا، بالثلج. سطل الثلج مليء. هيا لنشرب نخب مشروعنا، الذي هو، بطريقة ما، مشروع جليل. خلق الحياة. لماذا وُجِدنا على هذه الأرض؟ إن النوع يصرّ على التكاثر. هيا لننه الأمر».

أيضاً، لا بعد كأس فودكا واحدة وإنما كأسين: «اليوم فقط لكسر الجليد بيننا. فاليوم ليس مناسباً لإنجاب طفل. وبعد اليوم، سأعلمك عن موعد إباضتي وستكون جاهزاً. فأنا أعرف موعدها بدقة. إنها تأتي في حينها مثل مواعيد القطارات في إيطاليا في عهد موسوليني. هذا الجناح سيكون متوفراً دائماً. ها هو مفتاحك. سألتقي بك هنا، ثلاث مرات خلال كلّ دورة. وفي الأوقات الأخرى، ستكون علاقتنا كما كانت. إنك تقبل ذلك بالطبع».

كانت تلك النبرة التي تستخدمها عندما تتحدّث مع العاملين في البيت، وكاد يوقظني من حلمي. «لا، يا حبيبي، لا تأخذ موقفاً سيّئاً»، قالت بصوت مختلف كليّا، خفيض، فاتن. «كلانا هنا، وهذا يعني أننا اتّخذنا جميع القرارات الهامة. الآن، حان وقت المتعة، ومن الآن فصاعداً، فإنك ستحصل على الكثير من المتعة، أؤكد لك ذلك».

«نعم»، قلت، لكن يبدو أن نبرة شكّ قد زحفت إلى صوتي، لأنها رفعت نبرة صوتها الجنسي. «عزيزي، طبعاً نعم، وأنا كذلك، لأنه، انظر إلى نفسك، سيكون ولداً رائعاً مثلك. هيا لندخل إلى غرفة النوم الآن. لم أعد أستطيع الانتظار أكثر».

يا لها من امرأة مقامرة. فقد تعافت بسرعة من الخسارة التي مُنيت بها بشكل غير متوقّع، لأنّها لا بد أنها تلقت ضربة قوية عندما عرفت بنتائج أعداد السائل المنوي التي دمرت خططها للمستقبل، لكن على الرغم من حزن الأزمة، تحرّكت فوراً، بحدسها، لتخفي تلك المعلومات عن زوجها. ثمّ، ومن دون أيّ تردّد، راهنت عليّ، ووضعت ثقتها بحكمها على شخصيتي وعلى قوى جاذبيتها (فقد رأت فيّ الجدية التي تعني أنه يمكن الوثوق بي للمحافظة على سرها طيّ الكتمان، والضعف الذي يعني أنني لن أكون قادراً على مقاومة

سحرها الهائل). هذا على الرغم من معرفتها بأنه إذا فشلت خطتها وعرف زوجها الحقيقة فلن تتمكن من الدفاع عن وضعها، بل وستكون في خطر، وكذلك أنا؛ فقد ورطتني في مؤامرتها من دون أيّ اعتبار لسلامتي، أو لمستقبلي. لكنني لا أستطيع أن ألومها، لأني وجدت أنها لا تقاوم، وأن تقديم جسدها لي اجتاحني، ومشيت على قدميّ طوعاً لأقع في فخّها. والآن، ها أنا فيه: شريكها المتواطئ، ساقط أخلاقيّاً، مثلها، ولم يعد أمامي أيّ خيار سوى أن أواصل حتى النهاية، وأحافظ على ثقتها التي هي ثقتي أيضاً. فلديّ الكثير لأخسره بالقدر نفسه الذي لديها.

سحبتني إليها إلى السرير. «المتعة تنجب أطفالاً جميلين»، قالت، «لكنها ممتعة بحدّ ذاتها أيضاً».

قطع.

(١٩)

مكتبة
t.me/t_pdf

«لا أحبّ عائلة غولدن»، قالت سوشيترا، «وأنا أعني ما أقوله تماماً. يجب أن تنتقل من بيتهم بسرعة». أوضحت ذلك عندما كنا نشرب الكوكتيل الذي اعتدنا على شربه في المساء في الحانة ذات الطراز البريطاني القريبة من ساحة واشنطن سكوير: ويسكي أيرلندي بالثلج لها، وفودكا وصودا لي. «في الحقيقة، لا يوجد لديّ موقف سلبي قوي إزاء الأبناء، أما الأب، فهو لا يروق لي، وزوجته أيضاً. وأكثر شيء يثير اشمئزازي هو ذلك البيت. لا أعرف سبب ذلك لكنّه يثير اشمئزازي. إن يشبه قصر عائلة أدامز. ألا تشعر بذلك عندما تكون هناك؟ إنه أشبه ببيت أشباح. هؤلاء الأغنياء المقتلعون من جذورهم ينكرون تاريخهم وثقافتهم واسمهم. يهربون منها بسبب حادثة لون البشرة. أيّ نوع من الناس هؤلاء، ينكرون عرقهم؟ لا يهمني إن كنت تعيش في أرض آبائك أم لا، وأنا لا أقترح شيئاً يتعلق بالقومية المناهضة للهجرة، وإنما الادّعاء أنها غير موجودة، وأنك لم تكن هناك قط، وأنها لا تعني لك شيئاً، وأنك لا تعني لها شيئاً. لأن ذلك يجعلني أشعر بأنّهم يوافقون على أن يكونوا، بشكل ما، أمواتاً. كأنهم يعيشون حياتهم الآخرة وهم لا يزالون أحياء. أتخيّلهم راقدين في توابيت في الليل. لا، بالطبع لا فعلاً، لكنك فهمت قصدي».

لم تكن سوشيترا امرأة نيويوركية نموذجية. «لقد وضعت ثلاث

قواعد لجميع أصدقائي»، قالت لي عندما أصبحنا حبيبين في البداية. «اكسب نقودك، احصل على شقّتك، ولا تطلب مني الزواج منك». وكانت تقيم بتواضع في شقة مستأجرة مؤلفة من غرفتين في حيّ باتري بارك سيتي. «في الواقع، فأنا أعيش في غرفة واحدة» قالت لي، «وفي الغرفة الثانية أضع ثيابي وأحذيتي». كانت غرفة تقع في زاوية البيت لها نوافذ كبيرة، لذلك كان النهر هو اللوحة الفنية المعلّقة على جدارها، الضباب يتسلّل عند الفجر، وكتل جليد الشتاء تعقبها أشرعة الربيع الأولى، سفن الشحن، زوارق السحب، العبّارات، قارب السباق رافعاً علم قوس قزح لنادي القوارب الشراعيّة المحليّ للمثليين، قلبها يمتلئ بالحبّ لمدينتها كلما ألقت نظرة على المشهد الذي لا يكون ذاته مرّتين قط، الرياح والضوء والمطر، رقصة الشمس والماء، والشقّة في البناية عبر الشارع ذات المنظار النحاسي الكبير عند النافذة، ومشهد سريرها الواضح، الذي يشاع بأنه مكان للإقامة المؤقتة يملكه براد بيت الذي كان يهرب من زوجته؛ والسيدة الخضراء ذات المصباح الذي تراقب منه كلّ شيء من مكان بعيد قليلاً، ينير العالم. «المدينة هي حبيبي الذي يعيش معي في البيت»، قالت لي منذ البداية، «وستغار إذا انتقل رجل إلى البيت».

لم أر مانعاً في كلّ ذلك. فمن طبيعتي أنني أفضّل مكاناً وصمتاً من حولي، وقد أحببت امرأة مستقلة، فأذعنت لشروطها بسهولة. أما بالنسبة إلى موضوع الزواج فلديّ عقل منفتح، لكني كنت سعيداً بقبول موقفها الحازم لأنه يتوافق مع موقفي. لكني وجدت نفسي الآن في وضعية «نقلة إلزامية» أواجه فيها أخيراً جميع الكذابين والمخادعين والمحتالين: تلك اللحظة في لعبة الشطرنج التي يضطر فيها اللاعب لأن يحرّك قطعة عندما لا توجد أمامه حركة جيدة يقوم بها. كان الوقت في أوائل الربيع، وكان سوق العقارات قد بدأ

يتحرّك؛ وكان هناك مشتر قوي لبيت أسرتنا القديم، وكان إبرام الصفقة على وشك أن ينتهي. كانت فاسيليسا ممتلئة بروح العمل عندما كلّمتني عنه؛ ولم تكن ثمة نبرة في صوتها أو ملمح على وجهها يشي بحياتنا السرّية. كنت قد حصلت على ميراثي وكنت على وشك أن أتلقى دفعة كبيرة ما إن تتم صفقة البيع -وكانت غريزتي الآن تقول لي أن أبقى حيث أنا، أستأجر، وأبحث حتى أجد مكاناً ملائماً لأشتريه. لذلك كان تشجيع سوشيترا بالانتقال معقولاً تماماً، لكنه كان ضد رغبتي. فقاومت لثلاثة أسباب علنية ولسبب سري واحد. وبطبيعة الحال، ذكرت لها الأسباب الثلاثة الأولى: «البيت هادئ (أ)»، قلت. «ومن السهل العمل فيه. فلديّ الفضاء الذي أحتاج إليه ويتاح لي أن أفعل ما أشاء في معظم الأحيان؛ و(ب)، تعرفين أنّ هؤلاء الناس هم صميم العمل الذي أحاول القيام به. نعم، فهناك شيء منفّر في الرجل العجوز، لكنّه بدأ يحبّ وجودي هنا، وأشعر بأنّه قد ينفتح لي في أيّ لحظة، لذلك يجدر الانتظار قليلاً. وأظن أنّ بيتيا يشكّل عبئاً ثقيلاً عليه، لذلك بدأ عمره يؤثر عليه كثيراً، فقد بدأ يتصرف فجأة كرجل طاعن في السن؛ وهناك (ج) وهي أن حديقة الغاردنز هي حياتي كلها، وعندما أغادر بيت غولدن سأفقد التواصل معها. لا أعرف إن كنت مستعداً للقيام بذلك، أن أعيش خارج ذلك الفضاء السحري».

لم تجادل، بل قالت بمودّة: «حسناً، لكن أخبرني عندما تكون مستعدّاً».

يخشى الخائن أن يكون إثمه مكتوباً على وجهه. كان والداي يقولان لي دائماً إنّني لا أستطيع أن أكتم سرّاً، وإنني عندما أكذب فإنهما يريان ضوءاً أحمر يومض على جبيني. وبدأت أتساءل هل بدأت سوشيترا ترى ذلك الضوء، وهل يبنع حثّها لي لمغادرة البيت

الذهبي من شكّها في أنّ الوقت الذي أمضيه تحت ذلك السقف ليس بريئاً تماماً. وكان أكثر ما يقلقني هو أن تلاحظ أي اختلاف جنسي فيّ. وأنا لا أرى أن الجنس هو في الأساس رياضة أوليمبية، لأن الإثارة والجاذبية هما نتيجة مشاعر عميقة بين كلا الطرفين، بالإضافة إلى قوّة التواصل بينهما. وكان هذا رأي سوشيترا أيضاً. فقد كانت عشيقة صبورة. (كان برنامجها اليومي مليئاً إلى حدّ أنه لم يكن لديها وقت يمكن أن تضيعه على أيّ شيء). لذلك كانت مداعباتنا قبل المضاجعة قليلة. ففي الليل، كانت تشدّني إليها، وتقول: «أولجه الآن فقط، فهذا كلّ ما أريد»، ثم تقول إنها تشعر بالرضا، لأنها من ذلك النوع من النساء اللاتي يبلغن الرعشة بسرعة، وكنت أحاول، في معظم الأحيان، أن لا أشعر بالإهانة نتيجة ذلك، مع أنني كنت أشعر بأنني غير معني في العملية كلها. فقد كانت امرأة مراعية لمشاعري ولا تقصد التقليل من قدر مهارتي وقدرتي.

أما فاسيليسا، فقد كانت الأمور مختلفة تماماً معها. فقد كان لقاؤنا الغرامي يتم في فترة بعد الظهر باستمرار، الساعة السعيدة كما يقول الفرنسيون. لم نكن ننام معاً. لم نكن ننام أبداً. بالإضافة إلى أنه كان لمضاجعتنا هدف محدد، لخلق حياة جديدة، وهو ما كان يرعبني ويثيرني في آن معاً، وكانت تطمئنني باستمرار بأنّ الطفل لن يكون عبئاً عليّ، وبأنه لن يغيّر حياتي بأي شكل من الأشكال. إنجاب طفل من دون مسؤولية. وللغرابة أن هذه الفكرة كدرتني قليلاً بدلاً من أن تجعلني أشعر بالارتياح. «أستطيع أن أرى»، قالت عندما كنا في وكرنا في الفندق المطل على حديقة سنترال بارك، «أنني سأبذل كلّ ما بوسعي لأجعلك تشعر بالارتياح في هذا الأمر». فقد كان يترسخ لديها الاعتقاد بأن إنجاب طفل يتطلب الكثير من الإثارة، وكانت ترى نفسها أنها محترفة في ذلك. «حبيبي»، قالت بصوت مبحوح، «أستطيع أن

أكون فتاة داعرة قليلاً، لذلك عليك أن تقول لي ما هي أسرارك لأجعلها تتحقّق». وكانت تعقب ذلك مضاجعة لم أمارس مثلها قط، أكثر شهوانية وعربدة، أكثر خبرة، وبشكل غريب أكثر ثقة. وبما أننا خائنان، فبمن يجب أن نثق أكثر من أن يثق أحدنا بالآخر؟

سوشيترا: هل ستلاحظ أن جسدي في أثناء لقاءاتنا الجنسية الأقل نشاطاً وعنفواناً بدأ يتحرّك بطرائق مختلفة، بعد أن تعلّم عادات جديدة، طالباً بصمت بلوغ المتعة بأساليب مختلفة؟ كيف لا؟ لأنني لا بد أنني أصبحت مختلفاً، وأصبح كلّ شيء يبدو مختلفاً بالنسبة إليّ، فقد غيّرت تلك الأيام الثلاثة في الشهر كلّ شيء في حياتي. وماذا عن إحساسي بالإرهاق بعد تلك اللقاءات بعد الظهر؟ كيف يمكنني أن أفسّرها، انتظامها المتكرر؟ لا بدّ أن الشكوك بدأت تساورها. لا بد أن تشكّ. يستحيل إخفاء مثل هذه التغييرات عنها، الصديقة الأكثر مودة وحميمية بالنسبة إليّ.

يبدو أنها لم تلاحظ أيّ شيء. ففي الليل كنا نتحدّث عن العمل ثم نخلد إلى النوم. فلم نكن مارس الحبّ كلّ ليلة. وكان أحدنا يرتاح مع الآخر، كنا نشعر بالسعادة عندما يضم أحدنا الآخر، وكان ذلك يحدث في شقّتها غالباً. (كانت سعيدة دائماً لأن أكون معها طالما أن انتقالي الدائم إلى شقتها لم يكن وارداً) ولم تكن تحبّ أن تأتي لتمكث في البيت الذهبي. لذلك، لم نكن نمضي كلّ ليلة معاً. وكما تبين لم تكن التغطية على آثار ما أفعله صعباً جداً. لكنها لم تكفّ عن إثارة مسألة مغادرتي البيت في شارع ماكدوغال، وكانت تقول: «يمكنك أن تخرج إلى الغاردنز دائماً من بيوت جيران آخرين، فقد كان والداك محبوبين وعلى علاقة ودية مع الكثير منهم».

فقلت لها: «أحتاج إلى وقت أطول مع نيرو، إذ إن فكرة أن يقوم رجل بمحو جميع مراجعه، أن لا يرغب في أن يتواصل مع أي شيء

يمتّ إلى تاريخه، أريد أن أصل إلى قعر هذه الفكرة. هل يمكن أن يقال عن شخص كهذا بأنه رجل حقاً؟ هذا الكيان الذي يطفو بحرية من دون أيّ مرساة أو روابط؟ إنه أمر مثير للاهتمام، أليس كذلك؟»

فقالت: «نعم، حسناً»، واستدارت ونامت.

* * *

لا حقاً.

«وماذا عن المحظيّة؟» سألتني سوشيترا، «كم تراها؟»

«إنها تشتري ملابس»، أجبت، «وتبيع شققاً إلى الروس».

«في أحد الأيام أردت أن أصوّر فيلماً وثائقياً عن المحظيّات»، قالت، «السيدة دي بومبادور، نيل غوين، ماتا هاري، أومراو جان. أجريت بحوثاً كثيرة. قد أعيد المشروع من جديد».

لا بد أن شكوكاً تراودها.

«حسناً»، قلت. «سأنتقل».

قطع.

* * *

عندما نظرت إلى العالم القابع خلفي رأيت ضعفي الأخلاقي منعكساً فيه. فقد تربى والداي في عالم الأحلام والأوهام، آخر جيل يحصل على وظيفة دائمة، آخر عصر لممارسة الجنس من دون خوف، آخر لحظة للسياسة من دون دين، لكن السنوات التي عاشاها في قصص الحواري جعلتهما راسخين، قوّتهما، جعلتهما يعتقدان بشكل راسخ أنه من خلال تصرفاتهما وأعمالهما المباشرة يستطيعان أن يغيّرا عالمهما ويجعلانه أفضل، وأتاحت لهما أن يتناولا تفاحة عدن التي منحتهما معرفة الخير والشر، دون أن يقعا تحت سحر

كتاب الغابة عيون - كا - للأفعى القاتلة ثق - بي. أما الآن فقد بدأ الرعب ينتشر في كل مكان بسرعة كبيرة وقد أغمضنا عيوننا أو خفّفنا من حدّته. هذه الكلمات ليست كلماتي. ففي إحدى لحظات المدينة الصغيرة الغريبة للحياة في مانهاتن كان المتشرد الذي كنت قد رأيته في حديقة سنتراك بارك يتمشّى في شارع ماكدوغال تحت نافذتي، يتحدّث اليوم عن الخيانة، عن خيانة عائلته له، أرباب عمله، أصدقائه، مدينته، بلده، الكون، والرعب المتفشي ونحن، نشيح بأبصارنا. . . كما لو أن ضميري قد تحوّل إلى رجل مشرّد مجنون يكلّم نفسه من دون أن يتخذ عذراً بأنه يسمع بواسطة سماعة هاتفه الخليوي التي تتدلّى من أذنه. طقس دافئ؛ كلمات باردة. هل هو من لحم ودم أم أن شعوري بالذنب هو الذي اختلقه؟ أغمضتُ عينيّ ثم فتحتهما. كان يسير مبتعداً باتجاه شارع بليكر. ربما كان رجلاً آخر.

كانت لا تزال تنتابني لحظات يبدو فيها أن إحساسي باليتم ينتشر إلى خارج جسدي ويملأ العالم، أو على الأقل ذلك الجزء الذي يقع ضمن مجال رؤيتي. لحظات معتوهة. خيّل إليّ أنني في خضم ظروف غير متوازنة كهذه وافقت على خطّة فاسيليسا غولدن الخطيرة، وظننت أن البكاء على الكوكب الذي كان يجتاحني قد ولد من خسارتي الصغيرة، وأنّ العالم لا يستحقّ أن يُنظر إليه بأنه على ذلك القدر من السوء. فإذا أنقذت نفسي من الهاوية الأخلاقيّة التي سقطت فيها، فإن العالم سيعتني بنفسه، وستُغلق الفتحة في طبقة الأوزون، وسيعود المتعصّبون إلى متاهتهم المظلمة تحت جذور الأشجار وفي الخنادق في قعر المحيط، وستشرق الشمس مرة أخرى، وستملأ الموسيقى الجو.

نعم، لقد حان الوقت للانتقال من البيت. لكن ما الذي سيحلّه انتقالي من البيت؟ فما زلت أدمن تلك اللقاءات الثلاثة في الشهر في

الطابق الثالث والخمسين. وقد استغرقت خطة التلقيح فترة أطول مما كانت فاسيليسا تتوقّع، وبدأت تتذمر، واتّهمتني بأنني لا أتبع نهجاً صحيحاً في مشروعنا، وبأنني أجلب النحس عليها بشكل ما. وقالت إنني يجب أن أركّز كل جهودي، والأهم من كل ذلك، أنني يجب أن أريده، لأنني إذا لم أكن أريده، فلن يحدث. وإذا شعر الطفل بأنه ليس مرغوباً فيه تماماً، فلن يأتي. «لا تحرمني من ذلك»، قالت، «ربما تريد أن تنيكني فقط، نعم؟ لذلك فإنك إذاً تطيل الأمر. إذاً، حسناً، يمكنني أن أعدك بأن أظل أدعك تنيكني بعد ذلك. على الأقل بين فترة وأخرى». عندما كانت تتحدث بهذه الطريقة، كان ذلك يجعلني أريد أن أبكي، لكن دموعي كانت تعزز اعتقادها بأنني لسبب ما، كنت أمسك عنها سائلي المنوي الأقوى، بأنّني، في نظرها، شخص مشين بيولوجياً. لقد دخلت مكاناً من الجنون وأردت أن ينتهي كلّه، لم أشأ أن ينتهي، كنت أريدها أن تحبل، لا لم أرد، نعم أردت، لا، لم أرد.

ثمّ حدث ذلك. وابتعدت عنّي إلى الأبد وتركتني محطماً. نعم كنت أعشق امرأة أخرى، لكنني محطّم من خسارة متعتنا الخائنة الاستثنائية.

في الفيلم الذي أتخيّله، العمل الذي سيكون الخيانة المطلقة، في هذه النقطة، يجب أن يتحوّل العمل من فاسيليسا إلى زوجها. وهكذا: خرجت من الجناح في الطابق الثالث والخمسين وأُغلق الباب وهذا ما كان.

- يتطلّب الفن خيانة، ويختلق تلك الخيانة، لأن الخيانة تتحوّل إلى فن. هذا صحيح، صحيح؟ صحيح؟ -

يختفي المشهد ببطء.

* * *

«إنك تعرف من أين أتيت»، قال نيرو غولدن، مضيّقاً عينيه، «أعرف أنّك تعرف. لا يمكن لأحد إبقاء الأمور في طي الكتمان في هذه الأيام». ففي ساعة متأخرة من الليل، دعاني إلى معتكفه، وقال إنه يريد أن يتحدّث. كنت متحمّساً وخائفاً في الوقت نفسه، ورحت أتساءل هل سيواجهني بالمعلومات عمّا يجري بيني وبين السيدة غولدن؟ هل كلّف أحداً بملاحقتنا، هل يوجد على طاولة مكتبه ملفّ فيه صور التقطتها عين تتجسس علينا؟ لقد أثارت هذه الفكرة قلقاً شديداً فيّ.

- وكنت متحمّساً، لأن هذه قد تكون أيضاً المناسبة التي طالما انتظرتها لكي أصارحه، لحظة الاعتراف التي يريد فيها رجل يتقدم في العمر، وقد ملّ من الذات المجهولة التي غلّف نفسه بها، أن يُعرف مرة أخرى.

- «نعم يا سيدي»، قلت. «لا تقل لي ذلك»، صاح بصوت يكاد يشي بطيبة قلب، «ابق على تظاهرك بأنّك فتى جاهل صغير وتظاهر بأنك تُفاجئ عندما أخبرك شيئاً. أوكي؟» فقلت: «هذا الأمر يناسبني».

في أثناء حمل زوجته، بدأ تدهور صحة نيرو غولدن يزداد وضوحاً لنا جميعاً. فلم يكن بعيداً كثيراً عن نهاية عقده الثامن، وبدأ عقله يخونه ببطء. فقد ظل يخرج في الساعة الثامنة من صباح كل يوم مرتدياً لباس التنس الأبيض معتمراً قبعة بيسبول بيضاء، يلوّح بمضربه في الهواء، بقسماته الجادة المعتادة، وكان لا يزال يعود متعرّقاً وينضح برضاء من فكّه القوي بعد تسعين دقيقة. لكن في أحد الأيام، قبل بضعة أيام من استدعائه لي في وقت متأخر من الليل، وقعت حادثة مؤسفة. فقد كان يجتاز الشارع عندما تجاوزت سيارة كورفيت قديمة إشارة المرور عند تقاطع شارعي بليكر ماكدوغال وصدمته.

بالكاد صدمته، بالكاد أوقعته أرضاً، ليس بقوة تكفي لكسر أيّ عظام فيه. وكانت ردّة فعله أنه وثب واقفاً، وسامح السائق على الفور، ورفض أن يبلغ الشرطة أو أن يقدّم أي شكوى، ودعا السائق، شخص أبيض طائش يكسو رأسه شعر كثيف أبيض مجعّد، إلى *احتساء كوب من القهوة معه في البيت*. لم يكن من طبعه الإقدام على مثل هذا السلوك، فبدأ القلق يعتري الجميع. ومضت فترة قبل أن يتم تشخيص حجم المشكلة. «أنا بخير، أنا على ما يرام»، قال نيرو بعد حادثة سيارة الكورفيت، «توقّفوا عن إثارة ضجة حول الأمر. حاولت الاعتناء بالرجل لأنه كان يرتعد. إن ما فعلته هو الشيء الذي يجب عمله».

وها أنا الآن وحدي معه في عرينه بعد حلول الظلام. ما الذي يخبئه لي الآن؟ قدّم لي سيجاراً. اعتذرت. كأس كونياك. اعتذرت أيضاً. لم أكن في حياتي شارب براندي. «اشرب شيئاً»، قال آمراً، فقبلت جرعة من الفودكا. «بصحتك»، قال، ورفع كأسه بغطرسة. «كلّه». جرعت الكأس دفعة واحدة، ولاحظت أنه وضع شفتيه فقط على حافة كأس الكونياك بلا مبالاة. «كأس أخرى»، قال. تساءلت إن كان يحاول أن يجعلني أسكر مرة أخرى، فقلت: «بعد قليل»، وغطّيت كأسي براحة يدي اليسرى. «دعنا لا نستعجل». انحنى إلى الأمام، صفعني على ركبتي، وهزّ رأسه وقال: «جيد، جيد. إنك رجل عاقل».

ثم قال: «دعني أحكي لك قصّة. في قديم الزمان وسالف العصر والأوان كان في بومباي - أترى؟ فأنا أسمّي المدينة القديمة باسمها القديم، لأول مرة تخرج هذه الكلمة من شفتي منذ أن وضعت قدمي في أمريكا، يجب أن تتشرّف بمشاعري الودية نحوك - كان هناك رجل يدعى دون كورليون. لا، طبعاً لم يكن هذا اسمه،

لكن اسمه لن يعني شيئاً بالنسبة إليك. حتى الاسم الذي كان يستخدمه في الحقيقة لم يكن اسمه أيضاً. إن الاسم لا شيء، إنه أداة، كما يقولون هنا، مجرد وسيلة لفتح باب. ’*دون كورليون*‘ يعطيك فكرة عن أي نوع من الرجال كان. إنها طريقتي لفتح بابه، لكن دون هذا لم يقتل رجلاً أو يطلق النار على أحد في حياته. أريد أن أحدّثك عن هذا النوع من الرجال. مسقط رأسه من الجنوب، لكنه مثل الآخرين، انتهى به المطاف في المدينة الكبيرة. ينتمي إلى أصول متواضعة. متواضعة جداً. كان عند والده محل لتصليح الدراجات الهوائية بالقرب من سوق كروفورد. كان الصبي يساعد والده في تصليح الدراجات، وكان ينظر إلى السيارات الكبيرة وهي تمرّ، فرووووم! ستوديبيكر، فرووووم! كاديلاك، وفي أحد الأيام - ذات يوم فكّر - مثل أي شخص آخر. كبر، عمل في أحواض السفن في تفريغ البضائع. حمّال بسيط في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر، لكنه كان يترصّد فرصة. كانت سفن الحجاج تعود من أماكن المسلمين المقدّسة، وكان الحجاج يجلبون معهم سلعاً مهربة: أجهزة راديو ترانزستور، ساعات سويسرية، عملات ذهبية. كانت سلعاً تخضع للرسوم. رسوم عالية. وكان *دون كورليون* يساعدهم في تهريب تلك السلع، وهو في ملابسه الداخلية، في عمامته، أي شيء. كانوا يكافئونه. وهكذا كسب بعض النقود.

«الآن صادف الحظ والتقى بصيّاد سمك مهرّب من دامان. يدعى مستر *باخيا*. في ذلك الوقت كانت دامان مستعمرة برتغالية. كان التفتيش خفيفاً. وبدأ *باخيا* و*دون كورليون* يهرّبان بضائع من دبي ومن عدن عن طريق دامان، حدود لا توجد فيها حراسة مشددة، إلى الهند. كان عملاً جيداً. فارتقى *دون كورليون* على السلم الاجتماعي. وصادق أرباب عائلات إجرامية أخرى. ف. *موداليار*، ك. لالا،

وإلى ما هنالك. ثمّ صادق بعض السياسيين، بمن فيهم سياسي يدعى سانجاي غاندي، ابن انديرا. هذه حقائق. وفي سبعينات القرن العشرين أصبح شخصية مرموقة، أعظم شخصية. وكان يلاحقه شرطي شاب لا يمكن رشوته. رجل مخلص. الإخلاص نقطة ضعف في هذا العمل، يدعى المفتش ماستان. نقله دون كورليون إلى مكان بعيد، وعندما كان الضابط على متن الطائرة، صعد دون كورليون إلى الطائرة ليلوّح له مودعاً. تصل بالسلامة يا ماستان. رحلة موفقة. صفيق. هكذا. كان شديد الثقة بنفسه في تلك الأيام.

«عاش حياة جيدة ومتقشفة أيضاً. أصبح يرتدي أفضل البدلات، أفضل ربطات العنق، أفضل السجائر، ماركة ٥٥٥، وسيارة مرسيدس بنز. وبيت في شارع واردن، أشبه بقصر، لكنّه كان يعيش حياة بسيطة في غرفة واحدة على الشرفة في الطابق العلوي. طولها خمسة عشر قدماً وعرضها عشرة أقدام. لا أكثر. وفي الطابق السفلي كان يرتاد البيت نجوم سينما، واستثمر مبالغ كبيرة في السينما، كما تعرف. وأُنتج ما لا يقل عن ثلاثة أفلام عن حياته، أدى أدوار البطولة كبار الممثلين. وتزوّج أيضاً نجمة سينمائية. كان اسمها يعني ذهبي. لكن في منتصف السبعينات، سقط. فقد تبين أن سانجاي غاندي صديق غير مخلص فأمضى دون كورليون سنة ونصف السنة في السجن. لقد حطّمه ذلك. ترك التهريب تماماً. في البداية أصبح متديناً مثل الحجاج الذين كانوا يهرّبون البضائع والذين منحوه فرصة الصعود. ثم دخل إلى عالم السياسة. وفي منتصف التسعينات، بعد صعود أكبر عائلة شركة - زي التي يملكها زامزاما ألانكار، ثم حدثت أولى الهجمات الإرهابية في بومباي، فظنّ الناس أنه متورط فيها، لكنّه كان خائفاً كثيراً. بريء، بريء، بريء. وفي السنة التالية، أصيب بنوبة قلبية، ومات. يا لها من قصّة».

«هل كانت حقاً ميتة طبيعية؟» سألته، «لا بدّ أنه كان لديه أعداء؟»

«في ذلك الحين»، قال نيرو غولدن، «لم يعد يستحق أن يقتله أحد».

فترة صمت طويلة.

«وهذه هي القصّة التي أردت أن تحكيها لي»، قلت أخيراً، «هل أستطيع أن أسأل لماذا؟»

فترة صمت طويلة.

«لا»، قال.

قطع.

* * *

كان كما لو أنّه يتعمّد استثارتي. هذا هو العالم الذي نشأ فيه، ومن الواضح أن ذلك كان جزءاً من الرسالة التي أراد أن يبعثها لي. لكن هل يعترف بأنه كان مشاركاً في ذلك العالم، أم أنه يوضح رفضه النهائي له، لذلك تركه وراء ظهره؟ أم كلا الأمرين؟ هل شارك في ذلك العالم لكنه يريد الآن الخروج منه وهذا يعني أن عليه أن ينتقل إلى مكان بعيد، بعيد جداً، مكان لا يستطيع أحد أن يتعقبه. وبحسب ما قاله، لا يمكن معرفة ذلك بشكل مؤكد. وشعرت بالارتياح أيضاً لأنه لم يواجهني بذلك الملف المخيف الذي يضم الدليل على لقاءاتي مع زوجته، لذلك كنت سعيداً لسماع قصّة دون كورليون كما رواها، ثم تناول جرعة أخرى من الفودكا، وانسحب. رجل عجوز يتذكّر الماضي. وهو ليس أول من يفعل ذلك، ولن يكون الآخر. لقد بدأ ينسى الحاضر - أشياء صغيرة، أين وضع مفاتيحه، مواعيده، أعياد الميلاد - لكن كان لديه أشخاص يذكّرونه بمعظم هذه الأشياء، وبدا أن ذاكرته عن الماضي بدأت تزداد حدّة. ساورتني الشكوك -

ورجوت - أن تكون هناك جلسات أخرى كالتي جرت هذه الليلة والتي انتهت للتو. لقد أردت أن أسمع قصصه كلها - كنت بحاجة إليها، لأتمكّن، في النهاية، من أن أكوّنه.

بدا أن أخبار الأبوة الوشيكة أخذت تريح نيرو، مؤكدة، كما كان يبدو أنها بحاجة لأن يؤكد، استمرار فحولته. وفي مجال الأعمال، بدا أن هذه القوّة قد استمرت لفترة من الوقت بثبات، كما أثبت العمل الجبار الجاري في إيست ويست مانهاتن لنا جميعاً. فقد قامت شركتا رليتد إل. بي وغولدمان ساكس بالاشتراك مع شركة مجموعة أوكسفورد بروبيرتيز المحدودة بأعمال إعادة بناء أحواض هدسون الضخمة. وعملت استناداً إلى قرض بناء قدره ٤٧٥ مليون دولار حصلت عليه بموجب مشروع مشترك بين شركتي رليتد/ أكسفورد من «أطراف مختلفة». وأكاد أكون متيقناً تماماً بأن نيرو غولدن، باسم هذه الشركة أو تلك، كان واحداً من الدائنين بالإضافة إلى الصبية الكبار، باري سترنليتشت صاحب مجموعة ستاروود كابيتال وشركة Coach للتصاميم الفاخرة. وجاء أول استثمار له في إعادة بناء الهكتارات الستّة والعشرين منذ عدة سنوات، في نطاق برنامج الاستثمار إي بي -٥ الذي أتاح للمهاجرين إلى الولايات المتحدة استثمار رؤوس أموالهم لقاء حصولهم على بطاقة إقامة دائمة، ثم على الجنسية في نهاية المطاف. وهذا ما فسّر لي أخيراً كيف جاء نيرو وأبناؤه إلى أمريكا في هذه الفترة القصيرة وأصبحوا يتمتعون بحقوق العمل والإقامة الكاملة. وفي أثناء السنة التي حملت فيها فاسيليسا، شارك غولدن في استثمار آخر في شكل قرض متوسط المخاطر، يشبه قرضاً عقارياً ثانياً، سوى أنه كان مضموناً من أسهم الشركة صاحبة الملكية مقابل العقارات. لذلك، من الناحية النظرية، إذا لم يتمكن صاحب العقار من تسديد الفائدة، يستطيع عندها نيرو أن يحجز الأسهم خلال بضعة أسابيع، وبامتلاكه الأسهم يكون قد

وضع يده على الممتلكات بكاملها. وبحسب علمي، لم يحدث أي شيء من هذا القبيل. لكن، سواء استولى على العقارات بتسهيلات إقراضية أم لا، أو كان مستثمراً ممتازاً أم مقترضاً بمبلغ مليار دولار، فقد كان يراهن على أعلى جائزة في أكبر لعبة عقارات في المدينة.

واسم الكيان الذي قدّم القرض المتوسط المخاطر هو شركة غ. *أ. ف. ف. القابضة*. فعندما مات الإمبراطور الروماني نيرو (٦٨م)، منهياً عهد سلالة جوليو كلاوديان، تلتها (٦٩م) سنة الأباطرة الأربعة التي أطيح فيها خَلَف نيرو المباشر «*غالبا*» على يد *أوثو* الذي أُطيح بدوره على يد *فيتيليوس* الذي لم يدم حكمه طويلاً، واستُبدل بالرجل الذي أصبح أول إمبراطور في أسرة فلافيان: *فيسباسيان*، *غالبا*، *أوثو* - *فيتيليوس* - *فيسباسيان*: *غ. أ. ف. ف*.

عندما حملت فاسيليسا ابناً لنيرو في أواخر تلك السنة، أطلق عليه اسم فيسباسيان، كما لو أن نيرو حدس بأن الطفل قد جاء من سلالة مختلفة، وأنه سيؤسس في نهاية الأمر سلالة جديدة خاصة به.

لم أنبس بكلمة واحدة، طبعاً.

بانتظار فيسباسيان

في أثناء فترة حمل زوجته، عندما كان ينتظر ولادة الإمبراطور الصغير، فيسباسيان، أصبح نيرو غولدن مهووساً بقضيب نابليون بونابرت. وكان ذلك ينبغي أن يكون إشارة كافية على مدى تدهور حالته العقلية لإرسال إشارات تحذيرية، لكن العائلة عاملته بتساهل شديد، كهواية أو لعبة مسلية يلعبها رجل عجوز. وعندما لم يكن مشغولاً بأعماله، أو منهمكاً بالحياة التي أخذت تتبرعم في رحم فاسيليسا، أو بالمطالب باعتباره أباً لأبنائه، انهمك نيرو في مسألة

عضو الإمبراطور الفرنسي. وهذه هي القصة: فبعد أن مات بونابرت في جزيرة سانت هيلينا، شُرِّحت جثته، وأُزيل أثناء ذلك بعض الأعضاء من جسده، بما في ذلك قضيبه، لأسباب نجهلها الآن. وفي نهاية الأمر، وصل نابليون الصغير ذاك إلى يدي (ربما يتعين عليّ أن أعيد صياغة ذلك) قسّ إيطالي، ثمّ عُرض للبيع، فاشتراه بائع كتب من لندن وامتلكه لفترة من الزمن، ثم شقّ طريقه عبر الأطلسي، في البداية إلى فيلادلفيا، ثم إلى نيويورك حيث عُرض في عام ١٩٢٧ في متحف الفنون الفرنسية، ووصفته إحدى الصحف بأنه «سمكة أنقليس منكمشة» ثم وصفته سلطة لا تقل عن مجلة *التايم* بأنه «شريط حذاء مصنوع من جلد غزال مُعالج معالجة سيئة». وفي عام ١٩٧٧، عُرض للبيع في مزاد علني واشتراه اختصاصي الأمراض البولية المشهور جون لاتيمير، كجزء من سعيه ليعيد إلى مهنته شيئاً من المجد، وبعد وفاته انتقلت ملكيته إلى ابنته بالإضافة إلى ممتلكاته الأخرى التي ضمت ملابس هيرمان غورينغ الداخلية، وياقة قميص الرئيس لينكولن الملطّخة بالدم الذي كان يرتديه عندما كان في مسرح فورد. واستقرّت الآن كلّ هذه المخلّفات التذكارية في إنغليوود، بنيو جيرسي. وكان عضو نابليون ملفوفاً داخل قطعة قماش واحتُفظ به في صندوق صغير كُتب على غطائه حرف «ن» داخل حقيبة في غرفة مخزن. لقد أرّق كلّ ذلك نيرو الذي أراد أن يعيد له الشرف الإمبراطوري الذي يستحقّه.

«هذا ما ينبغي أن يحدث»، قال لي. «سأشتري هذا الشيء وسنعيده إلى الشعب الفرنسي، وستعدّ أنت وصديقتك فيلماً وثائقياً عنه. وسأنقل بنفسي العلبة إلى باريس وسأدخل إلى فندق إنفاليدز وسأقترب من قبر بونابرت حيث سيستقبلني كبار المسؤولين في الجمهورية، بل ربما الرئيس نفسه، وسأطلب منهم الإذن لأن أضع العلبة فوق القبر لكي يتمكّن نابليون أخيراً من استعادة رجولته

المفقودة. وسأعلن في خطاب مقتضب أنّني أفعل ذلك كمواطن أمريكي، كنوع من ردّ الجميل للهدية التي قدمتها فرنسا إلى أمريكا، تمثال الحريّة».

لم يكن يمزح. وبطريقة ما حصل على رقم هاتف المنزل في إنغليوود، وبلا تردد اتّصل بابنة السيد لاتيمير التي أغلقت الهاتف في وجهه. ثم طلب من المرأتين التنينين - الآنسة بلاذر والسيدة فاس - أن تحاولا، وفعلتا ذلك حتى اتهمهما شخص على الطرف الآخر من الخطّ بالمضايقة والتحرش. فبدأ نيرو يفكّر الآن بجدية في أن يسافر شخصياً إلى نيو جيرسي حاملاً معه دفتر الشيكات لكي يتوصل إلى اتفاق معها. واستخدمت فاسيليسا كلّ قوتها في الإقناع حتى أثنته عن الذهاب، وقالت له: «إن صاحبته لا تريد أن تبيعه يا عزيزي، وإذا ذهبت إليها فمن حقها أن تستدعي الشرطة».

«النقود تتكلّم»، قال متذمّراً. «يمكنك أن تشتري بيت رجل أقام فيه طوال حياته في الصباح إذا قدّمت له سعراً مناسباً فيخلي البيت قبل الظهر. يمكنك أن تشتري حكومة إذا كانت لديك أموال كافية. لذلك ألا أستطيع أن أشتري قضيباً طوله بوصة ونصف البوصة؟»

«انس الموضوع»، قالت زوجته، «هذا ليس أمراً هاماً الآن».

في تلك السنة، عملنا كلنا على إفشال هذا المشروع. ولا بد أن نيرو كانت تساوره مشاعر غامضة حول الابن الذي أُرغم على أن يكون ابنه. ولا ريب في أنه كانت تنتابني، بما أنني المؤلف الفعلي لمحور القصة الجديدة، مشاعر غامضة عميقة لكوني، إذا جاز التعبير، الكاتب الخفي غير المعترف به للحياة الجديدة. أما بالنسبة إلى مشاعر فاسيليسا، فلا أستطيع أن أقول شيئاً. فهي تكون غامضة أحياناً مثل أبي الهول. وأما عن ردود أفعال الرجال في عائلة غولدن الحاليين، فيجب التحدّث المزيد عنها الآن. ففي هذه السنة، مثلاً،

بدأ آبوو غولدن يحطّم أشياء ليصنع فنّه السياسي، ويعرض أعمالاً محطمة ليمثّل مجتمعاً محطّماً وغضب الناس على تحطّمه. فقد قال: «حياة الناس محطّمة، وهم على استعداد لتحطيم كلّ شيء لأنه لماذا لا يفعلون ذلك».

وحيثما ذهبتُ في تلك السنة، كنت أصادف ذلك المتشرد في الحديقة. وعندما بلغت فاسيليسا شهرها السادس، كان يسير في الشارع الثالث والعشرين خارج صالة سينما SVA، حيث كنت أنا وسوشيترا نجري مقابلة في الشارع مع ويرنر هيرزوغ لتسجيل اللحظات السينمائية الكلاسيكية في سلسلة الفيديو الذي نعدّه. وما إن نطقت الكلمات «*أغوير، غضب الرب*»، حتى جاء ذلك المتشرد من خلفي وخلف هيرزوغ، وقد بدا أنه يشبه تماماً المجنون العظيم ذي العينين الوحشيتين، زورن غوتيس، كلايوس كينسكي نفسه، يتمتم شيئاً عن سرعة الشرّ المتزايدة، وعن *تعاظم* جبل الشرّ في *وسط المدينة تماماً*، ومن يهمه ذلك؟ هل هناك أحد في أمريكا يهمه ذلك؟ فالأطفال يطلقون النار على قضبان آبائهم في غرفة النوم. هل لاحظ أحد ذلك؟ كان مثل *الاحتباس الحراري*، نيران الجحيم تذيب طبقات جليد الشرّ الهائلة ومستويات الشرّ آخذة في الارتفاع في جميع أنحاء العالم، ولا تستطيع حواجز الفيضانات درأها. بلام! بلام! صاح، وعاد إلى موضوع سابق. وحوش الأسلحة قادمون ليقتلوك، الديسيبتيكون القادمون من كوكب سايبرترون، والمهلكون، احذر من ألعاب أطفالك، واحترس في ساحاتك ومراكز التسوّق التي تذهب إليها وقصورك، انتبه لشواطئك وكنائسك ومدارسك، فهي قادمة، بلام، بلام - هذه الأشياء قد تقتل.

«هذا الرجل رائع»، قال هيرزوغ بإعجاب حقيقي. «يجب أن نضعه في الفيلم وقد أجري معه مقابلة».

(٢٠)

«هذا ما سأعترف به لك أيها الشيطان الوسيم»، قال بيتيا غولدن بجديّة، «فلم تعد لديّ أي مشاعر بالحبّ الأخوي. والأكثر من ذلك، أظن أنّ الرأي الشائع بأنّ مشاعر المودّة العميقة بين الأشقّاء غريزية وحتمية، وأنّ عدم وجودها ينعكس بشكل سيّئ على الشخص الذي يُحرم منها، غير صحيح. ودافعها ليس وراثياً، وإنما هي شكل من أشكال الابتزاز الاجتماعي». لم يكن زوّار كثيرون يُدعون إلى عرين بيتيا، لكن دعوتي إليه كانت استثنائية، ربّما لأنني ظللت، في رأيه المميز، الرجل الأكثر وسامة على وجه الأرض. وهكذا جلست في غمرة الضوء الأزرق الذي يغمر غرفته بين أجهزة الكمبيوتر ومصابيح أنجليبويز، وقبلتُ عرضه لتناول سندويشة جبن كلوستر مشوية، وقلتُ أقلّ ما يمكن أن يقال، لأنني فهمت أنه كان يريد أن يتكلّم، وأنه يجدر الاستماع إلى كلامه دائماً، حتّى عندما لا يكون رائق المزاج أكثر من المعتاد. وقال: «في روما القديمة. في الحقيقة في جميع الإمبراطوريات العظيمة في أرجاء المعمورة وفي كلّ عصر، فإن أشقّاءك هم الذين ينبغي أن تخاف منهم. وفي أوقات وراثة الحكم، جرت العادة على أن تكون إما القاتل أو المقتول. الحبّ؟ فهؤلاء الأمراء سيضحكون على هذه الكلمة إذا ذكرتها لهم».

سألته كيف يمكنه أن يجيب وليام بن، وما الذي يمكن أن يقوله

عن الفكرة الراسخة في اسم مدينة فيلادلفيا التي ازدهرت في سنواتها الأولى لأن شهرتها بالتسامح جذبت أناساً من مختلف الأديان والمواهب وأدّت إلى إقامة علاقات أفضل من المتوسط مع قبائل الهنود الحمر المحليّين. «إن الفكرة بأن جميع الرجال إخوة راسخة في أعمال فلسفية كثيرة وفي معظم الديانات»، بادرته بالقول.

«ربما يتعين على المرء أن يحبّ البشرية عامة»، ردّ بنبرة تشي بملل شديد، «لكني أعتبرها عبارة فضفاضة كثيراً. فأنا مُحَدّد تماماً في كراهيتي هنا. شخصان ولدا وشخص لم يولد بعد: هؤلاء هم أهداف عداوتي التي قد لا تكون نهائية، لا أعرف. إني أتحدّث عن فكّ روابط الدم هنا، لا عن عدم محبة جميع الأنواع اللعينة، وأرجو ألّا تحدّثني عن حواء الأفريقية أو **لوكا**، تلك الفقاعة اللزجة التي يبلغ عمرها ثلاثة مليارات ونصف مليار سنة التي كانت جدّنا الكوني المشترك الأخير. إني أدرك شجرة نسب الجنس البشري والحياة التي سبقت *الإنسان العاقل* على الأرض، وإن الإصرار على سلسلة النسب تلك الآن يعني أنك تتعمّد أن لا تفهم ما أرمي إليه. أظن أنك تعرف ماذا أقصد. أشقّائي فقط هم الذين أكرههم. لقد تبيّن ذلك عندما بدأت أفكّر في الطفل الذي سنستقبله رغماً عنا قريباً».

لم أستطع أن أنبس كلمة واحدة، مع أني شعرت بمدّ من الغضب الأبوي يعتمل في صدري. فمن الواضح، أنه بينما كان ابني - ابني السرّي من عائلة غولدن، يتبرعم وينمو في رحم أمّه، كوّن أخوه في المستقبل، بيتيا، رأياً سيئاً عنه. أردت أن أحتجّ، أن أدافع عن الطفل وأهاجم خصمه، لكن السكوت في هذا الأمر قدري. وتابع بيتيا كلامه. فقد أرادني أن أعرف أنه يتّخذ قراراً شديد الأهمية، أنّه صمّم على معالجة خوفه من الخروج من البيت ثمّ يغادر البيت الكائن في شارع ماكدوغال، ولن يعود إليه مرة أخرى، وهكذا

يصبح آخر أبناء نيرو غولدن الثلاثة الذي يتخذ قراره بنفسه. فهو الابن الذي كان القيام بذلك يشكل صعوبة كبيرة، أما الآن فقد أبان مخزوناً لا يُشك فيه من قوة الإرادة. كانت هناك قوة تدفعه، وكلما تكلّم، فهمت أنها كراهية موجهة إلى آبوو غولدن بشكل خاص: كراهية تولدت على ضفتي نهر هدسون في الليلة التي أغوى فيها شقيقه، أو ربما بسبب، الحسناء الصومالية التي تقطع المعادن أوباه، ازدادت خلال تلك الفترات الطويلة التي يختلي فيها بنفسه في غرفته الغارقة بالضوء الأزرق، والتي أدت أخيراً إلى أن يتخذ قراراً بأن ينفّذ. فهو سيعالج نفسه بنفسه من رُهاب الأماكن العامة، وسيغادر البيت. وأشار إلى اللوحة المعلقة فوق باب عرينه. *غادر بيتك*، *أيها الشاب*، *وابحث عن شواطئ أجنبية*. «كنت أظن أن الأمر يتعلق بالانتقال إلى أمريكا»، قال، «لكننا، هنا في هذا البيت، لا نزال في الوطن، كأننا جلبناه معنا. الآن، أخيراً، أصبحت مستعداً لاتباع تعليمات سَمِيّ العظيم. إن لم يكن بالتحديد إلى شواطئ أجنبية، فعلى الأقل إلى مكان بعيد من هذا البيت، إلى شقّة أمتلكها أنا».

تلقيت المعلومات ببساطة. فقد كنا نعرف كلانا أنّ رُهاب الأماكن العامة هو أقل الصعوبات التي يواجهها بيتيا. أما الصعوبة الأكبر فهي أنه اختار في تلك المناسبة ألّا يتكلم. لكنّي رأيت في وجهه عزيمة كبيرة. لا بد أنه قرّر أن يتغلّب على تحديات تلك الصعوبة الأكبر أيضاً.

في اليوم التالي ظهر زائر جديد في منزل غولدن، وبعد ذلك، بدأ يأتي في تمام الساعة الثالثة من بعد ظهر كلّ يوم، شخص متين البنية، ذو شعر أشقر مرتفع إلى الأعلى، ينتعل حذاء رياضياً، ترتسم على وجهه ابتسامة تصرّ على إخلاصها العميق، يتحدث بلكنة أسترالية، وكما - أشار نيرو غولدن - فإنه يشبه كثيراً بطل ويمبلدون

المتقاعد، بات كاش. وكان هذا هو الشخص المكلّف بمهمّة إنقاذ بيتيا من الرهاب الذي يعاني منه بالتواجد في الأماكن العامة: معالج بيتيا بالتنويم الإيحائي، اسمه موراي ليت. «إذا دعوتني، فهذا ليس خطأ»، كان يحبّ أن يقول؛ نكتة في لعبة التنس تعني فقط (آخ) ليزيد من شبهه بالنجم الأسترالي السابق.

لم يكن من السهل تنويم بيتيا مغنطيسياً، لأنه كان يظل يرغب في مجادلة ما يقترحه عليه المنوّم المغناطيسي فضلاً عن أنه كان يكره تلك النبرة الأسترالية في صوت الرجل، وروح الدعابة التي يتمتع بها، وما إلى ذلك. كانت الجلسات الأولى صعبة. «لستُ في غيبوبة»، كان بيتيا يقاطع السيد ليت، ويضيف، «أشعر بالاسترخاء وفي مزاج جيّد لكني أسيطر على جميع حواسي»، أو، في يوم آخر، «يا إلهي، لقد اقتربت من ذلك أخيراً، لكن ذبابة وقفت على أنفي للتو».

كان بيتيا يبدي ملاحظات كثيرة، وكان ذلك أحد الأشياء التي تقف عائقاً في طريقه. وفي إحدى زياراتي إلى الغرفة الغارقة في الضوء الأزرق، عندما بدا أنه مستعد لمرة واحدة أن يتحدّث عن أسبرغر، ذكرت قصّة بورخيس المشهورة، 'فيونس القوي الذاكرة' عن رجل لا ينسى شيئاً، وقال، «نعم، هذا أنا، باستثناء ما يحدث أو ما يقوله الناس. كاتبك هذا، إنه مُتَدَثِّر بالكلمات والتصرفات. وعليك أن تضيف روائح وأذواق وأصوات ومشاعر أيضاً، ونظرات وأشكال وأنواع السيارات في الشارع والحركة النسبية للمشاة والصمت بين النوتات الموسيقية وتأثير الصافرات المخصصة للكلاب على الكلاب. جميعهم يجرون طوال الوقت حول دماغي». إذاً هو نوع من السوبر فيونيس، شُحن بقدر كبير من الأحاسيس المختلفة. ويصعب تخيّل كيف يمكن أن يكون عالمه الداخلي، كيف يمكن أن

يتحمّل هذا الشخص كلّ هذا الحشد من الأحاسيس مثل مسافرين في قطار مترو في ساعة الازدحام، نشاز النشيج الذي يصمّ الآذان، وأبواق السيارات، والانفجارات، والهمسات، وبريق الصور الملوّنة، والروائح الكريهة المختلطة. الجحيم، كرنفال الذين حلّت عليهم اللعنة، يجب أن يكونوا هكذا. عندها فهمت أن القول بأن بيتيا عاش في ضرب من الجحيم هو النقيض التام للواقع الذي كان ضرباً من جحيم يعيش في داخله. وقد مكنني هذا الفهم من أن أدرك، وأن أشعر بالحرج لأنّني لم أدركه من قبل، القوّة والشجاعة الهائلتين اللتين يواجه بهما بيترونيوس غولدن العالم كلّ يوم، ولكي يكون لديه تعاطف أكبر لتذمراته الوحشية أحياناً ضد حياته، مثل الأحداث التي جرت على حافة النافذة وفي قطار المترو الذاهب إلى كوني آيلاند. وسمحت لنفسي أيضاً بأن أتساءل: إذا كُرِّست قوة الشخصية الضخمة إلى روحه العدوانية ضد أخيه غير الشقيق الذي لم يولد بعد (في الواقع، كما نعرف، فهو ليس شقيقه على الإطلاق، لكن لندع هذه الفكرة تترسخ الآن) أخيه غير الشقيق المضطرب، والأهم من كلّ ذلك، شقيقه الحقيقي الخائن، فما هو الانتقام الذي يمكن أن يقدم عليه يا ترى؟ هل يجب أن أقلق على سلامة ابني، أم أن هذا إثبات غريزي على ردة فعلي إزاء حالة بيتيا؟ (هل من الخطأ أن أطلق عليها حالة؟ لعل «حال بيتيا» ستكون أفضل. كم أضحت اللغة صعبة، كم صارت مليئة بالألغام. لم تعد النوايا الحسنة دفاعاً).

دعوني أعود إلى الشراب. فأنا أقف على أرضية صلبة أكثر هنا. كان بيتيا يعاني من مشكلة الشراب. لا يمكن إنكار ذلك. فقد كان يشرب وحده وبكثرة. كان سكيراً كئيباً لكنّها الوسيلة التي اكتشفها لكي يغلق على نفسه الجحيم ويحظى بشيء من النوم، أو بدقّة أكبر،

لكي يُغمى عليه ويمضي بضع ساعات وهو غائب عن الوعي بسعادة. وفي الساعة قبل أن يفقد الوعي، في تلك المناسبة الوحيدة التي سمح لي فيها بأن أشهد انسلاله إلى عالم النسيان الليلي، أثناء بداية الثلث الأخير من فترة حمل فاسيليسا غولدن، عندما قال إنه «يحتاج إلى دعمي». سمعت بضيق متزايد بل وحتى بامتعاض المدى الذي أسفر عنه عدم قدرته على كبح فيض الثرثرة التي تتدفق فيه أو ليكبح تدفّقه اللغوي، عندما يضاف الكحول إلى هذا المزيج من المعلومات، في مناجاة بتيار الوعي الذي كشف فيه مدى التشظّي المعادي للثقافة الأمريكية الذي يكمن فيه، وجعله جزءاً من دماره الشخصي. بصراحة، كانت نفسه السكيرة في الليل تكشف عن ميول للجموح والمغالاة في المواقف المحافظة؛ وجود ذات أخرى ماكرة، تشهيرية، تتدفق من بين شفتيه، يعززها الكحول، تمكّنها العزلة وغضبه المبرّر الكامل من العالم: برنامج أوباما للرعاية الصحية، فظيع! إطلاق النار في ميريلاند، لا تسيّس الأمر! رفع الحد الأدنى للأجور، شيء مخزٍ! زواج المثليين، غير طبيعي! الاعتراضات الدينية على خدمة اللوطيين والسحاقيات والأشخاص ذوي الازدواجية الجنسية والذين يغيّرون هويتهم الجنسية في أريزونا، في الميسيسيبي، حرّية! إطلاق الشرطة النار، دفاع عن النفس! دونالد ستيرلينغ، حرية الكلام! إطلاق النار في الحرم الجامعي في سياتل، إطلاق النار في فيغاس، إطلاق النار في مدرسة ثانوية في أوريغون، الأسلحة لا تقتل البشر! سلّحوا المعلمين! الدستور! الحرّية! داعش تقطع الرؤوس، الجهادي جون، مقرف! لا توجد عندنا خطّة! أخرجوهم كلّهم! لا توجد لدينا خطّة! أوه، وإيبولا! إيبولا! إيبولا! كلّ هذا وأكثر في سيل عارم متفكّك امتزج مع شعوره بالعداء لآبوو، فإذا أراد آبوو أن يتّجه يساراً، اتّجه بيتيا يميناً ليعارضه، وأي شيء

يؤيده آبوو سيقف بيتيا ضده، سيقيم عالماً أخلاقيّاً يقلب واقع أخيه، فالأسود هو أبيض، والصحيح هو خطأ، والأسفل هو أعلى، والداخل هو خارج. وسمع آبوو نفسه مناجاة بيتيا القاسية مرّات عديدة في تلك السنة، لكنه كان يردّ بلطف، لم يأخذ الطعم.

«دعه يقول ما يريد أن يقوله»، قال لي، «فأنت تعرف أن الأسلاك ليست على ما يرام هناك»، ونقر على جبينه إشارة إلى دماغ بيتيا.

«إنه واحد من أذكى الناس الذين أعرفهم»، قلت، وأنا أقصد ذلك.

تجهّم آبوو، وقال: «إنه ذكاء متصدّع، لذلك لا يمكن التعويل عليه. هناك أحاول أن أتعامل مع عالم متصدّع».

«إنه يبذل كلّ ما بوسعه»، قلت له، «العلاج بالتنويم المغناطيسي وما إلى ذلك».

استنكر آبوو ما قلته، وقال: «اتصل بي عندما يتوقّف عن أن يبدو كما لو أنه ينتمي إلى حزب الشاي معتمراً قبعة مجنونة. اتصل بي عندما يقرّر أن يكفّ عن أن يكون فيل الحزب الجمهوري في الغرفة».

حتى إن الشيء الذي أثار قلقي أكثر مما أثارته عداوة بيتيا الشديدة لآراء آبوو السياسية، هو عندما كشف وهو ثمل عن رهابه من الأشخاص المختلفين جنسياً. وبدا أن لهذا أيضاً أساساً في الأمور العائلية. فمن العنف الذي يكتنف لغته، والذي أمتنع عن تكراره هنا، كان من الواضح أن معاهدة السلام التي عقدها مع نفسه منذ فترة طويلة، ليغفر سلوك دي غولدن تجاه أمّه، لم تعد صالحة؛ والطريقة التي تجلّى فيها غضبه كانت تكمن في عداوته العنيفة نحو التشويش المتزايد في تحديد جنس أخيه غير الشقيق. فبدأ يوجّه إلى

أخيه غير الشقيق كلمات مشحونة بالمعاني مثل غير طبيعي، ومنحرف، ومريض. وبطريقة ما عرف ما حدث في عصر ذلك اليوم في خزانة ملابس فاسيليسا وتواطؤها في تجاربه مع المختلف فجعله يتوسع في عنفه الشفوي تجاهها. وأصبح الطفل محور غضبه. ومرة أخرى، شعرت بالقلق إزاء سلامة الطفل الذي لم يولد بعد.

وبدأ التنويم المغناطيسي يؤتي أكله أخيراً. وتقدم اختصاصي التنويم المغناطيسي المنتفخ، السيد ليت، قفزة جديدة. «كيف تسير الأمور؟» سألته وهو خارج من الباب بعد انتهاء إحدى الجلسات، وفي حماسته قال بملء شدقيه: «جيد جداً، شكراً. كنت واثقاً تماماً من أنها ستستغرق لحظة أو لحظتين. فأنا أتبع منهجاً كنت قد استنبطته لعلاج هذا النوع من الحالات، أسميه *القوّة المبرمجة شخصياً*. المسألة تتعلق بأن تعمل مع الشخص خطوة خطوة وتزيد شيئاً فشيئاً الثقة بالنفس، الذي أحبّ أن أطلق عليه: تحقيق الذات. إذ إن كلّ خطوة في طريق القوّة المبرمجة شخصياً ستزيد إيمان الشخص بنفسه. إننا لا نزال نتبع هذا النهج الآن. طبعاً، نعم. ستستقيم الأمور. المسألة تكمن في أن تقدّم لصديقك أدلة ملموسة، براهين ملموسة يمكنه تكرارها، بأنه قادر على التحكم بمساره العقلي. أن يصبح مسؤولاً عن تصرفاته الجسدية والعاطفية. وما إن يدرك أنه يستطيع أن يفعل ذلك، سيشعر بالثقة في التحكم بتجاربه في العالم الخارجي. خطوة خطوة. هنا تكمن المسألة. إن ما أقدمه له هو أن يتمكن من اختيار كيف يريد أن يستجيب للأشخاص المحيطين به، وأن يضع حداً للأشياء التي قد تحدث الآن أو في المستقبل، أن ينهي أي أمر قد يطرأ له. أنا متفائل جداً. طاب يومك».

وكجزء من عملية التحكم بالذات هذه، درس بيتيا الهياكل التي أطلق عليها اسم «فضاءات مسحورة»، تعويذة النجمة الخماسية

والإيروف اليهودي. فإذا استطاع أن يقبل الجزيرة الخاصة قبالة ميامي بأنها كذلك، وفي مكان آخر، بيت أوباه تورر المحاط بالسياج الذي وقعت فيه الحادثة المؤسفة، فلا بد أنه يستطيع إقامة مثل هذه الفضاءات المسحورة لنفسه. هكذا خطرت له فكرة دائرة الطباشير حول جزيرة مانهاتن. إذ سيمشي حول الجزيرة كلّها ويرسم الدائرة بالطباشير بنفسه. وسيفعل ذلك من دون مساعدة أحد. ولزيادة قوّة الدائرة سينثر فصوص ثوم عند كلّ خطوة يخطوها. ولتسهيل الأمر حتى يتمكن من التغلب على مخاوفه، يجب أن يضع نظارات واقية غامقة جداً وسترة ذات قلنسوة، وسيستمع إلى موسيقى بواسطة سماعات تنقّي الصوت، وسيشرب ماء كثيراً. لا يمكن لأحد أن يفعل ذلك بالنيابة عنه، بل عليه أن يفعل ذلك بنفسه.

أشاد ليت، اختصاصي التنويم المغناطيسي، بالخطة وأيّدها، واقترح أن يذهب إلى السوق ويشتري أصابع الطباشير وفصوص الثوم. لكن نيرو غولدن كان قلقاً، وأجرى عدداً من الاتصالات الهاتفية.

كان اليوم المحدد حاراً ورطباً تحت سماء صافية. نزل بيترونيوس غولدن من الغرفة التي يغمرها الضوء الأزرق كما وعد، وقد لاحت على وجهه ملامح تصميم مخيف مثل عدّاء ماراثون أثيوبي. انتظره موراي ليت عند الباب الأمامي، وقبل أن يخرج بيتيا إلى الشارع، حاول المعالج أن يذكّره بمدى التحسّن الذي أحرزه، وبدأ يعدّد الإنجازات التي حققها على أصابعه وإبهامه. «تذكّر الآن. التقدّم الرئيسي في محو الذات! زيادة التركيز إلى حدّ كبير. تحسّن هائل في الثقة بالنفس والاستقلال الذاتي! تحكّم بالتوتر أقوى بكثير! قدرة أكبر على ضبط الغضب! تحقيق خطوات هامة في التحكم بالدوافع الذاتية! يمكنك أن تفعل ذلك». كان بيتيا، في حالة التركيز

الكبير التي أشار إليها ليت، يستمع إلى أغنية «*أظافر طولها تسعة إنشات*» من خلال السماعات الأذنية فلم يسمع ما قاله له. وكان يعلق على كتف حقيبة مليئة بألواح الطباشير، ويحمل حقيبة ظهر مليئة بعلب ماء جوز الهند، والفاكهة، وسندويتشات، وألواح غرانولا، وأفخاذ دجاج مشوية، بالإضافة إلى ثلاثة أزواج جوارب إضافية. وحذّره بعض السيّارين المحنّكين على مواقع الإنترنت بأن الأقدام المتعرّقة في جوارب مبللة بالعرق تؤدي إلى ظهور بثور، مما يجعل المشي شيئاً يستحيل إكماله. فحمل كيساً مليئاً بالثوم المهروس بيد، وباليد الأخرى حمل عكازاً ألصق في نهايته قطعة طباشير بشريط لاصق. وامتلأت جيوبه بلفافات من الشريط اللاصق حتى يتمكن من تغيير الطباشير كلما احتاج إلى ذلك. «فكّر في سلوكك الاجتماعي»، صاح موراي ليت، عندما أدرك أخيراً أنه لم يكن يسمعه، «تجنّب الانطواء. حافظ على التواصل البصري. هذه أمور جيّدة يجب أن تتذكّرها». لكن بيتيا كان يعيش في عالمه الخاص، وبدا أن التواصل البصري ليس في حسبانه. «شيء واحد أخير»، صاح موراي ليت، فتكرّم بيتيا الآن وسحب سماعاته الأذنية واستمع. «أرجو أن تكون وتيرة نومك جيدة»، قال موراي ليت بصوت أكثر انخفاضاً، «أيضاً، اعذرني لهذا السؤال، لكن، مشكلة سلس البول، لقد انتهينا منها، أليس كذلك؟» لكن بيتيا غولدن ذهب إلى حدّ أن أدار عينيه ووضع سماعاته مجدداً، وبدا راضياً بأنّ المغني أكسل روز حلّ محل ترينت ريزنور، فخفض رأسه، وخرج من الباب واستقلّ سيارة الأوبر التي كانت بانتظاره لتقلّه إلى نقطة البداية المختارة، شارع ساوث ستريت سيبورت، تاركاً السيد ليت في ذهوله.

«جيد» صاح المعالج وراءه، «أنا فخور بك. قمت بعمل جيد».

كان نيرو غولدن يقف عند الباب أيضاً، مع السيدتين بلاذر

وفاس وأنا. «خذ وقتك»، قال لابنه. «لا تستعجل الأمور. خذ وقتك. لسنا في سباق». وعندما انطلقت السيارة التي يستقلها بيتيا، تكلّم نيرو في هاتفه. سيكون رجاله في سيارة دفع رباعي على الطريق. ستكون هناك عيون على بيتيا في كلّ خطوة يخطوها في الطريق.

اثنان وثلاثون ميلاً، تقريباً، هي «الرحلة العظيمة على القدمين» حول جزيرة مانهاتن. سبعون ألف خطوة. اثنتا عشرة ساعة، إذا لم تكن تسير بسرعة. عشرون حديقة عامة. لم أرافقه، لكنّي فهمت على الفور أنّ هذه اللحظة ستكون ذروة الفيلم الذي أحلم به، فيلمي المتخيّل عن غولدن. موسيقى تصويرية عالية، *الآلة المعدنية* للو ريد، زبلن، ميتاليكا، وعصابة أومالوت، وموتورهد وموتلي كرو. السائر ماشياً، وصوت (يُسمع بطريقة ما من خلال ضوضاء الميتاليك الثقيلة؛ لم أفكّر في هذا الجزء بعد) صوت طبل عند كلّ وقع قدم. في الحدائق العامة يجتاز أطياف حياته، تراقبه؛ هل هي أشباح، هيولى مخيّلته المعطوبة؟ هنا، أمّه في حديقة نلسن أ. روكفلر بارك، لا بد أنها شبح أو ذكرى. هنا، آبوو يهرول مجتازاً إياه على رصيف إيست ريفر. وأبعد قليلاً، دي غولدن وريا في حديقة ريفرسايد بارك، جميعهم متسمّرين في مكانهم، يراقبون بينما هو يمشي، يحدّقون بنظرة الأشباح. تحيط بهم الأشجار المسكونة، الخائفة. أوباه تورر واقفة مثل حارس في حديقة إنوود هيل بارك إلى جانب شوراكوبوتش روك التي تحدد علامة البقعة التي كانت في وقت ما تحت أضخم شجرة خزامي في ماناهاتا اشترى بيتر مينويت الجزيرة بمبلغ ستّين غلدر، وفي حديقة كارل شورز بارك بالقرب من قصر غرايسي، ليت المنتفخ بذاته، يشجّعه. ربما كان ليت الشخص الوحيد الذي كان موجوداً. بيتيا يتقدّم، الرجل الذي يقرع الطبل،

بعيداً عن حدود الحزن المجنون الملتوي. وبينما يمشي، يحدث تحوّل. وعند الميل العاشر، عند حديقة ويست هارلم بيرس بارك، رمى الطباشير، وتوقّف عن رسم الخطّ الذي رسمه طوال هذه المسافة، وعندما وصل أمام مسكن محافظ المدينة، رمى فصوص الثوم أيضاً. ثمة تغيّر طرأ عليه. لم يعد بحاجة إلى أن يعلّم المنطقة التي يسير فيها. فرحلته نفسها هي العلامة، وسيجعل إكمال رحلة السير تحوّله غير المرئي كاملاً.

وعندما عاد، مترنّحاً بعض الشيء إلى المكان الذي انطلق منه، أظلمت السماء؛ وأخذ المركبان الشراعيان ليتي جي هاوارد وبيونير وسفينة الشحن وافيرتري تراقبه، وبدأ يرقص بقدميه المتقرحتين المضمّدتين، ببطء دون أن يولي أي اعتبار للعيون التي كانت تراقبه. وتحت السماء الماسيّة راح يلوح بيد حرّة، وحطّم مصدر النحس. أحدها. وربما عرف شيئاً عن قوّته، عن قدرته على المواجهة والارتقاء فوق مستوى التحديات الأخرى أيضاً. انظر إلى وجهه الآن: فقد بدت على وجهه تعابير عبد أُعتق.

- وماذا عن الكراهية؟

- أوه، بقي ذلك.

(٢١)

بعد الرحلة العظيمة التي قام بها بيتيا غولدن سيراً على الأقدام، اضطررنا إلى قبول أن أخصائي التنويم المغناطيسي موراي ليت صانع معجزات على الرغم من تصفيفة شعره ولكنته وحذائه، وتعلّمنا درس الإحساس بالشفقة: بأن الحقيقة تكمن غالباً تحت السطح، وقد يكون الشخص أعظم بكثير من الصفات التي يصُوّر بها بشكل كاريكاتوري. لأن بيتيا كان مثل رجل بُرّئ من جريمة لم يرتكبها قط وقضى حكماً بالسجن مدى الحياة من أجلها. فتوهج وجهه ببهجة كبيرة معبّراً عن ظلم معاناته، وقبول تحرره منها بإنكار أخذ يبهت شيئاً فشيئاً. وعندما بدأ بيتيا حياته الجديدة، كان ليت هو الشخص الذي اعتمد عليه، ووثق به ليوجّهه إلى العالم الذي بدا انفتاحه له أشبه بكنز مستحيل، ذلك العالم نفسه الذي نعيش فيه كلّنا سواء بالمصادفة المحضة أو في معظم الأحيان من دون تفكير، لا نستطيع ملاحظة كرنفاله العجائبي اليومي الذي عانق بيتيا الآن وضمه إلى صدره كأنه هدية قُدِّمت له. وأصبح يذهب مع موراي ليت لشراء مواد غذائية من محلات داغوستينو، وغريستيدز، وهول فودس؛ وصار يجلس مع موراي ليت في مقاهي الرصيف في ساحة يونيون سكوير وباتري بارك. ورافق موراي ليت إلى أول حفلة روك حضرها في الهواء الطلق على شاطئ جونز بيتش حيث كانت تعزف فرقة ساوندغاردن وفرقة «نايلز» التي

يحبّها؛ ورافق موراي ليت إلى الملعب وهتف «شكراً يا ديريك» أثناء إحدى لحظات لعب ديريك جيتر الأخيرة في البرونكس. واختار مع موراي ليت شقّته المفروشة الجديدة التي استأجرها لاثني عشر شهراً «ثمّ دعنا نرى»، قال بثقة، «قد يحين الوقت بعد ذلك لشراء واحدة»، في الطابق الرابع في بناية مؤلفة من ستّة طوابق ذات واجهة زجاجية ومعدنية تقع شرقي شارع سوليفان.

في تلك اللحظة فقط، اكتشفت، وشعرت بأنني أحمق لأنني لم أعرف ذلك من قبل، أن بيتيا كان يكسب مبالغ ضخمة من المال بنفسه طوال ذلك الوقت، لأنه كان المخترع والمالك الحصري لعدد من الألعاب التي لقيت نجاحاً كبيراً والتي يلعب بها العالم كلّه على الهواتف الخليوية المتطوّرة وعلى أجهزة الكمبيوتر.

كانت هذه المعلومات مدهشة. فقد كنا نعرف جميعاً أنه يلعب تلك الألعاب باستمرار، أحياناً لمدة أربع عشرة أو خمس عشرة ساعة يومياً. كيف لم يخطر لأحد منّا أنه كان يعمل ولم يكن يضيع تلك الساعات المضطربة، وإنما كان يفعل شيئاً يجيده عقله الذكي الغريب؟ كيف لم يخطر ببالنا أنه تعلّم الرموز بنفسه وأتقن ألغازها بسرعة وبعمق شديد، وأنه بالإضافة إلى أنه كان يلعب هذه الألعاب لفترات طويلة كانت هذه هي الألعاب التي يستنبطها؟ كيف لم نبصر الدليل، ولم نر أنه كشف نفسه بأنه أحد عباقرة القرن الحادي والعشرين، وتركنا نتخبّط في عالم ألفيّة ثانية؟ كان ذلك دلالة على كيف أننا خذلناه كثيراً، تخلّينا عنه في معظم ساعات كلّ يوم ليفعل ما يشاء، وتركناه يحبس نفسه في الغرفة، منعزلاً في غرفته كما أنه لو كان نسختنا من ذلك المجاز اللغوي القوطيّ القديم، *المرأة المجنونة في السقيفة*، بيرثا أنتوينيتا ماسون، السيدة روشستر الأولى التي ظنّت جين آير أنها من «مصاصي الدماء». وطوال هذا الوقت! طوال هذا

الوقت! بيتيا المقتصد، المختبئ، الذي لم يغيّر شيئاً في حياته، ولم يشتر شيئاً لنفسه، كان يتسلق قمم ذلك الكون السرّي، وبصراحة، يبزّنا جميعاً - إنه درس آخر يجب أن نتعلّمه: لا تقلل من شأن شخص آخر. فسقف أحدهم هو أرضيّة شخص آخر.

كانت لديهم كلّهم أسرار، رجال آل غولدن، ما عدا، ربما، آبوو الذي كان كتاباً مفتوحاً.

كانت تلك السنة سنة لعبة غاميرغايت البشعة: كان عالم الألعاب في حرب، الرجال ضد النساء، «هوية اللاعب» في مواجهة التنوّع، وقد يكون شخص بدائي جديد في عالم التكنولوجيا مثلي غافلاً عن كلّ هذه الجلبة. بشكل ما، بطرائق لم أتمكن من استيعابها، وقف بيتيا بعيداً عن هذه المعمعة، حتى عندما وافق على أن يحدّثني عنها أخيراً، وكشف عن آراء قوية حول الطريقة التي تستجيب فيها أوساط اللاعبين الذكور لسلسلة انتقادات يزعم أنها صادرة عن نساء مغرورات - نقّاد في وسائل الإعلام ومطوّرو ألعاب مستقلون - ينشرون عناوينهن وأرقام هواتفهن ويعرّضونهن لأسوأ المخاطر أيضاً، شملت أعداداً كبيرة من التهديد بالقتل أجبرت بعض الإناث المستهدفات على الهرب من بيوتهن. وقال: «المشكلة ليست تقنية، ولا يوجد لها حلّ تقني. وإنما المشكلة بشرية، الطبيعة البشرية بصورة عامة، الطبيعة البشرية الذكورية بصورة خاصة، لأن عدم ذكر الأسماء يتيح للأشخاص أن يطلقوا العنان لأنفسهم لإخراج أسوأ جوانب تلك الطبيعة. أما أنا فإني أستنبط ألعاباً مسلية للأطفال. أنا فضاء محايد. أنا سويسرا. لا أحد يضايقني. إنهم يأتون لزيارتي فقط ويتزلجون في المنحدرات التي أصنعها».

لقد ساعده مرض التوحد ذو الأداء الوظيفي العالي على أن يصبح أعجوبة في استنباط الألعاب وبدأ يسعى للحصول على الجوائز

الممكنة. وكانت «تطبيقات بولر» المتقدمة - تطبيقات يمكنك أن تتواصل من خلالها مع أصدقاء لكي تلعبوا معاً - تدرّ أحد عشر، اثنا عشر مليون دولار شهرياً. وكانت اللعبة القديمة «*كاندي كراش ساغا*» التي سمعت عنها مؤخراً، لا تزال تدرّ خمسة ملايين ونصف مليون دولار. والألعاب الحربية التي تكسب جميع أموالها تقريباً من مشتريات التطبيق، ويأتي أقل من عشرة في المئة من دخلها من الإعلانات، يمكن أن تكسب مليوني ونصف مليون دولار شهرياً. وقرأت أعلى خمسين عنواناً من نظم تشغيل هواتف آبل وأندرويد لبيتيا وسألته، «هل استنبطتَ أياً من هذه؟» فارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وقال: «لا أستطيع أن أكذب»، وأشار إلى اللعبة المصنّفة بالمرتبة الأولى، وأضاف، «لقد صنعتها بفأسي الصغيرة».

هكذا إذاً، أكثر من مئة مليون دولار في السنة من ذلك العنوان فقط. «أتعرف»، قلت له، «لم أعد أخاف عليك».

هناك دراسات تقول إن التوحد قد «ينمو كثيراً» إلى درجة أن بعض المرضى يدخلون في فئة «النتيجة المثلى» فلا تعود أعراض اضطرابات التوحّد تظهر في الذين ينضوون ضمن هذه الفئة، والذين يُرجح أن يرتفع معامل الذكاء لديهم كثيراً. ونوقش هذا البحث كثيراً، لكن أسراً عديدة قدّمت أدلة تدعم هذا الرأي استناداً إلى توصيف حالات فردية. أما حالة بيتيا فكانت مختلفة. فلم يبلغ فئة «النتيجة المثلى»، بل ولم يرغب في أن يبلغها. أما مستوى التوحد ذو الأداء الوظيفي العالي لديه والإنجازات التي حققها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدراسة. وبعد التقدم الذي حققته رحلته سيراً على الأقدام حول مانهاتن، أصبح يبدو أنه قادر، وباضطراد، على معالجة أعراضه: فقد أصبح أقل عرضة للاكتئاب، وتدنت احتمالية أن ينهار في أزمة، ولم يعد يشعر بالقلق كثيراً من العيش وحيداً. كان موراي

ليت صديقاً له، وحرص والده على زيارته يومياً، وكان لا يزال يأخذ الدواء الموصوف له، وكان. . . فعلاً. أما تحرره الجديد من رُهاب الأماكن العامة والمفتوحة، فلا يمكن لأحد أن يعرف إلى متى يمكن أن يدوم ذلك، أو إلى أي مسافة يمكن أن يبتعد فيها عن «قاعدة البيت». لكن بصورة عامة، أصبح في حال أفضل بكثير مما كان عليه منذ فترة طويلة. وأصبح من الممكن ألّا نبدي قلقاً عليه.

ظل يشرب كثيراً. ربما كانت مشكلة مألوفة كثيراً، لكن ذلك أثار قلقنا جميعاً أكثر مما ينبغي.

بعد ذلك بفترة قصيرة، بدأت أقلق على نفسي بدلاً من أن أقلق عليه. فقد اقترب موعد ولادة الطفل، وصدقاً، لم يعد بإمكاني أن أحتمل الوضع الذي وجدت نفسي فيه، ففعلت كما أرادت سوشيترا، وانتقلت بسرعة من البيت الذهبي. ونعم، كانت لدى والديَّ علاقات متينة كثيرة مع جيرانهم في الغاردنز، ولبهجتي الشديدة، رحّب بي صديقهما الدبلوماسي من ميانمار الذي غيّرت اسمه في هذه الصفحات، ليسهل عليّ رسم شخصيته، يو لنو فنو - الأرمل ذو الوجه الحزين، والعينين الغائرتين الذي يضع نظّارات، والذي فشل في مسعاه لتتبع خطى يوثانت، بأن يصبح ثاني أمين عام بورمي للأمم المتّحدة - الذي استقبلني بترحاب شديد في بيته، وقال: «سيكون من دواعي سروري. فهي شقّة كبيرة ووجودي فيها وحيداً يجعلني أشعر مثل ذبابة تطّن في داخل جرس. إني أسمع صدى نفسي، وهو ليس صوتاً أحبّه».

في واقع الأمر، جئت في الوقت المناسب، لأن مستأجراً كان يقيم في غرفته الاحتياطية منذ فترة، وعندما سألته عن إمكانية أن أستأجر تلك الغرفة، كان المستأجر على وشك إخلائها. وكان ذلك المستأجر يعمل طيّاراً في إحدى شركات الطيران، يدعى جاك بوني،

وكان يحلو له أن يتفاخر بأنه يعمل في «أكبر شركة طيران لم يسمع بها أحد»، شركة طيران هيركوليز التي كانت تقوم بشحن البضائع لكنها بدأت تنقل الآن جنوداً وركاباً آخرين. وقال: «في إحدى الرحلات مؤخراً، كان على متن طائرتنا رئيس الوزراء البريطاني برفقة حرسه الشخصي، فتساءلت ألا ينبغي له أن يسافر على طائرة الرئيس الأمريكي الرسمية؟ فقال حرسه الشخصي، لا توجد لدينا طائرة مثلها. ونقلت أيضاً مرتزقة إلى العراق، كان ذلك شيئاً مهماً. لكن ما هو أكبر شيء قمت بنقله جواً في حياتي؟ من لندن إلى فنزويلا، عملة فنزويلية بقيمة مئتي مليون دولار قام البريطانيون بطبعها لهم، من يعرف، حسناً. وقد حدث شيء غريب للغاية. ففي مطار هيثرو، رأيتهم يحمّلون الأكياس على متن الطائرة ولم يكن هناك رجال أمن، فرحت أتطلّع حولي، ولم أجد إلّا عاملين من عمال المطار العاديين، ولم تكن هناك حراسة مسلّحة، لا شيء. ثمّ وصلنا إلى كراكاس، ويا إلهي، كانت عملية عسكرية ضخمة. مدافع بازوكا، ودبابات، ورجال يثيرون الرعب يرتدون دروعاً يصوّبون أسلحتهم إلى جميع الاتجاهات. أما في لندن، فلم تكن هناك أي حراسة، وهذا ما أثار فزعي».

عندما انتقلت وأقمت في الغرفة بارتياح، زارني يو لنو فنو في غرفتي، وقال بصوته الحذر الرقيق: «لقد كنت سعيداً بصحبته، لكنني سعيد أيضاً لأنك هادئ الطبع. كان السيد بوني رجلاً طيباً لكن عليه أن يكون حذراً من لسانه المهذار. فللجدران آذان يا عزيزي رينيه. للجدران آذان».

كان قلقاً عليّ، وحدّثني ذات مرّة، باستحياء، بعد أن استأذنني، عن شدة احترامه لوالديَّ وعن تفهمه لشدة ألمي لأنني فقدتهما، وقال باستحياء أيضاً إنه عانى من ألم الفقد أيضاً. وسعدت سوشيترا لأنني

انتقلت إلى غرفتي الجديدة، لكنها عندما لاحظت تدني معنوياتي، غيّرت سلوكها معي. «منذ أن انتقلت من منزل عائلة أدامس الفخم، أصبحت تبدو مثل كيس حزين. ألا تشتاق إلى أن تتذوق بعض المعجنات الروسية اللذيذة؟» قالت ذلك بنبرة خفيفة، لكن من الواضح أنها كانت تريد أن تعرف ردّي.

طمأنتها. كانت روحاً موضع ثقة، وسرعان ما أضافت ضاحكة: «إني سعيدة لأنك بقيت في الغاردنز التي تحبّها»، ثم أردفت، «يمكنني أن أتصوّر كيف ستكون تعابير وجهك لو لم يتم ذلك».

لكن ابني، ابني. يستحيل أن أبتعد عنه، ومن المستحيل أن أكون قريباً منه أيضاً. فقد كانت فاسيليسا غولدن التي كانت على وشك أن تلد، تتمشّى في الغاردنز كلّ يوم مع أمّها التي تغطي رأسها بإيشارب تعقده تحت ذقنها، التي أصبحت صورة متكررة في أي ميلودراما، وقلت لنفسي: أصبح ابني الآن في قبضة أناس ليست اللغة الإنكليزية لغتهم الأولى. كانت فكرة تافهة، لكن أثناء انزعاجي الشديد للأبوة المحبطة، لم تعد تطرأ على بالي سوى الأفكار التافهة. هل يجب أن أبوح بالسرّ؟ هل يجب أن أظل صامتاً؟ ما هو أفضل شيء بالنسبة إلى الصبي؟ حسناً، طبعاً، فإن أفضل شيء بالنسبة إليه هو أن يعرف من هو والده الحقيقي. لكنّي كنت أيضاً، يجب أن أعترف بذلك، أكثر من خائف من نيرو غولدن، خوف الفنان الشاب الذي بدأ انطلاقته من الرجل الثري الجبّار في العالم، حتى لو كانت حالته الصحية تتدهور ببطء الآن. ماذا سيفعل يا ترى؟ كيف ستكون ردّة فعله؟ هل سيتعرض الطفل للخطر؟ هل ستتعرض فاسيليسا للخطر؟ هل سأتعرّض أنا للخطر أيضاً؟ بالتأكيد، سأكون معرضاً للخطر، قلت في نفسي. فقد كانت مكافأتي له على مشاعره اللطيفة نحوي بأن جعلت زوجته تحمل مني. بناء على طلبها،

صحيح، لكنه لن يقبل ذلك كعذر. لقد خفت من قبضاته، قبضاته على أقل تقدير. لكن كيف يمكنني أن أظل صامتاً طوال العمر؟ لم تكن لديّ إجابات، لكن الأسئلة ظلت تنهال عليّ ليل نهار، ولم يكن هناك ملجأ يمكنني أن ألوذ إليه.

تملّكني شعور بأنني أحمق - بل أسوأ من أحمق، مثل طفل ضالّ، آثم لأنه ارتكب عملاً شقياً شنيعاً ويخشى من انتقام الكبار - ولم يكن هناك أحد يمكنني أن أحدّثه في هذا الأمر. لأول مرة في حياتي، أحسست بشيء من التقدير لأسلوب الاعتراف في الكنيسة الكاثوليكية والمغفرة التي يمنحها الرب بعد ذلك. لو استطعت أن أجد قسّاً في تلك اللحظة، ولو أسكت مشهد من فيلم *mea maxima culpas* (*صمت في بيت الله*) التساؤل الذي لا يني يدور في خلدي، لسلكت ذلك الطريق بكل سرور. لكن حتى ذلك لم يكن متاحاً لي. فلا توجد لديّ أي علاقة مع الكنسية. ولم يعد والداي موجودين، ومع أن وجود صاحب البيت الجديد، يو لنو فنو، يشيع الهدوء، وبالرغم من أنه دبلوماسي محنّك، لكنه لم يكن سعيداً بثرثرة المستأجر السابق، ولا بد أنه سيشعر بالنفور ما إن يسمع المادة الإشعاعية العاطفية التي أحتاج إلى إفراغها. ومن الواضح أن سوشيترا مستبعدة من ذلك. وعرفت، بالمناسبة، أنني إذا لم أستطع التحكم بنفسي فإن الشكّ سيراودها وستكون تلك أسوأ وسيلة لكشف الحقيقة. لا، يجب ألّا تظهر الحقيقة، لأن الحقيقة ستدمّر حيوات كثيرة. يجب أن أجد طريقة أُخرس فيها الصوت التملّكي، صوت الحبّ الأبوي الذي يريد أن يُكشف سرّه، يصرخ في أذني. معالج نفساني، إذاً؟ فهو الشخص العلمانيّ الذي يسمع الاعتراف في وقتنا الحالي. وكم كنت أكره الفكرة بأن يلجأ أحدهم إلى غريب ليساعده في تفحص دقائق حياته وتفاصيلها. فأنا نفسي سأصبح حكواتياً. وأنا

أكره أن يفهم شخص آخر قصّتي أكثر مما أفهمها أنا. فالحياة التي لا تُختبر غير جديرة بالعيش، قال سقراط، وتجرّع السمّ، لكني طالما قلت لنفسي إن هذا الاختبار يجب أن يكون اختبار الذات بواسطة الذات، الاستقلال الذاتي، كما ينبغي للشخص الحقيقي أن يكون، أن لا يعتمد على شخص آخر ليقدّم له تفسيرات أو يبرّئه ويحرّره. وهنا تكمن الفكرة الإنسانية التي سادت في عصر النهضة عن الذات التي عبّر عنها على سبيل المثال، بيكو ديلا ميراندولا في خطبته الشهيرة «*كرامة الإنسان*». حسناً! فقد طار ذلك الانفتاح العالي من النافذة عندما أعلنت فاسيليسا أنها حامل بالطفل. فمنذ تلك اللحظة، بدأت العاصفة الهوجاء تعصف في داخلي، ولم أتمكن من التخفيف من غلوائها. ربما، مع مرور الزمن، يبتلع المرء كبرياءه ويجد مساعدة مهنية؟ لوهلة فكّرت أن ألجأ إلى موراي ليت، لكني رأيت على الفور أنها فكرة غبية. فهناك معالجون ممتازون في حلقة أصدقاء والديَّ. ربما كان عليّ أن أذهب إلى أحدهم. ربما كنت بحاجة إلى شخص يزيل عن كاهلي عبء معرفتي ويضعها في مكان آمن محايد. خبير نفساني يستطيع أن يبطل مفعول قنبلة الحقيقة. وهكذا رحت أتصارع مع شياطيني. لكن بعد صراع داخلي مرير، قررت، لا أعرف إن كان ذلك صحيحاً أم لا، أن لا أطلب مساعدة من شخص غريب أبداً، لذلك قررت أن أواجه هذه الشياطين بنفسي.

في هذه الأثناء، كان سكان البيوت المطلة على حديقة الغاردنز منهمكين تماماً في المسرحية التي بدأت فصولها تتكشف بالكامل في بيت تاغليابو قبالة البيت الذهبي، الذي بدأت الزوجة المخدوعة بلانكا تاغليابو التي سئمت من مكوثها في البيت لرعاية الأطفال بينما كان زوجها فيتو يذهب إلى المدينة، وملّت من تأكيداته (كان صادقاً، كما أظن) بإخلاصه الشديد، بدأت تقيم علاقة مع الثري الأرجنتيني

الذي يقيم في الحيّ، كارلوس هورلنغام، الذي أطلقت عليه اسم «السيد آريبيستا» في إحدى معالجاتي، وتركت الأطفال في رعاية مربيات أطفال، وسافرت في طائرة السنيور هورلنغام الخاصّة لكي تلقي نظرة على شلالات إغوازو الشهيرة على الحدود بين الأرجنتين والبرازيل، ولا شكّ لكي تمارس أيضاً أنشطة متعددة على الحدود الجنوبية للبلاد خلال وجودها هناك. فاستشاط فيتو غضباً، وغرق في حزن شديد، وأصبح يسير حول الغاردنز ينفث من شدة غضبه وحزنه، فمنح بذلك متعة كبيرة لجميع جيرانه الذين كانوا يشاهدونه. ولو لم أكن منشغلاً بالصعوبات التي كانت تواجهني، لوجدت متعة كبيرة لأن جميع الشخصيات المتباينة في قصتي عن سكان الغاردنز بدأت تترابط وتلتقي خيوطها وتأخذ شكلاً متماسكاً. لكني في تلك اللحظة، لم أكترث إلّا لحزني، فلم أتمكن من مجاراة مسلسل تاغليابو - هورلنغام على النحو الذي بدأ يتكشّف أمامنا.

لم يكن ذلك أمراً شديد الأهمية. بل كانت، في أحسن الأحوال، شخصيات ثانوية. والأسوأ من ذلك، أنني لم أعد أركّز على بيتيا غولدن خلال فترة حزني. لا أقول إنه كان بإمكاني أن أمنع وقوع ما أعقب ذلك لو أنني توخيت مزيداً من الحذر. وقد يكون موراي ليت هو الشخص الذي حدس ذلك بالفطرة. ربما لم يكن بإمكان أحد أن يفعل شيئاً. لكنني، في جميع الأحوال، نادم على غفلتي.

* * *

أقامت صالتا العرض اللتان يملكهما سوتوفوتش، وهما صالتا عرض كبيرتان تقعان إلى غرب الشارع الحادي والعشرين والشارع الرابع والعشرين، أحد أهم عروض الموسم حيث عرضتا أعمال

أوباه توور الجديدة. تماثيل معدنية ضخمة تشبه وحوش ريتشارد سيرا، لكنها مُشَرَّطة بالسكاكين وحوّلتها أوباه من حطام محترق إلى أشكال مخرّمة جميلة، لتبدو أيضاً نسخاً معدنية صدئة عملاقة مقوّسة من أشكال هندية مخرّمة ومزخرفة، تنتصب وقد سلّطت عليها أضواء كشّافة تشبه الأقارب الغريبة المتخيّلة «للحرّاس» في فيلم «٢٠٠١» للمخرج كوبريك. وصادفت في الشارع الحادي والعشرين فرانكي سوتوفوتش النشيط، بخدّيه الورديين وشعره الأبيض الذي يتطاير بفعل الريح، يلوّح بذراعيه ويضحك مبتهجاً. «إنها فنانة كبيرة. إنها نجمة».

نظرتُ حولي أبحث عن الفنانة، لكني لم أرها. «هل افتقدتها»، قال سوتوفوتش، وأضاف، «كانت هنا منذ قليل مع آبوو غولدن. يجب أن تأتي مرة أخرى لتراها. يأتيان إلى هنا طوال الوقت، ويمضيان معظم فترات الصباح. رأيتها في الحفلة في الغاردنز. إنها فتاة عظيمة، شديدة الذكاء. وهي جميلة، يا إلهي». صافحني بيد مرتخية كما لو أنها كانت تتعافى من حرق أصابها بلهب جمالها، واختتم كلامه قائلاً: «إنها قوية»، ثم ابتعد بسرعة ليتحدّث إلى شخص أكثر أهمية مني.

«أوه»، توقّف، ثم التفت نحوي. لقد تغلّب حبّه للثرثرة على غريزته للعمل، وقال: «لقد جاء غولدن الآخر أيضاً، الأخ الأكبر، كما تعرف»، ونقر بإصبعه على صدغه للإشارة إلى الأخ المجنون. «لقد رآها هنا مع آبوو ولا أظن أن ذلك أسعده كثيراً. فقد خرج بسرعة كما يخرج خفاش من نار جهنم. لعلها منافسة صغيرة؟ همممم؟» وأطلق ضحكته العالية ومضى.

كان يجب أن أخمّن ذلك. كان عليّ أن أرى في عين عقلي المدّ الأحمر يتصاعد ويكسو وجه بيتيا، عندما فهم، بعد كلّ هذا الوقت،

أن المرأة التي أحبّها ظلت بين ذراعيّ أخيه، المرأة التي سرقها أخوه منه، تدمّر أفضل فرصه في السعادة. بعد تلك الليلة الغادرة تحت سقف بيت أوباه، عادت تدور في أفكاره مرة أخرى بكلّ قوّتها، كما لو أن ذلك يحدث الآن. فثار غضبه من جديد، ومعه الرغبة في الثأر. إن رؤية أوباه تشبك يدها بيد آبوو هي التي سبّبت كلّ ذلك، وما أعقب ذلك، أعقبه بحتمية مرعبة مثل طلق ناري انطلق بعد الضغط على الزناد. كان ينبغي لي أن أعرف أن مشكلة ما ستحدث. لكنّي كنت منهمكاً في التفكير في أشياء أخرى.

* * *

في مدينة نيويورك، يبعث فوج الإطفاء ٤٤ وحدة إطفاء و ١٩٨ إطفائياً لتلبية خمسة إنذارات. إذ إنّ احتمالية اندلاع حريقين في ثلاث مناطق في الليلة نفسها أمر بعيد الاحتمال. واحتمالية أن تكون هذه الحرائق مجرد حوادث... ضئيلة جداً.

كان الأمن مشدداً في صالتي عرض سوتوفوتش. فخلال ساعات الدوام يوجد العاملون في الصالتين وكاميرات مراقبة. وفي حالات الطوارئ، توجد آلية قفل تغلق جميع المداخل خلال عشرين ثانية. هذه هي «الحالة ألف». أما «الحالة باء» فهي تبدأ منذ إغلاق الصالتين حتى فتحهما في اليوم التالي، وتقوم بهذه المهمة أشعّة ليزر تطلق، إذا ما قُطعت، أجراس إنذار، بواسطة كاميرات مراقبة تنقل معلومات إلى مركز القيادة في شركة الأمن التي تظل عيونها مفتوحة على الشاشات طوال أربع وعشرين ساعة، وبواسطة شبكات تيتانيوم، بالإضافة إلى أبواب فولاذية تتدحرج إلى الأسفل، يعمل كلّ منها بنظام قفل ومفتاح رقمي مزدوج: شقّان لبطاقات الهويّة توجد تحتهما لوحات مفاتيح، ولا يعرف أي مدير تنفيذي جميع رموز الرقم

السري. ومن أجل فتح الأبواب، يجب أن يتواجد اثنان من كبار الموظفين، يستخدم كلّ منهما بطاقته ورمزه الفردي. ولكي يتم اختراق هذا النظام، كان فرانكي سوتوفوتش يحبّ أن يقول، يجب أن تكون عبقرياً. «فالمكان بمثابة قلعة»، كان يقول متبجحاً. «حتى إنني لا أستطيع أن أدخل إذا كنت ماراً بالمصادفة في الليل وأحببت أن أدخل وأتبول».

ما الذي حدث بالتحديد؟ ففي هدأة الليل، في حوالي الساعة الثالثة والثلث صباحاً، توقفت سيارة من طراز شيفروليه، رباعية الدفع، ذات نوافذ داكنة، من دون لوحة، أمام صالة العرض الكائنة في الشارع الرابع والعشرين. لا بدّ أن سائق السيارة قد زار صالة العرض من قبل واستخدم ما وصفه بيان قسم شرطة نيويورك معدّات متطوّرة جداً لاستنساخ بطاقات الهويّة ومعرفة الأرقام السرية. فارتفعت الأبواب الفولاذية وفُتحت بوّابات التيتانيوم، ثم فُتحت أغطية صفائح وقود بلاستيكية مليئة بالبنزين وأُلقيت في الصالة، وأُضرمت النار فيها، ربما باستخدام نفس نوع موقد اللحام المُستخدم في عمل المنحوتات المعروضة. وعندما اندلعت النار وامتدت إلى خارج الصالة غادرت السيارة. ونُفذّت عملية مماثلة أخرى في صالة العرض الكائنة في الشارع الحادي والعشرين. ولم يكن هناك سوى شاهد واحد، سكير لا يمكن الركون إلى شهادته، وصف سائق سيارة الدفع الرباعي بأنه رجل يضع قلنسوة سوداء ونظارات واقية داكنة. «كان يشبه الذبابة»، قال الشاهد، «نعم. عندما أفكّر في الأمر أتذكّر أنه كانت لديه ذراعا ذبابة يكسوهما الشعر تخرجان من طرفي كمَّيه». ولما كانت هذه الشهادة تغوص في أعماق الخيال العلمي، فقد شكروا الشاهد وتركوه وشأنه. ولم يظهر شهود آخرون.

وكان أكثر ما يأمله التحقيق هو تحديد هوية السيارة، لكن لم يُعثر عليها فوراً. وعندما أُخمدت النيران أُتلفت المنحوتات على نحو لا يمكن إصلاحه.

* * *

مشهد داخلي. ليلي. شقّة بيتيا غولدن. غرفة النوم.

يجلس منتصباً في سريره، لا يزال يضع القلنسوة والنظارات الواقية السوداء. بيتيا، وغطاء السرير يصل إلى تحت ذقنه. ينشج بحرقة. يخلع النظارات الواقية ويلقي بها على أرض الغرفة. قناني مشروب كحولي مفتوحة على طاولة إلى جانب السرير.

مشهد داخلي. ليلي. شقّة بيتيا غولدن. غرفة الجلوس.

لا يزال يبكي، يكاد يصرخ حزناً، يبدأ بيتيا يحطّم بيته الجديد. يرمي مصباحاً عبر الغرفة، فيرتطم بالجدار ويتناثر. يحمل كرسياً ويرميه وراء المصباح. ثمّ يجلس القرفصاء على أرضيّة الغرفة شابكاً رأسه بين يديه.

مشهد داخلي. نهاري. شقّة بيتيا غولدن. غرفة الجلوس

انتقال إلى صباح اليوم التالي، بيتيا يجلس في الوضعية نفسها. جرس الباب يرنّ. عدة مرات. لا يتحرّك.

قطع.

مشهد خارجي. نهاري. خارج «بناية موندريان».

نيرو غولدن يقرع جرس الباب. قطع في صورة مقرّبة لوجهه بينما

يتكلّم مباشرة إلى الكاميرا. تحت الصوت يمكننا أن نسمع صوت رنين الجرس وهو يواصل رنينه.

نيرو

طبعاً عرفت أنه هو على الفور. إنهم يعرضون الرسم على شاشة التلفزيون وعندما أراه أعرفه. هذا ليس الذبابة، إنه بيترونيوس، والسيارة أيضاً. لقد نزع منها اللوحة، لكنّها سيارتي. لقد أعطيته بنفسي المفتاح عندما انتقل إلى الشقّة. إنه سائق ماهر، يقود بأمان. هل يتوقّع أب شيئاً كهذا من ابنه؟ إننا نركنها في مرآب السيارات تحت شارع بليكر ١٠٠، بناية جامعة نيويورك العالية. كنا قد استأجرنا المرآب من بروفسور يدرّس الصحافة ويقيم في الطابق العشرين. أعرف السيارة، أعرف ابني، أعرف المرأة. هذا أمر طبيعي. إنها المرأة التي سرقها شقيقه منه. إنه انتقام. شيء فظيع، لكن على الرغم من كلّ ذلك، فهو رجل.

قطع.

مشهد داخلي. ليلي. شقّة بيتيا.

الشقّة في حالة فوضى، لكن بيتيا سمح لموراي ليت بالدخول. لا يزال، بيتيا، يجلس محدودب الظهر، مقرفصاً على أرضيّة الغرفة. يجلس مواري ليت بجانبه، واضعاً ذراعيه على كتفي بيتيا. لا يتوقف بيتيا عن الكلام. لا نسمع ما يقوله.

رينيه (صوت)

اشترى موقد اللحام من موقع على الإنترنت. كان ذلك سهلاً.

بعد أن نزع لوحات السيارة توجّه إلى محل لبيع الخردوات في حيّ كوينز واشترى صفائح بنزين بلاستيكية. ثمّ ذهب إلى مخزن آخر في ناسو كاونتي وملأ الصفائح بالبنزين. أما بالنسبة إلى اختراق النظام الأمني في صالتَي العرض، فقد قال إن ذلك كان في غاية السهولة. ربما لم يكن يتوقّع موجة الشعور بالذنب التي غمرته بعد الهجمات مباشرة. كاد يغرق فيها. كان الانصهار شديداً. أصبح قلقاً جداً، متوتراً، مكتئباً. ثملاً. أراد أن يضعه المعالج تحت المراقبة كي لا يحاول الانتحار. واستدعى والده عدداً من الممرضين للبقاء معه ورعايته على مدار الساعة.

قطع لبيتيا، يتكلّم بغضب شديد، لكنّنا لا نسمع إلّا صوت رينيه. أحياناً، يتكلّم بيتيا في تزامن شفوي مع رينيه.

رينيه

في معظم الأحيان، كانت نوبة غضبه موجّهة إلى نفسه، يغمره إحساس بالذنب والخجل. لكنه تكلّم كثيراً أيضاً عن شدة كراهيته لأخيه. لقد تخثرت مشاعره تجاه آبوو في كتل سميكة جداً من الكراهية إلى حد أنه لا يمكن إذابتها إلّا بشريان حياة أخيه، قال، وحتى ذلك، قد لا يكفي، وقد يحتاج أيضاً إلى فترات حتى يتغوّط فوق قبر آبوو النتن. فقد قرأ في صفحات الجرائم في الصحف الشعبية عن رجال حبسوا نساء لسنوات عديدة وقال، قد أفعل ذلك، إذ يمكنني أن أقيّده وأكمّمه وأحبسه في القبو بجانب المرجل وأسطوانة الماء الساخن وأعذّبه كلّما أردت. في تلك الأيام، بعد حادثة الحريق

المتعمّد، بدأ بيتيا يشرب كثيراً، وفقد صوابه تماماً أيضاً.

قطع .

مشهد خارجي. نهاري. غرفة مكتب نيرو. البيت الذهبي.

ترتسم على وجه نيرو غولدن تعابير غاضبة. يولي ظهره للنافذة، وتقف السيدتان اللتان تشبهان التنين بانتظار تعليماته.

نيرو

أريد أفضل محامٍ جنائي في أمريكا. أحضروه إليّ اليوم.

يُفتح الباب. تقف فاسيليسا غولدن هناك، يداها فوق رحمها. يلتفت نيرو إليها، غاضباً لأنها قاطعته، لكن النظرة في وجهها، تسكته.

فاسيليسا

حان الوقت.

قطع.

(٢٢)

الربيع، ذابت آخر آثار الجليد على نهر هدسون، وبدأت أشرعة سعيدة تمخر مياه النهر في عطلة نهاية الأسبوع. جفاف في كاليفورنيا، جائزة الأوسكار تُمنح إلى بيردمان، لكن لا يوجد أبطال كبار في مسلسل *غوثام*. ظهر الجوكر على شاشة التلفزيون معلناً ترشحه لرئاسة الولايات المتحدة، بالإضافة إلى ما تبقى من فيلم «*فرقة الانتحار*». لا يزال هناك أكثر من سنة ونصف حتى انتهاء فترة حكم الرئيس الحالي، لكنّي بدأت أشعر بالحنين إليه، وشعرت بالحنين إلى الحاضر أيضاً، لأن هذه هي أيامه القديمة الجيدة، تشريع زواج المثليّين، إقامة خطّ عبّارات جديد إلى كوبا، وفوز فريق *اليانكي* بسبع مباريات على التوالي. غير قادر على رؤية هذا المهذار ذي الشعر الأخضر وهو يعلن عن تصريحه غير المتوقع، بدأت أقلب صفحات الجرائم وأقرأ عن حوادث جرائم القتل. رجل مسلّح يطلق النار على دكتور في إلباسو ثمّ انتحر. رجل فتح النار على جيرانه، أسرة مسلمة في نورث كارولاينا بسبب خلاف على موقف ركن السيارة. زوج وزوجة في ديترويت، بمشيغان، يعترفان بتعذيب ابنهما في قبو بيتهم. (من الناحية الفنية فهي ليست جريمة قتل، وإنما قصّة جيدة). وفي تايرون، بولاية ميزوري، رجل مسلّح يقتل سبعة أشخاص ثمّ جعل نفسه ضحيّته الثامنة. وفي ولاية ميزوري أيضاً،

أطلق جيفيري ل. وليامز النار على شرطيين أمام مقر شرطة مدينة فيرغسن. رجل شرطة يُدعى مايكل سلاجير يطلق النار ويقتل والتر سكوت، رجل أسود أعزل، في شمال تشارلستون، في ساوث كارولاينا. وفي غياب الوطواط «*الباتمان*»، قدّمت السيدة كلينتون والسيناتور ساندرز نفسيهما على أنهما بديلان عن فيلم «*فرقة الانتحار*». وفي مطعم «توين بيكس» في واكو، بتكساس - «مأكولات! مشروبات! مناظر جميلة!» - مات تسعة أشخاص في حرب بين سائقي دراجات نارية ونُقل ثمانية عشر شخصاً آخرين إلى المستشفى. وحدثت فيضانات وأعاصير في تكساس وآركانساس، سبعة عشر قتيلاً، وأربعون مفقوداً. ونحن لا نزال في شهر أيار.

«لقد أتى دوستويفسكي بجميع حبكاته من قراءة صفحات الجرائم في الصحف»، قالت سوشيترا، «طالب يقتل صاحبة البيت. مهما كانت آراء الروس حول ذلك. ها هي! *الجريمة والعقاب*».

كنا نتناول طعام الفطور - قهوة ماكياتو وفطائر انتظرنا في الطابور لشرائها من المخبز في شارع سبرينغ ستريت في الخامسة والنصف صباحاً - جالسين إلى طاولة عند الزاوية بالقرب من النافذة الزجاجية المطلّة جنوباً باتجاه الميناء وغرباً عبر النهر. خيّل إليّ أنني سعيد، وأنني وجدت الشخص الذي يستطيع أن يُدخل البهجة إلى نفسي، أو أنها أتاحت لي الفرصة لأن أجدها. وهذا يعني أيضاً أنني لن أتمكن أبداً من إخبارها الحقيقة عن الطفل، وهذا يعني أنّ لدى فاسيليسا غولدن قدرة على السيطرة عليّ لا يمكنني الفكاك منها أبداً. صحيح أنني إذا كشفت عن سرها، فإني أحبط خطة فاسيليسا، وسيكون ذلك أفضل فرصة لي لكي أعيش حياة جيدة. لكن ربما كانت واثقة جداً من نفسها لذلك لم تكن تبدي أي اهتمام. ألم تتغلّب على دراما علاقتها الغرامية مع ماشا، مدرّبتها الشخصية على

اللياقة البدنية. ونيرو يتقدّم في العمر كلّ يوم ويزداد قلقاً من أن لا يعيش ويموت وحيداً. . . أزحت هذه الأفكار جانباً، وفهمتُ أنني بدأت أستسلم إلى جنون الشك. لا، لن تتكلّم فاسيليسا. وفي غضون ذلك، كنت أتناول الفطائر وألقي نظرة على المراجعات السينمائية في صحيفة *صنداي تايمز*. كنت سعيداً، راضياً لأن أدع سوشيترا تفكّر بصوت عال، كما كانت تحبّ أن تفعل في مثل هذه اللحظات النادرة من الهدوء في جدول أعمالها الذي لا يتوقف. ومن هذا العصف الذهني في أيام الأحد - لكي تسمح لعقلها حرية الدوران، والانتقال بحرية من شيء إلى آخر، كانت غالباً تخرج بمشاريع تريد أن تتابعها.

«هل هذا صحيح؟» سألتُ، «عن دوستويفسكي؟»

كان ذلك كلّ ما تحتاج إليه. هزّت رأسها بجديّة، ولوّحت بفطيرتها نحوي وهي تمضغ اللقمة في فمها، ثم ابتلعتها. «صحيح، إنها أحد مفاهيم القرن العشرين. والسؤال هو، هل أستطيع أن أجعلك تصدّقها، هل يمكنني أن أكرّرها عدداً من المرات كي أجعلها تبدو حقيقية. السؤال هو، هل يمكنني أن أكذب بشكل أفضل من الحقيقة نفسها. أتعرف ما قاله أبراهام لنكولن؟ توجد اقتباسات كثيرة على الإنترنت. قد يتعين علينا أن ننسى إنتاج أفلام وثائقية. ربما نستطيع أن نمزج بين الأنواع السينمائية، لتصبح هجينة إلى حد ما. قد يكون الفيلم الوثائقي الكاذب هو الشكل الفني السائد في زمننا الحاضر. أنا ألوم أورسن ويليز».

«المسلسل الإذاعي مسرح *الزئبق على الهواء مباشرة*»، قلت، أشاركها المتعة، «حرب العوالم. المذياع. كان ذلك منذ زمن بعيد. كان الناس لا يزالون يؤمنون بالحقيقة آنذاك».

فقالت: «*المغفلون*، لقد صدّقوا أورسن. كلّ شيء يبدأ من نقطة ما».

«اثنان وسبعون في المئة من جميع الجمهوريين يعتقدون أن الرئيس مسلم».

«إذا ترشّح حالياً غوريلا ميّت من حديقة حيوانات سينسيناتي للرئاسة، فإنه سيحصل على ما لا يقل عن عشرة في المئة من الأصوات».

«يقول الكثيرون في أستراليا بأن دينهم هو «*جِيدايْ*»، البطل في مسلسل حرب النجوم، في الإحصاء السكاني الذي هو شيء رسمي».

«الآن، إنّ الشخص الوحيد الذي تظن أنه يكذب عليك هو الخبير الذي يعرف شيئاً ما بالفعل. إنه الشخص الذي يجب عدم تصديقه لأنه من النخبة والنخبة هم ضدّ الناس، لذلك سيقللون من قدر الناس. إذا كنت تعرف الحقيقة فهذا يعني أنك من النخبة. فإذا قلت إنك رأيت وجه الله في بطيخة حمراء، فإن عدداً أكبر من الناس سيصدّقونك أكثر مما لو كنت قد وجدت الحلقة المفقودة، لأنك إذا كنت عالماً، فإنك تُعتبر من النخبة. إن تلفزيون الواقع كاذب ومزيف لكنّه ليس نخبوياً ولهذا السبب فإنك تصدقه. الأخبار: إنها من النخبة».

«لا أريد أن أكون من النخبة. هل أنا نخبوي؟»

«يجب أن تعمل على ذلك. يجب أن تصبح ما بعد الواقعي».

«وهل هذا مثل الواقعي تماماً؟»

«النخبة الواقعية. لا يصدّقها أحد. إن ما بعد الواقعية سوق واسع، منذ عصر المعلومات، استحدثه ترول الخرافي. هذا ما يريده الناس».

«أُنحي باللائمة على الإحساس بالحقيقة بالاستناد إلى شعور الفرد وليس إلى الأدلة والبراهين. ألوم ستيفن كولبرت».

هكذا كان مزاحنا يوم الأحد، لكن هذه المرة، أنا الذي كنت أملك لحظة الإضاءة. مشروعي الكبير الذي يدور حول آل غولدن، الذي يجب كتابته وتصويره بطريقة وثائقية، لكن يجب أن يُكتب السيناريو، وأن يؤديه ممثلون. ما إن خطرت ببالي هذه الفكرة حتى انبثق سيناريو الفيلم في رأسي، وفي خلال أسابيع معدودة، تجلّى في شكله الأوّلي، وفي نهاية السنة، اختير لمختبر سندانس لكتّاب السيناريو، وفي السنة التي تلتها... لكني بدأت أتجاوز نفسي من شدة حماستي. أعيد الشريط إلى يوم الأحد ذاك في الربيع، لأنه في وقت لاحق من ذلك اليوم، كان عندي موعد مع ابني.

نعم، كنتُ ألعب بالنار، لكن البرنامج الإنساني قوي، وهو يريد ما يريده. كانت فكرة عدم وجود تواصل مع لحمي ودمي تثير فزعي، فما إن غادرت البيت الذهبي، حتى بدأت أتزلّف بلا خجل لنيرو غولدن، الذي كان هذا الطفل أول ابن له منذ أمد بعيد، يسبب هاجساً أيضاً. أقول له إنني أريد أن أتأكد من أنّنا سنبقى على اتصال بعد كلّ اللطف الذي أبداه لي، وبعد كلّ الكرم الذي أسبغه عليّ كما لو كان فرداً في أسرتي، لذلك، أصبح مثل فرد في عائلتي (لقد حذّرتكم من أنّني عديم الحياء)، واقترحت عليه أن نواصل ممارستنا الجديدة في أن نلتقي لتناول وجبة طعام - أو احتساء الشاي، ربما؟ - في صالة الشاي الروسية. «أوه، وستكون فكرة رائعة لو أحضرت معك الطفل»، أضفت ببراءة. أُعجب الرجل العجوز بالفكرة، وهكذا أصبح بإمكاني أن أرى ابني الصغير وهو ينمو، ألاعبه، وأحمله بين ذراعيّ. كان نيرو يأتي إلى صالة الشاي مع الطفل ومربيته، وكانت المربية تعطيني الطفل من دون أيّ جدال، فألجأ إلى ركن في

المطعم. «إنه لشيء رائع أن تحبّ الصبي بهذا القدر»، قال لي نيرو غولدن، «أشعر كأنك تحبّ أن يكون لديك ولد. فتاتك رائعة. ربما يجب عليك أن تحبّلها».

ضممت ابني إلى صدري بقوة، وقلت: «حسناً، هذا الفتى الصغير أكثر من كاف لي الآن».

لكن أمّ الطفل لم تكن سعيدة بخطتي. «أفضّل أن تتوارى عن الأنظار»، اتصلت بي فاسيليسا لتقول لي ذلك. «فللصبي أبوان ممتازان يستطيعان أن يوفّرا له كلّ ما يحتاج إليه وأشياء من الطبيعي أنك لا تستطيع أن توفّرها له. لا أعرف حقيقة دوافعك، لكنني أظن أنها مالية. إنه خطئي، كان علينا أن نناقش الأمر. إذاً، حسناً، إذا كان في رأسك رقم معين فقل لي ما هو، ودعنا نرى إن كان يتوافق مع الرقم الذي أفكّر فيه أنا».

فقلت لها: «لا أريد نقودك. كلّ ما أريده هو أن أشرب الشاي أحياناً مع ابني».

أحدث كلامي هذا صمتاً استطعت أن أسمع فيه شكوكها وارتياحها في آن معاً. وأخيراً، قالت بغضب شديد: «حسناً، في جميع الأحوال فهو ليس ابنك».

في يوم الأحد ذاك، لاحظت شيئاً من الحيرة لدى سوشيترا لشدّة اهتمامي بالصبي. «هل هذا تلميح؟» سألتني بصراحتها المعهودة، «دعني أقول إن لديّ الكثير من العمل هنا ولا أريد أن يقف في طريقي طفل أمّ أخرى».

فقلت لها: «ماذا يمكنني أن أقول لك، فأنا أحبّ الأطفال الصغار، والشيء العظيم حول طفل شخص آخر، هو أنك عندما تنتهين من اللعب معه، فإنك تعيدينه إلى ذويه».

* * *

لم يدخل بيتيا إلى السجن. إذ إن عدم وجود أحد في الصالة، وعدم إصابة أحد، يعني أنّ الجريمة تُصنّف ضمن فئة حريق متعمّد من الدرجة الثالثة، جناية من الدرجة ج. وينصّ قانون نيويورك على أنّ الحد الأدنى لعقوبة جناية من الدرجة ج هي السجن من سنة إلى ثلاث سنوات، وتتراوح العقوبة القصوى من خمس سنوات إلى خمس عشرة سنة. وإذا كانت هناك ظروف مخففة، فيحق للقاضي أن يفرض أحكاماً بديلة تشمل فترة سجن أقل بكثير، بل ربما لا شيء على الإطلاق. ودفع «أفضل محامي دفاع جنائي في أمريكا» بنجاح بضرورة أخذ إصابة بيتيا بدرجة شديدة من التوحّد في الاعتبار، ولم يُثر جدال بأن *دافع الجريمة عاطفي* وهو دافع كان من الممكن أن يكون مجدياً في فرنسا مثلاً. وطُلب أن يجري بيتيا تقييماً نفسياً، يعقبه علاج، وأن يوضع تحت إشراف مجتمعي وأن يسدد الرسوم المطلوبة بالإضافة إلى دفع تعويض كامل عن الأضرار التي لحقت بالصالتين. وكلّف نيرو موراي ليت بملازمة بيتيا باستمرار، وتوقف المعالج عن معالجة جميع مرضاه الآخرين وانتقل إلى شقّة بيتيا ليتفرغ لحمايته لكي لا يؤذي نفسه ويعالج مشاكله العديدة. وقبلت المحكمة دور ليت مما سهّل الأمور. هذا من الجانب الجنائي، ومثل بيتيا أمام المسؤولين المشرفين عليه على النحو المطلوب، وطلب منه أن يجري فحصاً عشوائياً للمخدرات، ووافق على أن يُراقب إلكترونياً بسوار يوضع حول كاحله، وقبل شروط الاختبار الصارمة، وأدّى ساعات الخدمة الاجتماعية بصمت ومن دون تذمر، وعمل في صيانة المباني العامة والمحافظة عليها، وسُمح له بالعمل في داخل المباني بسبب رهابه المتجدّد من الأماكن العامة، وكان يرسم، ويصنع تماثيل من الجصّ، ويطرق بالمطرقة، من دون أن ينبس بكلمة، من دون تذمّر، بسلبية، منفصلاً عن جسده، أو هكذا كان يبدو، تاركاً أطرافه

تفعل ما يُطلب منها أن تفعله بينما كانت أفكاره تذهب إلى أماكن أخرى، أو إلى لا مكان.

أما مسألة التعويضات المالية فكانت أكثر تعقيداً. فقد رفع فرانيدي سوتوفوتش دعوى مدنية بشأن الأضرار، وأورد اسم نيرو بالإضافة إلى بيتيا، واستمرت الدعوى. ولم يرد اسم أوباه توور في القضية كلها. فقد تبين أن سوتوفوتش كان قد اشترى منها جميع أعمالها ودفع ثمنها سلفاً قبل الافتتاح، لذلك، كانت من ممتلكاته هو عندما شبّ الحريق، وكانت أوباه قد استلمت نقودها للتو. وكان هناك تأمين على صالتَي العرض، إلا أن هناك فجوة كبيرة، كما جادل محامي سوتوفوتش، بين ما ستدفعه شركة التأمين وقيمة أعمال توور لو كانت قد عُرضت في السوق. كما كانت الصالتان بحاجة إلى ترميم كبير، وستكون الخسارة كبيرة لعدم إقامة عروض أخرى بسبب ما حدث. وهكذا، ظلت القضية التي بلغت قيمتها ملايين الدولارات من دون تسوية بينما كانت المبالغ التي يكسبها بيتيا من التطبيقات التي يستنبطها ويبيعها تكفي لتسوية القضية برمتها - واستخدم محامو غولدن كلّ سبل التأخير التي يتيحها القانون بأمل أن يأتي سوتوفوتش أخيراً إلى طاولة المفاوضات لإبرام اتفاق يمكن تحمّله بسهولة أكبر، واستخدموا أيضاً جميع الثغرات القانونية الممكنة أو المرونة فيها (ربما بشروط أفضل) للإبقاء على بيتيا خارج السجن ريثما تتم تسوية الأمور المالية.

كان آبوو غولدن أول من حدس بفطرته بأن حريق بيتيا، مهما كانت النتيجة التي ستصل إليها الدعوى المدنية، قد ألحق ضرراً شديداً ببيت غولدن، بالإضافة إلى صالتيْ عرض سوتوفوتش. (وأنهى كذلك علاقته بفرانكي سوتوفوتش الذي اقترح بشكل غير رسمي أن عليه أن يجد صالة فنية جديدة). زرته في محترفه في ميدان يونيون

سكوير، وقدّم لي كوباً من الشاي الأخضر الصيني من هانغشو وصحناً مليئاً بقطع الجبن الإيطالي. «أريد أن أحدّثك كأخ»، قال، «كأخ فخري لأنك أنت كذلك الآن. انظر إلى عائلتنا. إنك تفهم ما أقوله؟ انظر إلى المسألة. لقد أصبحنا، يؤسفني أن أقول ذلك بصراحة فجة، مجرد حطام. إنها بداية سقوط البيت المرشد. لن أُفاجأ إذا تصدّع البيت في شارع ماكدوغال إلى النصف وتهاوى إلى الشارع. إنك تعرف قصدي؟ نعم. لديّ إشارات باقتراب النهاية».

لذتُ بالصمت. كان على وشك أن يتكلم، فقال: «رومولوس وريموس. هكذا يفكّر فينا دي. كان مشغولاً بالشعور بأنه مستبعد من ألعابنا إلى حدّ أنه لم ير كم كان الأمر قاسياً عليّ لأن أكون شقيق بيتيا، كم بذلت من الجهد لأمنحه طفولة جيدة، أو جيدة بقدر ما أستطيع، بسبب حالته. فقد لعبت بمجموعات القطارات وسيارات سكاليكستريك حتى كبرتُ لأنه كان يجد متعة في هذه الألعاب. لقد بذلنا جهداً كبيراً معه. وأبي أيضاً. لكن يبدو أننا فشلنا الآن، بعد أن حطّم وأحرق. حطّم وحرق صالتَي العرض. إنه محطّم إلى أشتات ويقبع هناك مع الأسترالي. من يعرف ما إذا كان من الممكن لملمته وتجميعه مرة أخرى. أما دي، فمن يعرف ما الذي يجري له أو لها الآن؟ لا أعرف؟ هل يعرف هو نفسه؟ أو هي؟ مجنون. بالمناسبة هل تعرف أنه لم يعد من المفترض أن تقول كلمة ’مجنون‘ بعد الآن؟ ولم يعد من المفترض أن تقول ’مختل العقل‘، أو أظن ’أبله‘. إذ تعتبر هذه الكلمات مسيئة للمصابين بمرض عقلي. توجد الآن كلمة سيّئة لهذه الكلمات السيّئة، أتعرف ذلك؟ ولا أنا. حتى لو كنت تقول، هذا الخراء مجنون، فإنك حتى لا تفكّر في الأشخاص المرضى عقلياً، بحق الله، لكنك لا تزال تسيء إليهم في جميع الأحوال. من أتى بكل ذلك؟ يجب أن يحاولوا أن يتعايشوا مع هذه الحالة لفترة من

الزمن ويروا إن لم يكونوا بحاجة إلى التنفيس عن مشاعرهم المكبوتة. انظر، إذا لم يكونوا بحاجة إلى أن يقولوا، نعم، أنا آسف، لكن العاقل شيء، والمجنون شيء آخر. أن لا يكون المرء مجنوناً شيء، لكن المجنون كائن موجود أيضاً. وإذا كان موجوداً فيجب أن نستخدم الكلمة. هذه هي اللغة. هل هذا صحيح أم أنني شخص سيّئ؟ هل أنا أبله؟»

تغيّر الموضوع فجأة. ففي أيام الاحتجاج الأخيرة في حديقة زوكوتي بارك، اختلف آبوو مع عدد كبير من مجموعة «*احتلوا*»، لإحساسه بالإحباط من فوضويتهم وعدم وجود قائد يقودهم، ولأنه قال: «إنهم مهتمون بالتشاوف أكثر من اهتمامهم بالنتائج. واللغة جزء من ذلك. اعذرني: فإذا نظّفت اللغة كثيراً فإنك تقتلها. الوسخ حرّية. عليك أن تترك قليلاً من الوسخ. التطهير؟ لا أحب سماع ذلك». (في فترة لاحقة من بحثي، التقيت بمجموعة من المحتجّين، لا يتذكّر معظمهم آبوو. والشخص الوحيد الذي تذكّره قال: «أوه، نعم، الرسّام الغني الذي كان يأتي إلى هنا ليكسب مصداقية في الشارع. لم أحبّ هذا الشخص قط»).

ظننت أنّ لخطاب آبوو الطويل أسباباً شخصية، لأنه لم يكن منطلقاً من الأفكار بشكل أساسي. *ابحث عن المرأة*، قلت لنفسي، التي انبعثت من فمه بعد لحظة، فقال: «أوباه. إنها سبب كلّ هذا، كما تعرف. انتبه لما تقول. لا تفه بأي حماقة. امش فوق قشر بيض. فقد تسقط كلّ خطوة فوق لغم أرضيّ. بوووم! لسانك في خطر كلّما فتحت فمك لتقول شيئاً. إنه أمر منهك جداً، يجب أن أقول لك».

«إذاً، ألم يعد يرى أحدكما الآخر؟»

فقال: «لا تكن غبياً. هل أستطيع أن أقول ذلك من دون الإساءة

إلى من هم أدنى ذكاء؟ حسناً، أقول لك. طبعاً فأنا أراها. إنها فتاة استثنائية لا أستطيع أن أتوقف عن رؤيتها. فإذا أرادتني أن أنتبه إلى ما أقول، مهما كان، حسناً، فإني أفعل ذلك، على الأقل في وجودها - ثمّ، لسوء الحظ، أنفجر غضباً، وأطلق سيلاً من الشتائم عندما لا تكون موجودة. لكنّي فعلت شيئاً، تمسّكت بها بعد أن دمّر أخي اللعين معرضها بالكامل. أعني معرضها الذي لم يبق منه الآن سوى خردة. أتعرف كم استغرقت من الوقت لإنجاز تلك الأعمال؟ أقصد، أشهر. طبعاً فقدت صوابها، وهو أخي، بحق الله. مرت فترة لم تعد تكلّمني. لكنّها أصبحت أفضل حالاً الآن. لقد هدأت. في الأساس هي شخص هادئ، شخص طيب. إنها تعرف أن لا علاقة لي بما حدث. هذا ما أقصده، لم نكن قط رومولوس وريموس، أنا وبيتيا. كنت أحاول أن ألملم شتاتها، حياتي العائلية، عندما كنت فتى، والآن فقد ولّت تلك الأيام، لقد تحطم كلّ شيء».

هزّ رأسه، وتذكّر موضوعه الأصلي. «أوه، نعم. اعذرني. لقد سلكتُ طريق الغضب قليلاً. سأعود الآن. ما أردت أن أقوله، في البداية، السبب الكامل الذي جعلني أجلس معك هنا لنتناول الشاي والجبن هو أن أسرتي كلّها محطمة، وأنت، شقيقي الذي ليس أخي، أنت الوحيد في الأسرة الذي أستطيع مناقشته في هذا الأمر. أخ يُشعل حريقاً متعمداً، والآخر لا يعرف إن كان أخي غير الشقيق أو أختي غير الشقيقة. وأبي، بالإضافة إلى أنه بدأ يطعن في السنّ، بل وربما بدأ يفقد صوابه، أقصد، فقده تماماً مع هذه المرأة، زوجته، أقصد حتى أنه يصعب قول هذه الكلمة، والآن هذا الطفل، حتى أنني لا أستطيع أن أعتبره أخي. أخي غير الشقيق. أخي غير الشقيق النصف روسي. يمكنني أن ألوم الطفل على كلّ ما يحدث. يأتي والعالم يتفكّك. إنه أشبه بلعنة. أقصد، إنه يجعلني أفقد صوابي،

وأنا العاقل. لكن أنا الوحيد الذي يتذمّر على ما يراه الجميع بأنه شيء طبيعي. لم أدعُكَ إلى هنا لأخبرك بكل هذا. أعرف أنّك لا تقتنع بمثل هذه الأشياء، لكن على الرغم من ذلك، أنصت إليّ. لقد بدأت أرى أشباحاً».

كانت نهاية فترة آبوو السياسية. كدت أضحك بصوت مرتفع. فلأول مرة في ذلك اليوم ألقيت نظرة على العمل الجديد الذي كان يقوم به، وغمرتني السعادة عندما رأيت أنّه تخلص من تأثير الفنانين السياسيين - *ماكينة حركة السحاقيات*! أوتابنغا جونز، كوكو فوسكو - وعادت لوحاته وأيقوناته السابقة الأكثر غنى وحيوية التي استمدّها من التقاليد الصوفية العالمية. وما لفت انتباهي بشكل خاص لوحة مشهد طبيعي رسمها بألوان برتقالية وخضراء براقة، ولوحة بورتريه ثلاثية بالحجم الحقيقي لساحرته الأثيرة، *ماي - دي- سانتو*، من غرينبوينت، تحيط بها الإلهتان المفضّلتان لها أوريشا وأولودوماري. لم تكن الصوفية والمخدّرات بعيدتين كثيراً عن أعمال آبوو، وربما كان هذا سبب رؤيته تلك الرؤى. «هل ترسم آياهواسكا الآن؟» سألته، فأجاب آبوو متظاهراً بأنه صُدم «هل تمزح؟ لن أخون *ماي* ورفاقها ما دمت حياً» (يرتبط استخدام آياهواسكا بالممارسات الشامانية المتعلقة بدين *سانتو دايم* في البرازيل، وأطلق البعض على المخدر اسم *دايم* تكريماً لذلك القديس). «في جميع الأحوال، فإن ما أراه ليست رؤى الله».

في بعض الأحيان كان يصعب عليّ أن أعرف ما إذا كان يتكلّم بشكل حرفي أم مجازي. «تعال وانظر»، قال. في الجانب الآخر من صالة العرض، انتصبت لوحة جنفاص كبيرة مكسوة بغطاء تناثرت عليه آثار الطلاء. عندما أزاح الغطاء رأيت مشهداً استثنائياً: مشهداً واسعاً ومفصّلاً لمانهاتن خلت من العربات والمشاة، مدينة خاوية

تسكنها أطياف نصف شفافة، الذكور يرتدون ثياباً بيضاء، والإناث يرتدين ثياباً زعفرانية اللون: بشرتهم خضراء اللون، بعضهم يسبح قريباً من الأرض، وبعضهم يحلق في الفضاء. إذاً، نعم، أطياف، لكن أطياف من؟ أطياف ماذا؟

أغمض آبوو عينيه وأخذ نفساً. ثمّ، زفر، وابتسم ابتسامة خفيفة، وفتح بوابات الماضي.

قال آبوو: «منذ أمد بعيد، سيطر علينا بالمال، بالنقود التي كان يعطيها لنا لكي نعيش، النقود التي وعد بأنها نصيبنا، وكنا ننفّذ كلّ ما يطلبه منا. لكن كان هناك شيء أقوى من النقود بكثير أيضاً. هكذا كانت فكرة العائلة. هو الرأس ونحن الأطراف والجسد نفعل ما يأمر الرأس بأن نفعله. لقد رُبينا هكذا: بمفاهيم المدرسة القديمة. الولاء المطلق، الطاعة التامة، لا جدال. لقد انتهى ذلك في النهاية، لكن ذلك استمر زمناً طويلاً، لفترة طويلة حتى كبرنا. لسنا أطفالاً لكن لفترة طويلة كنّا نقفز عندما يقفز، نجلس عندما يقول اجلسوا، نضحك ونبكي عندما يقول لنا ابكوا أو اضحكوا. وقد انتقلنا إلى هنا، لأنه قال ذلك، الآن ننتقل. لكن كانت لدينا جميعاً أسبابنا لمسايرة الخطّة. وبالطبع فإن بيتيا بحاجة إلى مساعدة كبيرة. أما دي، حتى لو لم يكن يعرف ذلك، فإن أمريكا هي طريقه إلى هذا التحوّل الذي طالما أراده، أو لم يرده، لا أعرف، أم أنه لا يعرف، لكن على الأقل، يستطيع أن يستكشف ذلك هنا. أما أنا، فلديّ أشخاص أستطيع أن أخرج وأمضي وقتاً معهم. علاقات متشابكة. ليست مالية، مع أنه كانت عليّ منذ فترة ديون من القمار. لكني اجتزت تلك الفترة. لكن كانت هناك صعوبات رومانسية. كانت هناك امرأة حطّمت قلبي، امرأة أخرى مجنونة بعض الشيء، مجنونة حقيقية معظم الوقت، لكن ليس دائماً. ربما كانت ستشكل خطراً عليّ، لا

جسدياً، وإنما في القلب؛ وفتاة ثالثة أحبّتني والتصقت بي كثيراً فلم يعد عندي مجال أتنفّس فيه. لقد تركتهن كلّهن أو ربما هنّ اللاتي تركنني، لا يهم، لكنهن لم يبتعدن عني. لا أحد يبتعد أبداً. تحلّقن حولي مثل طائرات هليكوبتر تسلّط عليّ أضواء كاشفة براقة وقد علقت داخل أشعّتهن المسلّطة عليّ مثل مجرم فار. ثمّ قال لي أحد الأصدقاء، كاتب، كاتب جيّد، قال شيئاً أرعبني. فقد قال: اعتبر الحياة رواية، لنقل رواية مؤلفة من أربعمئة صفحة، ثمّ تخيّل كم صفحة في كتاب قصّتك قرأت. وتذكّر أن إدخال شخصية رئيسية جديدة بعد نقطة محددة ليست فكرة جيدة، فبعد نقطة محددة تكون قد التصقت بالشخصيات التي صنعتها. لذلك، قد يتعين عليك أن تفكّر في وسيلة ما لإقحام تلك الشخصية الجديدة قبل فوات الأوان، لأن الجميع يتقدّمون في السنّ، حتى أنت. قال لي ذلك مباشرة قبل أن يقرر أبي أننا يجب أن نرحل. لذلك عندما اتّخذ أبي قراره هذا، قلت في نفسي، هذا عظيم. فإن هذا أفضل من محاولة إقحام شخصية جديدة هنا، حيث تحوم صديقاتي السابقات حولي بأضوائهن الكشافة. بهذه الطريقة أستطيع أن أرمي الكتاب كلّه وأبدأ بكتابة قصّة جديدة. لأن ذلك الكتاب القديم لم يكن جيداً في جميع الأحوال. وهكذا فعلت، وها أنا ذا، وبدأت الآن أرى أطيافاً، لأن المشكلة هي أنك إذا حاولت أن تهرب فإن مشكلة أخرى تبرز أمامك».

فهمت الآن أطياف النساء التي تحوم مثل الهليكوبتر في اللوحة، ورأيت هيئة صغيرة سوداء لرجل يجثم منكمشاً تحتهن، الهيئة الظلّ الوحيدة في هذه اللوحة من دون ظلال. الرجل المسكون وأشباح الماضي التائهة تطارده. وأدركت الآن أن الحاضر ليس مستقراً، فالبنايات مائلة ومشوهة، كما لو كانت تُرى من وراء لوح زجاج قديم مغبش. وذكّرني مشهد المدينة بفيلم الرعب *خزانة الدكتور كاليغاري*.

وأعاد ذلك لي على الفور تصوري المبكر بأن نيرو غولدن هو المجرم المحترف دكتور *مابوس*. لم أثر هذا الموضوع، لكنني سألته عن *المدرسة التعبيرية الألمانية*. فهزّ رأسه وأجاب، «لا، التشويه ليس مرجعياً. إنه حقيقي». أصبحت لديه مشكلة في الشبكيّة، تنكّس بقعي، «لحسن الحظ من النوع الرطب، لأنه لا يوجد علاج للنوع الجاف، فتفقد بصرك، وهذا كل شيء. ولحسن الحظ أيضاً، في العين اليسرى فقط. فإذا أغمضتُ العين اليسرى فإن كلّ شيء يبدو طبيعياً. أما إذا أغمضتُ العين اليمنى فإن العالم يصبح هكذا»، ووجّه إحدى إبهاميه إلى اللوحة، وأضاف، «في الواقع أظن أنّ العين اليسرى هي التي ترى الحقيقة، إنها ترى كلّ شيء سواء أكان محرّفاً أم مشوّهاً. في الواقع فإن كلّ شيء هو هكذا. إنّ العين اليمنى هي التي ترى خيال الحالة الطبيعية. لذلك، لديّ الحقيقة والأكاذيب، عين واحدة لكلّ منها. هذا شيء جيد».

على الرغم من طريقته التهكمية المعتادة، رأيت أنه كان في ضيق شديد. «الأشباح حقيقية»، قال، مستجمعاً قوته. «لسبب ما أشعر بأنني أصبح في حال أفضل عندما أقول ذلك لشخص لا يؤمن بالروحانيات مثلك» (كنت قد قلت له مرّة أنني أظن أنه يجب منح كلمة *روحاني* التي أصبحت تطبّق في وقتنا الحالي على كلّ شيء بدءاً من الدين حتى التمارين الرياضية وعصير الفواكه، فترة استراحة، ربما لمئة سنة أو قرابة ذلك) «ولا علاقة لها بالمخدر. أقسم لك. إنها تظهر هكذا، في منتصف الليل وفي منتصف النهار أيضاً، سواء أكنت في غرفة النوم أم في الشارع. ليست مصمتة أبداً. يمكنني أن أرى من خلالها. في بعض الأحيان تصدر طنيناً، طقطقة، تتكسّر مثل صورة فيديو مصابة بعطب، وفي أحيان أخرى تبدو شديدة الوضوح ونقية. لا أفهم. إني أخبرك بما أراه فقط. أشعر أحياناً بأنني أفقد صوابي».

«قل لي كيف تحدث بدقة»، قلت.

فقال: «أحياناً لا أرى شيئاً، وأحياناً أسمع أشياء فقط. كلمات يصعب تبيّنها، وأحياناً تكون شديدة الوضوح أيضاً. وفي بعض الأوقات، تظهر صور أيضاً. والغريب أنها لا تكلّمني بالضرورة. صديقاتي في الماضي اللاتي كن يحمن حولي، نعم، بالتأكيد، لكن في صور أخرى يواصلن حياتهن وأُستبعَد من حياتهن، لأنني أبعدت نفسي، ويتملكني إحساس عميق بأنني ارتكبت خطأً. كلّهن من الماضي، أتفهم؟ كلّهن». تلاشت الابتسامة من على وجهه الآن. بدا منزعجاً جداً. ثم قال: «لقد درست رؤية الرؤى: جان دارك، القدّيس يوحنا. هناك أوجه شبه. أحياناً تكون مؤلمة. وأحيانا يبدو لي أنها تنبثق من الداخل، من منطقة السرة، تُقذف إلى خارج الجسم. وفي أحيان أخرى، تبدو خارجية تماماً. ثم يفقد المرء وعيه في أحيان كثيرة. إنها عملية منهكة. هذا ما يجب أن أقوله لك. قل لي ما رأيك».

«رأيي غير مهم»، قلت، «قل لي لماذا يحدث ذلك في رأيك».

فقال: «أظن أنّني غادرت بطريقة سيئة. كنت في حالة مزرية. غادرت من دون أن أشعر بالسلام مع نفسي. هنا ستجد صعوبة في الاتفاق معي. إن الأرواح المألوفة غاضبة منّا، آلهة المكان. هناك طريقة صحيحة وطريقة خاطئة للقيام بهذه الأشياء، وأنا، نحن، كلّنا، مزّقنا أنفسنا، مزّقنا زاوية الصفحة التي كنا نقف عندها، وهذا ضرب من العنف. من الضروري أن نريح الماضي. يتملكني إحساس قوي الآن بأنني لا أستطيع أن أرى طريقي إلى الأمام. يخيّل إليّ أنه لا يوجد طريق إلى الأمام. أو، لكي يكون هناك طريق إلى الأمام، يجب أن تكون هناك أولاً رحلة إلى الوراء. هذا ما أراه».

«عمَّ تتحدّث؟» سألته، «أقصد، هل يمكنك أن تقدّم قرابين

لاسترضاء من يفعل ذلك؟ إنها مياه عميقة بالنسبة إليّ. لا أستطيع أن أشعر بالقاع».

«يجب أن أعود»، قال، «في جميع الأحوال أوباه تريد أن تزور. لذلك، فإني أعتبرها رحلة سياحة وعلاج للحنين إلى الوطن في آن معاً. اعتبرها حاجة لي لأكتشف إن كان يوجد *هناك* بالنسبة إليّ. عندها لا يتعين عليك أن تعرّض وجهة نظرك العقلانية للخطر»، قال هذا بشيء من الغضب. لكنه أتبعها بابتسامة عريضة بهدف الاعتذار والتعويض عن حدّة نبرته.

«ماذا سيحدث برأيك إذا لم تذهب؟»

فقال: «إذا لم أذهب، فإني أظن أن قوّة سوداء من الماضي ستطير وتعبر العالم وقد تدمّرنا كلنا».

«أوه».

«قد يكون قد فات الأوان. قد تكون القوّة السوداء قد اتّخذت قرارها في جميع الأحوال. لكني سأحاول. وفي الوقت نفسه، تستطيع أوباه أن تتمشّى في شارع مارين في المساء وترى الجنائن المعلقة في مالابار هيل وتزور أحد استوديوهات السينما، وقد نذهب لإلقاء نظرة على ضريح تاج بيبي في أغرا، لم لا».

«هل ستسافر قريباً؟»

فقال: «الليلة، قبل أن يفوت الأوان».

(٢٣)

كلّما سمعت شيئاً عن ماضي العائلة، أدركت الفجوات الموجودة في قصة آل غولدن. فهناك أشياء لم تُحكَ من قبل، ويصعب معرفة كيف يمكن اختراق الحجاب الذي سقط على القصّة. وبدا آبوو خائفاً من شيء، لكن مهما كان ذلك الشيء، فهو ليس شبحاً. وبدا أن ظهور هياكل عظمية في الخزانة أمر مرجح. ووجدت نفسي أفكّر، لا لأول مرة ولا لآخر مرّة، في القصّة التي رواها لي نيرو غولدن عندما كنا في صالة الشاي الروسية في أول زيارة لنا إليها، قصّة «دون كورليون».

قلت لسوشيترا في وقت متأخر من ذلك اليوم، «أرجو أن أرافقهما في رحلتهما. قد تكون رحلتهما هذه جزءاً هاماً من القصّة».

«إن كنت تعدّ فيلماً تسجيلياً ملفقاً الآن»، قالت، «إذاً هيا امض واختلقه».

صُدمتُ قليلاً «اختلقه؟»

فقالت: «لديك مخيّلة. فتخيّله».

قصّة غولدن، تذكّرتُ. بالنسبة إلى الرومان، فهي قصّة طويلة، وهمٌ متوحش. كذبة.

* * *

هكذا حدث، ولم يحدث هكذا، أن عازف السيتار العظيم،

رافي شانكار، لم يعزف طوال حياته إلّا على أربع آلات سيتِار، ودرّب جورج هاريسن في فرقة البيتلز على واحدة من تلك الآلات الأربع، وكان يدرّبه في أحد أجنحة الفندق الكبير القريب من الميناء. لقد ذهب رافي شانكار أما آلة السيتار فقد حُفظت في صندوق زجاجي حتى يراه الزوار الذين ينزلون في الجناح. وبعد العملية الإرهابية الوحشية أعيد ترميم الفندق الكبير الذي مكّنه هيكله الحجري القوّي من الصمود، وأصبح الديكور في داخل الفندق أجمل بكثير مما كان عليه في الماضي، لكن نصف الغرف كانت تظل فارغة. وانتصبت خارج الفندق الكبير حواجز وكاشفات معادن وجميع أنواع أجهزة الأمن التي تدعو للرثاء والدفاعات التي تذكّر بالرعب. أما في داخل الفندق، فقد تدنت المبيعات في العديد من المحلات المشهورة في أروقة التسوّق في الفندق بنسبة خمسين في المئة أو أكثر. وكان خوف الناس ناجماً عن العملية الإرهابية، مع أن الكثيرين كانوا قد أعربوا عن عزمهم لدعم الفندق الكبير القريب من الميناء في أثناء ترميمه وانبعاثه من جديد، كانت لغة الأرقام القاسية تقول إنها لم تكن كافية. ولم يعد الأزواج والسيدات من الطبقة الراقية يحتسون الشاي ويتناولون الوجبات الخفيفة في الرواق المطلّ على البحر، وبدأت أعداد كبيرة من السيّاح الأجانب يذهبون إلى أماكن أخرى. بإمكانك إصلاح نسيج المبنى لكن الضرر الذي لحق بسحره بقي.

ما سبب وجودي هنا، أنا الرجل الذي يسمّي نفسه الآن آبوليوس غولدن، قال لأوباه توور حينما كان سيتار رافي شانكار يستمع إلى ما يقوله. هذا هو المبنى الذي ماتت فيه أمّي. هذه هي المدينة التي توقّفت فيها عن الحبّ. هل أنا مجنون حقاً لكي أؤمن بالأشباح وأطير في أنحاء العالم؟ تعويذة لطرد الأرواح الشريرة؟ يا له من غباء. كما لو أنني أنتظر حدوث شيء. ماذا يمكن أن يحدث؟ لا شيء. لنصبح مثل

السيّاح ونذهب لزيارة البيت. لنذهب إلى مقهى ليوبولد لنحتسي القهوة ولنزر متحف بهاو داجي لاد لكي نرى الأعمال الفنية المعروضة فيه، ولنزر أيضاً متحف أمير ويلز الذي أرفض أن أسمّيه متحف تشهاترباتي شيفاجي لأنه لم يظهر أي اهتمام بعرض أعمال فنية. ولنتناول الطعام الذي يباع في الشارع على شاطئ تشوباتي ونُصاب بتلبُّك في المعدة كما يحدث للأجانب الحقيقيين. ولنشترِ أساور فضّية في سوق تشور بازار، ونشاهد أفاريز الأب كيبلنغ، ونتناول سرطان البحر بالثوم في كالا غودا، ولنحزن لأن بيت *الإيقاع* قد أُغلق ومقهى سماور أيضاً. ولنذهب إلى *بلو فروغ* لنستمع إلى الموسيقى، وإلى *آير* لكي نرى المشهد من ناطحة السحاب، وإلى أوروس لنرى البحر، وإلى ترايست لنرى الأضواء، وإلى تريلوجي لنشاهد الفتيات، وإلى هايب لنسمع الضجيج. اللعنة. ها نحن هنا. لنفعل ذلك.

اهدأ، قالت، تبدو متحمساً للغاية.

سيحدث شيء، قال، فقد سُحبتُ إلى العالم لسبب.

في الرواق، امرأة رائعة الجمال ارتمت عليه وصاحت، غروتشو! هل عدت! ثمّ رأت الحسناء الصومالية الفارعة الطول ترمقها. أوه، اعذريني، قالت. كنت أعرفه منذ أن كان صبياً. كنا نسمّي شقيقه الأكبر *هاربو*. ونقرت على صدغها. الصبي المسكين. وكنا نسمّي هذا غروتشو لأنه كان دائم التذمر ويلاحق النساء.

حدّثيني عن ذلك، قالت أوباه توور.

يجب أن نقيم حفلة! قالت المرأة الفاتنة. اتصل بي يا عزيزي! اتصل بي! سأدعو الجميع. خرجت بسرعة، وراحت تتحدث في هاتفها الخليوي.

حاجبا أوباه توور استفسرا من آبوو.

لا أذكر اسمها، قال. كأنني لم أرها في حياتي.

غروتشو، قالت أوباه توور، ضاحكة.

نعم، أجاب. وكان دي يُسمّى تشيكو. كنّا إخوة ماركس المنايك. تناولي بوظة توتسي فروتسي هنا. لا أريد أن أنضم إلى أيّ ناد يقبلني كعضو. يوجد هذا في جميع العقود، هذا ما يطلقون عليه بند سلامة العقل. ها ها ها... لا تستطيعون خداعي. لا يوجد سانتا كلوز. ما هو المبلغ الذي تطلبونه حتى يقع المرء في فتحة مجاري مفتوحة؟ رسوم الدخول فقط. أمضيت أمسية رائعة، لكن ليس هذا هو الشيء المهم. سأقتلك لقاء نقود. ها ها. لا، أنت صديقي. سأقتلك من دون مقابل. يستحق ذلك أن أجري حول العالم حتى أهرب.

يستحق أن تقوم بالرحلة هنا، قالت. فأنا أعرف أشياء عنك لم أكن أعرفها، ولم نغادر الفندق بعد.

أبحث عن فتاة مثلكِ، قال متبرماً. لا أنتِ، وإنما فتاة مثلك.

قطع.

* * *

ما إن ابتعدا أكثر من بضع خطوات في شارع أبولو باندر نحو البوابة حتى توقّفت أوباه ولفتت انتباه آبوو إلى أربعة رجال في مظهر يكاد يكون هزلياً ينضحون عرقاً يعتمرون قبعات ويرتدون بدلات سوداً وقمصان بيضاً ويضعون ربطات عنق سوداء ضيّقة، ونظارات شمسية، سار اثنان منهم خلفهما وسار اثنان في الجانب المقابل من الشارع.

يبدو أن كلاباً تتبعنا، قالت، أو من فرقة الأخوة بلوز.

لدى مواجهتهم، أجاب الرباعي باحترام. يا سيدي نحن شركاء بعض شركاء أعمال والدك العظيم، قال الرجل الذي يحمل شبهاً

كبيراً للممثل كوينتن تارانتينو بأنه «*السيّد براون*». «لقد كُلّفنا بدقة بمهمّة حمياتك الشخصية، وأُمرنا بأن نؤدي ذلك بأقصى درجات الدقة والسرية».

من كلّفكم؟ سأل آبوو، منزعجاً، مرتاباً، لا يزال متذمّراً.

سيدي، والدك المحترم هو الذي كلّفنا بذلك من خلال القنوات. لم يكن والدك الموقر غافلاً عن قرارك بالعودة إلى هنا، وعندما عرف أنك عدت فعلاً أصبح مهموماً بأمر سلامتك، ويرجو أن يكون كلّ شيء على ما يرام.

إذاً أرجوك أن تبلغ والدي الموقر، من خلال القنوات نفسها، بأنني لست بحاجة إلى رعاية كالأطفال، وعندما تفعلون ذلك، يمكنكم أيها السادة المحترمون أن تنصرفوا بكل لطف.

بدا السيد براون حزيناً أكثر من أي وقت مضى. وقال ليس من مهمتنا أن نصدر أوامر، وإنما علينا أن نطيع فقط.

كان هذا مأزقاً. أخيراً، هزّ آبوو كتفيه باستهجان واستدار، ثم قال: ابقوا بعيدين. لا أريد أن تكونوا ضمن مجال رؤيتي. فإذا أدرت رأسي، اقفزوا بعيداً. هيا ابتعدوا عن مجال رؤيتي. وهذا ينطبق على صديقتي السيّدة. هيا ابتعدي.

أطرق السيد براون رأسه بنوع من حزن لطيف. وقال: حسناً يا سيدي، سنبذل جهدنا.

وقفا وراحا ينظران إلى المراكب في الميناء. يا للسخافة، قال آبوو. أفهم أنّه يكلف أحداً بمتابعة بيتيا في مشاويره الطويلة، لأن ذاك بيتيا، لكن عليه أن يبدأ ويعاملني كشخص بالغ.

بدأت أوباه بأسلوبها الذي يصعب استثارته، تضحك، ثم قالت: في طريقنا إلى هنا، إلى الهند، ظننت أنني سأُصدم بالفقر، ولعله أسوأ مما هو في الوطن، أو أنه بالدرجة نفسها من السوء لكن

بطريقة مختلفة، في جميع الأحوال، يحتاج الأمر إلى تسوية. لم أكن أدرك أننا سنسير إلى داخل فيلم بوليوود في اللحظة التي نضع فيها أقدامنا في المدينة.

قطع.

* * *

عندما عادا إلى الفندق بعد العشاء، كان هناك رجل بانتظارهما في بهو الفندق، ذو شعر فضي، عُقابي الشكل، يرتدي بدلة سكرية اللون ويضع ربطة عنق نادي الكريكت، ويحمل بيده قبعة بورسالينو. كان يتكلّم لغة إنكليزية كالتي يتكلّمها أبناء الطبقة الإنكليزية الراقية مع أنه لم يكن إنكليزياً.

اعذرني، أنا آسف جداً. هل تتكرم، هل تمانع، إذا، آمل ألا تظن أنه تطفّل، تجرأت وطلبت بضع دقائق من وقتك.

حول ماذا؟

هل يمكننا، هل من الممكن، في مكان خاص أكثر، هل يمكنني أن أكون جريئاً إلى حدّ أن أطلب، ربما؟ بعيداً عن العيون والآذان؟

صفّقت أوباه توور بالفعل. أظنّ أنّك أعددت كلّ هذا، قالت لآبوو. لكي تسليني وتخدعني حتى أظن أن الأمور تسير هكذا دائماً. طبعاً، يا سيدي، قالت للرجل الذي يرتدي بدلة سكرية اللون. سيكون من دواعي سرورنا أن نرحّب بك في جناحنا.

تعتيم.

* * *

في الجناح. وقف الرجل بارتباك إلى جانب الصندوق الزجاجي الذي يوجد فيه سيتار رافي شانكار، يداعب حافة قبعته، ويرفض الطلب بأن يجلس.

أنا واثق من أنك لن تعرف اسمي، قال. ماستان. أنا السيد ماستان.

لا، آسف، لا أعرف هذا الاسم، قال آبوو.

أنا لست شابّاً، أجاب السيد ماستان. لقد منحني الله أكثر من سبعين سنة. لكن قبل نصف قرن تقريباً عندما كنت شرطياً شاباً في قسم التحقيقات الجنائية، كانت لديّ، أقول، علاقة مع أحد شركاء والدك.

شريك آخر لشريك، قال آبوو. يا له من يوم بالنسبة إليهم.

سامحني لسؤالي، قال السيد ماستان. هل أخبرك والدك الموقر عن شريكه، الرجل الذي يشير إليه مداعباً باسم دون كورليون؟

لاذ آبوو الآن بالصمت، صمت عميق إلى درجة أن الصمت أصبح شكلاً من أشكال الكلام. هزّ السيد ماستان رأسه بطريقة تبجيلية، وقال غالباً ما تساءلت، إلى أي مدى يعرف أبناء والدك عن علاقات أعمال والدهم وصفقاته.

أنا فنان، قال الفنان. ولا أهتم بالأمور المالية.

طبعاً، طبعاً. هذا شيء طبيعي. فالفنان يعيش في مستوى أعلى ولا يهتم بالربح القذر. طالما أعجبتُ أنا نفسي بالروح البوهيمية، لكن للأسف، فهي ليست من طبيعتي.

لاحظت أوباه ذلك، بعد أن استوعبت عبارات «ضابط شرطة» و«دون كورليون». كان آبوو يصغي باهتمام شديد.

هل لي أن أحدّثك عن علاقتي بشريك والدك، دون؟ سأل السيد ماستان.

تفضل.

بعبارة، يا سيدي، لقد دمّر حياتي. كنت ألاحقه، يا سيدي، لجرائمه وجنحه الخطيرة المختلفة. وإذا كان بوسعي أن أقول ذلك،

كنت أتابعه وأتعقبه. وأيضاً، بما أنني كنت شاباً، فلم أكن قد اكتسبت حكمة المدينة بعد. لم يكن بالإمكان رشوتي يا سيدي، وكنت رجلاً عفيفاً. لا شك أن أشخاصاً كثيرين كانوا يقولون إنني عائق، عقبة تمنع تزييت عجلات المجتمع من أن تسير بيسر وسهولة. وربما كنت كذلك، لكن هكذا كنت في ذلك الوقت. شخص لا يقبل الرشوة، عفيف، عقبة. فكلّم شريك والدك أشخاصاً أقل عناداً في الجهات العليا فأُبعدت عن القضية ومُنعت من متابعتها. هل سمعت الشاعر أوفيد، يا سيدي؟ لقد أغضب أغسطس قيصر فنُفي إلى البحر الأسود ولم يرجع إلى روما قط. هكذا كان مصيري أنا أيضاً، أن أعيش لسنوات عديدة باسترخاء من دون أي أمل للترقية في بلدة صغيرة تقع في أعالي الجبال، في هيماتشال براديش، التي تُعرف بإنتاجها الضخم من الفطر والذهب الأحمر، أي البندورة، ومن أجل الواقع في زمن الأساطير كانت المكان الذي نُفي إليه باندافا، أبناء باندو الخمسة. أنا أيضاً كنت باندافا صغيراً في منفاي في منطقة الفطر والبندورة. وبعد عدة سنوات انقلب حظّي رأساً على عقب. وكما شاءت الأقدار، فقد رأى رجل محترم من البلدة لن أبوح باسمه هنا أنني رجل صادق، فتركت العمل في جهاز الشرطة ورحت أشرف على محصول الفطر والبندورة لأمنع حدوث خسارة بسبب التهريب. ومع مرور الزمن، يا سيدي، غادرتُ الجبال وأحرزت نجاحاً في مجال الأمن والتحقيقات. أشكر الله أن عملي كان جيداً. وأنا الآن شخص متقاعد، وحلّ أبنائي محلي في العمل، لكنني أنتبه جيداً إلى ما يجري حولي يا سيدي، هذا ما أفعله.

لماذا أتيت إلى هنا لتخبرني بكل ذلك، سأل آبوو.

لا، لا يا سيدي، أنت مخطئ، وأنا الشخص الذي يجب أن يُلام لأنني تكلّمت كثيراً وأطلت ما كان يجب أن يكون لقاء قصيراً.

لقد جئت لأخبرك بشيئين اثنين. الأول، أنه على الرغم من أنني لم أعد شرطياً ولم يكن دون كورليون الذي دمّر حياتي، فإني لا أزال شخصاً يسعى إلى تحقيق العدالة.

وما علاقتي بكل ذلك؟

في ما يتعلق بوالدك العظيم، يا سيدي. فهو في الأعلى، في مكان أعلى بكثير مما أستطيع أن أحلم بأن أبلغه في حياتي، لكن حتى في شيخوختي، بعون الله وبقوة القانون، سأُنزله من مكانه العالي. فهو شريك عدوي دون ومتواطئ في أعماله وهو الذي بقي، ولذلك.

جئتَ لتهددني وتهدد عائلتي. أظن أنك أطلت زيارتك.

لا يا سيدي، مرة أخرى، لقد قلت أشياء كثيرة واستطردت عن النقطة الأساسية. فأنا لم آت إلى هنا لأهدد. بل أتيت لأحذّر.

ممَّ؟

عائلة لها علاقات وارتباطات كثيرة بالسادة، قال السيد ماستان، ثمّ، ومن دون أي كلمة وداع غادر. ربما خلّفت هذه العائلة وراءها، في هذه المدينة، أشخاصاً أسيء إليهم. أشخاص أسيء إليهم ولا تزال هناك أعمال لم تُنجز بعد. وربما، أفكار بأنهم تُركوا في وضع سيّئ بسبب تصرفات والدك الموقر. والأشخاص الذين أسيء إليهم ليسوا أشخاصاً مرموقين مثل والدك. أو ربما كانوا كباراً في منطقتهم، لكنهم صغار في العالم. يملكون قوة ونفوذاً في منطقتهم، لكنّها تظل قوة محليّة. لعل والدك تجاوزهم جميعاً الآن. لكنّك، ببراءة أو بحماقة أو بعجرفة أو بتهوّر، عدت الآن.

أظن أنك يجب أن تذهب، قالت أوباه تورور. وعندما انحنى السيد ماستان وخرج، قالت لآبوو أظن أننا يجب أن نذهب أيضاً. في أقرب وقت ممكن.

زبالة، قال. إنه مجرد رجل غاضب حاقد يحاول أن يثبت نفسه ثانية. إنه تهديد فارغ. لا معنى له.

أريد أن أذهب في جميع الأحوال. انتهى الفيلم.

وفجأة توقّفا عن الجدال. نعم، قال. وافقت. لنذهب.

قطع.

***

عزف جورج هاريسن على آلة السيتار أغنية «*في داخلك، في خارجك*» و «*غداً لا يعرف أبداً*»، و «*الغابة النرويجية*»، و «*أحبّك*». كانت جميع الرحلات الجوية قد غادرت في منتصف الليل، لذلك، عندما حزما حقائبهما وأصبحا جاهزين، كان قد حلّ الظلام وجلسا في العتمة وراحا يتخيّلان جورج ورافي شانكار جالسَين حيث يجلسان الآن، يعزفان مقطوعات موسيقية. وللحظات طويلة، لم يكلّم أحدهما الآخر، لكنه بدأ يحدّثها.

سأخبركِ بشيء قاله لي أبي عندما كنت صغيراً، قال آبوو. قال لي يا بني، إن أعظم قوة في حياة هذا البلد ليست الحكومة أو الدين أو الغريزة التجارية. إنها *الرشوةوالفساد*. قالها كأنها كلمة واحدة، مثل كلمة الكهرومغناطيسية. ومن دون *الرشوةوالفساد* لا يتم شيء. *فالرشوةوالفساد* هي التي تزيّت عجلات الأمّة، وهي الحلّ لمشاكل أمّتنا أيضاً. إذا كان هناك إرهاب؟ اجلس على الطرف الآخر من الطاولة مع رئيس الإرهابيين ووقّع له شيكاً فارغاً وادفعه له عبر الطاولة وقل له ضع الأصفار التي تريد. وعندما يدسّ الشيك في جيبه تنتهي المشكلة لأننا نفهم في بلدنا أنه يوجد شرف في *الرشوةوالفساد*. فعندما يُشترى أحدهم، يظلّ مُشترى. كان أبي واقعياً. فعندما يعمل أحدهم في مستواه، فلا بد أن يأتي أحد أو آخر ويقرع بابك، إمّا ليعرض عليك رشوة أو يطلب منك رشوة. لا توجد

وسيلة تجعلك نظيف اليد. وفي أمريكا، لا يختلف الأمر كثيراً، قال لي أبي بعد أن عبرنا المحيطات. هنا يوجد أيضاً ليتل تشيكن، وليتل آرتشي، وكريزي فريد، وفات فرانكي. وهم يؤمنون بالشرف أيضاً. لذلك قد لا تختلف العوالم كثيراً عمّا ندّعي.

حدّثك عن هذا.

ليس كثيراً، قال آبوو. لكنه ألقى علينا خطاب *الرشوةوالفساد* مرّة أو مرّتين. سمعناه كلنا عدة مرّات وعرفناه جيداً. وما وراء ذلك لم أتدخّل.

ما هو شعورك الآن بعد أن قررنا المغادرة بسرعة. اجتمعنا، ماذا، شخصان. لم تُرني المدرسة التي درست فيها. لم نشتر فيلم فيديو مقرصن. لم نأت إلى هنا بعد.

أشعر بالارتياح.

لماذا تشعر بالارتياح؟

لم أعد بحاجة إلى أن أكون هنا.

وكيف تشعر حول شعورك بالارتياح؟ بأنّك مسرور لأنك ستغادر؟ أليس هذا شعوراً غريباً؟

ليس حقاً.

لماذا؟

لأنني بدأت أؤمن بإمكانية تحوّل النفس برمّتها. بأنه تحت ضغوط حياة المرء يمكن أن يتوقف المرء ببساطة عن أن يكون الشخص الذي كان، وأن يصبح الشخص الذي صار فقط.

لا أتفق معك.

أجسادنا كلّها تتغيّر مع مرور الزمن. شعرنا، بشرتنا، كلّ شيء فينا. ففي أثناء دورة مدتها سبع سنوات تُستبدل كلّ خلية من جسدنا بخلية أخرى. فكلّ سبع سنوات، لا يعود المرء ذلك الشخص الذي

كان عليه تماماً. لماذا لا يصبح هذا هو الحال أيضاً بالذات. لقد مضت سبع سنوات تقريباً على مغادرتي هذا المكان. أصبحتُ شخصاً مختلفاً الآن.

لست متأكّدة من أن العلم يقول ذلك.

أنا لا أتحدّث عن العلم. أنا أتحدّث عن الروح. الروح التي لا تتكون من خلايا. الشبح في الآلة. أقول ذلك عندما يخرج الشبح القديم، ويدخل شبح جديد.

إذاً بعد سبع سنوات من الآن، لن أعرف من أنت.

ولن أعرف أنا من أنتِ. ربما ينبغي لنا أن نبدأ من جديد. ربما نكون قد تغيّرنا. هكذا هو الأمر.

ربما.

قطع.

* * *

كانت الليلة رطبة. حتى الغربان كانت نائمة. كان *السيد براون* ذو الوجه الحزين وكلاب الحراسة الأخرى ينتظرون، واضعين واقيات شمسية على الرغم من الظلام.

لقد صرفنا سيارة الأجرة التي طلبتها، قال السيد براون. من واجبنا أن نقلّك إلى مطار تشهاتراباتي شيفاجي الدولي، الذي كان اسمه ساهار.

هذا أمر مزعج، قال آبوو. لسنا بحاجة إليك.

سيكون من دواعي شرفنا، قال السيد براون. انظر، ثلاث سيارات مرسيدس بنز بانتظارك. سيارة القيادة، وسيارتك وسيارة الدعم. أرجوك. هذا لمصلحتك يا سيدي. مايباك -إس، مثل طائرة خاصّة تسير على الطريق. هذا مدوّن في الأدبيات. سأرافقك بنفسي في هذه العربة الممتازة.

أخفت المدينة الليلية عنه طبيعتها عندما غادرها، أدارت له ظهرها عندما أدار لها ظهره. كانت واجهات البنايات متجهمة ومغلقة. عبروا خليج ماهيم على الرابط البحري لكنهم غادروا الطريق السريع الغربي في وقت مبكّر، قبل المنفذ المؤدي إلى المطار.

لماذا تسلك هذا الطريق، سأل آبوو غولدن، ثمّ التفت السيد براون وخلع نظاراته الشمسية ولم تكن ثمة ضرورة للرد.

إنها مسألة عمل، قال السيد براون، ليس الأمر شخصياً. إنها مسألة زبون يتفوق على زبون آخر. زبون لا يأتي منه عمل منذ فترة طويلة مثل زبون آخر منتظم. سيدي، يجب أن نرسل رسالة إلى والدكم الموقر. سيفهم الرسالة، أنا متيقن من ذلك.

أنا لا أفهم، صاحت أوباه، أيّ رسالة؟

أجاب السيد براون بجديّة: تقول الرسالة إن تصرفاتك يا سيدي، صعّبت الأمور علينا بعد أن حذّرناك من التصرّف وحدك. لكن بعد أن تصرّفت وحدك وضعت القارات والمحيطات بيننا، ولم تكن لدينا السبل أو الإمكانية لنتبعها. لكنك بعد أن سمحت لابنك بأن يأتي الآن وهو قرار غير حكيم. هذه هي الرسالة تقريباً. أقدّم لك اعتذاري، سيدتي، فأنت مجرد متفرّجة بريئة، أليس كذلك، أنت أضرار جانبية. من دواعي أسفي الشديد.

سارت السيارات على طول جسر صغير فوق نهر ميتهي على أطراف حيّ الصفيح دارافي العظيم، وفي سيارة مياباك الفضية البراقة، رُفع صوت الموسيقى إلى أعلى حدّ. الأغنياء يمتّعون أنفسهم. ماذا أيضاً. لم لا. لم يسمع أحد صوت طلقات نارية. في جميع الأحوال، خيّم الصمت.

(٢٤)

في المناطق المدارية تقام مراسم الجنازات بسرعة، أما التحقيقات في جرائم القتل فإنها تستغرق وقتاً طويلاً. بدأت أزور بيت غولدن كلّ يوم بعد أن انتشر الخبر وبدا أنّ الكارثة قد أوقفت الزمن. وبدا أن لا شيء ولا أحد يتحرّك إلّا في الغرفة التي تجري فيها الآنسة بلاذر والآنسة فاس الترتيبات اللازمة لاستقبال الجثمانين، وبدا مكتبهما مغلقاً بستارة من الصمت. وعاد بيتيا إلى البيت ليصبح قريباً من أبيه، لكنه لم يكد يخرج من غرفته الغارقة في الضوء الأزرق مع المعالج الأسترالي. وأمضى دي غولدن معظم أيامه في البيت أيضاً، جالساً في إحدى الزوايا متشحاً بالأسود مع ريا التي تمسك يده. لم يتكلّم أحد. أما خارج البيت، فقد انتشرت القصّة بسرعة كبيرة. وحزن فرانكي سوتوفوتش على موت النحّات النجم. وتصرّف أفراد أسرة المرأة المتوفاة، الممشوقة القامة والأنيقة، بنبل مثل حرّاس ملكيين، ووقفوا وراء سوتوفوتش في التلفزيون حزينين بعيون جافة. ولم يظهر نيرو غولدن على الملأ لكن كان من الواضح لمن هم داخل البيت أن شيئاً قد تحطّم فيه، وأن الرسالة التي تلقاها لن يبرأ منها بسهولة. وفي الجانب الآخر من العالم أيضاً كانت هناك ضوضاء وصمت معاً. فقد كان هناك رجال شرطة وخبراء تشريح جثث وصحفيون وكلّ أصوات صفارات الإنذار

التي تعقب موتاً عنيفاً، أما الذين كانوا يعرفون العائلة قبل أن تغادر إلى نيويورك فظلوا مخفيين، ولم ينبس أحدهم بكلمة واحدة، كما لو أنّ الصمت قد هبط على عالم عائلة غولدن المفقود أيضاً، مثل كفن. أما المرأة المجهولة التي حيّت آبوو في بهو الفندق بصيحات «غروتشو» - فلم يُعثر لها على أي أثر. ولم تظهر النساء الأخريات اللاتي تحدّث عنهن، عشيقاته الثلاث السابقات، الفتيات اللاتي كن يحطن به ليحزنَّ عليه. وبدا أن المدينة قد أدارت ظهرها للذين غادروها، للمغتربين والأموات على حد سواء. وإذا كان قد أُلقي القبض على السيد براون وشركائه، فإننا لم نسمع بذلك. ولم تظهر الأخبار في العناوين الرئيسية. لقد مات غروتشو، واستمرّت الحياة.

وكما هو متوقع، فقد أثبتت السيدتان اللتان تشبهان التنين في بيت غولدن أنهما امرأتان أكثر من جديرتين في المهمّة التي اضطلعتا بها لإعادة الجثمانين إلى البيت بسرعة ما إن أفرجت سلطات مومباي عنهما. وقامت شركة تحظى بسمعة طيبة، اسمها طويل ومتعب «البرنامج الدولي لشحن الجنائز - مجهزو الجنازات» (IFSPFP) بجميع الأعمال الضرورية لنقل الجثمانين بالإضافة إلى التابوتين اللذين أغلقا بإحكام وحاويات الشحن التي صادقت الحكومة الأمريكية عليها. وأُعدّت جميع الأوراق اللازمة وتُرجمت إلى اللغة الإنكليزية وصُدّقت شهادات الوفاة والتفويض الذي أصدرته السلطات المحليّة بنقل الجثمانين، ووجدت طائرة شحن مبكّرة لنقل رفاتي آبوو وأوباه إلى مدينة نيويورك. وعلى مدرج مطار ج. إف. كنيدي، حصل فراق حزين، فاستلم فرانكي سوتوفوتش وأسرة الفنانة الصومالية جثمان أوباه ونقلوه ليدفن وفق عاداتهم المتبعة، وعاد آبوو إلى شارع ماكدوغال.

كان وداعاً غريباً ومؤثراً. ولم يُفتح الصندوق المحكم الإغلاق،

ولم يُحنّط الجثمان لأن قانون الولاية لا يسمح بفتح التابوت لرؤية الجثّة. وعندما رفض نيرو السماح بممارسة أيّ شكل من أشكال الطقوس الدينية واختار أن تُحرق الجثة بدلاً من دفنها، أحنى متعهد الجنازات رأسه واقترح أن يغادر بيت العائلة ويعود بعد ساعة، ليعيد بقايا الرماد أو يتخلّص منها إذا كان هذا ما تفضّله العائلة. فقال نيرو «لا، أعدها». فأحنى متعهّد الجنازات رأسه مرة أخرى، وقال بصوت خفيض: «لو سمحت لي، لا يوجد قانون في هذه الولاية ينص على المكان الذي يمكنك أن تحتفظ فيه بالرماد أو تنثره. فيمكنك أن تحتفظ به في قبو، أو في كوّة، أو في قبر، أو في وعاء في البيت، حسب ما ترى أنه الأفضل. فإذا قررت أن تنثره، فافعل ذلك كما تشاء، لكن لا تضعه في مكان يراه فيه الآخرون. وبما أن الحرق يجعل الرماد غير ضار، فليس هناك أي خطر على الصحة العامة. أما نثر الرماد على أرض ذات ملكية خاصّة فهو يحتاج إلى موافقة صاحب الأرض، ومن الحكمة أن تدرس القانون المحليّ إذا أردت أن تنثرها فوق أرض عامة. أما إذا أردت أن تنثرها أمام الساحل أو خارج ميناء نيويورك، فيجب أن تأخذ في الاعتبار أنظمة وكالة حماية البيئة المتعلقة بالدفن في البحر-»

«كفى»، قال نيرو غولدن، «اسكت وغادر على الفور».

خلال الساعة التي أعقبت ذلك، لم ينبس أحد بكلمة. وصعدت فاسيليسا مع الطفل فيسباسيان إلى الطابق العلوي، وظلّ ما تبقى منا واقفين أو جالسين بجانب التابوت، كلّ واحد منّا سارح في أفكاره. وفي هذه الساعة العصيبة، أدركت أن آبوو في موته أقنعني أخيراً بشيء طالما قاومته في فترة صداقتنا: وهو أن الإنسان الذي لا يعلو على الوصف يتعايش دائماً مع ذوي المعرفة، وأن هناك ألغازاً في أشخاص لا يمكن تفسيراتها. ومهما حاولت فلم أفلح في فهم

السهولة التي وافق فيها، هو من بين جميع آل غولدن، على أن ينزع جلده الهندي ويتّجه من مدينته غرباً إلى حي الفيليج. فقد قام الرجل العجوز بما يكفي من الأعمال المظلمة في ماضيه، وحصل بيتيا على ما يكفي من الضرر الحقيقي والحالي، وحصل ديونيسوس على ما يكفي من صبوات وإشباع رغبات سرّية لمستقبله، لتفسير اختياراتها. أما آبوو فقد انغمس بعمق في الحياة في البلد الذي ولد فيه، في أن يحبّ وأن يكون محبوباً، وبدا أن تحطم القلب تفسير غير كاف لإشباع رغبته في الذهاب. واقترح صوت العقل فيّ أنه من بين أبناء نيرو جميعاً فهو الوحيد الذي نظر بوضوح شديد في أعماق ظلال أبيه وأصيب بالذعر بما رآه هناك، وقد يكون ذلك جزءاً من الحقيقة. لعل ما قاله بأنه رُبِّيَ على العادات القديمة، لذلك كان لقرار والده القانون الذي كان عليه أن يطيعه علاقة بذلك أيضاً. لكن صوتاً آخر، الصوت الذي غرسه فيّ والذي قاومته، استحضر الآن مشهداً مختلفاً، يجلس فيه القرفصاء في الشرفة الرخامية العريضة في بيت العائلة القديم فوق الهضبة، يتأمّل، مغمض العينين، ينظر إلى داخله أو إلى أي مكان يرشده، وتناهى إليه صوت آخر، لا الصوت الذي كان يهمهم لي، أو لعله الصوت نفسه، أو قد يكون صوته هو أو صوت اختلقه هو، أو ربما، كما يقول، كان يحفر في شيء كان يعتقد دائماً أنه موجود هناك، صوت الكون، حكمة كلّ ما هو موجود، الصوت الذي كان يثق به، وكان ذلك الصوت يقول له اذهب. وهكذا، مثل جان دارك، مثل القدّيس يوحنا، مثل «آبوو غولدن»، اخترعه، الذي جاءت أشباح ذاته القديمة تنادي في نيويورك - كان مثل الصوفي، ينصت إلى أصواته، أو كما يمكن أن نقول، نحن الشكّاكين، غريزياً، إنه ذهب.

كانت التجربة الروحيّة موجودة. لقد فهمت ذلك. عندما تعيد نفسي العقلانية تأكيد ذاتها فهي تقول، نعم، أوافق، لكنّها تجربة

داخلية، وليست تجربة خارجية؛ ذاتية، وليست موضوعية. لو كنت قد وقفت إلى جانب آبوو في محترفه في ميدان يونيون سكوير لما رأيت أشباحه. لو كنت قد جثوت بجانبه في الشرفة في وكشوار منذ سبع سنوات ونصف السنة لما كلمتني القوة. لا يستطيع كل شخص أن يصبح فارس *جِيدايْ*. العديد من الأستراليين يقولون إنّهم يستطيعون أن يصبحوا ذلك، هذا صحيح. وربما تعلّم آبوو كيف يمكنه أن يثق ويستخدم ما أطلق عليه ذات يوم مستوى الروح. لكن لا، لا، ليس أنا.

* * *

استمرت فترة الحداد في بيت غولدن أربعون يوماً وليلة بعد عودة جثمان آبوو، مُنع خلالها دخول أحد إلى البيت، وكانت الستائر تُسدل عند الظهيرة وفي منتصف الليل. وأُغلقت درفات نوافذه، وإذا جاء أحد أو ذهب، فقد كان ذلك يتم بخفة شديدة كالأشباح. وتوارى نيرو عن الأنظار. وخيّل إليّ أن بيتيا قد عاد إلى البيت، وربما جاء المعالج ليت أيضاً، لكن هذه مجرد تخمينات. فلم يُلقِ بيتيا غولدن نظرة على تابوت شقيقه عندما وضع في وسط الغرفة العظيمة في بيت غولدن. فلم يغفر له، ولم ينطق باسمه مرة أخرى، ولم يسأل ماذا حلّ بجثمان أوباه، وهل يوجد قبر يمكن أن يقوم بزيارته، لم يسأل شيئاً قط. إن بعض الجروح لا تلتئم. وعادت حياة الناس في الغاردنز إلى طبيعتها، واحترموا انكفاء البيت الجريح عن عالمهم الصغير. ولم أزر البيت على الرغم من رغبتي الشديدة لرؤية هل لا يزال فيسباسيان الصغير قوياً كعهده. وفي إحدى المرات خطر لي أن أتصل بفاسيليسا وأتوسل إليها أن تسمح لي بقضاء بعض الوقت معه، لكني كنت أعرف مسبقاً الردّ الفج الذي سأسمعه منها،

فأمسكتُ لساني. وفي جميع الأحوال، فقد كنت مشغولاً في تلك الفترة. فقد كنت، أنا وسوشيترا، منهمكين في العمل. فقد انجررنا في الموسم السياسي ذاك إلى عالم أفلام الفيديو السياسية، وخاصة الأفلام المتعلقة بالمجموعات النسائية التي تدافع عن تنظيم الأسرة، وتهاجم عدم اكتراث الحزب الجمهوري بقضايا المرأة. وبدأنا نشتهر، ففي تلك السنة، حصدت أفلام الفيديو التي نفذناها جوائز بولي للإعلانات السياسية، لاسيّما على المشهد الذي روت فيه طفلة ضحيّة الاتجار بالبشر من أجل الاستغلال الجنسي قصّتها. وبدأت تصبح سوشيترا - التي اختُزل اسمها المهني إلى سوتشي *روي* لسهولة لفظه - نجمة إعلامية، وكنت سعيداً لأنني كنت مساعداً لها. وهكذا ابتعدتُ عن الموت واتجهتُ إلى الحياة. لكن الحياة أصبحت صاخبة، بل مخيفة في تلك السنة. إذ بدأت الأمور خلف عالم الغاردنز المغلق تصبح غريبة جداً.

كان الخروج من تلك الشرنقة المسحورة - التي أصبحت مأساوية الآن - يعني اكتشاف أن أمريكا قد ألقت بالواقعية جانباً ودخلت إلى عالم كتب القصص المصورة بالرسوم. فقد قالت سوشيترا إن واشنطن العاصمة تتعرض للهجوم على يد واشنطن العاصمة. فهذه السنة هي سنة الجوكر في مسلسل غوثام وما بعده. ولم يعد يُرى *المحارب ذو العباءة* في أيّ مكان - فهذا ليس عصر الأبطال - أما منافسه الرئيسي ذو الرداء الأرجواني والسروال المخطّط فكان يتواجد في كلّ مكان، وكان من الواضح أنه كان في غاية البهجة لأنه استأثر بخشبة المسرح وخطف كلّ الأضواء. وودّعت *فرقة الانتحار*، منافستها الضعيفة، لكنّها جعلت حفنة من أتباعها الأدنى منزلة يظنون أنهم سيصبحون أعضاء فاعلين في إدارة الجوكر في المستقبل. البطريق، والريدلر، وذو الوجهين وآيفي

السام، اصطفّوا كلهم وراء الجوكر في الصالات والساحات المكتظة، وراحوا يتمايلون كما يفعل الذين يغنون ألحان موسيقى الدوو-ووب عندما كان زعيمهم يتحدّث عن جمال البشرة البيضاء والشفاه الحمر إلى مستمعين شديدي الإعجاب به يضعون على رؤوسهم باروكات الرعب الخضراء، ويهتفون بصوت واحد، *ها!* *ها!* *ها!*

وثار جدل حول أصول الجوكر، وبدا أن الرجل نفسه يجد متعة كبيرة عندما يتناول الناس قصصاً متناقضة عنه ويتجادلون حولها على الأثير، لكن أنصاره المتحمسين وخصومه الغاضبين اتفقوا جميعاً بمرارة على حقيقة واحدة وهي أنه رجل مجنون تماماً وبشكل لا يقبل الشك. لكن الشيء المثير للدهشة الذي جعل سنة الانتخابات هذه سنة لا مثيل لها، هو أن مؤيديه كانوا يؤيدونه فقط لأنه مجنون. فكل ما كان يبعد أيّ مرشّح آخر عن الرئاسة جعله بطلاً في نظر أنصاره. فقد اتفق سائقو سيارات الأجرة من طائفة السيخ، ورعاة البقر الذين يشاركون في مسابقات رعاة البقر، والشقراوات اليمينيات المتطرّفات، وجرّاحو الدماغ السود، على القول إننا نحبّ جنونه، لأنه لا تخرج من فمه عبارات مهذبة، بل يقول كلّ ما يخطر بباله، يقول أي شيء يريد أن يقوله مهما كان منيوكاً، يسرق أي بنك يخطر له أن يسرقه، يقتل من يشاء أن يقتله، إنه رجلنا. لقد طار فارس الخفافيش الأسود! إنه يوم جديد، وسيكون صيحة! الجميع يهلّل لجوكر الولايات المتّحدة الأمريكية! جوكر الولايات المتّحدة! جوكر الولايات المتّحدة! جوكر الولايات المتّحدة!

في هذه السنة حدثت فقاعتان. وفي إحدى هاتين الفقاعتين، صرخ الجوكر فضحكت الحشود كما لُقِّنوا. ففي هذه الفقاعة لم يكن يطرأ أي تغيير على المناخ ولم تكن نهاية الغطاء الجليدي القطبي

سوى فرصة من أجل بيع وشراء عقارات جديدة. وفي تلك الفقاعة، كان القتلة بالبنادق والمسدسات يمارسون حقوقهم الدستورية، أما آباء الأطفال المقتولين فهم ليسوا أمريكيين. وفي تلك الفقاعة، إذا انتصر مناصروها، فإن رئيس جمهورية البلد المجاور للجنوب الذي يرسل مغتصبين وقتلة إلى أمريكا سيُرغم على تسديد تكاليف إقامة جدار يُقسّم الدولتين حتى يبقى المجرمون والمغتصبون على الحدود الجنوبية حيث ينتمون، وستنتهي الجريمة؛ وسيُهزم أعداء البلد هزيمة ساحقة، وسيصبح الترحيل الجماعي شيئاً محموداً، وسيُنظر إلى الصحفيات الإناث على أنهن صحفيات لا يمكن الوثوق بهن لأن دماء من أماكن غير معروفة تجري في عروقهن؛ وسيُكشف أن آباء الأبطال الذي قُتلوا في الحرب يعملون لمصلحة الإسلام المتطرف؛ وسيتوقف الالتزام بالمعاهدات الدولية؛ وستصبح روسيا دولة صديقة، وليس لذلك أي علاقة بحكّام النخبة الروس الذين يدعمون مشاريع الجوكر المشبوهة؛ وستتغيّر معاني الأشياء؛ وسيُفهم أن حالات الإفلاس العديدة التي أعلنتها ما هي إلا إثبات على خبرتك العظيمة في إدارة الأعمال؛ وسيُفهم من ثلاث آلاف وخمسمئة دعوى مرفوعة ضدّك أنها دليل على فطنتك ومهارتك في إدارة الأعمال التجارية؛ وسيثبت خداع المقاولين الذين يتعاملون معك وسرقتهم موقفك أنك رجل أعمال قاس؛ وستثبت جامعة أُسست على أساس النصب والاحتيال مدى التزامك بالتعليم؛ وفي حين أن المادة الثانية في الدستور مقدّسة فإن المادة الأولى ليست كذلك؛ لذلك فإن من ينتقد القائد سيتحمّل العواقب؛ وعلى الأمريكيين من أصل أفريقي قبول كلّ ذلك، لأنهم ماذا سيخسرون بحقّ السماء. وفي فقاعة المعرفة تلك يقبع الجهل، فالأعلى هو الأسفل، والشخص المناسب هو الذي ستكون لديه الأرقام السرية لإطلاق القنبلة النووية، وهو

ذلك الشخص ذو الشعر الأخضر والبشرة البيضاء، المتشدّق، ذو الفم المشقوق الأحمر الذي سأل فريق الإحاطة العسكري أربع مرات لماذا يُعتبر استخدام الأسلحة النووية شيئاً سيئاً. وفي تلك الفقاعة، فإن أوراق اللعب ذات الأطراف الحادّة كالشفرات شيء مضحك، والأزهار التي توضع في طيّة السترة والتي ترشّ الأسيد على وجوه الناس شيء مضحك، والرغبة في أن تضاجع ابنتك أمر مضحك، والسخرية مضحكة حتّى عندما لا يدعو الشيء الذي يدعى سخرية إلى السخرية، والكذب مضحك، والكراهية مضحكة، والتعصّب مضحك، والتنمّر على الآخرين مضحك، والتاريخ كان، أو كاد يكون، أو قد يكون قريباً، إذا تحققت تلك النكات، ألف وتسعمئة وأربع وثمانين.

وفي الفقاعة الأخرى - كما علّمني والداي منذ زمن بعيد - توجد مدينة نيويورك. ففي نيويورك، لا يزال حتى الآن، على الأقل، نوع من الحقيقة لا يزال سكانها يحافظون عليها، الذين يستطيعون أن يميّزوا الرجل المحتال إذا رأوه. ففي غوثام عرفنا من هو الجوكر، ولم نشأ أن تكون لنا به أيّ علاقة، أو الابنة التي كان يشتهيها، أو الابنة التي لم يأت على ذكرها قط، أو الأبناء الذين كانوا يقتلون الفيلة والفهود لممارسة الرياضة. «سآخذ مانهاتن!» صاح الجوكر، معلقاً من فوق ناطحة سحاب، لكنّنا ضحكنا عليه وليس على جوكريته المتحذلقة، وكان عليه أن ينقل عمله إلى أماكن لم يعرفه فيها الناس جيداً، أو الأسوأ، كانوا يعرفون تماماً من هو، وأحبّوه من أجل ذلك: تلك الشريحة من البلد المجنونة مثله. شعبه. وهم كثر.

كانت السنة التي دارت فيها المعركة العظيمة بين المخيّلة المشوّشة والحقيقة الرمادية، بين، من ناحية، *الشيء في حد ذاته*،

المجهول المحتمل لكن ربما الشيء الموجود في حد ذاته، العالم كما كان بمعزل عمّا قيل عنه أو كيف كان يُرى، *Ding an sich*، إذا أردنا أن نستخدم مصطلح الفيلسوف كنط -، ومن الناحية الأخرى، هذه الشخصية الكاريكاتورية التي اجتازت الخطّ بين الصفحة وخشبة المسرح - ضرب من مهاجر غير شرعي، قلت في نفسي - تتمثّل خطته في قلب البلد رأساً على عقب، في زلة - بفرح شديد، إلى رواية ذات رسوم بشعة، النوع الحديث، مليئة بالجريمة السوداء واليهود المرتدين ولاعقي الأيور والأكساس، وهي كلمات كان يحبّ أن يستخدمها أحياناً فقط ليصعق فئة النخبة من الليبراليين؛ كتاب مصور بالرسوم الانتخابات فيه مزورة ووسائل الإعلام مزورة وغير شريفة وكلّ شيء تكرهه هو مؤامرة ضدّك، لكن في النهاية! لقد ربحت، وتحوّلت باروكة الرعب إلى تاج، وأصبح الجوكر الملك.

وبقي علينا أن ننتظر لنرى، إذا جاء تشرين الثاني/نوفمبر، هل سيصبح البلد بنفس عقلية نيويورك، أم أنه سيفضّل أن يضع باروكات الرعب الخضراء. *ها! ها! ها!*

(٢٥)

مكتبة
t.me/t_pdf

مع اقتراب مسرحية مأساة بيت غولدن من فصولها الأخيرة، فإني أعيد انتباهي - الآن! لكنّي كنت مقصّراً في واجبي آنذاك! - إزاء حياة ديونيسوس غولدن التي تزداد ألماً. كان يصعب أن أكون على تواصل [معه]. (لا أزال أستخدم ضمير المذكر عندما أفكّر [فيه]، على الرغم من أن ذلك أصبح يبدو خاطئاً بشكل متزايد، وكبادرة إزاء [غموضه] فإني أضعها بين قوسين. وبما أنه لا يوجد توجيه واضح [منه] - «لا أعرف بعد الضمائر التي عليّ أن أستخدمها»، قال لي بشيء من الحرج - هذا هو حلّي المؤقت). فقد اختُزل العالم المحيط بـ دي، العالم الذي كان يشعر فيه بقدر من الأمان، إلى مكانين ونصف مكان وهي: *نادي الجسرين* في شارع ماركت بالقرب من الملاعب الثلاثة عند الناصية بين جسر مانهاتن والطريق السريع إف دي آر، حيث يعمل متطوّعاً لمدة أربعة أيام في الأسبوع، والشقّة في الحيّ الصيني التي يقيم فيها مع ريا زي. وكانا يرتادان أحياناً النادي الليلي في شارع أورتشارد الذي تغني فيه آيفي مانويل ذات الشعر الأحمر الناري - كان هذا هو نصف المكان الذي يقبع في منطقة راحته - وكانت هناك مشكلة نوع الثياب التي ينبغي أن يرتديها، ومع من يجب أن يتواصل، وماذا يقول، وشدة خجل دي المتزايدة. أما مشكلة اللباس في *نادي الجسرين*، فقد حُلّت بارتداء

اللباس الرسمي الذي يرتديه العاملون في النادي الذي يصلح لكلا الجنسين: قميص ذو ياقة بيضاء يُلبس فوق وخارج بنطال صيني أسود فضفاض، وحذاء رياضي أسود. وفي الأماكن الأخرى، لم يكن دي يعرف كيف يقدّم [نفسه]. فبعد مغامرته في خزانة ملابس فاسيليسا، اعترف [لنفسه] بمتعته بارتداء الملابس النسائية ووجد الشجاعة ليخبر ريا بما حدث وآيفي أيضاً، وتحدّثوا ثلاثتهم عن ذلك. وقالت ريا: «جيد. إنها خطوة أولى. اعتبر هذا بداية السنوات الثلاث القادمة، أو قرابة ذلك. اعتبر أن مرحلة التحوّل سحر بطيء. ألف ليلة وليلتك، حيث لا تعود الضفدع الذي لا تريد أن تكونه، وقد تصبح الأميرة»، وأضافت آيفي، «لكن يجب ألّا تتجاوز أبعد مما تريد. فقد ترغب في أن تكون ضفدعاً يريد أن يبدو جميلاً بلون وردي».

كان يحصل على مساعدة مهنية، لكنها لم تساعده. فقد كان يرغب دائماً في أن يجادل الاختصاصية. وكان يرفض أن يخبرني من هي تلك الاختصاصية، وبدلاً من ذلك، كان يستخدمني لينفّس عن إحباطاته التي يكبتها في [نفسه] عن ريا التي كان شيؤها هوية، والتي كرّست نفسها لفكرة سيولة تحوّل الذات، والتي كانت تبدو أحياناً متحمسة جداً لتحوّل دي من ذكر إلى أنثى، وأن يكون ذلك التحوّل كاملاً. كان ينبغي أن أكون قادراً على مساعد[ته]. ربما كان بإمكاني أن أمنع حدوث ما حدث. ربما كان بإمكاننا كلنا أن نفعل ذلك. أو ربما لم يكن من المناسب أن يعيش دي غولدن على الأرض.

أتخيّل المحادثة التالية تدور في غرفة عارية، باللونين الأبيض والأسود، تشبه زنزانة، ويجلس المتكلّم الذي يخلو وجهه من أي مشاعر، على كرسي معدني منتصب، تستجوبه، الاختصاصية، مثل جهاز أندرويد متقدم جداً، نوع يجمع بين الممثلة أليسيا فيكاندر في

فيلم إكس ماكينا والكمبيوتر العملاق ألفا سواسانت في فيلم ألفافيل للمخرج غودارد. لا نسمع أياً من الأشخاص الموجودين في الغرفة يتكلّمون. لا يوجد صوت تزامني. ومع ذلك لا نسمع إلا مناجاة، بينما يقتبس المناجاة حديثاً مباشراً، فإن حركات شفاه الموجودين في الغرفة تتطابق أحياناً – وليس دائماً – مع ما يقال. في المشهد شيء يشبه مواجهة بين سجين ومحاميه في يوم الزيارة في السجن. ولن يكون من المفاجئ إذا كان المتكلّم يرتدي بدلة برتقالية (إذا كان المشهد بالألوان)، أو توجد قيود في رسغيه وكاحليه. وثمة شيء أيضاً عن المشهد الذي، إذا صُوّر جيداً، قد يكون مضحكاً.

مناجاة دي غولدن حول [نوع] جنسه وفحصه بواسطة الخبيرة الاختصاصية

الفصل الأول. تسألني، منذ البداية، الاختصاصية، من دون أي مقدمات، السؤال الأول، عندما كنتَ طفلاً، هل كنت تفضّل اللون الوردي أم اللون الأزرق؟

بصراحة دُهشت من هذا السؤال. هل هذا سؤال يمكن أن يُسأل في هذا الوقت في تاريخ العالم، أقول: أزرق أم وردي؟

سايرني، تقول لي، لاطفني، كما لو كانت هي المريضة وأنا المعالج النفسي.

أجيب، لأنني الآن في ذلك النوع من المزاج العنيد. دايانا فريلاند، محرّرة مجلة فوغ، قالت ذات مرّة إن اللون الوردي هو الأزرق الداكن في الهند، لذلك فإني أظن أن اللونين الوردي والأزرق في الهند هما الشيء ذاته.

لماذا تجد هذا السؤال مزعجاً جداً، تسألني، إنه مجرد

اختيار بين لونين. وقد أسأل أيضاً، هل كنت تفضّل ألعاب القطار أم الدمى. إذا أردت أن تجيب عن هذا السؤال عوضاً عن ذلك السؤال.

ينبغي أن أقول الآن بين قوسين إنّني لم أكن ماركسياً في حياتي لكن أسلوبها الهجومي أثار فيّ مشاعر قوية معادية للرأسمالية. قلت في نفسي، أجبت بأنّنا انتقلنا إلى ما بعد الفئات المادية التي يفرضها السوق، الوردي للفتاة، والأزرق للفتى. قطارات وأسلحة للفتيان، ودمى وفساتين للفتيات. لماذا تحاولين أن تعيديني إلى هذا الخطاب القديم المتفجّر؟

إنك تجيب بعداوة ملحوظة، قالت. هل تطرقتُ إلى شيء فجّر فيك هذه المشاعر؟

أوكي، قلت، الحقيقة هي أن لوني المفضّل كان اللون الأصفر ولا يزال اللون الأصفر. لفترة من الزمن، حاولت أن أقسم باللون الأصفر مثل صديق ستيفن ديدالوس، *اللعنة على عصاك الصفراء*، لكنّي لم أستطع الحفاظ على هذه العادة.

جيّد، قالت، هذا تقدّم، فالأصفر في طيف الألوان يقع في منتصف الطريق بين الأزرق والوردي. ظننت أن هذا في غاية الغباء، غباء من العصر الحجري، غباء إنسان ما قبل التاريخ، لكنّي ابتلعت ذلك ولم أقل لها ذلك. قد لا يناسبني ذلك، قلت في نفسي.

أما بالنسبة إلى السؤال الآخر، قلت لها، فلم تكن عندي لعبة قطار قط. كان لدى إخوتي واحد وكنت أراقبهم وهم يلعبون به، مع أنهم كانوا في سن أكبر من أن يلعبوا بتلك الألعاب. وكذلك ألعاب سيارات سكاليكستريك. كان ذلك محرجاً، أقصد، اكبروا. فقد كنت الأخ الأصغر غير الشقيق.

كان عندي قطعتان من الحيوانات المصنوعة من خشب الصندل كنت أضعهما في حوض الحمّام لأنهما كانا يبعثان رائحة عطر. فيل وجمل من خشب الصندل. كنت أختلق مغامرات لصديقيّ المصنوعين من خشب الصندل، وفي كلّ ليلة، كانت هناك قصّة مختلفة في الحمّام. ما الذي يخبئه الفيل في خرطومه، ولماذا يكره الجمل الصحراء، وما إلى ذلك. ربما كان عليّ أن أكتب تلك القصص. لكني لا أتذكّر معظمها الآن. لذلك، رداً على أسئلتك، أظن، إذا كان الاختيار بين الدمى والقطارات، حسناً إذاً، دمى الحيوانات من خشب الصندل، مع أنني لم أُلبسهما شيئاً. وإنما كنت أحكي لهما قصصاً وأبلّلهما بالماء.

ومضينا بهذا الشكل، هي تدفعني إلى الأمام، وأنا أدفعها إلى الخلف. وفي نقطة محددة، حكيتُ لها قصّة زوجة أبي ومفاتيح البيت. أعترف بذلك: أسوأ شيء فعلته في حياتي. قلت للاختصاصية ذلك. أخبرتها عن أسفي. لم تكن مهتمّة بالأسف، تصرّفت كما تصرّفت ريا عندما تشاجرنا ونزلتُ من السيارة. لم تكن الكراهية كافية لتفسير السبب الذي جعلني أفعل ذلك، قالت. في النهاية تصالحنا. افترض أنني أقترح، قالت، أنك تريد أن تكون سيدة البيت. افترض أنني أقترح أن هذا هو لبّ الموضوع. فما هي ردّة فعلك الفورية إزاء ذلك. لذلك كانت ردّة فعلي الفورية هي، بووووم! ، سأخرج من هنا، لا يجدي نفعاً، وعندما كدت أقترب من الباب، سألتني بهدوء، ماذا ستفعل بدلاً من ذلك. فتوقّفت، وابتعدت يدي الممدودة عن مقبض الباب، وعدت وجلست، وقلت، أظن أنك محقّة. إذاً ماذا يجعل ذلك مني. من أنا.

لهذا السبب نحن هنا لنكتشفه، قالت الاختصاصية.

الفصل الثاني. أسأل مزيداً من الأسئلة عن الألعاب والألوان. في قديم الزمان، أقول، لو أحبّ صبي اللون الوردي والدمى فإن والديه يخشيان أن يكون شاذاً جنسياً ويحاولون توجيه اهتمامه إلى ألعاب الفتيان. أقول قد تساورهم شكوك حول توجّهه الجنسي لكن لا يخطر لهم أن يتساءلوا عن نوع جنسه. يبدو الآن أنك تذهبين إلى أقصى حدّ. فبدلاً من القول للطفل إنه مخنث فإنهم يحاولون إقناعه بأنه فتاة.

حسناً، قالت، فأنت مثليّ؟ هل تنجذب جسدياً إلى رجال آخرين؟ لا، قلت، ربما كان هذا هو الشيء الوحيد الذي أعرفه، وهو أنني لا أنجذب إلى الرجال. جيد، قالت إذاً لنكفّ عن محاولة حلّ عقدة دوافع الآباء المتخيلين ولنركّز على المهمّة التي أمامنا، وهي أنت. فإذا لم تكن ذكراً مثليّاً فهل أنت أنثى مثليّة؟

ماذا، قلتُ.

هل أنت سحاقية، سألت الاختصاصية.

لست في مرحلة التحوّل بعد وأعيش مع امرأة طبيعية جنسياً، قلت.

في المقام الأول، فإننا لا نناقش جنسانية حبيبتك التي قد تكون أيضاً معقدة وربما تبسّطها لكي تخدمك بشكل أفضل، لكن ليس هذا هو الموضوع. وفي المقام الثاني، لا علاقة بالسؤال بما تفعله وإنما يتعلق بما هو أنت. إنه كالفرق بين القول إنني أعمل كبير طهاة البيتزا، وأنا شخص يحبّ الطعام اللذيذ.

أنتِ غريبة الأطوار، قلت للاختصاصية.

لستُ أنا الموضوع، قالت الاختصاصية.

كيف أكون سحاقية، قلت محتجاً، هذا أمر مستحيل من الناحية الجسدية.

لماذا.

لأسباب واضحة.

إذاً، سؤالان. السؤال الأول: هل شعرت قط بانجذاب نحو امرأة سحاقية؟ إلى امرأة تفضّل ممارسة الجنس مع نساء أخريات؟

حدث ذلك أحياناً، قلت. مرة أو مرتين. لكني لم أتابعهما.

لماذا.

لأسباب واضحة. لم يرغبن في أن ينمن معي.

لماذا.

أوه، هيا.

ممتاز. السؤال الثاني. ما هي المرأة؟

إنه سؤال محيّر يجعلني أشعر فجأة بأنني أجنبي تماماً. لا يمكنني أن أتخيّل أن سؤالاً كهذا يمكن أن يطرح في معظم بلدان العالم. هل هذا شيء أصبح الأمريكيون مشوّشين حوله؟ هل ستسألينني عن دورات المياه؟ هل تتذكرين حظر عرض مسرحية *مناجاة المهبل* في كلية ماونت هوليوك؟

هل هذا شيء يجعلك تشعر بالاضطراب حوله.

أعرف ما هي المرأة. ما لا أعرفه فقط هو إن كنت امرأة. أو إن كنت أريد أن أكون امرأة. أو إن كانت لديّ الشجاعة لأن أكون امرأة. أخشى أنني لا أمتلك الشجاعة. بشكل عام، فأنا خائف جداً.

لماذا أنت خائف.

عريّ التغيير. مأساتها، المبالغة في التغيير، وضوحها

المروّع. نظرة الآخرين. حكم الآخرين. الحقن. العملية الجراحية. العملية الجراحية قبل كل شيء آخر. هذا طبيعي، صحيح؟

لا أعرف معنى هذه الكلمة، *طبيعي*. إنها كلمة أسيء استخدامها منذ زمن بعيد، فمن الأفضل عدم استخدامها. وهناك كلمة أخرى هي كلمة جنس.

أعيش مع شخص يتّفق معك.

دعني أقترح جملة لك: «لا يوجد شيء يدعى جسد امرأة».

بذلك لا بد أنك لا تقصد أن تقول إنه لا يوجد هناك شيء يدعى جسد امرأة. لأنه توجد نساء، فلا يمكن إنكار ذلك، وهناك أجساد، وهذا أيضاً صحيح موضوعياً، والواحد يحتوي الآخر. *ولهذا*...

فهمت فكرتي جيداً، مع أنك جادلتني بها. إننا نوجد وكذلك أجسادنا ونحن نسكن أجسادنا لكنّنا لا نُعرّف بها ولا ننحصر فيها.

وهكذا نصل إلى مشكلة العقل - الجسد. إنك تقترح أنه ينبغي أن نرفض فكرة وجود حقيقة موحدة واحدة أو مادة أو جوهر، لذلك فإن فصل العقل عن الجسد أمر مستحيل. إنها وحدانية وأنت لا تحبّها؟ إنك تفضّل ديكارت وازدواجيته. لكن هل *المرأة*، إذاً، أو حتى *الأنثى*، فئة من العقل وحده؟ ألا توجد طبيعة جسدية له؟ وهل هذا نوع جنس غير جسدي، هذا الشيء غير الجسدي المتحرر من حاجات الجسد، غير قادر على التغيير، حتى لأنه غير جسدي يجب أن يكون متحوّلاً كالدخان، كالنسيم؟ أم أننا في منطقة دينية، أو ربما أرسطوطاليسية، ونوع الجنس، كالعقل، سمة من سمات

الروح؟ إني أجري دراساتي، لكن يصعب عليّ أن أفهم ذلك جيداً.

سأبسّط الأمر. أن تولد بأعضاء جنسية أنثوية وأعضاء تناسلية إنجابية لا يجعل منك امرأة. وأن تولد بأعضاء جنسية ذكورية لا يجعل منك رجلاً. إلا إذا اخترت ذلك. هذا هو الافتراض الذي أطلب منك أن تجيب عليه. بأنه لا يوجد شيء أنثوي حاسم بشأن المهبل. كما أنه ليس من المستبعد أن تكون أنثى إذا كان لديك عضو ذكري. فالمرأة المتحوّلة جنسياً التي لها قضيب لا تزال امرأة. هل توافق على هذا أم لا؟

تقصدين أنني قد لا أحتاج إلى عملية جراحية.

الإخصاء.

حتى الكلمة تؤذي.

لا إلا إذا كان هذا ما تختاره.

إذاً عدنا إلى هذا *الاختيار*.

يمكنني أن أقترح أن تدعوها حرّية. يمكنني أن أقول، هذا من حقك.

أعرف شيئاً عن الاختيار. فأنا من عائلة اختارت أن تحوّل نفسها. وقد اخترت الاسم الذي تناديني به. اخترت أن أترك العالم الذي جعلني آتي إلى عالم يمكن أن أصنع نفسي فيه. أنا مع الاختيار. لقد تحوّلت مرّة نتيجة هذا الاختيار الذي اخترته. لكن.

لكن.

إذا قلت إنني امرأة لكنّي أحافظ على عضوي الذكري ثمّ كنت في وسط مجموعة من النساء السحاقيات وأردت أن أمارس الجنس معهن لكنّهن لا يرغبن في ممارسة الجنس مع

شخص له عضو ذكري فكيف أكون امرأة إذا كان اختياري لأن أكون امرأة لا تقبله النساء.

إذا كانت ردة فعل شخص تجاهك هكذا فلا بد أن ذلك الشخص ينتمي إلى *الحركة النسوية الراديكالية لإقصاء المتحولين جنسياً*.

وهذا شيء سيّئ.

في الحديث الذي يدور بيننا، فهذا شيء سيّئ، نعم.

إذاً فإنك تأخذين تلك النساء ذوات المهبل اللاتي لا يقبلن ممارسة الجنس مع نساء لديهن أعضاء ذكرية وتطلقين عليهن اسماً شنيعاً وتقولين إنهن سيّئات، فكيف يساعدني ذلك.

إنه يساعدك بأن تتخذ خيارك.

لأنني على حقّ وهن على خطأ.

يوجد مهرجان نسائي خاص في ميشيغن يقام منذ أربعين سنة، مكان تلتقي فيه النساء حيث يعزفن الموسيقى ويطهين ويتبادلن الأحاديث. ببساطة فهن يرغبن في أن يكنّ مع بعضهن، وهنّ من النساء اللاتي أقمن الحركة النسائية، نساء يشعرن بالتوافق مع جنسهن، نساء مسنات، في الغالب، كن ثائرات في زمانهن. لكنّهن لا يسمحن للنساء المتحوّلات جنسياً ولديهن أعضاء ذكورية بالمشاركة في احتفالهن هذا، فيحدث نزاع قد يؤدي أحياناً إلى معركة جسدية. ويقف النشطاء من معسكر مؤيدي التحوّل خارج المهرجان بأسلحتهم، ويخطّطون لتنظيم احتجاجات ووضع عراقيل ينفذونها أحياناً، ويرسمون رسومات على الجدران، ويقطعون خطوط الماء، ويشرطون عجلات السيارات بالسكاكين، ويوزعون صوراً عن أعضائهم الذكرية. في هذا النزاع، أظن أن النساء ذوات المهبل مخطئات لأنهن لا

يستطعن التكيّف مع زمن مختلف كانت فيه المرأة ذات المهبل تشكل نوعاً واحداً من النساء وأن الأنواع الأخرى من النساء هن نساء مثلهن. وإذا اخترت أن تكون أمريكياً وأن تصبح مواطناً فلا يتعين عليك أن تتخلّى عن كلّ ما كنت عليه من قبل. فقد أصبحت أنت نفسك أمريكياً، لكن عندما تواجه تحدّياً تقول إنك تشعر بأنك أجنبي ولهذا السبب فقد حافظت على الجزء الأجنبي فيك. وإذا اخترت أن تكون امرأة فإن الحريّة نفسها موجودة. وإذا حاول أحد أن يمنعك من اختيار نوع جنسك، فلديك الحقّ في أن تحتج.

لكن ماذا لو أنني لا أستطيع أن أرى أن هذه الاختيارات هي اختيارات. ماذا لو تعلّمتُ من جماعة المثليّين الذكور أن المثليّة غريزية، وأنها يجب أن تكون طريقة إنسانية، لا يمكن اختيارها أو عدم اختيارها، وماذا لو كرهت الفكرة الرجعية بأنك تستطيع أن تثقف مثليّاً لأن يتخذ اختياراً مختلفاً وأن يتخلّى عن سلوكه المثليّ. ماذا لو كنت لا أستطيع أن أرى أن هذه الاختيارات التي تقترحينها، هذه الفوارق المتعدّدة في نوع الجنس المحتملة، ليست جزءاً من تلك العقيدة الرجعية ذاتها، لأن ما يتم اختياره يمكن عدم اختياره، ويحقّ للسيدة أن تغيّر رأيها. ماذا لو اقترحت أن هويتي الجنسية صعبة، ومؤلمة، ومشوّشة، ولا أعرف كيف اختار أو ماذا اختار، أو حتى إذا كان الاختيار هو ما يجب أن يحدث، ماذا لو كنت بحاجة إلى أن أترنّح بشكل أعمى لأكتشف ماذا أنا وليس من أختار أن أكون. ماذا لو كنت أعتقد بأنه توجد *أنا* وأن عليّ أن أكتشفها. ماذا لو كان هذا الأمر يتعلق بالاكتشاف لا بالاختيار، باكتشاف من كنتُ دائماً، لا باختيار نكهة معينة من معرض بوظة نوع الجنس. ماذا

لو كنت أعتقد بأنني لو كنت امرأة يعني أنها لا تستطيع أن تمارس الجنس مع امرأة لها عضو ذكري ويجب احترام ذلك. ماذا لو انتابني القلق بأنه قد تكون هناك حرب أهلية على هذا الجانب من تقسيم نوع الجنس، وماذا لو كنت أعتقد بأنها حرب غير صحيحة. ماذا لو كنّا كلّنا أنواعاً منفصلة من النساء وأننا لسنا الشيء نفسه، وإذا كان الفصل، بما في ذلك الفصل الجنسي، مقبولاً وليس صارماً أو سيئاً. ماذا لو كنّا كائناً يتشكل من اتّحاد ولايات مختلفة ويجب أن نحترم حقوق هذه الولايات، فضلاً عن الاتحاد نفسه. إني أفقد صوابي وأحاول أن أحلّ كلّ هذه الأسئلة وأنا لا أعرف الكلمات، فأنا أستخدم الكلمات التي أعرفها، لكن يبدو أنها الكلمات غير المناسبة طوال الوقت، ماذا لو كنت أحاول أن أعيش في بلد خطير لم أتعلّم لغته. ماذا إذاً.

إذاً سأقول، أمامنا الكثير من العمل حتى نتمكن من تحطيم السقف القطني في رأسك.

ما هو.

ثياب داخلية قطنية. إن ثياب المرأة الداخلية هي محور لاضطهادها وتهميشها. انتهى الاقتباس.

حكى أحدهم لصديقتي نكتة حول أن تصبح بليونيرة متحوّلة جنسياً. فقالت، أُعرّف بأنني بليونيرة لذلك فأنا غنية الآن. كيف تردّين على ذلك؟

هذا ليس أمراً مضحكاً.

* * *

وصل إلى العتبة لكنه لم يدخل الغرفة قط. كان محصوراً بين الخوف واللغة، ووجد [نفسه] غير قادر على أن يتحرّك، لكنه لم يستطع أن يمكث في المكان الذي كان فيه أيضاً. كانت علامات التحذير واضحة بما يكفي. جاءت مكالمة إلى ريا من *نادي الجسرين للفتيات* وقالوا لها، ليس من دون تهذيب، بِهن اضطررن لأن يطلبن [منه] أن يتوقف عن المجيء إلى النادي، لأنه بدأ يسأل الفتيات بإلحاح أسئلة شخصية جداً ولم يعدن يشعرن بالارتياح بوجوده حولهن. وعلى الفور أصبحت الأجواء في *نادي الجسرين* مريحة، وشعرت الفتيات بارتياح ورحن يعملن بجدّ في مجال العدالة الاجتماعية، أو في برامج التثقيف حول البيئة، أو رحن يتعلّمن الفنون الرقمية والسمعية، أو بدأن يأخذن فصولاً تمهيدية في العلوم والتكنولوجيا والرياضيات، أو يساعدن في إدارة بناء القبة الفلكية الرائعة (هدية من متبرع ثري)، أو يدرسن الرقص أو التغذية. زرته في النادي عندما بدأ عمله التطوّعي في النادي، قبل أن يبدأ المسار اللولبي في الهبوط، وكان سعيداً لسعادتهن، وبدا أن موقفهن المريح حول تنوع نوع الجنس قد ساعده كثيراً. وسواء أكان مثلياً أم طبيعياً، متوافقاً مع نوع جنسه أم متحوّلاً جنسياً، أم لا يزال يتساءل عن هويته الجنسية، أم لا توجد لديه هوية جنسية محددة، فإن شيئاً من كلّ ذلك يعتبر مشكلة. في البداية، كان ذلك مشجّعاً، بل حتى مثيراً، لكنه عندما بدأ يواجه العوائق المتعلقة بالتحوّل، لم تساعده هواجسه الجسدية والاجتماعية والصعوبة التي واجهها في اللغة الجديدة، على التفكير في أنه ربما كان يعاني من مشاكل تتعلق بالأجيال، التي لم يتأثر بها الجيل بعده. وتذكرت الإنسان البدائي في مسرحية غولدنغ «*الورثة*» وهم ينظرون بغضب وحسد غير مفهوم إلى الجنس البشري الجديد الأكثر تطوّراً ورقياً الذي أصبح يمتلك النار، *الإنسان*

العاقل، عندما ظهر لأول مرة وهكذا كُتب عليهم، أسلافه، أن ينقرضوا. فبدأ يرى [نفسه] أنه كائن بدائي، والفتيات في نادي الإناث الناس الجدد الأفضل منه وفي الوقت نفسه البديل له أيضاً، لأنّ باستطاعتهن ارتياد الأماكن التي لا يستطيع هو أن يرتادها، وبإمكانهن دخول الأرض الموعودة التي يمنع عليه دخولها بسبب تقييدات تصوّراته. فبدأ يضايقهن، ويحشرهن في الزاوية في الكافتيريا أو على أبواب قاعات الدروس أو عندما كن يلعبن بجانب ملعب السوفتبول أو في ساحة تزلّج الهوكي، ليسألهن عن أشياء لا يملكن الإجابة عنها ويلتمس منهن نصائح لا يعرفن كيف يقدمنها له، فأصبح عدوانياً، وبدأ يثير إزعاجهن، لذلك أصبح طرده من النادي أمراً حتمياً، وقد تقبّل ذلك من دون أي اعتراض.

أشحنا بعيوننا عنه. لا شك في ذلك. كان ينبغي أن نرى هشاشته المتزايدة، وربما رأيناها، لكننا اخترنا كلنا أن ننظر إلى مكان آخر. فبعد جريمة قتل آبوو، انسحب نيرو غولدن من المجتمع وانكفأ إلى ظلام سببه الظاهر واضح لكن معناه الأكثر غموضاً سيتضح لاحقاً. ووضع الجرّة التي يوجد فيها رماد رفات ابنه على طاولة مكتبه، وقيل إنه كان يكلّمه باستمرار، كلّ يوم. وكان يُسمح للسيدتين اللتين تشبهان التنين بالدخول إلى غرفة مكتبه، وخصّص وقتاً لبيتيا، وكان يخصص دائماً وقتاً لأكثر أبنائه اضطراباً، وأصبح أكثر تسامحاً عندما بدأ بيتيا يشقّ طريقه ببطء ليخرج من محنة الحريق الذي أضرمه ويعود إلى ذاته الأفضل، لكن بسبب حيرته وتحطّمه لم يعد الابن الأصغر المدلل. وكان يوجد لديه فيسباسيان الصغير وزوجة وجدت سبلاً عديدة لتصرّ على أن من حقّ الطفل أن يحظى بمشاعر والده ومودته. فيسبا الصغير، كانوا ينادونه، كأنه دراجة نارية يمكنهما كلاهما أن يركباها ويعودان بها إلى السعادة. وعندما يكون

برفقة فيسبا الصغير، كان وجه نيرو يلين وتعلوه ابتسامة أحياناً. وعاملت فاسيليسا زوجها بالعناية الأمومية نفسها التي كانت تغدقها على فخرها وبهجتها الصغير، لا لأنها رأت وأرادت أن تخفف من وطأة حزنه، في يقيني، فحسب، وإنما كذلك، لا يوجد عندي أدنى شكّ، لأسباب أنانيّة. فمن بيننا كلنا، كانت هي التي رأت بوضوح شديد ضعف وتضاؤل هذا الرجل المتنمّر الشرس. فقد رأت بجلاء أن ذاكرته بدأت تتلاشى بازدياد، وأخذت قبضته على زمام الأمور تتراخى، وفهمت أنه مع الوقت سيصبح طفلها أيضاً، وكانت على استعداد لقبول كلّ ذلك لأن الجائزة في نهاية مخططها ستكون عظيمة. (وبدأت أفكاري حول فاسيليسا تزداد حدة منذ ولادة ابني، والجدار الذي أقامته بعد ذلك بيني وبينه) وكانت أمّ فاسيليسا في البيت أيضاً، لكن نيرو كان يقف ضدّها فأبعدت فاسيليسا أمّها عنه، واستخدمتها كممرضة لفيسبا الصغير. وكان من الواضح أنه لم تكن للأمّ سطوة عليها في علاقتهما. وكانت تنفّذ كل ما يُطلب منها. وكانت تتحيّن فرصتها أيضاً. فقد كانت تعرف طبيعة اللعبة. وظلت في الخلف وكانت تدندن للصبي أغاني روسية وتحكي له قصصاً روسية، بما فيها، ربما، قصّة *بابا ياغا*، الساحرة، حتى يكبر ويعرف ماذا أنجزت أمّه له. ولو كان باستطاعتها أن تقرأ كتب قصص الأطفال بالإنكليزية، فلعلها تقول إن فيسباسيان هو الرابح الذهبي.

(٢٦)

أشحت بعينيّ عن دي غولدن أيضاً. وشُغلنا أنا وسوشيترا طوال ذلك الصيف والخريف بالمرأة الوطواط (بات ومان). ففي تلك السنة السريالية الانتخابية جذب صعودنا المفاجئ من خلال نظام جوائز أفلام الفيديو إلى مصاف نجوم الإعلانات السياسية انتباه جماعات التأييد التقدمّية والأموال الطائلة التي يغدقها أعضاء «لجنة العمل السياسي» لدعم منافسة الجوكر ذات المؤهّلات العالية لكنها لم تكن تحظى بشعبية. وانتشر فيلم الرسوم المتحركة الذي أعددناه لمصلحة إحدى جماعات التأييد تلك، بمساعدة عدد من كبار الفنانين في رسم الجوكر، انتشارا واسعاً، الشرّير الباسم يقف في وسط مدينة نيويورك يصيح عبارات استخدمها مؤيدوه السياسيين في الواقع، التي يسخر فيها من حزبه، هؤلاء الحمقى! *يمكنني أن أطلق النار على أي شخص وأقتله في ميدان تايمز سكوير ولن أخسر أي صوت*، إلى أن انقضّت عليه بطلة خارقة ترتدي لباس الوطواط وألبسته سترة المجانين وسلّمته إلى رجال في أردية بيضاء من المزرعة المضحكة. وولدت المرأة الوطواط السياسية، وأعادت المرشّحة، أو مؤيدوها، نشر الإعلان الذي أعددناه على صفحات وسائل التواصل الاجتماعي الرسمية التابعة للحملة، وحظي بثلاثة ملايين زيارة خلال الساعات الأربع والعشرين الأولى، وفي النهاية، نفّذنا ثلاثة أفلام فيديو أخرى

حازت كلها النجاح نفسه تقريباً. وأصبحت الانتخابات منافسة شديدة بين المرأة الوطواط والجوكر - المرأة الوطواط، التي كان لديها جانبها المظلم، لكنها استخدمته للمصلحة العامة، والعدالة، وطريقة الحياة الأمريكية، زعيمة يمكنها إنقاذ البلد كي لا يصبح نكتة كارثية. حدّدنا الصراع. وأصبح ما قلنا إنه كان.

كانت سوشيترا صاحبة فكرة المرأة الوطواط، مع أنني أنا من كتب معظم السيناريو، أو كلانا. فقد كنّا فريقاً جيداً، لكنّي ظللت أتساءل ما الذي كانت تراه فيّ، فلم نكن متساويين تماماً، لأنها كانت متألقة أكثر من بريقي الخافت، ومرّت أوقات شعرت فيها أنني حيوانها المدلل. وفي وقت متأخّر من إحدى الليالي، عندما أنهينا عملنا وتناولت ما يكفي من الشراب وسألتها، راحت تضحك وتضحك، وقالت: «أيّ رفيقين نحن، فكلانا لا نشعر بالأمان ولا يدرك أحدنا شعور الآخر بالأمان». ألم أرَ؟ فأنا المتعلّم، المثقّف، وأنا الذي كنت أرى الصلات والمراجع والأصداء والحجج والأشكال، أما هي فلم تكن تعرف سوى كيف توجّه الكاميرا وتقوم بأعمال تقنية عديدة أخرى. وكان ذلك يشعرها بأنها أقل قدراً منه، أما الآن فكان إحساسها بعدم الأمان هو الذي يتكلّم. ذكّرتها بأحد الأشياء الجميلة التي علّمتني إياها. صورة لها شكل وكذلك الصوت وكذلك المونتاج وكذلك الدراما. إن معنى الفيلم هو أن الفنّ هو الذي يكفل أن تكون الأشكال الأربعة ذاتها. كانت تلك قدرتها على التكييف مع نظريات سيرجي آينشتاين، مخرج *ألكساندر نيفسكي* و*السفينة الحربية بوتيمكين*. «حسناً»، قالت وابتسامة عريضة ترفرف على وجهها عندما ذكّرتها، «نعم، كان ذلك رائعاً».

تلك الاعترافات - إحساسي بالدونية الإبداعية، شعورها بالدونية الثقافية - قرّبتنا كثيراً بعضنا من بعض. هكذا كنّا: نحبّ

مواطن القوة أحدنا لدى الآخر، لكن الحبّ يزداد عمقاً نحو الديمومة عندما يحبّ أحدنا ضعف الآخر. لقد وقعنا في الحبّ الذي يقبع تحت حبّنا كما يقبع الماء تحت الجليد، وفهمنا أنه بينما كنّا نجد متعة كبيرة معاً، كنا نتزلّج على السطح فقط، أما الآن فقد بلغنا أعمق ما يمكننا بلوغه. ولم يعترني إحساس كهذا من قبل، وهي أيضاً، قالت، وحدّق أحدنا في وجه الآخر في نوع من عدم تصديق سعيد. لذلك، هنا المكان الذي تركّز عليه انتباهي. فعندما هبطت عائلة غولدن، صعدت أنا. صعدنا، أنا وحملي الجميل، ومثل الصقر في *أوكلاهوما*، طرنا في دوائر بطيئة في السماء.

«أوه، بالمصادفة»، قالت، في غمرة بهجتنا، «إنك تعرف تلك القواعد الثلاث التي ربما أكون قد ذكرتها؟»

«'اكسب عيشك بنفسك، احصل على شقّتك، ولا تطلب مني أن أتزوجك'. نعم؟»

«أظن أن هذه المسألة قابلة للنقاش».

«أوه».

«'أوه'؟ حقاً؟ هل هذا كل ما لديك؟»

«كنت أتساءل فقط»، قلت، « كيف يمكنني أن أنقل الخبر إلى صاحب البيت، يو لنو فنو».

* * *

«لكي أشتري سمك السلور»، قال يو لنو فنو، «فإني أذهب أحياناً إلى محل *هول فوودس* في ميدان يونيون سكوير، لكن لا يتوفر لديهم دائماً هذا النوع من السمك، أو إنني أذهب إلى الحيّ الصيني. كما أن معكرونة الشعيرية، وصلصة السمك، ومعجون السمك، والزنجبيل، وعذق الموز، وعشبة الليمون، والبصل، والثوم، وطحين الحمص،

ضرورية أيضاً. اجلس وكن صبوراً من فضلك. هذا هو طعام الفطور التقليدي في بلدي: موهينغا. اجلس، أرجوك».

«سيد يو»، بدأت كلامي. فأوقفني بأن رفع ذراعه بلطف، وقال: «الآن في النهاية يجب أن أصحّح ما تقوله. فأنت تعرف أن 'يو' هذا ليس اسماً، وإنما لقب احترام يطلق على الرجال الأكبر سنّاً الذين يشغلون مناصب عالية. ويطلق أيضاً على الرهبان. لذلك فإن قولك 'السيد يو' كما تقول 'السيّد سيّد' و 'لنو' هو اسم أبي الذي أصبح اسمي أيضاً. يجب أن تخاطبني فنو. هذا أفضل بكثير».

«السيد فنو...».

«فنو فقط. فنحن أصدقاء الآن. هيا تناول *موهينغا*».

«فنو».

«أعرف ما تريد أن تقوله. تريد أن تذهب وتعيش مع فتاتك، ولهذا فإنك تبلغني بذلك، وبما أنك تحبّ الغاردنز فإنك تريد أن تسأل هل من الممكن أن تحتفظ بمفتاح البيت، وبما أنك شاب مهذب وتعرف أنني أعيش وحيداً فإنك ستقول إنك تحبني وتريد أن تزورني بين الحين والآخر، وما إلى هنالك».

«هل شاهدت مسلسل *سينفيلد*؟»

«الحلقات كلها، وأعيد مشاهدتها الآن أيضاً».

«كيف عرفت؟»

«صديقتك، اتصلت بي، لأنها تعرف أن لسانك ينعقد عندما تريد أن تطلب شيئاً. ومن دواعي سروري أن أعطيك إياه. احتفظ بالمفتاح. وسأؤجر غرفتك لشخص آخر، هذا طبيعي، لكن أنت مُرحب بك دائماً».

«الغاردنز جميلة جداً في هذه الفترة من السنة».

«لن أعود إلى بلدي أبداً»، قال الدبلوماسي العجوز، «ولا حتى

إلى ميانمار التي تغيّرت كثيراً والتي ترأسها حالياً داو أونغ سان سو كي. ثمة مرحلة في الرحلة يجلس فيها المسافر بجانب النهر ليستريح ويعرف أنها نهاية الطريق. سيأتي يوم يقبل فيه أن فكرة العودة وهم».

«أنا آسف»، قلت، لم أجد كلمات أفضل من هذه.

«وعائلة غولدن مثيرة للاهتمام أيضاً، أليس كذلك»، قال يو لنو فنو، باشّاً، بل كان في الواقع مصفّقاً، كاشفاً عن جانب ماكر لم أعرفه في شخصيته، وأضاف، «بدأوا يتفكّكون ويتصدعون كما يمكن للمرء أن يرى، وفي هذه الأيام، عندي وقت كثير لأراقب».

* * *

أي نوع من الرجال أنا، أتناول طعام فطوري سمكاً ومعكرونة شعيرية مع رجل عجوز بورمي يعيش وحيداً (ميانمارني) مدّعياً أنني أحب الغاردنز من أجل النباتات التي تنمو فيها والحنين إليها فقط. أي نوع من الرجال، يزمع أن يعيش مع المرأة التي أحبّته، وحافظ على إمكانية الدخول إلى المكان السرّي الذي يوجد فيه ابنه السرّي، يومياً، في عربة أطفال، تحت حراسة أمّ روسية شرسة؛ ومع ذلك حافظ على أبوته طيّ الكتمان، حتى عن حبيبته الحقيقية. أي نوع من الرجال أنا الذي نشأ في هذا المكان بالذات وتربى على يد أبوين يؤمنان بالمبادئ. تربى لينشأ صادقاً ومحترماً، يستسلم بسهولة كما فعل عندما سمع صفارة إنذار تناديه. لعل الرجال كلّهم خونة. قد يكون الرجال الطيبون خونة لم يصلوا بعد إلى المفترق في طريقهم. أو ربما كانت رغبتي في التعميم انطلاقاً من سلوكي مجرد وسيلة لأجد عذراً لنفسي على ما فعلته بسهولة شديدة.

وها هي سوشيترا تتّصل بصاحب البيت الذي أقيم فيه: هل هذا حبّ، أم أمر غريب بعض الشيء؟ هل تعرف أكثر مما أظن؟ وإذا

كان الأمر كذلك، فماذا يعني سلوكها هذا؟ - لكنها لا تعرف طبعاً شيئاً عن الصبي. هكذا تجعلنا أسرارنا الآثمة خائفين طوال الوقت.

حتّى عندما ازدادت سعادتي الشخصية، ازداد أيضاً انتقادي الذاتي الخفي، ومع ذلك، وعلى الرغم من كلّ شيء، يوجد هنا، في الغاردنز، ابني. كيف يمكنني أن أدير ظهري له وأبتعد عنه - حتى لو ذهب إلى حياة مليئة بالحبّ؟ وفي أحيان كثيرة الآن، في غالب الأحيان، كنت أندم على اليوم الذي سمحت فيه لنفسي - عندما اخترتُ - أن أُجَرَّ إلى مدار بيت غولدن، مبدياً هذه البصيرة السيئة التي اعتقدت أنّهم كانوا وسيكونون مواضيعي وجواز سفري إلى مستقبلي السينمائي، وأنني سأكون الشخص الذي يمتلك القوّة لرواية القصة، ولم أر أنّني أنا الموضوع، وليس أيّ رجل من عائلة غولدن، وأن مسار القصّة سيعلمني عن نفسي أكثر مما سيعلّمني عن أي شخص آخر. ومثل شبان كثيرين كنت من نواح عديدة سرّاً من نفسي ومن الذين أحبّوني، وقبل أن ينتهي كلّ شيء، يجب أن تُكشف هذه الأسرار.

بعد العجرفة والغطرسة تأتي *إلهة الثأر*: *أدراستيا*، المحتوم. فقد يكون رجل طيب رجلاً سيئاً، وقد تكون امرأة سيئة امرأة طيبة. أن لا تكون صادقاً مع نفسك، أيها الشاب، فإنها الخيانة العظمى. حتى أقوى القلاع يمكن هزيمتها بالحصار. والسماء التي نرنو إليها قد تتهاوى وتسقط، وقد ينهار جبل إلى البحر. وفي النهاية، فإن سحرك القاسي، يا بروسبيرو! سيلتهمك إذا لم تحرّره مثل أريل، ما لم تكسر عصاك.

وتبيّن أن الطفل السحري في مسرحية أسخيلوس «*شباك الصيادين*» هو البطل الخارق بيرسوس. وتبيّن أن الطفل السحري في مسرحية سوفوكليس «*المقتفون*» هو الإله هيرميس. والآن يوجد

فيسباسيان الذي سُمّي على اسم إمبراطور، الطفل السحري في الغاردنز وفي قلبي. ولكي يحيا، هل عليّ أن أتركه وشأنه؟ هل يجب عليّ أن أحرّره؟

* * *

كانت «إصلاحية كلنتون أوكس» في جفرسن هايتس، بمينيسوتا، السجن الوحيد الذي توجد فيه حراسة مشدّدة في الولاية. لكن بعد هروب سجينين اثنين، اكتشف المحقّقون أن حرّاس السجن لم يؤدّوا دورياتهم الأمنية جيداً، ودوّنوا معلومات غير صحيحة في سجلات السجن وذكروا أنهم نفّذوا دورياتهم في حين أنهم لم يفعلوا ذلك حقاً. وعوقب حوالي تسعة عشر شرطياً لتقصيرهم. لكن إهمال الحرّاس لم يكن العامل الرئيسي لهروب السجينين، لأنه تبيّن أن الحبّ - أو الجنس والشهوة - هو السبب الرئيسي. فقد كان السجينان المتهمان بجرائم قتل، كارل زاتشارياسن وبيتر كويت، نزيلين في زنزانة واحدة، وكانا محكومين بالسجن المؤبد من دون إمكانية إصدار عفو عنهما، وكانا يعملان في ورشة الخياطة في السجن، وصادقا إحدى السجينات العاملات في الورشة، السيدة فرانسين أوتيس، وهي امرأة متزوّجة، وأمّ لطفلين. وتعمّقت الصداقة فيما بينهم، ودعونا لا نستخدم لغة أقوى من هذه، فقد أقامت أوتيس، كما اعترفت بعد ذلك، علاقة مع كلا الرجلين في خزانة في الجانب الآخر من الممر الطويل الضيّق في منطقة العمل الرئيسيّة في ورشة الخياطة. ثم جلبت أوتيس للرجلين الأدوات التي يحتاجان إليها، وهي معدّات لقطع المعادن، وتابعا تنفيذ خطّتهما. فحفرا فتحات مستطيلة في الفولاذ وراء زنزانتيهما، وتحت الأسرّة المرتفعة، ووضعا دمى صنعاها من قمصانهما على سريريهما لخداع

الحرّاس عندما يقومون بأعمال دورياتهم. (على الرغم من ذلك، كما تبيّن لاحقاً، لم يجر الحرّاس جولات تفقدية في تلك الليلة). وفي خارج الفتحة في جدار الزنزانة كان يوجد زقاق لم يطرقه أحد منذ سنوات. هبطا خمسة طوابق على أنبوب بخار مغلق لأن الطقس كان دافئاً في ذلك الوقت من السنة، وثقبا فيه فتحة وزحفا فوقه ببطء لمسافة أربعمئة قدم حتى وصلا إلى فتحة مجارٍ وراء أسوار السجن. وبالأدوات التي زوّدتهما بها فرانسين أوتيس، كسرا القفل والسلسلة الفولاذيتين اللتين كانتا تغلقان فتحة المجاري، وهربا.

استمرت المطاردة ثلاثة أسابيع، شارك فيها أكثر من ثمانمئة شرطي بالإضافة إلى الكلاب البوليسية وطائرات الهليكوبتر. وكان زاتشارياسن وكويت، بحسب اعتراف أوتيس بعد ذلك، قد خطّطا أصلاً ليلتقيا بها في نقطة على الطريق ٣٥، حيث وعدتهما بأنها ستكون بانتظارهما مع ملابس ونقود وأسلحة. ومما يدعو للحزن أنها كانت تتوقّع متوهمة بأنهما سيأخذانها معهما لبدء حياة جديدة مليئة بالحبّ والجنس في كندا. لكن خطّتهما الأصلية كانت تكمن في أن يأخذا ما تجلبه لهما ثمّ يقتلانها. وخلال الأسابيع الثلاثة التالية، شوهدوا بضع مرّات، والتقطت الكلاب رائحتهما، وعُثر على آثار الحمض النووي الخاص بهما في كوخ في الغابة، وفي النهاية حوصرا في غابة كابيتوغاما الرسمية في مكان غير بعيد عن الحدود الكندية. فأُلقي القبض على كويت حيّاً، وقُتل زاتشارياسن أثناء مقاومته رجال الشرطة بعد أن أصيب بثلاث طلقات في رأسه. وأذيع نبأ المطاردة في نشرات الأخبار على جميع القنوات الوطنية.

كنا قد رفعنا عيوننا عن دي غولدن لأننا كنا نعتقد أن ريا زي كانت برفقته كلّ يوم، وأن عينيها ستريان كلّ ما يجب أن يُرى. لكن طوال ثلاثة أسابيع من هروب والدها من سجن كلنتون أوكس، كانت

ريا تكاد تفقد صوابها في كلّ دقيقة من كلّ يوم وليلة حتى قُتل في غابة كابيتوغاما. وكان ذلك عندما طلب من دي أن يغادر *نادي الجسرين*. كانت العاصفة الملائمة، فقد كان دي في أشدّ الحاجة إليها في الوقت الذي كان انتباهها موجهاً إلى مكان آخر.

يقولون في نشرات الأخبار إنه كان يحاول الوصول إلى كندا، لكن هذا هراء، قالت، مندفعة. كان يحاول الوصول إليّ.

كانت تلك ريا لم يرها دي من قبل، مذعورة، حائرة، شرارات ضعيفة تنطلق عند حافاتها. كانت هي الشيء الوحيد الذي يؤمن به. فقد وجد فيها صخرته المعجزة، لكنها انهارت ولم يستطع احتمال ذلك.

لماذا سيأتي إلى هنا، إلى المدينة. فهي بعيدة جداً، والمجازفة كبيرة جداً، ولا بد أن الشرطة ستجده في المدينة وستقبض عليه.

المدينة هي المكان الذي تختبئ فيه، قالت. أما في الريف، في البلدات الصغيرة أو في الحقول أو الغابات، فإن الجميع يرونك، والكلّ يعرفون ماذا تفعل. أما في المدينة، فأنت غير مرئي لأن لا أحد يبالي بك.

لكن هذا منتصف الطريق. لن يأتي.

وعدني بأنه سيأتي. إنه سيأتي.

* * *

لم يأت زاتشارياسن. كان يركض نحو الحدود في غابة شمالية. لكن على الرغم من التقارير التي تفيد بأنه شوهد في مكان بعيد عن نيويورك، فقد ظلت ريا مقتنعة بأنه سيأتي إليها، فأخرجت مسدّس كولت قبضته مرصعة باللؤلؤ فلقّمته بالطلقات ووضعته في محفظتها، وحتى بعد ذلك، أصبحت مثل قطّة فوق سطح صفيح ساخن. وفي

متحف الهوية، لاحظ زملاؤها أن عينيها الوحشيتين قد ذبلتا، ولم تعودا هادئتين، تلك العينان اللتان كانتا تشيان بثقة كبيرة في النفس عادة، وكان لدى كل واحد منهم حلٌّ، فقد تكون بحاجة إلى إجازة، وقد لا تكون سعيدة في علاقتها، وربما ينبغي لها أن تبدأ بتناول *الكافا كافا* النبات العشبي العضوي الذي سيساعدها على الراحة والاسترخاء.

لم يعد يكاد يغمض لها جفن في الليل، وكانت تجلس بالقرب من النافذة في غرفة نومها تتوقّع أن يتسلق والدها القاتل في أيّ لحظة إلى السطح المستوي المجاور لشقتهما، كادت تطلق النار في أكثر من مرة، على قطّة. وأكثر من مرة فعلت شيئاً لم تفعله في حياتها، وهو أن تستشير المخنّثة مدام جورج في الطابق السفلي في صالون «أور لمعرفة الطالع بواسطة كرة التارو الكريستال»، وعندما أكدت لها مدام جورج أن مستقبلها طويل ومشرق، قالت لها هذا غير صحيح، ففتحت قارئة البخت أوراقها مرة أخرى، ومع ذلك، أضافت قارئة البخت، أحضري صديقك إلى هنا، فهو الذي أقلق عليه، لكنها لم تفعل ذلك، لأنها قالت إنّها تعرف مشاكل دي جيداً وهو ليس بحاجة إلى مساعدة تقدمها امرأة مخنّثة حتى تفهمه، والآن، لمرّة واحدة فقط فإن الأمر لا يتعلق به، وإنما بها وبوالدها الوغد الشرّير الذي سيلاحقها في الليل. وذهبت لرؤية المرأة المشاكسة صاحبة البناية الوردية والصفراء وبدأت تقول للسيدة ران بصوت مرتفع، مرتفع جداً، إن الوقت قد حان لتركّب نظاماً أمنياً جيداً في البناية، وهاتف فيديو عند مدخل البناية وأجهزة إنذار وأقفالاً أفضل داخل البناية وخارجها، فأي شخص يستطيع الدخول إلى البناية، وهذه مدينة قاسية وخطيرة، ولم تكفّ عن ذلك إلّا عندما قالت لها السيدة ران: «تأتين إليّ وتسألين عن المصباح في القاعة، فإني سأفكّر في الأمر.

لكن أن تأتي إليّ مثل مصّاص دماء نطاط، ومخلوق جيانغشي يصرخ في فمك، فإني سأطلب منك أن تخرجي من بيتي فوراً. وهذا ما تختارينه الآن»، فصمتت ريا مذهولة. وقفت وراحت تلهث عند مدخل البناية بينما أخذت السيدة ران تنقر بأصابعها تحت أنفها، ثم أدارت ظهرها وسارت باتجاه «مخزن ران ران للتجارة» لتحدق بغضب في البطات المعلّقة. أما ريا التي كانت تنضح عرقاً وتلهث، فلم تفهم آنذاك أنها فقدت صوابها من شدّة الخوف، لكن دي غولدن الذي كان يراقبها بخوف شديد من درج الطابق الأول، فهم ذلك جيداً الأمر الذي زعزع توازنه أيضاً.

ثلاثة أسابيع من جنون ريا فاقمت من اضطرابه الداخلي. أيامه وحيداً في الشقّة، لياليه التي احتشدت بخوفها الناجم عن رهابها من الأماكن الضيّقة. خوفه [هو]، خوفه من [نفسه]، تضخّم بسبب خوفها من ظلّ أبيها. وفي النهاية، أصبحت الظلال قوية جداً، فاستحوذت على عقله وروحه. ولم يعد بإمكان أحد منّا أن يراه، أو يقدّم له مساعدة.

ذهبتُ لرؤيته مرة أخيرة واحدة، مع أنّني لم أكن أعرف أنها المرة الأخيرة. ففي حين كانت ريا تحاول الحفاظ على رباطة جأشها على الرغم من رعبها الهستيري بسبب اقتراب زاتشارياسن الهارب منها، أخذته لنتمشى في الحيّ الصيني. وعلى مقعد في ميدان كيملو عند التقاء ثمانية شوارع، تحت نظرة تمثال بطل الحرب الفخورة اللويتنانت بنجامين رالف كيملو من كتيبة المدفعية ٣٨٠ التابعة للقوة الجوية الخامسة الذي خسر في إحدى المعارك الجوية ضد اليابان في عام ١٩٤٤، اعترف دي غولدن بإخفاقه في أن يوفق بين العناصر المتصارعة في داخل [نفسه]. في ذلك اليوم، كان يرتدي قميصاً نقشت عليه مربعات، وبنطالاً فضفاضاً، ويضع واقية شمسية، وعلى

شفتيه أثر خفيف من أحمر الشفاه، ويعتمر قبعة بيسبول وردية اللون فوق شعره الطويل الذي وصل الآن إلى تحت كتفيه. «انظر إليّ»، صاح، «بائس في ثياب رجالية، وخائف من الخروج على الملأ أيضاً وهو يرتدي فستاناً، وهذا الفم المصبوغ والقبعة الوردية، يا لها من لفتة صغيرة حزينة». وكرّرت ما كان يردده له الجميع، خطوة خطوة، فالتحوّل رحلة سحرية من ألف ليلة وليلة، فهزّ رأسه فقط. «لا توجد لديّ لحظة افتح يا سمسم. لا يوجد حكواتي خالد ليحكي قصّتي البائسة». انتظرت ما الذي يمكن أن أراه سيأتي. «تأتيني أحلام حالياً أرى فيها في كلّ ليلة *الهجرة* (التحوّل) في فترة طفولتي، أرتدي ثياباً كما يفعل مايكل جاكسون، أدور حول نفسي في الشارع، أنقر على نافذة سيارتي، وأصرخ ارقص معي. وعندما أستيقظ أجد نفسي مبللاً بعرق بارد. الحقيقة هي أنني أعرف ما تقوله لي هذه *الهجرة*، هو هي، تصرّ على أنك يجب أن تكون كلّ شيء أو لا تكون شيئاً. وإذا كان عليك أن تفعلها فعليك أن تقطع الشوط كلّه. العملية، كلّ شيء، مثل هجرة حقيقية. وأيّ شيء أقل من ذلك فإنه يبدو غير صادق، مثل أن ترتدي ثياباً مثل مايكل بينما أنت مجرد عاهرة على شاطئ تشوباتي. لكن، يا إلهي. الحقيقة هي أنني ضعيف جداً، خائف جداً، مرعوب جداً» قال، «ربما كان آبوو هو المحظوظ».

تطلّع حواليه، وسأل، «أين نحن؟ لقد ضعتُ».

أعدته إلى شقّته. وهذا ما أتذكّره الآن، جالساً على مقعد وسط ثمانية طرق تمرّ فيها السيارات، عارفاً أنه لا يستطيع أن يكون بطلاً في حربه الخاصة، السيارات تتدفّق نحوه ثم تبتعد، و[هو] غير قادر على أن يختار اتجاهاً، لا يعرف أي طريق منها يؤدي إلى البيت.

* * *

قتلوا زاتشارياسن وأذيع الخبر في نشرات الأخبار المسائية،

فهدأ روع ريا على الفور، كما لو أن مفتاحاً قد أُلقي به، وأطلقت تنهيدة عظيمة وزفرت كلّ جنونها وعادت إلى طبيعتها ثانية، وعادت كما كانت، ريا «الحقيقية» أُنقذت من خوفها الزائف، وراحت تعتذر من الجميع بسبب جنونها المؤقت، واستأنفت عملها المعتاد، وطمأنت الجميع بقولها: لا تقلقوا عليّ. وبعد فترة قصيرة، كما كان متوقعاً، لم نقلق عليها. وهكذا نسينا جميعاً، ما عدا دي غولدن، أمر المسدس.

***

وصل إلى بيت غولدن في أبهة وفخامة، وترجّل من الباب الخلفي لسيارة ليموزين ديملير تم اختيارها قصداً لتكون ترديداً لصدى السيارة التي تقلّ جميع أفراد عائلة غولدن إلى شارع ماكدوغال ليمتلكوا بيتهم من جديد. فتح سائق يرتدي بدلة خاصة باب السيارة وأبقاه مفتوحاً وخفّض درجات صغيرة لكي تجد قدما دي الذي ينتعل حذاء والتر ستيغير بكعبه المنحني طريقهما إلى مستوى الشارع دون أن يتعثر. [إنه] - لا! - أصبح من الملائم الآن تغيير ضمائرها والقول ببساطة هي، نفسها! - جيد جداً إذاً، *كانت* ترتدي فستان سهرة قرمزي اللون طويلاً ماركة *ألايا*؟ التمع فوقه شلال شعرها بإغراء في أشعة الشمس، وتحمل حقيبة صغيرة ماركة *مواواد* موشاة بالجواهر. وهكذا، امرأة شديدة الأناقة، أعطت مفتاحها للسائق ليفتح لها الباب الأمامي، دخلت دي غولدن للمرة الأخيرة إلى بيت أبيها - للمرة الأولى، ربما، نفسها - ذاتها الحقيقية، الذات التي طالما خشيت ما يمكن أن تكون، والتي كانت تجد صعوبة كبيرة في تحريرها.

وقف نيرو في أعلى بئر الدرج، تقف إلى جانبيه الآنسة بلاذر والآنسة فاس، والشرر يتطاير من عينيه، وقال: «لقد ولد أبناء الملوك ليقتلوا آباءهم، وأيضاً، فهذه الثياب من ملابس زوجتي».

ظهرت فاسيليسا غولدن ووقفت بجانب زوجها، وقالت: «إذاً هذا هو اللصّ الذي أبحث عنه».

لم ترفع دي عينيها إلى الأعلى، ولم تردّ. سارت بخفّة في البيت باتجاه النوافذ الكبيرة وخرجت إلى الغاردنز. حسناً، وتبع ذلك رفرفة الستائر على النوافذ! بدا أن جميع السكان الذين تطلّ بيوتهم على الغاردنز أرادوا أن يشاهدوا ما يحدث. لكن دي لم تعر أحداً أي اهتمام، وسارت نحو المقعد الذي جلس عليه، ذات يوم، منذ سنوات، شقيقها بيتيا وكان يضحك الأطفال بالقصص التي يحكيها لهم. جلست على المقعد نفسه والمحفظة المسروقة في حضنها وشبكت يديها فوقها - محفظة ريا - وأغمضت عينيها. كان هناك أطفال يلعبون عند طرفي الغاردنز وكانت صرخاتهم وضحكاتهم بمثابة الموسيقى التصويرية لصمتها. لم تكن في عجلة من أمرها. انتظرت.

خرج فيتو تاغليابو، الزوج القواد الذي هجرته زوجته ليعبّر لها عن تضامنه. أثنى على شجاعتها وهنّأها على ذائقتها العصرية ثمّ لم يعد يعرف ماذا يقول. أمالت رأسها بلطف، معربة عن قبولها لتحيته وتهنئته، وأشارت له بأن ينصرف الآن. تراجع بارون سيلنانت، كما لو كان في حضرة أسرة ملكية، كما لو كان الالتفات إلى الوراء يعتبر خرقاً للمراسم المتبعة، وعندما تعثّر بدراجة أطفال ذات ثلاث عجلات بلاستيكية متعددة الألوان لا يستخدمها أحد أدخلت مشهداً سعيداً لتمثيلية هزلية في لحظة يفترض أنها لحظة جادّة. ارتجفت شفتا دي في ابتسامة خفيفة، ثمّ، واصلت تأملها بهدوء وتأنٍّ.

في الفيلم سأقطع صمتها بمشهد سريع الحركة. عندما عادت ريا إلى البيت، وجدت خزانة ثيابها مفتوحة وغير مرتّبة، ولم تجد محفظتها التي تضع فيها المسدس، ووجدت رسالة على منضدة الزينة، صفحة مطوية من نصفها؛ ثمّ قفزت ريا إلى الشارع، ولوّحت

إلى سيارة أجرة. لكن لم تكن هناك سيارات أجرة في المنطقة، ثمّ مرت سيارة لكنها لم تقف، ثمّ توقفت لها سيارة أخيراً.

ما إن دخل الأطفال إلى بيوتهم ليأكلوا أو يرتاحوا أو يفعلوا أي شيء يفعله الأطفال في هذه الأيام أمام جميع أنواع الشاشات، فتحت دي غولدن الجالسة في حديقة الغاردنز عينيها واستوت واقفة على قدميها، وبدأت تمشي.

وريا في سيارة الأجرة، تحثّ السائق على أن يسرع أكثر، فيجيبها، من دون أن يلتفت إليها، يا سيدة، أنتِ الراكبة وأنا السائق، دعيني أقود سيارتي كما أشاء. تسند ظهرها إلى مقعدها وتغمض عينيها (قطع، في الغاردنز، تكرار. دي تفتح عينيها) وعلى صوت الموسيقى التصويرية نسمع صوت دي وهي تقرأ رسالة الانتحار.

دي غولدن (صوت)

إني لا أقدم على ذلك بسبب صعوبات أواجهها في حياتي. وإنما أقدم على ذلك لأن لديّ مشكلة مع العالم الذي جعل الأمور لا تطاق بالنسبة إليّ. لا أستطيع تحديدها، لكن عالم البشر ليس على ما يرام. عدم مبالاة الناس بعضهم ببعض. فظاظة البشر. إنه أمر مخيّب للآمال. أنا إنسان عاطفي لكنّي لم أعد أعرف كيف يمكنني أن أتواصل مع أي شخص. لا أعرف كيف ألمسك يا ريا، مع أنك أرق شخص عرفته في حياتي. في العهد القديم دمّر الرب مدينة سدوم لكني لست الرب وليس بمقدوري أن أدمّر سدوم. يمكنني فقط أن أبعد نفسي عن دائرته. وإذا دخل آدم وحواء إلى جنّة عدن فمن المناسب أن أغادر أنا، أنا الذي يجمع حواء وآدم في آن معاً، العالم في حديقة أيضاً.

أتذكر موريس رونيت في فيلم «*النار في الداخل*» إخراج لويس مال (١٩٦٣)، يطوف حول مدينته أيضاً، باريس، يحمل مسدساً، أحزنه الجنس البشري، وعلى وشك أن ينتحر.

سارت على امتداد حديقة الغاردنز، بتؤدة، بمهابة، من بدايتها حتى نهايتها، ثمّ، في الجانب الآخر من بيت نيرو، بيتها السابق، وخارج ما كان بيت عائلتي، استدارت، وكانت أبهتها تشي بأبهة ملكة. ثمّ عادت إلى منتصف الحديقة، وتوقفت، وفتحت محفظتها.

وبما أنه فيلم، فمن الضروري في هذه اللحظة أن تقتحم ريا المشهد عبر النوافذ الكبيرة في بيت غولدن وتصرخ.

ريا

لا تفعلي.

الآن ظهرت وجوه في جميع النوافذ. وتخلّى سكان البيوت المحيطة بالغاردنز عن كلّ تحفّظاتهم، ووقفوا خلف زجاج نوافذهم يتملكهم الرعب الذي سيأتي. وبعد صرخة ريا زي، لم ينبس أحد ببنت شفة، ولم تعد لدى ريا أيضاً كلمات تقولها. كان ثمة شيء من المصارع الروماني في دي غولدن في تلك اللحظة، فقد بدت مثل محارب ينتظر القرار بإشارة من إبهام الإمبراطور. لكنّها كانت إمبراطورة نفسها الآن، وأصدرت حكمها للتو. ببطء، بتعمّد، مدّثرة بخلوة قرارها، وبهدوء وضوحها النهائي، أخرجت المسدس ذا القبضة الموشاة باللؤلؤ من المحفظة الموشاة بالجواهر، ووضعت فوهة المسدس على صدغها الأيمن وأطلقت النار.

(٢٧)

كان على الأسطول اليوناني أن يبحر إلى طروادة لاسترجاع هيلين الخائنة، لذلك كان يجب تهدئة الإلهة الغاضبة آرتيميس لتسمح بهبوب رياح معتدلة لطيفة، لذلك تعيّن التضحية بإيفيجينيا ابنة أغاممنون، وانتظرت أمّها الحزينة كلتمنسترا، أخت هيلين، عودة زوجها من الحرب لتقتله، فيثأر ابنهما أوريستيس لموت أبيه بقتل أمّه، فتلاحق آلهات الغضب (الفيوري) أوريستيس، وإلى ما هنالك. وتكمن المأساة في الوصول إلى فكرة أن حتمية الأمور الإنسانية قد تكون خارجية (لعنة عائلية) أو داخلية (عيب في الشخصية)، لكن في كلتا الحالتين ستأخذ الأحداث مسارها المحتوم. أما فكرة مواجهة الحتمية فهي على الأقل جزء من الطبيعة البشرية، مع أنّ مفردات أخرى تتعلق بالمأساة، القوة الخارقة، القدر، القِسمَة، الكارما، المصير، كانت قويّة جداً على كلّ لسان، وإن الإصرار على الصفة البشرية والإرادة هما على الأقل جزء من الطبيعة الإنسانية، وأن الاعتقاد بأن تدخّل المصادفات والحظ في شؤوننا الإنسانية هو التفسير الأفضل لإخفاقات تلك الإرادة أكثر من تفسير مسار القدر المحتوم الذي لا يمكن مقاومته المتأصّل في الحكاية. إن إلباس ثوب الغرابة على الأمور العبثية، وفكرة الحياة الخالية من المعنى، هي رداء فلسفي يجذب الكثيرين منّا أكثر من أثواب التراجيدية

السوداء والحزينة التي عندما تبلى تصبح الدليل ويد القدر المحتوم. لكنها أيضاً مظهر من مظاهر الطبيعة البشرية - سمة قويّة من سمات الحيوان البشري المتناقض كنقيض لها - جبرياً لقبول أن هناك حقاً نظاماً طبيعياً يسيّر الأمور، وأن تلعب، من دون تذمّر، الأوراق التي وزعتها أنت نفسك.

جرتان مليئتان برماد البشر تنتصبان فوق مكتب نيرو غولدن: هل هذه حتمية مأساوية، أم بلاء مزدوج حدث عرضاً؟ والجوكر الخرف يتأرجح من فوق بناية إمباير ستيت بعينه الشرهة على البيت الأبيض: هل كان ذلك نتيجة سلسلة من الأحداث الغريبة من سوء الحظّ التي لا يمكن التنبؤ بها، أم أنها نتيجة ثماني سنوات وأكثر من البذاءة والسفاهة العلنية التي كان تجسيداً لها وأوجها؟ هل هي مأساة أم مصادفة؟ وهل هناك سبل لتفاديها من أجل العائلة والبلد، أم من الحكمة أكثر أن يجلس المرء ويقبل قدره؟

كان نيرو غولدن يمضي ساعات عديدة كلّ يوم يجلس وحده إلى طاولة مكتبه يحدّق في رماد ابنيه، يسألهما طالباً منهما إجابات. وللتخفيف من وطأة حزنه، كانت فاسيليسا تحدّثه عن نمو فيسباسيان الصغير، كلماته الأولى، خطواته الأولى، لكن لم يكن هناك شيء يمكنه مواساة حزن الرجل العجوز والتخفيف من وطأته. قال لها: «أنظر إليه، أنظر إلى بيتيا، وأتساءل دور من منهما التالي»، فردّت فاسيليسا على كلامه بحدّة، وقالت: «بالنسبة إلى ابني، فهو في مأمن. فأنا سأحميه بحياتي وسيكبر ويصبح رجلاً قوياً وناجحاً». فرفع عينيه إليها من كرسيه ورمقها بنظرة تشي بشيء من الاستنكار، وبشيء من التأثر أيضاً، بل حتى بشيء من الضعف، وقال: «وحبيبي بيتيا، ألن تحميه أيضاً؟» فدنت منه، ووضعت يدها على كتفه، وقالت: «أظن أنّ أزمة بيتيا أصبحت ضرباً من الماضي. فقد حدث

الأسوأ ولا يزال معنا وسوف يتحسن ويعود كما كان من قبل».

فقال: «أن يموت الأبناء قبل أبيهم، مثل أن يهبط الليل والشمس لا تزال في كبد السماء».

«شمس جديدة بدأت تشرق فوق بيتك، أمير شابّ جميل»، قالت له، «لذلك فإن اليوم القادم هو يوم مشرق».

انتهى الصيف. وانحسرت الأسابيع التي سادت فيها الحرارة إلى رطوبة غائمة. ونعمت المدينة بسحر شهر أيلول/ سبتمبر المعتاد، تناسخه الخريفي السنوي، لكني كنت أنا وسوشيترا في تيلوريد لحضور مهرجان السينما؛ وتحولت سلسلة المقابلات التي أجريناها عن لحظات السينما الكلاسيكية إلى فيلم وثائقي جميل، «*فضل اللقطات*»، تشمل بعض الشخصيات الهامة تتحدّث عن المشاهد التي أحبّوها أكثر من غيرها - لا ويرنر هيرزوغ فقط، وإنما كذلك إمير كوستوريكا، ومايكل هانيك، وجين كامبيون، وكاثرين بيغلو، ودوريس دوري، وديفيد كرونينبيرغ، وفي مقابلته الأخيرة، الراحل عباس كيارستمي - وتم اختيارنا لعرضه في مهرجان السينما الراقي في يوم العمال في عطلة نهاية الأسبوع في جبال كولورادو، في البلدة نفسها التي قام بوتش كاسيدي وشريكه سندانس كيد بأول عملية سطو لهما على مصرف، وأرواح تشاك جونز اللطيفة (وغير اللطيفة) رسام ومخرج أفلام الرسوم المتحركة وبطليه «وابيت ودافي داك»، ترمقنا جميعاً. حتى هناك، في جنة عدن السينمائية تلك، كان الحديث ينتقل أحياناً إلى التحدّث عن الموتى في تلك السنة، عندما غادرتنا جميع أفلام «ستارمان»، و«الأرجوانيّ»، و«صائد الأيل»، و«فرانكشتاين الشاب» («*ذاك فرانكينشتين*»)، و«آر ٢ دي ٢»، و«*الطير على السلك*»، و«*الأعظم*». لكن كانت لدينا أفلام - *أرض لا لا*، *والوصول*، *ومانشيستر بجانب البحر* - لتشغل عقولنا وعيوننا،

فأخذ الموت مقعداً خلفياً على الأقل خلال فترة المهرجان، لأن الحياة الحقيقية، كما نفهمها جميعاً، هي حياة خالدة، حقيقية، لا تموت، تشعّ في الظلام على الشاشة الفضّية.

عندما عدنا إلى المدينة ونحن في حالة نشوة كبيرة بسبب ما حظي به فيلمنا في تيلوريد من استقبال رائع، ذهبت لألقي التحية على على نيرو، وخطر لي أيضاً أن أدعوه إلى صالة الشاي الروسية لنتناول كأساً من الفودكا وطبق البلينيز، لأردّ له الجميل على اهتمامه بي بعد أن أصبحت يتيماً. وأعترف أنني كنت مبتهجاً جداً لفوزنا في جبال الروكي، وقد لا أكون قد بذلت جهداً كافياً لكي أبدو حزيناً كما ينبغي في ذلك البيت الذي حلّت به عدة كوارث، لكني عندما دخلت إلى بيت غولدن، وجدت نيرو العظيم جالساً في غرفة الجلوس يحتسي الشاي بأفضل فنجانين الشاي الخزفية الموجودة في بيته مع ذلك المتشرد النبوئي المتشدّق الذي ذكّرني بكلاوس كينسكي، وبدا لي أنه كان يأخذ ثرثرة الرجل بجدّية، ولم أتمالك نفسي، أعترف بذلك، من أن أكبت ضحكة، لأن هذا الفيتزكارالدو الرخيص، الذي اعتمر قبعة مهترئة لهذه المناسبة والذي يرشف الشاي بصوت مسموع من فنجان من بورسلان ميسين النادر، والذي أصبح يشبه الآن كثيراً صانع القبعات المجنون، وأصبح نيرو، وهو يميل نحوه وينصت إليه باهتمام شديد، يشبه شخصية الأرنب مارتش في فيلم *أليس في بلاد العجائب*.

ضحكتي تلك جعلت كينسكي يستقيم في جلسته في ما فهمته من معرفتي الطويلة بأعمال بي جي وودهاوس بأنها تعبير عن حنق شديد. «هل أضحكتك؟» سأل بنبرة حادة مثل إحدى عمّات بيرتي ووستر المرعبات. لوّحت بيدي، لا، لا، لا أبداً، وتماالكت نفسي.

«لا يوجد شيء مضحك في ما أقوله»، قال كينسكي، وأعاد

انتباهه إلى مضيّفه، «إني آتي لأجلس على الأرض وأحكي قصصاً حزينة عن موت الملوك». جلست كلمات ريتشارد الثاني في مسرحية شكسبير بشكل غريب في فم صعلوك أمريكي يجلس على كرسي من طراز لويس الخامس عشر يحتسي شاي لابسانغ من فنجان من خزف ميسين، لكن لا يهم. «اجلس يا رينيه»، قال نيرو، وأشار بيده نحوه وربّت على مكان على الأريكة. «اشرب قليلاً من الشاي واستمع إلى هذا الرجل. إنه رائع». كانت هناك حلاوة جديدة في أسلوب نيرو تثير القلق. ابتسم، لكنّها ابتسامة أشبه بتكشيرة عن أنيابه أكثر من كونها دلالة على البهجة. كان صوته ناعماً، لكنّه كان قفازاً مخملياً يخفي وراءه قساوة مؤلمة عن فكرته.

«ستمضي الأمور إلى الأسوأ»، قال كينسكي فجأة، فنجان الشاي يهتزّ في يده، «فجبل الشرّ أعلى من أعلى بناية وكلّ المدافع مستعدة للإطلاق. أسمع أمريكا تصيح، أين هو الله؟ لكن الله مفعم بالغضب لأنك ابتعدت عن دربه. أنتِ، أمريكا!» - هنا، وبشيء من الغرابة، أشار إلى نيرو مباشرة، وقال: «لقد أنكرت الله وها هو يعاقبك الآن». «لقد أنكرت الله فها هو يعاقبني الآن»، كرّر نيرو. وعندما ألقيت نظرة نحوه رأيت دموعاً حقيقية مغرورقة في عينيه. الرجل الملحد علناً الذي غرق في أزمة، دعا إلى بيته تاجر الهراء الذي تفوح من فمه رائحة الويسكي، وقد تأثر حقاً بعلم الآخرة السخيف. ابتعدت خمسة أيام، قلت في نفسي، وعندما عدت إلى البيت رأيت العالم مقلوباً رأساً على عقب. «نيرو»، بدأت أقول، «هذا الرجل...» - لكنّه لوّح لي بيده بأن أسكت. «أريد أن أسمعه»، قال بإصرار، «أريد أن أسمع كلّ كلمة يقولها».

وهكذا انتقلنا من روما إلى اليونان، ووقع الرجل الذي اتّخذ لنفسه اسم آخر القياصرة الاثني عشر في شباك نسخة نيويوركية من

أوديب الملك، مستميتاً للحصول على إجابات، بنسخته من تيريسياس الأعمى يتنبّأ بحدوث كارثة. كان كينسكي لا يزال يصرخ لكني كنت قد سمعت خزعبلاته مرات كثيرة تكفي لأن أشعر بالضجر منها، وقد توقفت عن سماعها. ثمّ، رأيت فاسيليسا واقفة عند الباب ووضعت حداً لكل ذلك. «يكفي»، قالت آمرة، مشيرة بإصبعها إلى كينسكي، فأسكتته. تخيّلت فيلماً من الخيال العلمي، «دارث سيديوس» ينبثق بقوّة من ذلك الإصبع. اهتزّ كوب الشاي بقوة في يد المتشرد لكنّه وضعه على المنضدة سليماً ووثب مضطرباً ووقف على قدميه. «ماذا عن دولارين؟» كانت له الجرأة ليسأل، «وماذا عن أجرتي؟» فقالت له: «هيا غادر هذا البيت وإلّا استدعينا رجال الشرطة لينظروا في مسألة أجرتك».

عندما ذهب، التفتت إلى نيرو وكلّمته بنفس نبرة *الممرضة راتشد* السلطوية في صوتها التي استخدمتها على كينسكي.

«لا تفعل ذلك مرة أخرى»، قالت.

أوه، قلت في نفسي. إننا في عشّ الوقواق.

* * *

لم تتبع قصّتي حتى الآن نيرو غولدن في رحلاته المنتظمة إلى الشقّة الكائنة في جادة يورك أفنيو حيث كان يلتقي بعاهرته الأثيرة، مدموزيل *لولو*. ولم أر أنا نفسي قط مبغى من الداخل، ولم أدفع لأي امرأة في حياتي مبلغاً لممارسة الجنس معها، وهي حقيقة قد تشي بالاستقامة الخلقية - لكنها أيضاً، بعكس ذلك، قد تدلّ على براءة ساذجة، وشيء من القصور في قصّة ذكورتي. إن عدم خبرتي في هذا المجال جعل من الصعب أن تتبع مخيّلتي نيرو في مغامراته هذه وهو يصعد درجاً ضيّقاً مضاء بنور أحمر خافت يفضي إلى أي

مخدع مليء بالوسائد المريحة والمعطّرة. وعرفت أن ذلك كان جزءاً من سنوات حياته منذ بلوغه مبلغ الرجال، وأنه قبل أن يتعرف على زوجته الحالية، كان يتحدّث أحياناً عن مآثره ومغامراته النسائية إلى أكثر أفراد دائرته في لعب البوكر خزياً، الثعلبين الفضّيين اللذان يسمّيان، ربما، *كارلهينز وجيامبولونا*، أو ربما كارل أوتو وجيامباتيستا، نسيت - رجلان لعوبان مستهتران من أصل ألماني وإيطالي، وعلى الرغم من ذلك، فقد كانا محافظين سياسياً، محور القوة على طاولة القمار بسترتيهما الجلديتين المدبوغتين وربطات عنقهما الزاهية الألوان، اللذان ماتت زوجتاهما الثريتان في ظروف غامضة وخلّفتا لهما كلّ أموالهما. أما فيما يتعلق بارتباطهما بقبيلة العاهرات اللاتي يُطلبهن بالهاتف فقد كانوا كلّهم يفكرون تفكير رجل واحد: إذ يمكنك أن تلتقي بهن بين فترات الاجتماعات ولا يتعين عليك أن تتذكّر أعياد ميلادهن، وتستطيع أن تطلق عليهن جميعاً اسم الدلع نفسه، مدموزيل جيجي، أو مدموزيل ناستيغال، أو مدموزيل بابيكاكيس، أو مدموزيل لولو. لأن جميع الأسماء التي قالتها لك الفتيات أنفسهن هي أسماء زائفة. وهذا معروف في أعراف التسويق، عرض بيعهن المميّز - لقاء سعر معين، يفعلن ما تشاء، ثم يغلقن أفواههن. وفي ليالي لعب البوكر، يتبجّح نيرو وزيرا النساء، كارل فريدريك وجيانسيلفيو بمآثرهم الجنسية التي أقنعوا عاهراتهم بأن يقمن بها، وامتدحوا القوّة الرياضية، والقدرة الجمبازية، والمرونة البهلوانية التي تمتاز بها عاهراتهم المختارات. وتحدّث نيرو فقط عن ذكاء فتاته. فقال: «إنها فيلسوفة، أزورها لأستمع إلى حكمتها»، مما أثار ضحكات كارل ثيودور وجيامبنيتو التي تشبه النهيق. «وماذا عن النيك»، جأرا بصوت واحد. «نعم، والنيك أيضاً»، قال نيرو غولدن موافقاً، «لكن الفلسفة ميزة إضافية». «أخبرنا»، صاحا، «حدّثنا عن

حكمة عاهرتك»؛ فأجاب نيرو غولدن، «إنها تقول مثلاً، أسمح لك بأن تشتري جسدي لأنني أرى أنك لم تبع روحك». «هذه ليست حكمة»، قال جيانلوكا معترضاً، «إنها تملّق». «وهي تتحدّث أيضاً عن العالم»، تابع نيرو كلامه، « فهي ترى أن كارثة عظيمة على وشك أن تحلّ، ومن الانهيار الشامل لكلّ شيء، سيولد النظام الجديد». فقال كارل إنجو، «هذه ليست حكمة، إنه كلام لينين»، ثمّ ضحكوا كلّهم بصوت صاخب، وصاحوا، «هيا نلعب الورق!»

الآن، في زمن الانحدار - تدهوره العقلي البطيء الأكيد - بدأت زيارات نيرو إلى بيت سيدته المختارة تقلّ. لكنه كان يزورها بين الحين والآخر، ربما لأنه كان يريد أن يستمع إلى الحقائق التي اكتسبتها بمشقة كبيرة كما كان مستعداً للاستماع إلى المتشرد كينسكي. وبعد خسارته المضاعفة، ضاع في ضباب اللامعنى وراح يبحث في كل مكان ليعثر على طريقة تجعل للعالم معنى مرة أخرى. كان لا يزال قادراً على أداء أعماله إلى حدّ ما طالما كان في وسط أشخاص يعرفهم. ووطد علاقته مع سائق سيارة ليموزين من هاييتي له اسم أنثوي «كلود ماري» احتفظ به ضمن حاشيته لأنه يعرف أنه سائق كفء وكتوم، ولذلك، كان بوسعه أن يذهب من شارع ماكدوغال إلى جادّة يورك أفنيو، ويفعل ما عليه أن يفعله هناك، ثم يعود من دون أيّ مشكلة. أما في اليوم المحدد الذي سأتحدّث عنه الآن، فقد اضطر كلود ماري إلى الذهاب إلى المحكمة بسبب قضية طلاق مريرة مع زوجته، فأرسل عمّته مرسيدس بنز لتنوب عنه في مهمته. وكان اسم العمّة بنز الحقيقي شيئاً يشبه كرييولي- فرنسي وغير معروف. أما اسم السيارة الذي يُطلق عليها الآن فهو اسم تكريمي منحه لها بعض الأقارب المعجبين. وفي أيام عزّها كانت سائقة جيدة وماهرة، أما في السنوات التي ابيضّ فيها شعرها، فقد أصبحت غريبة

الأطوار. فلم تعد قيادتها للسيارة مستقرة، وهكذا وصل نيرو إلى باب بيت المدموزيل لولو وهو يرتجف قليلاً.

«مرحباً، أيتها الحمقاء الصغيرة»، قال. كان هذا اسم الدلع الذي يطلقه عليها، «لقد جاء أحمقك الكبير».

«إنك حزين»، قالت باللكنة الفرنسية الزائفة كان يحب أن تتكلم بها، «وقد أعاقبك قليلاً وتعاقبني قليلاً لتصبح أفضل حالاً *comme toujours*؟ (كما دائماً)»

«يجب أن أجلس دقيقة»، قال، «إنها سائق غريب. لقد تملّكني، نعم، تملّكني الخوف».

فقالت: «إنك تفكّر في الموت يا chéri، هذا مفهوم تماماً. فالقلب الذي تحطّم مرّتين لن يُصلح بسرعة».

لم يعرف من هي التي كانت خارج هذه الغرفة ذات الأريكة الحمراء وغطاء الفراش الذهبي ولم يكترث لذلك. كان الشخص الموجود داخل هذه الغرفة يكفي لتلبية احتياجاته. كان يبحث عن المعترفين والفلاسفة. ولم يعد الجنس الذي أصبح صعباً في هذه الأيام، أساسياً تقريباً. فقد أطفئت الأضواء في داخله وأصبحت الإثارة مثل مدينة يحنّ إليها في بلد هجره. «لماذا حدث ذلك»، سألها، «وماذا تعني».

فقالت: «الحياة رخيصة. قلتَ ذلك أنت نفسك، قلتَ لي ذلك، للسيد غورباتشوف».

«قلت إن الروس هم الذين قالوا ذلك. لكني تقدمت في السن، ومن المؤكد أن الحياة أصبحت ثمينة، أليس كذلك؟»

«فتى قُتل لأنه كان يبيع سجائر في الشارع، *بافففف*. فُتاة قُتلت لأنها كانت تلعب ببندقية بلاستيكية في الملعب، *بوووف*. قُتل ستّون شخصاً في شيكاغو في الرابع من تموز/يوليو، *باو- باو- باو*! فتى

غني يقتل والده لأن هذا الأخير خفّض مصروفه الشهري، *واووو!* فتاة ترقص وسط حشد على أنغام الموسيقى تطلب من شخص غريب أن يتوقف عن أن يحكّ مؤخرته بمؤخرتها فأطلق النار في وجهها، خذي هذه، *أيتها القحبة*، موتي. حتى أنني لم أصل إلى الساحل الغربي بعد. *Tu comprends* (أتفهم)؟»

«العنف موجود. أعرف هذا. تظل مسألة القيمة».

«أتقصد، في حالتك أنت وأحبائك، تصبحون استثناء. في هذه الحالة لا بدّ أنهم في دائرة مسحورة ورعب العالم لا يستطيع أن يمسّهم وعندما يمسّهم، فهذا خطأ في الواقع».

«بدأتِ تصبحين مزعجة الآن. ماذا تعرفين؟»

«أنا أقترب من الموت كلّ يوم أكثر منك أيها العجوز، وأنت طاعن في السن»، قالت بمودّة، وعانقته، «وأنا فتاتك الغبية، لذلك أستطيع أن أقول لك الحقيقة».

«صدّقيني»، قال، «أنا أعرف عن الموت أكثر مما تعرفين. إنها حياة لا أستطيع الإمساك بها».

«اسمح لي أن أمسك هذا»، قالت، وتغيّر الموضوع.

بعد جلستهما ساءت الأمور لأن العمّة مرسيدس بنز لم تُر في أي مكان. وتبين لاحقاً أنّها ركنت السيارة في الجانب الآخر من البناية، وغطّت في النوم، وقد سقطت سدادة شريط الصوت الموصول إلى هاتفها من أذنها، فلم تسمع رنة الهاتف. فأخذ نيرو يقرع جرس باب منزل مدموزيل لولو مرعوباً، مستشيطاً غضباً، غير قادر على معالجة الوضع، فاضطرت لولو للنزول إلى الشارع وأوقفت سيارة أجرة صفراء، ورافقته إلى بيته. وعندما وصلا إلى شارع ماكدوغال كان لا يزال يرتجف وبتنهيدة ترجّلت من السيارة، وساعدته على أن يترجّل منها، وقرعت جرس البيت. كانت المدموزيل لولو فارعة الطول،

باهرة الجمال، أصلها من المكان الذي كانت تصرّ على أن تطلق عليه «الهند الصينية» وحافظت على هدوئها عندما فتحت فاسيليسا غولدن الباب بنفسها، وقالت لها: «مدام، زوجك معكّر المزاج».

بعد فترة صمت، أجابت فاسيليسا بخشونة، وقالت: «قولي لي، ألا يزال بإمكانه أن يقوم؟»

«إذا كنت لا تعرفين ذلك يا سيدتي»، أجابت المدموزيل لولو، «فمن المؤكد لست أنت الشخص الذي سأعلمه بذلك».

(٢٨)

الموت يتكلّم، في مسرحيّة سومرست موم شيبي (١٩٣٣): «كان هناك تاجر في بغداد أرسل خادمه إلى السوق ليشتري بعض الأشياء، ثم عاد الخادم شاحب الوجه وجسمه يرتجف، وقال، يا سيدي، عندما كنت في السوق، دفعتني امرأة في وسط الحشد، وعندما استدرت رأيت أن الموت هو الذي دفعني. نظرت إليّ وأومأت إليّ إيماءة تهديد. الآن، أعرني حصانك، وسأبتعد عن هذه المدينة لأهرب من قدري. سأذهب إلى سامراء حيث لن يجدني الموت. فأعاره التاجر حصانه، وامتطاه الخادم، وغرز مهمازه في خاصرتي الحصان وانطلق بأسرع ما يستطيع. ثمّ ذهب التاجر إلى السوق ورآني واقفاً بين الحشد فجاء إليّ وقال، لماذا أومأت لخادمي إيماءة تهديد عندما رأيته هذا الصباح؟ فقلت لم تكن تلك إيماءة تهديد، وإنما مجرد بداية المفاجأة. فقد دهشت لأنني رأيته في بغداد، لأن موعدي معه هذه الليلة في سامراء».

أظن أننا شعرنا جميعاً بأنه سيكون هناك موت آخر. ففي الأسابيع الماضية تلك، لم أر بيتيا كثيراً، وربما لم يره أحد كثيراً سوى الأسترالي، لكني أعتقد أنه كان يعرف ذلك أيضاً، بأنه رأى الموت يهدده في السوق واستمات للهرب منه، فاستعار حصاناً وامتطاه وجرى نحو سامراء، معتقداً أنه هارب مما كان ذاهباً للقائه

في الحقيقة. آخر رجال آل غولدن الثلاثة الذين جاؤوا مع والدهم إلى أمريكا ينضحون بتلك الأبهة الأميرية، بتلك الغرابة القويّة، ووجد في موت أشقائه، الحافز الذي يحتاج إليه ليظل على قيد الحياة، وبذل جهداً هائلاً لكي يعيد حياته إلى شيء يشبه مساراً صحيحاً، ويولي ظهره للموت ويمدّ يده إلى الحياة.

كانت القطّة فكرة نيرو. فقد سمع بطريقة ما، تلقى رسالة من مكان ما في عالم الثرثرة التي لا تتوقف عن معلومات من الكون المتعدد، بأن صحبة القطط قد تساعد البالغين المصابين بالتوحّد، واقتنع بأن حيواناً أليفاً من نوع القطط قد يكون بمثابة الخلاص لبيتيا. وعرضت الآنستان فاس وبلاذر على نيرو بعض الصور على الإنترنت للقطط المتوفرة الآن. وعندما رأى الوشق الألبي الأبيض، صفّق وقال: «هذا هو». لكن فاس وبلاذر حاولتا إقناعه بأن الوشق الألبي أقرب إلى وحش برّي منه إلى حيوان أليف، وقالتا له ألن يكون بيتيا أكثر سعادة لو حصل على قطة فارسية جميلة سمينة كسولة طويلة الشعر بلون الشكولاته أو زرقاء اللون، لكنّه أصرّ بطريقته الغامضة الجديدة، فأذعنتا وذهبتا إلى محل بيع القطط وأحضرتا ذلك الحيوان الوحش إلى البيت. وتبيّن أن نيرو يعرف ابنه جيداً، فأحبّها بيتيا على الفور، وأطلق على القطّة اسم «ليو» على الرغم من أنها أنثى، وضمّها إلى صدره، واختفى معها في الغرفة الغارقة في الضوء الأزرق. وكان بإمكان هذه القطّة أن تثب وتمسك طيراً في الهواء، وكان مواؤها أشبه بزئير، وبغريزة حيوان بري، عرفت بشكل ما الطريق من خلال غابة عذاب بيتيا الداخلي إلى المكان الطيب الكائن في قلبه. وفي الليل، عندما يكون البيت هادئاً والأشباح الميتة وحدها تسير في ممراته ودهاليزه كانت القطّة تغنّي بصوت ناعم في أذن بيتيا فأعادت إليه ما كان قد فقده، نعمة النوم.

بدأ العالم خارج البيت المسكون بالأشباح يبدو أشبه بأكذوبة. ففي خارج البيت يقبع عالم الجوكر، العالم الذي بدأت الحقيقة فيه تعني في أمريكا، أي نوع من تزييف جذري للحقيقة: تزييف، بهرجة، تعصب، سوقيّة، عنف، رعب، وكان ينظر إليها كلها باستصغار من فوق برجه المظلم، مخلوق ذو بشرة بيضاء وشعر أخضر وشفتين حمراوين براقتين لامعتين. وفي داخل بيت غولدن، كان الموضوع هو هشاشة الحياة، وفجائية الموت السهلة، وإحياء الماضي البطيء المميت. وفي الليل، كان يُرى نيرو غولدن أحياناً واقفاً في الظلام خارج غرفة ابنه البكر، مطرق الرأس، عاقداً يديه، في وضعية يمكن أن يُظن - لولا أنه كان معروفاً بأنه رجل غير مؤمن - أنه يصلي. ما يمكن أن يُظن أنه أب يتوسل إلى ابنه ويقول، *ليس أنت أيضاً، عش، عش.*

لم نعرف من أين سيأتي الموت. ولم نحسب أنه كان موجوداً في الأصل، على الأقل مرة واحدة، داخل البيت.

بعد أن استدار من باب غرفة ابنه المغلق، عاد نيرو غولدن إلى غرفة مكتبه، وأخرج آلة كمان غوادانيني من صندوقها، وراح يعزف معزوفته المفضّلة باخ تشاكوني. وعلى الجانب الآخر من الباب المغلق، كان الوشق يعتني ببيتيا، وخفّ الشراب قليلاً - لكن إلى حد ما فقط. ولم يعد يصيح متألماً عندما يكون نائماً.

* * *

سُوّيت دعوى سوتوفوتش فجأة بدفع نسبة خمسة وعشرين في المئة من مبلغ الادعاء الأصلي. لم يكن فرانكي في صحة جيدة. فقد كان يعاني من مرض في القلب، عدم انتظام في خفقات القلب، وبالإضافة إلى حالته الصحية هذه كان مصاباً أيضاً بمرض في الروح.

فبهت الوميض في عينيه وتلاشى التوقّد المألوف في حركة ذراعيه وتحوّلت إلى خفقات فاترة. فقد تأثّر كثيراً بموت أوباه. وكان من الواضح أنه كان يحمل لها مشعلاً سرياً، لكن عندما رأى أنها على علاقة عميقة مع آبوو، لم يفصح عن مشاعره. ومن الغريب أن شخصاً أمضى كلّ أيامه في عالم يتواصل مع الفنّ، ينضح وداعة منفتحة، كان صاحب صالة العرض يعيش حياة سرّية، خاصّة، منعزلة في معظم الأحيان، وكان قد تزوج لكن زواجه لم يدم طويلاً، لا يوجد عنده أطفال، مطلّق منذ زمن بعيد، يقيم في جناح مرتفع الثمن في فندق ميرسر، وكان يطلب خدمة الغرف عندما لا يكون مشغولاً في عمل يتعلق بالفنّ. رجل ودود، لديه حفنة من الأصدقاء، وعندما كان في الغاردنز، تحدّث مع فيتو تاغليابو عن فترة حبس بياجيو، والد فيتو، الطويلة في غراند أوتيل ودي بالمز في باليرمو. وقال له: «لقد مات والدك المسكين وحيداً ولم يكتشف الذين يحبّونه جثمانه بل العاملون في الفندق، وسيكون هذا مصيري أيضاً. سيحضرون سندويشة بيرغر وكأس نبيذ أحمر وسيكتشفون أنهم تأخروا كثيراً لتقديم عشائي الأخير». لقد أنهكته مشاعره التي لم يفصح عنها نحو أوباه بعد موتها. الآن، وبعد أن انحسر مدّ الحقد والانتقام، قبل أنّ الأعمال التي تلفت كانت مؤمّنة بمبلغ كاف وأنّ دعواه التي يطالب فيها بملايين الدولارات ضد عائلة غولدن قد نشأت بسبب تلاطم عواطفه. «لم يعد ذلك يهمني»، قال لمحاميه، «لنغلق الدعوى». رأيته مرة واحدة فقط في تلك الأيام أثناء افتتاح ماثيو بارني في غلادستون، وصُدمت من التغيير الذي طرأ عليه، الشحوب، الإرهاق. «كم أنا سعيد لرؤيتك أيها الشاب»، قال يحيّيني، خافقاً بيده، «من الجيد رؤية أنه لا يزال هناك أشخاص مليئون بالوقود وينطلقون بسرعة مئة ميل في الساعة». فهمتُ أنه كان يحدّثني عن

نفسه، وأن خزان الوقود لديه قد نضب، وأنه يجري الآن بخزان فارغ. حاولت أن أتطرّق إلى الموضوع الذي لم يكن يريد إثارته، فقلت: «كانت امرأة استثنائية». فبدا غاضباً بأسلوبه المنهك الجديد، وقال: «وماذا في ذلك؟ فالموت ليس أمراً استثنائياً، فالجميع يموتون. الفنّ هو الاستثنائي، فلا تستطيع إلّا حفنة قليلة أن تفعل ذلك. أما الميت فهو مجرد ميت».

بعد انتهاء الدعوى انتهت الخدمة الاجتماعية. فخرج بيتيا أيضاً من هذه المحنة، منتعشاً، وخرج من غرفته مع ليت، المعالج، يحتضن قطّته بذراعه اليسرى، ووجد والده يقف هناك في حبّ حنون، فوضع يده اليمنى على كتف نيرو، وحدّق في عين والده، وقال، «سنصبح كلّنا على ما يرام». وكرّر هذه الجملة سبعاً وثلاثين مرة، كما لو كان يعيد إرسالها لنفسه على تويتر، لتصبح حقيقة بقوة تكرارها. لمطاردة الظلّ بحزم وتأكيد النور من جديد. كنت هناك في ذلك اليوم، لأنه بعد فترة أرسل لي بيتيا رسالة نصيّة يطلب فيها أن أزوره. كان يريد شهوداً وكان ذلك، كنت أعرف، مكاني في قصّة آل غولدن. أو أنه كان، إلى أن تجاوزت في سرير فاسيليسا الخطّ الذي يفصل بين الصحفي والمشارك. مثل صحفي يلقي بقنبلة يدوية من الخندق، كنت جندياً الآن، ولذلك، مثل جميع الجنود، أصبحت هدفاً شرعياً.

«مرحباً، أيها الوسيم»، قال عندما رآني، «إنك لا تزال أكثر الرجال وسامة في العالم».

ثمة شيء في صورة بيتيا في ذلك اليوم ذكّرني بلوحة زيتية عظيمة، *الحارس الليلي*، ربما؛ وقفنا في ضوء رامبرانت الذهبي وظلاله الزاهية البراقة، وشعرنا، أو لعلي أتخيّل فقط أنّنا شعرنا، مثل وصيين على عالم محاصر. بيتيا مع وشقه الألبي والأسترالي القلق

ووالده بحاجبيه المثلّمين وابتسامته الماكرة الواسعة، والخدم يقفون في زوايا الإطار. هل كنت الشخص الوحيد في بيت غولدن في ذلك اليوم الذي سمع خفقات أجنحة قاتلة، التنهدات التنبّئية لمتعهّد دفن الموتى المذنب، انسدال الستارة ببطء عند انتهاء المسرحيّة؟ إني أكتب ضدّ الزمن الآن، ولم تعد كلماتي تتبع الأشخاص فيها، أكتب ضعف ما كنت أكتب، لأنني أيضاً على وشك أن أنهي سيناريو فيلم عائلة غولدن أخيراً، قصتي عن أولئك الرجال الذين صنعوا قصصاً عن أنفسهم، وتتداخل القصتان بشكل غامض حتى أني لم أعد متيقناً ما هو الحقيقي وما الذي اختلقته أنا. وفي ما أدعوه حقيقي فأنا لا أؤمن بالأشباح وبملاك الموت لكنّها تظل تصبّ في ما أخترعه مثل حشد من دون تذاكر يتدافع للدخول من البوابات في لعبة كبيرة. إني أجلس الآن على الخط المتصدّع بين عالمي الخارجي والعالم في داخلي، أفتح شقّاً في كلّ شيء، آملاً أن يتسرب شيء من الضوء.

في داخل البيت في ذلك الشهر كان الزمن يبدو كأنه زمن متجمّد، زمن انتظار، الشخصيات محصورة في الألوان الزيتية على الجنفاص، مواقف مثيرة، وغير قادرة على أن تتحرك. وفي الخارج في الشارع، كان هناك طاعون من الجواكر، مهرّجون مجانين ذوو أفواه مشطورة يثيرون ذعر الأطفال، أو أشباحهم. وحفنة قليلة من الناس في المدينة ادّعوا فعلاً أنهم شاهدوا مهرّجاً مخيفاً في ذلك الخريف، لكن التقارير عنهم انتشرت في كل مكان، وأفادت التقارير أنهم كانوا يضعون باروكات الرعب، وملأت الشائعات الشوارع قهقهة، وتومئ بأصابع سحرية بكلتا اليدين وتصرخ مبشّرة بنهاية الزمان، الأيام الأخيرة. أشباح مهرّجين في واقعية غير واقعية. جنون أخروي آتٍ إلى الانتخابات، والجوكر نفسه يصرخ أمام مرآة، المتحرّش يصرخ عن التحرّش، والدعائي يتّهم عالم الدعاية كله، والمتنمّر يتأفف بأنه

تعرّض للهجوم، والمحتال يشير بإصبعه المعقوف إلى منافسته ويدعوها محتالة، ولعبة طفل تصبح البشاعة الوطنية، أعرف - من - أنا - لكن - من - أنت، والأيام تمضي. عقلانية أمريكا في حرب مع الجنون، وأشخاص مثلي، الذين لا يؤمنون بالخرافات، يطوفون الشوارع وأيديهم في جيوبهم وأصابعهم متصالبة.

ثم، أخيراً، هناك، بعد كلّ ذلك، مهرّج مخيف.

* * *

بعد فترة طويلة من الجفاء، أرادت فاسيليسا أن تتكلّم. فأخذتني إلى الغاردنز وتأكّدت من أننا بعيدان عن الآذان الفضولية. ومن نبرة القوة الجديدة في صوتها، فهمت أنها لا تزال تُسكن شخصية *الممرضة الكبيرة* في داخلها، لا تزال توضح بأنها، من الآن فصاعداً، هي صاحبة الأمر والنهي. فقالت: «لم يعد نيرو الرجل ذاته، ويجب أن أعتاد على ذلك، لكنّه والد ابني» - قالت هذا في وجهي، وهي تنظر إلى عيني مباشرة! الجرأة في ذلك كانت مذهلة. شعرت بالغضب يتصاعد في داخلي. «وإذا عارضتني»، قالت، ورفعت يداً قبل أن أنبس بكلمة، «سأرسل من يقتلك. لا يخطر ببالك أنني لا أعرف بمن يجب أن أتصل».

استدرت لأغادر، فقالت: «قف، لم أكن أريد لحديثنا أن يأخذ هذا المنحى. أريد أن أقول لك إنني بحاجة إلى مساعدتك له».

ضحكتُ بصوت عال عندما سمعت ذلك، وقلت: «أنتِ حقاً إنسانة استثنائية، هذا إذا كنتِ إنسانة فعلاً. وإن خروج هاتين الملاحظتين من فمك على التوالي، أمر يدعو إلى الخوف. لكنه في جميع الأحوال لا يدلّ على أنك تنتمين بشكل من الأشكال إلى الجنس البشري».

فقالت: «أفهم أن هناك مشكلة بيننا، لكن نيرو بريء من ذلك وأن ما أطلبه هو لمصلحة نيرو. الحزن الذي يتملكه بالإضافة إلى تدهور حالته العقلية ببطء. الدواء يساعده قليلاً، لكنّه أمر حتمي أيضاً. تقدّم المرض. إني أخاف عليه. بدأ يضيع. أحتاج إلى شخص يرافقه. حتى لو ذهب إلى تلك المرأة فإني أريدك أن ترافقه أيضاً. إنه يبحث عن إجابات. لقد أصبحت الحياة معاناة بالنسبة إليه ويريد أن يجد حلاًّ للغز الذي يعيشه فيه. لا أريد أن يجد ذلك الحلّ بين ذراعيها».

«لا يمكنني أن أفعل ذلك»، قلت لها، «فأنا أعدّ فيلماً طويلاً. إني مشغول كثيراً».

«لن تفعل ذلك»، قالت، «هذا ما تقوله. لقد أصبحت رجلاً أنانياً».

فقلت: «تملكين موارد كثيرة. لديك أشخاص تحت تصرّفك. استخدميهم. أنا لست موظفاً عندك». قلت ذلك بحدّه. فلم أكن في مزاج لأن أسمعها تصدر أوامر لي.

كانت ترتدي فستاناً أبيض طويلاً، مشدوداً عند الصدر، فضفاضاً تحت الخصر، له ياقة مخرّمة بالدانتيل. استندت إلى شجرة، وتخيّلت على الفور إلفيرا ماديغان، بطلة الفيلم الجميل الذي أخرجه بو ويدربيرغ، حيث تسير الحبيبة المنكوبة على حبل مشدود في غابة. أغمضت عينيها وقالت بصوت أشبه بتنهيدة، «كلّ هذا مجرد تمثيلية»، وأضافت، «فاسم العائلة ليس هو الاسم. المدموزيل لولو ليست هي لولو. ربما أنا لست أنا وأن تلك السيدة التي تؤدي دور أمّي ليست سوى شخص استأجرته ليقوم بهذا الدور. أتعرف ماذا أقصد؟ لا يوجد شيء حقيقي». إنها أفكار مشتتة ورأيت أنه يقبع تحت قدرتها على التحكم بنفسها عذاب. قالت: «ابني فقط هو

الشيء الحقيقي، ومن خلاله سأصل في النهاية إلى مكان حقيقي»، هزّت رأسها وأضافت، «وحتى يحين ذلك فإن كلّ شخص يؤدي دوراً. وربما تكون أنت كذلك. لقد أصبحت مثل كاهن الاعتراف في هذه العائلة لكنّك لست كاهناً، من أنت حقاً، وماذا تريد، ربما عليّ أن أرتاب منك، قد تكون أنت يهوذا»، ثمّ ضحكت وقالت بسرعة، «أنا آسفة»، وبدأت تبتعد بسرعة. «جميعنا أعصابنا متوترة. ستتحسّن الأمور ذات يوم. ونعم، اذهب، اذهب إلى فتاتك التي لا تعرف شيئاً من أيّ شيء، وهذا أفضل».

كان هذا واحداً من تهديداتها الأخرى، بالطبع، قلت لنفسي، وأنا أراقبها وهي تعود إلى البيت. لن «تأمر أحداً بقتلي»، لكنّها، إذا دعت الضرورة، فإنها ستدمّر سعادتي وتخبر سوشيترا بما فعلته معها. لذلك فكّرت أن أكون أول من يخبر سوشيترا، مهما كان الثمن. يجب أن أجد الشجاعة لأقول الحقيقة، وأرجو أن يكون حبّنا قوياً ولا يتأثر بذلك.

وإلفيرا ماديغان، قلت لنفسي، اسم مستعار آخر. هذه ليست الهوية الحقيقية للبهلوانة الدنماركية المنكودة الحظ التي كانت تسير على حبل مشدود. هيدفيغ جينسين، هذه هي حقاً. التي تحمل أكثر الأسماء شيوعاً.

نعم: لقد جُذبت إلى عالم غولدن التخيّلي، ولا يمكن أن تحررني إلّا الحقيقة.

* * *

كانت ليو القطّة بالنسبة إلى بيتيا مثل الريشة السحرية بالنسبة إلى دومبو. عاد ذلك الشاب الذكي الغريب الذي التقينا به لأول مرة، يتمشّى في الغاردنز والوشق بين ذراعيه، يتحدّث بصوت عال لكلّ من

يستمع إليه، ويُضحك الأطفال. كان فصل الخريف معتدلاً، طقس جميل في زمن مجنون، فظلّ معطفه السميك في خزانة ملابسه، لكنه كان يلقي حول رقبته بإهمال وشاحاً مخطّطاً بألوان قوس قزح، وكان يعرض بدلاته الصارخة، البدلة السكرية اللون ذات طيّات الصدر الواسعة التي ظهر فيها أمامنا أول مرة رأيناه فيها، وبدلة خضراء مؤلفة من ثلاث قطع عندما كان يريد أن يقلّد أوسكار وايلد، وبدلة مزدوجة الصدر بلون الشوكولا ذات مربعات عريضة بلون الشوكولا بالحليب. وكان يحمل خلاط الكوكتيل بيد، وكأس المارتيني باليد الأخرى، وكان مرطبان الزيتون ينتصب على مقعد الحديقة كما كان في السابق. أما الآن، فقد كان بجانب مرطبان الزيتون جهاز آيباد كان الأطفال ينجذبون إليه كما تنجذب الكواكب حول الشمس، عندما كان بيتيا يريهم، ويشجّعهم على اللعب بآخر إصدارات ألعابه الأولية. لقد أصبحت هذه الألعاب قصصه الآن، وانهمك الأطفال فيها بحماسة زائدة، يسافرون إلى العوالم الكائنة داخل رأسه. ولبضعة أيام جميلة، ابتعدت عن تفكيره أفكار الموت، وحلّ محلها كتاب الحياة البراق مفتوحاً عند صفحة جديدة.

* * *

«كما تعرف»، قالت سوشيترا، «فقد أصبح هذا الفيلم يعبّر عنك، وأنّ جميع أبناء غولدن يمثّلون جوانب من طبيعتك».

«لا إنهم ليسوا كذلك»، قالت محتجاً.

فقالت: «أعني بطريقة إيجابية. إن هذا يجعل الفيلم شهادة شخصية أكثر. فالمؤلف هو الذي يتحكم بجميع الشخصيات. مثل فلوبير. مدام بوفاري، *Madame Bovary, c'est moi*».

فقلت «لكني لست فناناً، ولا تنتابني مشاعر جنسية متضاربة،

ولست مصاباً بالتوحد، ولست حفار ذهب روسياً، ولست رجلاً عجوزاً قوياً أخذت صحته تتدهور»، ولم أضف، «ولست طفلاً رضيعاً»، لأن الطفل بالطبع هو جزء مني. خمسون في المئة. نسبة كبيرة. نسبة كبيرة لا يمكنني بلوغها. سرّ شنيع لم أمتلك حتى الآن الشجاعة للاعتراف به.

كنّا في جناح التحرير في مؤسسة الصوتيات الرقمية في الشارع التاسع والعشرين ويست، وكانت المرأة الوطواط، في صورة ثابتة، تراقبنا من شاشة *أفيد*. وكان الفيديو الرابع والأخير عن الوطواط الذي نعدّه قد أصبح في مراحله النهائية. وكان الجوكر يحاول إثارة تمرد من شأنه أن يهدم الديمقراطية الأمريكية. واكتظ ملعب MetLife بحشود من الغوغاء المهرّجين المجانين يهتفون شعارات مليئة بالكراهية رافعين عيونهم نحو السماء. إلى أي حد يستطيع أحد أن يرغم امرأة وطواط على أن تفعله؟ حسناً، هذا يتوقف عليك. *انتخبوا أول رئيسة وطواط في الولايات المتحدة الأمريكية. لأن هذا الانتخاب ليس مزحة.*

«تحمل أسئلتهم معك حيثما ذهبت. مسألة حياة آبوو، تذكّر ما قاله أبوه لك؟ ينبغي أن تكون عميقاً، أم هل تستطيع أن تظل على السطح دائماً؟ عليك أن تجيب عن هذا السؤال أيضاً. دي غولدن، كما قال أبوه أيضاً، كلّه عن الغموض والألم. أشعر بذلك فيك أيضاً، شيء من الغموض. أشعر بأنّك تتألّم. أما بيتيا، فقد قيّد نفسه، ولم يعد يستطيع الهروب من طبيعته، مع أنه كان يتوق لأن يصبح حراً. وقد تكون ألعابه، الألعاب التي يستنبطها، هي حريته. فهذا هو المكان الذي لا يخشاه. ربما كان مكاناً عليك أن تجده أنت أيضاً. إنك تقف على العتبة منذ زمن بعيد، وربما آن الأوان لأن تدخل من الباب. والرجل العجوز...»

«ستقولين لي إنني أشبهه أيضاً؟ إنه وحش، حتى أثناء تدهور صحته. . . »

«إن المأساة تكتنفه، وأنت كذلك. لقد فقد أبناءه، وأنت فقدت أبويك. إن حزنك يجعلك مغلقاً ويبعدك عن الآخرين. هذا ما أراه».

«هل نحن نتشاجر؟» سألتها. كانت كلماتها مشحونة بقوّة.

«لا»، قالت، بعينين واسعتين، تقصدها، «لماذا تظن ذلك؟ فأنا أقول ما أراه فقط».

«إنك قاسية عليّ».

«أرى فقط ماذا يمكنك أن تكون وأريد أن ترى ذلك أيضاً. كن عميقاً. امتلك مأساتك. جد حريتك. حلّ غموضك، مهما كان. ربما كان الأمر يتعلق بي».

يجب *أن أخبرها عن الطفل، قلت لنفسي. هذا ما يخرسني.*

قلت: «لا، عنك، أنا متأكّد. متأكّد تماماً. لست غامضاً على الإطلاق».

فقالت: «حسناً»، لتغلق الموضوع، وافترت شفتاها عن ابتسامة عريضة، وقالت: «جيد. دعنا ننهي المرأة الوطواط».

بم! *باوو!* بوووف! خذ هذه، أتضحك أيها المجنون! *واو!* هذا غير عادل! لماذا الجميع ضدّي؟ *أوووو!* إنه تلفيق! الجميع يكذبون! المهرّج فقط هو الذي يقول الحقيقة! بلام! *أوووو.*

(٢٩)

في ليلة لا تبعد كثيراً عن انتحار دي غولدن في الغاردنز، وقع حدث أحدث ثقباً مظلماً في الجنة لنا جميعاً، فقد استيقظت ريا زاتشارياسن، المعروفة بريا زي، من حلم مرعب لتجد أنها فقدت قبضتها على صورتها عن العالم. فلم تتذكّر الحلم كلّه لكنّها تكاد تكون متيقنة بأنها كانت تحمل في الحلم لوحة ثمينة جداً في متحف عظيم ثم سقطت منها فانكسر الإطار وتهشّم الزجاج، وتمكنت، بشكل ما، من أن تضع إحدى قدميها فوق قماش اللوحة، لكن قد يكون ذلك شيئاً تذكّرته من أحد الأفلام التي كانت قد شاهدتها، لأن الأحلام زلقة مثل سمك الأنقليس. وما إن استيقظت حتى لم يعد الحلم بحد ذاته هاماً، لكنّها أدركت أن الصورة هي التي تضم كلّ ما كانت تفكّر فيه كما كانت تظن أنه يجب أن يكون، فقد كان هذا واقعها، لكنه تحطم الآن وسيأتي أحد يبحث عنها بعد لحظات ويوبخها لأنها كسرتها، ثم ستُطرد من عملها.

يصعب على شخص غير مؤمن مثلي أن يفهم اللحظة التي يموت فيها الإيمان في قلب الإنسان. فالمؤمن الساجد الذي يفهم فجأة أنه لا يوجد سبب للصلاة لأنه لا يوجد هناك أحد يستمع إليه. أو ببساطة التآكل التدريجي لليقين حتى يصبح الشكّ أقوى من الأمل: فإنك تواصل السير بجانب النهر الذي يجعله الجفاف جافاً حتى

يجفّ قاع النهر ذات يوم ولا يبقى فيه ماء يروي عطشك عندما تشعر بالعطش. يمكنني أن أتصوّر ذلك لكنّي لا أستطيع أن أشعر به، إلّا ربما كنهاية للحبّ. فقد تستيقظ ذات صباح وتنظر إلى الشخص النائم في السرير إلى جوارك الذي يطلق شخيره الناعم المألوف لك المحبوب حتى الآن، وتقول لنفسك، لم أعد أحبّك أو لم أعد أحبّ شخيرك. القشور التي سقطت من عينيّ شاول في سِفْر أعمال الرسل - أو الأشياء التي تشبه القشور، «وقع من عينيه شيء كأنه قشور»، يقول إنجيل الملك جيمس - كانت قشور الكفر، ثم بدأ يرى بعدها بوضوح وعُمِّد على الفور. لكن يمكن تفسير الصورة بطريقة مختلفة تماماً. فالشيء الذي يشبه القشور التي سقطت من عينيّ ريا ورأت بوضوح أن واقعها ما هو إلّا وهم، شيء زائف. هذا أقرب شيء يمكنني أن أفهمه.

استلقت ساكنة بجانب المكان الفارغ الذي كان حبيبها يستلقي فيه. كانت تكره دائماً صنادل بيركينستوكس التي كان دي يصرّ، على الرغم من اعتراضها، على أن يُغمد قدميه فيهما عندما يكونان معاً في البيت، أما الآن فلم تستطع أن تحرّك الصندل من مكانه في جانب السرير ذاك. وكانا لا يزالان يعيشان بالطريقة القديمة لأنه يوجد لديهما هاتف أرضي، هاتف لم يرنّ قط. وكان صوت دي المسجّل في رسالة بالبريد الصوتي - «هذه ريا ودي، والآن سجّل رسالتك»، ولم تستطع حذفها حتى الآن. وإذا ظلّت ساكنة هكذا ولم تتحرك ولم تفكّر، فقد ترى أنه سيدخل إلى الغرفة من الحمّام ويصعد إلى السرير. لكنّها لم تستطع التوقف عن التفكير، لذلك كانت تعرف أن ذلك لن يحدث. إن ما حدث هو أنها لم تعد تفكّر في ما كانت تفكّر فيه. لذلك لم تكن تعرف في أي شيء يجب أن تفكّر.

في غمرة حزنها الشديد ذكّرتني ريا الرزينة بشكل ما بوينونا

ريدر، لا المراهقة السخيفة غوث وينونا في فيلم بيتليجوس، وهي ترقص في الهواء على ألحان أغاني بيلافونت الجميلة، تهزّ جسدها، بل ذكّرتني بفيلم عصر *البراءة* حيث كانت وينونا مكبوتة وأقل براءة مما كانت تبدو. وفي فيلم للمخرج سكورسيس - أعترف أنّني لم أقرأ رواية إديث وارتون - فإن ميشيل فيفير هي المرأة غير التقليدية، التي تسلك طريقة حديثة جديدة للوجود وتعاني الأمرّين بسبب ذلك، وهزمتها أخيراً مناورة وينونا ريدر الهادئة والمحافظة. لكن لنفترض أن شخصية وينونا هي الشخصية الواقعة في قبضة الجديد، وأنها فقدت ذات يوم قبضتها على إحساسها حول كيف كانت الأمور وكيف ينبغي أن تكون. وأن وينونا كان من الممكن أن تكون في هذا الفيلم. كانت تلك هي ريا؛ وينونا التي أعدت كتابتها، تائهة ومنهارة أكثر من القصة الأصلية بكثير، تسبح في البحر من دون طوق نجاة.

يصعب أن تأتي أفكار جديدة إلى العالم. فالأفكار الجديدة عن الرجال والنساء وعدد البشر في وسط هاتين الكلمتين تحتاج إلى مفردات جديدة لوصفهم وإعطائهم الشعور بأنهم شوهدوا، وبأنها محتملة ومقبولة، أفكار خرج بها الكثير من الأشخاص الطيبين وقدموها لخير البشرية. وأناس لطيفون آخرون، رائعون مثل ريا زي، اعتنقوا طريقة التفكير الجديد وجعلوها أفكارهم وبذلوا جهداً كبيراً لوضعها موضع الممارسة وجعلها جزءاً من طريقة جديدة يطبقها العالم.

لكن، ريا فتحت عينيها ذات ليلة، وأدركت أنّها غيّرت رأيها.

مسودة رسائل استقالة من ريا زاتشارياسن إلى متحف الهوية (لم تُرسل)

عزيزي، ضع اسم ربّ العمل، أعلمكم في هذه الرسالة بأنه بناء على وبموجب التزاماتي التعاقديّة وتنفيذاً لجميع مسؤولياتي وبشأن موعد نهائي وبعد خصم أيام الإجازات المخصصة لي التي لم أستعملها. وبما أنه ليس لدي عمل وبكفاءة وبشعور بالامتنان وتقديراً لـ وبأمل أنّ وإلى ما هنالك. وبسبب إعادة تقييم جذري لـ وتطوّر فكرة أفضت إلى عدم التوافق بين منصبي الحالي مع قيم... لذلك فإن مصالح المتحف ستخدم بشكل أفضل إذا تركت العمل.

المخلصة لكم، النهاية.

أو،

عندما كنت فتاة صغيرة في مينيسوتا وبدأت أهتم بأن أعيش حياة أخلاقية، رحت أفكّر في الهند، في أنها جزء هام من تراثي، وتساءلت من هم الذين يعانون من الظلم أكثر في الهند، وكان الجواب الذي توصلت إليه، ولم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمري، الماعز. وبما أن الأبقار مقدّسة فإن أحداً لا يبالي عندما يُذبح الماعز ليؤكل لحمه. فقرّرت أن أكرّس حياتي لرعاية تلك المخلوقات المكروهة التي تثغو. ثمّ كبرتُ وغيّرتُ رأيي، طبعاً، لكنّي ظللت أبحث عن ذلك الشيء الذي يستحوذ على مشاعري وتفكيري لأكرّس له نفسي دون أن أتراجع بعد ذلك. وبعد الماعز، بدأت تراودني هواجس مبكّرة أخرى مثل: تحديد النسل، والأمراض الناجمة عن المناعة الذاتية،

واضطرابات التغذية، وشح المياه. وتزامن بلوغي مع بزوغ عصر الهوية، والمناقشات التي دارت والقضايا والإبداعات التي انبثقت في هذا الموضوع وحوله أقنعتني بأنّني وجدت ضالتي، وعندما أتيحت لي فرصة العمل في المتحف، كان ذلك أشبه بحلم تحقق، وبدا لي كذلك في كلّ يوم حتى الآن. وأعترف لك بضعف تركيبة العقل عندما تستحوذ عليه عاطفة ما. فقد يحدث أن يستيقظ أحدهم ذات يوم ليجد أنني، كما تعرف، لم أعد أهتمّ كثيراً بهذا. لم يعد ذلك يهمني. فقد عشقت الماعز في الماضي، والواقيات الجنسية، والشره المرضي للطعام، والماء، لكنها لم تعد ما أسعى إليه. وهكذا هي الحال الآن بالنسبة إلى الهوية. لم يعد الشيء الذي يناسبني.

إلى اللقاء.

أو،

أريد أن أفكّر والمدينة مليئة بالضوضاء.

أو،

أعترف بأنّني كائن متعدّد. فأنا ابنة أبي المرحوم المضطرب عقلياً. وأنا كذلك المفجوعة بحبيبي الميت. أنا، أحد أفراد قبيلة الشعب النحيف. وبالإضافة إلى ذلك، أو بعكس ذلك، فأنا باحثة. وأنا أيضاً سوداء الشعر. أحمل هذه الآراء وليس تلك الآراء. أستطيع أن أعرّف نفسي بطرق عديدة مختلفة. وهذا ما ليس أنا: فأنا لست شيئاً واحداً. أنا مكوّنة من أشياء عديدة. هل أناقض نفسي؟ حسناً، نعم أنا أناقض نفسي. لكي أكون متعدّدة، لكي أكون متعدّدة الأشكال، شيئاً وحيداً، غير

عادي، غنياً، وأنا نفسي. وإذا أُرغمت على التعاريف الضيّقة فهذا كذب. إذا قيل لي إذا لم تكوني شيئاً واحداً فأنتِ لا شيء.

ومتحف الهوية مستغرق بتلك الأكذوبة. لم أعد أستطيع أن أعمل فيه بعد الآن.

أو،

يخيّل إليّ أنّ الهوية بالمعنى الحديث - وطنية، عرقية، جنسية، مسيّسة - أصبحت سلسلة من النظم الفكرية التي ساعد بعضها على دفع دي غولدن إلى حتفه/ حتفها. الحقيقة هي أن هويّاتنا غير واضحة بالنسبة إلينا وقد يكون من الأفضل أن تظل هكذا، بأنّ تظل النفس خليطاً وفوضى، متناقضة، ومتضاربة. وربما كان دي بعد كل شيء رجلاً يحمل مشاعر أنثوية وكان ينبغي أن يُسمح [له] بأن يظل هكذا وأن لا يدفعه أشخاص مثلي لتغيير جنسه. بأن لا يُدفع إلى أنوثة لا يمكنه أن يرفضها تماماً، أو يتحملها، في نهاية الأمر. لقد دُفع دفعاً نحو حتفه من قبل أشخاص مثلي، جعلوا فكرة جديدة من الواقع أقوى من أقدم فكرة على الإطلاق وهي: حبّنا.

حكى لي دي قصّة عن مخنث في بومباي كان يرتدي ثياب رجل في البيت وكان في الواقع رجلاً بالنسبة إلى أمّه/أمّها وأبيه/ أبيها، ثم غيّرت ملابسها وأصبحت امرأة عندما غادرت البيت. ينبغي أن يكون ذلك على ما يرام. المرونة ينبغي أن تكون مقبولة. ينبغي للحبّ أن يهيمن، لا العقائد الجامدة حول النفس.

كنت مستعدّة للمضي مع دي حتى آخر المشوار في جميع

التغيرات التي طرأت [عليه]، وأن أبقى معه عندما تمت. كنت حبيبته عندما كان رجلاً، وكنت مستعدّة لأن أبقى حبيبها خلال عملية التحوّل والانتقال إلى ذاتها الجديدة. ما الذي يقول ذلك لي عنّي، عن البشر، عن الحقيقة ما وراء العقيدة الجامدة؟ إنه يقول لي إن الحبّ أقوى من نوع الجنس، أقوى من التعاريف، أقوى من الذات. هذا ما تعلّمته، أن الهوية - لاسيّما نظرية الجنوسة - هي تضييق على الإنسانية، والحبّ يرينا إلى أي مدى قد نكون رحبين. وإكراماً لحبيبي المتوفى، فإني أرفض سياسة الهوية، وأعتنق سياسة الحبّ.

بهذا ردّ الفيلسوف برتراند راسل عندما سُئل عن النصيحة التي يريد أن ينقلها إلى الأجيال القادمة. فقد قال: «إن الحبّ حكيم». لكنّي أفهم أنها أوقات عصيبة. وإذا كان لا بد من شن معركة، فلتبدأ.

الرسالة الحقيقية

عزيزي أورلاندو،

كما أخبرتك للتو في مكتبك، يجب أن أستقيل من منصبي. يصعب عليّ أن أشرح سبب ذلك، وهو قرار صعب وأنا مستعدّة لأن أجلس معك وأناقش الأمر إذا رغبت. لعلي، كما تقول، أعاني من ردّة فعل حزن شديد فتشوشت أفكاري، وأنني سأفكّر في الأمر بشكل أفضل عندما أتجاوز فترة الحزن وأفكّر في ما حدث، وكنت في غاية اللطف لأن تقترح عليَّ أن أعرض نفسي على طبيب نفساني وأن آخذ إجازة، لكنّي أظن أن من الأفضل أن أذهب. شكراً لك على كلّ شيء. كلّ التحية.

ريا.

انفجرت العاصفة في وسائل التواصل الاجتماعي على الفور. (بالنسبة إلى شخص مثلي لا يتماشى مع جيله والجيل الذي يليه مباشرة، لا يمكن إلّا أن تطرأ الفكرة: لماذا نعرض هذه الأشياء على الملأ في المقام الأول؟ لماذا نقول لجمهرة من الغرباء إنكم تمرّون في عملية إعادة تقييم مؤلمة وشخصية لطريقة تفكيركم؟ لكنّي أفهم أن هذا لم يعد سؤالاً) فمن كلّ جانب أحاط بها جيش الكون الإلكتروني غير المرئي. أشخاص غير معروفين ذوو قلوب صافية لا يوجد فيها نفاق يدافعون عن قناعاتهم حول الهوية متنكرين بأسماء زائفة. «إذاً ما هو شعورك الآن عن نساء ذوات البشرة البيضاء يتنكرن في هيئة كبوكاهونتاس في عيد القديسين؟ ما رأيك بطلاء الوجه بالأسود؟ هل توافقين على ذلك؟»، «هل أنت نسوية متشددة تعارضين أي تحوّل جنسي، أم نسوية متشدّدة ترى أن المتحوّلات جنسياً لسن نساء؟ ماذا أنت؟ هل أنت أي أحد؟» والكثير من الكلام البذيء، وطلبات متكررة «احذفي حسابك». وجاء الرفض من الأصدقاء والغرباء على حدّ سواء، وجاءت من أعلى الأوساط السياسية المعنية بالجنوسة الصارمة التي كانت تتحرّك فيها بسهولة منذ فترة طويلة وها هي الآن تتّهمها بالخيانة، وكذلك من عالم الموضة الذي كانت فيه نجماً صاعداً، ومن الكثير من زملائها السابقين في متحف الهوية، بأن الشيء الذي يتعلق بموقفك الجديد ليس خطأً كبيراً، أو رجعي جداً، وإنما فكرة سيئة. إنها فكرة غبية جداً. وكنا نظن أنك الفتاة الذكية الوحيدة.

عبر الأطلسي، وفي مسرح آخر من مسارح حروب الهوية، كان رئيس الوزراء البريطاني يسعى إلى تضييق تعريف «البريطانيّة» بهدف استبعاد التعدّدية، والنزعة الدولية، وأن العالم هو موقع الذات. فقط إنكلترا الصغيرة هي التي تعرّف الإنكليز. في ذلك الجدل البعيد حول

هوية الأمة برزت أصوات عالية تعارض نزعة رئيس الوزراء إلى التضييق. أما هنا في أمريكا، وفي لغة نوع الجنس، فإن الكلمات الوحيدة غير الموجودة، قالت ريا لنفسها، الكلمات الوحيدة التي لا يمكن قولها هي «لست متأكّداً من أيّ شيء من كلّ هذا. إني أعيد النظر في أفكاري». هذا النوع من الكلام قد يحرمك من التعبير عن رأيك.

فهمت آيفي، آيفي مانويل التي قاومت طويلاً أن تُحدّد في مكانة معينة، وقالت: «ليذهبوا إلى الجحيم إذا لم يفهموها، هيا نجري بجانب النهر ونشرب شيئاً ونغنّي أغنية معاً 'يا فتاي لوليبوب' أو خراء من هذا القبيل».

* * *

لقاء آخر مع المتشرّد كينسكي قبل مشهده الكبير الذي سأصل إليه في حينه، كان ينبغي أن يحذّرني من أنّه كان يحضّر لشيء ما. لكن هذه هي رغبتنا في أن نؤمن باعتيادية الحياة العادية، في طبيعية الحياة اليومية التي لم أفهم كنهها. كان يتسكع خارج «ريد فيش»، الحانة التي تُعزف فيها موسيقى في شارع بليكر، الذي كان من المزمع أن يغني فيه مطرب من جزر فارو مجموعة من أغاني الاعتراف المستلهمة من فيديوهات اليوتيوب - باللغة الإنكليزية، لا باللغة الفاروية، من حسن حظ الجمهور. ما هو اهتمام كينسكي بكلّ هذا، اليوتيوب، جزر فارو، الموسيقى؟ لكن ها هو يتسكع هنا. هيه، هل لدى أحدكم تذكرة إضافية، تذكرة لستم بحاجة إليها ويمكن التبرّع بها لسبب وجيه؟ وفي رأيه هو نفسه السبب الوجيه. كنت هناك لأن الشخص الأمريكي الذي يساعد المغني من فارو، كان صديقي، وعندما رأى كينسكي وجهاً مألوفاً، بشّ وامتلأ حيوية.

«يمكنك أن تفعل ذلك من أجلي»، قال، «لا تعبأ بأي شيء آخر. هذا أمر مهم. هذا الشاب. *الشعر والطائرات*، هل سمعت عن ذلك؟ جميل. هل تعرف أنّه سجّل ألبوماً في البيت الذي مات فيه إنغمار بيرغمان؟ هل سمعت حديثه في TED؟ يا إلهي».

كانت هذه أكثر الكلمات وضوحاً (ماعدا، ربما لاقتباسه من شكسبير عندما كان يشرب الشاي في بيت غولدن) والأفكار غير الكارثية الوحيدة التي سمعتها تخرج من فمه. «وكيف عرفت كلّ ذلك؟» سألته.

فتجهّم وجهه، وانحدر إلى مستوى مفرداته، وقال: «اغرب عن وجهي، لا يهم كيف».

أصبحت فضولياً الآن، وبالمصادفة كانت في جيبي تذكرة إضافية، لأن سوشيترا، بالطبع، كانت تعمل حتى وقت متأخر من الليل، وقلت: «إذا أردت أن تدخل أريد أن أسمع القصّة». فنظر إلى الرصيف وحرّك قدميه، ثم تمتم قائلاً: «صديقي عرّفني عليه. قاعدة باغرام الجوية. في تلك الأيام».

«هل أنت من المحاربين القدامى»، قلت، متفاجئاً بذلك.

«أتريد إثباتاً؟» هدر، «أعطني عصابة عين وبارودة من طراز AR-15 مفكّكة، وسأقدم لك إثباتاً منيوكاً».

كان ذلك عندما، كما لو أنّي شغّلت راداري، كان ينبغي لي أن أفهم أن كلّ شيء لم يكن على ما يرام، وأن هذا رجل على حافة الجنون. لكنّي كنت مخطئاً لأنني لم أكن أعرف أنه خدم في الجيش، ثم فاقمت خطئي عندما سألته عن «صديقه»، لأسمع الردّ الذي كنت أعرف أنّني سأسمعه. «لم ننجح. كمين في باختانخوا. الآن هل يمكنني أن آخذ التذكرة المنيوكة».

راقبته خلال الحفلة الموسيقية. كانت الأغاني ذكيّة، بل حتى مسلية، لكن كانت هناك دموع تسيل على وجهه.

بعد فترة قصيرة من انتهاء هذه المعزوفة غير المتوقّعة - ربما بعد يومين، أو ثلاثة أيام - حصل كينسكي على بندقية آلية، تماماً كما كان قد طلب خارج حانة فيش. واستناداً إلى الإفادة التي أدلى بها لاحقاً في مستشفى ماونت سايناي بيث إزرايل - الاعتراف على فراش الموت، ينبغي أن أقول بدقّة أكبر - لم يشترها ولم يسرقها. وقال إنه اختُطف في حديقة سنترال بارك وأعطاه مختطفوه البندقية ثم أطلقوا سراحه. لم تكن قصّة ممكنة، بل حتى إنها قصّة سخيفة. قال ذلك في همهمات وشهقات متقطعة، وأرى أنه ليس من الجدير أن تؤخذ بشكل جدي للحظة، سوى لأمرين اثنين: أولهما، أنه اعتراف على فراش الموت، ويجب إعطاء ذلك حقه الصحيح والجدّي؛ وثانيهما، أنه خرج من فم كينسكي. وإذا أخذنا في الاعتبار كلّ الهذر المجنون الذي ينبثق من ذلك الفم على الدوام، فإن ما قاله الآن أشدّ جنوناً مما دأب على قوله، لذلك، هناك إمكانية ضئيلة بأن ما قاله صحيح.

وفيما يلي رواية كينسكي، بشكل عام. فقد قال إنه عندما شعر بالاكتئاب، ذهب إلى الطرف الشمالي من المدينة ليتسكّع ويطوف في الأماكن التي لا يرتادها كثير من الناس في الأطراف الشمالية من حديقة سنترال بارك. وفجأة وجد نفسه تحت أمطار غزيرة فلجأ إلى شجرة وتكوّم تحتها حتى هدأت السماء. (ملاحظة: في ذلك اليوم بالتحديد حدث تغيير حقيقي على الطقس، فقد أعقبت أيام دافئة في غير موسمها عندما كانت السماء زرقاء صافية أمطار غزيرة وبرد شديد) - هنا، ونتيجة حالته الصحيّة المتدهورة بسرعة، أصبحت القصة مشتتة وغير واضحة. فقد دنا منه (رجلان؟ ثلاثة رجال؟

أكثر؟) في ثياب مهرّجين - أو جوكر - استخدم كلتا الكلمتين - وهجموا عليه وتغلبوا عليه وأدخلوا في رأسه كيساً وربطوه - أو ربما أنهم لم يربطوه وقادوه سيراً على الأقدام - أو لعله لم يكن كيساً، وإنما نوع من عصابة للعينين - فلم يتمكن من رؤية إلى أين كانوا يقودونه لأن الكيس يغطي رأسه - أو عصابة العينين. ثمّ ألقوا به في مؤخرة شاحنة صغيرة وأزالوا العصابة عن عينيه وراح شخص آخر، متنكّر أيضاً في ثياب مهرّج - أو جوكر - يكلّمه عن - ماذا؟ التجنيد. شيء يتعلق بالانتخابات الرئاسية. عدم شرعيتها. وأنها سُرقت. إنها انقلاب نظّمته أجهزة الإعلام - من خلال المصالح القويّة للشركات - والصين - وعلى الأمريكان أن يستعيدوا بلدهم. يصعب القول ما إذا كانت هذه هي مشاعر كينسكي نفسه أم أنه يكرّر ما قاله له الجوكر - الرئيس المفترض في الشاحنة- ثمّ، في لحظة ما، انثالت الكلمات، فقال: «نستطيع أن نتعلّم من الإرهابيين الإسلاميين. من التضحية بأنفسهم» - ثم خرجت كلمات يشوبها الكثير من التناقض، والخلط، ورثاء الذات، واليأس، ونبوءاته القديمة باقتراب الموت. - «لا يوجد شيء يستحق أن يعيش المرء من أجله» - «أمريكا». - هذا ما قاله. ثم تدخّل الفريق الطبي ومنع أخذ إفادته. وأعقب ذلك اتخاذ إجراءات طوارئ. لم يتكلّم بعد ذلك، ولم يعش طويلاً. لقد بذلت قصارى جهدي لأن أجمع أشتات قصّة وأجعلها متماسكة مما ورد في الصحف ووسائل الإعلام، ومما تمكنت من استخلاصه بنفسي بشيء من الصعوبة.

مات صديقه - من يعرف كم صديق عنده؟ كان قد عاد من الخدمة العسكرية وأصيب بلوثة عقلية، وفقد التواصل مع الذين ربما كانوا يحيطونه بالرعاية، ورفض أيّ مساعدة يقدمونها له بأي شكل من الأشكال، وانتهى به الحال مشرّداً يتحدّث عن الأسلحة. وعلى

مدى السنوات التي عبر خلالها دربي تغيّرت طريقه حديثه. ففي البداية، قال إنه ضدّ الأسلحة، ويخشى أن تنتشر الأسلحة في أمريكا، وخرج بفكرة أن الأسلحة حيّة؛ وبالإضافة إلى الحماسة الدينية، ازدادت وتيرة التحدث عن نهاية الأيام في كلامه؛ وأخيراً، سواء أكان هناك مهرّجون أم لا، سواء أكان هناك جواكر أم لا، وسواء جرت عملية الاختطاف أم لا، فقد أصبح هو نفسه خادم البندقية، البندقية الدافئة التي تجلب السعادة، ونفّذ ما طُلب منه، *وبانغ بانغ*، *أطلق النار*، *أطلق النار*، وهكذا مات الناس، ومات هو أيضاً.

الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن كينسكي هاجم الاستعراض في يوم عيد القدّيسين (هلاوين)، وأسفر وابل الطلقات التي أطلقها عن مقتل سبعة أشخاص، وجرح تسعة عشرة شخصاً، قبل أن يطلق عليه شرطي النار ويرديه قتيلاً. كان يضع قناع جوكر ويرتدي سترة كيفلار الواقية من الرصاص - قد تكون من مخلفات الأيام التي أمضاها في أفغانستان - لذلك لم يُقتل على الفور، فنُقل إلى غرفة الطوارئ وعاش لفترة تكفي لأن يدلي بإفادته، أو بشيء من هذا القبيل، ويجب القول إن اتزانه العقلي كان، برأي العاملين في المستشفى، مختلاً ولا يمكن الوثوق بأي شيء قاله.

وفي قائمة الموتى، ظهر اسمان: السيد موراي ليت والسيد بيترونيوس غولدن، اللذان يقيمان في مانهاتن، بنيويورك.

* * *

في عيد القدّيسين، يقيم سكّان البيوت المحيطة بالحديقة المشتركة (الغاردنز) عادة احتفالاً خاصاً، فيحيطون الأشجار القديمة بأشرطة من الأضواء، وينصبون منصة يقف فيها *الدي جي* خارج بيت

محرّر مجلة الأزياء، ويتركون أطفالهم يركضون ويلعبون لعبة «خدعة أم *حلوى*». ويلبس بعض الكبار ثياباً تنكرية أيضاً. إنها طريقة للاستمتاع بالمهرجان دون أن يجازفوا بأنفسهم ويخرجوا لرؤية الحشود العظيمة المتجمهرة في الجادة السادسة أو للمشاركة في الاستعراض نفسه.

ربما كان بيتيا سعيداً في الغاردنز، أما ليو، القطّة، فقد أراد الذهاب إلى العرض، فأخبر بيتيا موراي ليت بذلك، وما يريده ليو، يُنفّذ. وقال إنه يشعر بالارتياح فعلاً، بارتياح شديد، وأحسّ بأنه خرج من تلك الأزمة التي عانى منها، وأنه أصبح بإمكانه الآن أن يضعها وراء ظهره، وقال إنه يريد أن يعيش الحياة، وإن الحياة تتبدى في حفلة الهلاويين في يوم الإثنين ذاك. وسار في الجادة السادسة حيث كان الناس يرتدون أزياء في هيئة هياكل عظمية وأموات بُعثوا إلى الحياة من جديد وعاهرات. وصاح، «حتى في الاحتفال في الغاردنز، فإن هذا البيت يبدو كأنه جنائزي، هيا لنحصل على ملابس تنكرية ونشارك في الاستعراض». قال إن خوفه من الأماكن العامة المفتوحة قد تلاشى، وإنه عندما يكون حي الفيليج مكتظاً بالناس فإنه لن يبدو مثل فضاء مفتوح. لم يكن موراي ليت، الأسترالي، معجباً بعيد القدّيسين الأمريكي الفاضح هذا. ففي إحدى المرات دُعي إلى حفل أقيم في الجزء الشمالي الغربي من مانهاتن ولبس زي *رجل قادم من المريخ*، برأس تيم بيرتن ضخم من المريخ. شعر بحرارة شديدة في داخل ذلك الثوب ولم يستطع أن يأكل أو يشرب آنذاك. وفي سنة أخرى، تقمّص شخصية دارث فادر، وارتدى درعاً بلاستيكياً ضخماً جعله يجلس بصعوبة، وخوذة سوداء فيها صندوق ينبعث منها صوت يتغيّر باستمرار، فعانى من المشاكل نفسها التي عانى منها عندما كان يرتدي زي *رجل قادم من المريخ*: تعرّض رأسه للحرارة، وعدم

تمكنه من تناول الطعام والسوائل. وفي هذه الأيام، أصبح يفضّل أن يمكث في شقّته ويأمل أن لا يقرع الأطفال جرس بابه ويقولون: «خدعة أو حلوى». لكنه لا يستطيع أن يرفض طلب بيتيا. وصاح: «سنرتدي ملابس الرومان! وبالطبع، لكوني بيترونيوس، سأكون ترمالتشيو، مضيف عيد *ساتيريكون*، أما أنت - فيمكن أن تكون عربيداً. وستكون الملابس التي سنرتديها مُلهمة من فيليني. سنرتدي أردية رومانية فضفاضة، وسنُزيّن حواجبنا بأكاليل الغار، وسنحمل أباريق نبيذ في أيدينا. رائع! سنجري نحو الحياة وسنشرب بعمق من عيون الشراب فيها، وسنسكر بالحياة حتى الصباح». عندما سمعتُ ذلك تذكرت *غاتسبي*، بالطبع، *غاتسبي* الذي كان فيتزجيرالد على وشك أن يطلق عليه *تريمالتشيو في مدينة ويست إيغ*، وكانت تلك فكرة حزينة لأنها ذكّرتني بالأمسيات الضاحكة مع والديَّ، وكذلك، والطريقة التي انتهت بها حياتهما، فاستسلمت لفترة حزن جديدة. لكن غبطة بيتيا كانت معدية آنذاك، فقلت لنفسي، نعم، لم لا، شيء من المرح والبهجة بعد كلّ ذلك، يا لها من فكرة جيدة، وإذا أراد بيتيا، أن يكون عشيق الحياة لليلة واحدة، فنعم! دعه يرتدي الرداء الروماني ويبتهج.

كانت الثياب التي تُطلب خلال فترة إخطار قصيرة تستغرق وقتاً، لكن لهذا السبب كانت توجد بلاذر وفاس، وفي جميع الأحوال، كان الرداء الروماني عبارة عن ملاءة مليئة بأفكار كبيرة. وعثرت المرأتان على صنادل رومانية وأكاليل الغار بالإضافة إلى حزمة من أغصان البتولا عُقدت بشريط أحمر - قضبان تُربط فوق فأس روماني - سيحملها بيتيا كرمز سلطته القنصلية. ووجدتا أيضاً قبعة أبله تتدلى منها أجراس، قُدمت لموراي ليت، وقد أردته كثيراً أن يلبسها حتى يشبه داني كاي في فيلم *محكمة المهرّج* ويلوي لسانه، حبة *السمّ* في

الوعاء مع المدقّ؛ الكأس من القصر مترعة بشراب حقيقي! لكنّه فضّل أن يرتدي رداء رومانياً ليصبح مثل بيتيا، وإذا أراد بيتيا أن يحمل مجموعة القضبان المربوطة في الفأس، فإن ليت سيحمل القطّة.

وهكذا كان؛ وانطلقا في ثوبهما الإمبراطوري وابتعدا عن الغاردنز، وابتعدا عن البيت المثقل بالموت باتجاه الاستعراض الذي يحتفي بالحياة؛ وهكذا، عندما ركضا نحو الحياة بعيداً عن الموت، كان الموت بانتظارهما، كما تنبّأت القصّة القديمة، في سامراء التي يمكن القول إنها وجدت الآن في الجادة السادسة بين الشارع الرابع وشارع واشنطن بلايس. كان الموت متنكراً في بدلة جوكر يحمل بندقية AR-15. كانت ثرثرة البندقية ناعمة لم تكد تُسمع وسط صخب الجماهير المحتشدة، وصوت الأبواق، والرسائل التي كانت تُنقل بواسطة مكبرات الصوت، وعزف الفرق الموسيقية. ثمّ بدأ الناس يتساقطون، وأتلفت حقيقة قاسية عارية الحفل. لا يوجد ثمة سبب يجعلنا نعتقد أن بيتيا أو موراي ليت كانا مستهدفين بالتحديد. فالأسلحة حيّة في أمريكا، والموت هديتها العشوائية.

القطّة، الوشق الألبي. وها هي في لقطة مقرَّبة، ذراع الرجل الروماني الميت ممدودة، وقد سقط الفأس من قبضته. (صدى متعمّد، في الصورة، لذراع خامدة للكونغ الذي سقط في نهاية الفيلم الأصلي في عام ١٩٣٣). وليو يزأر بكراهية نحو أي شخص تسوّل له نفسه الاقتراب. وعندما انتهى كلّ شيء، عندما تلاشى الصراخ، عندما هدأ الناس الذين كانوا يركضون ويسقطون ويتفرّقون، وهؤلاء الموتى والجرحى من إطلاق النار، والذين سُحقوا تحت الأقدام وهم يهربون من الخوف، نُقلوا كلهم إلى الأماكن التي يجب أن يؤخذوا إليها، وعندما أصبح الشارع خاوياً إلّا من الأوساخ والنفايات

المتناثرة التي تتطاير في الهواء وعويل سيارات الشرطة، عندما انتهى كلّ شيء فعلاً، ذهبت القطّة، ولم ير أحد ليو، الوشق، بعد ذلك.

والملك، وحيداً في البيت الذهبي، رأى كلّ ذهبه في جميع جيوبه، جميع أكداسه في كلّ أكياسه، جميع دلائه بدأت تلمع أكثر وأكثر حتى اشتعلت فيها النار، واحترقت.

مكتبة
t.me/t_pdf

القسم الثالث

(٣٠)

في الحقيقة، كنت آمل أن أعيش حياة أكثر لطفاً. حتى عندما حلمت بأن أصل، في لحظة رائعة في المستقبل، إلى مكان من التميّز الحقيقي، كنت أتمنى أن أجد رقة أكثر وأنا أسير في الطريق. لم أفهم آنذاك أنّ سيلا وتشاريبديس، الوحشين الأسطوريين اللذين كان على سفينة أوديسيوس أن تبحر بينهما في مضيق ميسينا - أحدهما مضيق من صخور عملاقة، والآخر دوّامة شرسة - يرمزان، من ناحية، إلى أناس آخرين (الصخور التي نحطّم عليها أنفسنا ونتهاوى)، والآخر، الظلام الذي يغلّفنا (الذي يشدّنا إلى الأسفل حتى نغرق). الآن، بعد أن انتهى فيلمي *البيت الذهبي* أخيراً، الذي سيُعرض لأول مرة في مهرجان الأفلام - الذي استغرق إعداده قرابة عشر سنوات، وبعد الاضطرابات التي حدثت في حياتي الخاصّة في نهاية تلك الفترة تقريباً، كان إنجازه أشبه بمعجزة - يجب أن أحاول تدوين ما تعلّمته في أثناء هذه العملية. ففي العمل السينمائي تعلّمت، أولاً، أنه عندما يقول لك شخص يملك أموالاً: «أحبّ هذا المشروع. *أحبّه*. إنه خلّاق، أصلي جداً، إبداعي، لا يوجد شيء يشبهه. سأدعمك ألف بالمئة، بكل طاقتي، دعماً كاملاً، ألف وواحد بالمئة، إنه عبقري»، فإن ما يقوله، بترجمته إلى الإنكليزية، «مرحبا». وتعلّمت أن أُعجب بكل شخص يصل في فيلمه إلى خطّ النهاية ويُعرض في دور السينما،

ومهما كان، *المواطن كين* أو *بوركي الثاني والعشرين* أو *دامب فاكس التاسع عشر*، لا تهتم، لقد صنعتَ فيلماً، رجالاً، احتراماً. أما عن الحياة خارج العمل السينمائي فهذا ما تعلّمته: أن الصدق أفضل سياسة، إلّا عندما لا تكون كذلك.

نحن جبال ثلجية. لا أعني أننا باردون، وإنما نوجد غالباً تحت السطح، ويستطيع الجزء المخفي فينا أن يغرق سفينة *التايتانيك*.

* * *

في الأيام التي أعقبت إطلاق النار في عيد القدّيسين، أمضيت معظم أوقاتي في الغاردنز، أقدّم الخدمات التي قد يحتاج إليها آل غولدن. وبموافقة سوشيترا، أمضيت عدّة ليال في الأسبوع في شقّة السيد يو لنو فنو الذي لم يؤجر غرفتي القديمة وقال إنه سعيد بصحبتي في «زمن مريع، زمن مريع». أما سوشيترا في تلك الساعات الأخيرة قبل أن يتوجه البلد إلى صناديق الاقتراع، فقد كانت تعمل في ورديات طوال أربع وعشرين ساعة في مكاتب المونتاج التابعة لمؤسسة الصوتيات الرقمية، تقوم بتجميع اللقطات التي تريد أن تستخدمها الحملة الرئاسية للحزب الديموقراطي، بما أنها كانت عضواً بارزاً في الفريق الإعلامي النسائي الذي تطوّعت فيه لتقدّم خدماتها المهنية لأعضاء الفريق. وأقرّت بأنها كانت منهكة وروحها المعنوية متدنية، وربما كان عليّ أن أفهم أن معظم ذلك كان بسببي. لكن وجودي في الغاردنز لم يكن لأسباب إيثارية فقط، وإنما لأسباب لصوصية أيضاً، لأن غريزتي القوية بأن القصّة التي سأرويها ستمنحني الخاتمة التي لا تزال تفتقر إليها، وأنني إذا ترصدتها، متوارياً بين شجيرات الغاردنز مثل أسد جائع يتربص بين الأعشاب الطويلة عند جذع شجرة خرنوب في السهل الأفريقي، فإن فريستي

ستأتي إليّ وهي تخب. ولم يخطر ببالي بأن قصّة قتل ستظهر أيضاً في رواياتي المليئة بالموت. وكان فيتو تاغليابو هو الذي نبهني في البداية إلى إمكانية أن لا يكون نيرو غولدن، في الواقع، أو ليس هو فقط، ضحيّة خرف شيخوخي يتقدم ببطء؛ وإنما الحقيقة أنّه كان يتجرع السمّ ببطء على يد زوجته.

كانت الحياة في الغاردنز تشبه دائماً *نافذة خلفية*. فكلّ شخص ينظر إلى الآخرين، إذ نظهر كلّنا خلف نوافذنا المضاءة، مثل شاشات سينمائية صغيرة داخل الشاشة الأكبر، نقدّم عروضنا المسرحية لإدخال السرور والمتعة إلى نفوس جيراننا، كما لو كان بإمكان الممثلين في الأفلام مشاهدة أفلام أخرى وفي الوقت نفسه تشاهدهم هذه الأفلام الأخرى أيضاً. وفي *النافذة الخلفية* كان جيمس ستيوارت يعيش في بيت غير بعيد، في «١٢٥ شارع ٩ ويست» المتخيّل، الذي هو في العالم الحقيقي، ١٢٥ شارع كريستوفر - أي، الشارع التاسع ويست مع الجادة السادسة - لكن الغاردنز ستفي بالغرض أيضاً. وكنت أزمع أن أعرض في نسخة فيلمي، عدداً قليلاً من السكّان الذين تعمّدت أن يكونوا شخصيات تشبه الشخصيات في فيلم هتشكوك العظيم، *الآنسة* تورسو، الراقصة المنفتحة، *والآنسة القلوب الوحيدة*، العازبة المسنّة، وما إلى ذلك. بل ربما بائع مجوهرات جوّال، يشبه رايموند بورر. ولم يكن في أي جزء من خطتي أن أطوّر محور القصة ليصل إلى محاولة اغتيال، لكن هذا ما ستفعله لك القصص، إذ تنطلق في اتجاهات غير متوقّعة وعليك أن تتعلق بذيول معاطفها. وهكذا بينما كنت أعبر الغاردنز من بيت السيد يو لنو فنو إلى منزل غولدن عندما مدّ فيتو تاغليابو رأسه الوسيم، بشعره اللامع الممشّط إلى الخلف، من باب منزله الخلفي، وقال فعلاً، ولدهشتي الكبيرة: «بسست!»

توقفت عندما سمعت ذلك فوراً، وأعترف أن حاجبي تقوس.

«المعذرة»، قلت، مستفسراً، «هل قلت للتو 'بسست'؟»

«سي»، هسهس، وأشار لأن أدنو منه، «هل توجد في ذلك مشكلة؟»

«لا»، أجبت، واقتربت منه، «لأنّني لم أسمع أحداً يقول لي 'بسست' قط».

فشدّني إلى مطبخه وأغلق باب الحديقة. وقال: «وماذا يقولون، إذاً؟» كان انفعالياً في طبعه، «أليست هي كلمة أمريكية؟»

«أوه، أظن أنهم يقولون، 'هاي'، أو 'المعذرة؟' أو 'هل لديك دقيقة؟'»

«لا تحمل المعنى نفسه»، قال فيتو تاغليابو.

«على كل حال»، قلت.

«على كل حال»، قال موافقاً.

«أتريد مني شيئاً؟»

«نعم. نعم. إنه أمر مهم. لكن أجد صعوبة في قوله. بالطبع أتكلّم بثقة تامة. أنا واثق من نزاهتك، أنك لن تقول إنك سمعت ذلك منّي».

«ما هو ذلك الشيء يا فيتو».

«إنه حدس. أتقولون حدس؟ نعم، حدس».

أشرت بيدي، تابع أرجوك.

«فاسيليسا هذه. زوجة السينيور نيرو هذه. إنها امرأة قاسية. عديمة الرحمة. مثل جميع...» وصمت. خيّل إليّ أن كلامه سينبثق من مرارة شخصية، مثل *جميع الزوجات*، *أو كلّ النساء* «... مثل جميع الروس».

«ماذا تقول يا فيتو».

«أقول إنها ستقتله. من المؤكد أنها تقتله الآن. أراقب وجهه عندما يتمشى هنا. إنه ليس تدهور شيخوخته. إنه شيء آخر».

كانت زوجته السابقة بيانكا تاغليابو قد رحلت إلى بيت عشيقها الجديد، كارلوس هرلنغهام، «السيد آريبيستا»، الذي يسكن في الشارع المقابل. وكان العشيقان الجديدان يتمشيان كلّ يوم في الغاردنز، يهينان فيتو الذي يتذكر فشل حبّهما. وقلت في نفسي لو كان هناك أحد يفكّر أن يرتكب جريمة قتل، فلا بد أنه يكون فيتو نفسه. في جميع الأحوال، لاطفته، وسألته، «كيف تفعل ذلك».

هزّ كتفيه بطريقة أوبرالية، وقال: «لا أعرف. لا توجد لديّ تفاصيل. أرى فقط علامات المرض على وجهه. مريض بطريقة غير صحيحة. قد يكون شيئاً يتعلق بأدويته. فلا بد أنه يتناول أدوية عديدة. لذلك، الأمر سهل. نعم، شيء يرتبط بالأدوية، أنا متيقن من ذلك. أكاد أكون متيقناً».

«ولماذا ستفعل ذلك»، ضغطتُ عليه. هزّ كتفيه ثانية ولوّح بذراعيه، وقال: «هذا واضح. لقد ذهب جميع الورثة الآخرين الآن، ولم يبق إلّا ابنها. وإذا بالصدفة ذهب نيرو أيضاً» - هنا سحب إصبعاً عبر حنجرته - «فمن يرث؟ توجد باللغة اللاتينية عبارة *cui bono*؟ - من المستفيد؟ - أترى؟ الأمر شديد الوضوح».

كان ابني في لبّ الموضوع. ابني الذي أصبح عمره سنتين ونصف السنة ولا يكاد يعرفني، ابني الذي لا يزال ينسى اسمي، والذي لا يمكنني أن أرسل إليه هدايا، ولا أستطيع أن ألعب معه في الغاردنز أو ما بعدها، ابني وريث ثروة رجل آخر، جواز سفر أمّه إلى المستقبل. ابني الذي رأيت في وجهه الصغير وجهي بجلاء. ودُهشت أن أحداً لم يلاحظ الشبه القوي بيننا، بل كان الناس يقولون، في الواقع، إنه يشبه والده تماماً الذي لم يكن والده، انتصار المزعوم على الحقيقي. يرى الناس ما يُفترض أن يروه.

فيسباسيان، ما هذا الاسم، فيسباسيان. بدأ ذلك يثير حنقي. «فيسبا الصغير»، بالفعل. فقد كانت دراجة فيسبا الصغيرة التي كانت أودري هيبورن تقودها بتهور حول المدينة الأبدية في أثناء عطلتها الرومانية مع غريغوري بيك وهو يجلس مذعوراً في المقعد الخلفي. إن ابني يستحقُّ مقبضاً أفضل من مقابض نجوم السينما هؤلاء. إنه يستحق على أقل تقدير اسم أحد عظماء السينما، لويس أو كينجي أو أكيرا أو سيرجي أو إنغمار أو أندرزيج أو لوتشينو، أو ميشيل أنجيلو، فرانسواز أو جين لوك أو جين أو جاك أو أورسن أو ستانلي أو بيلي أو حتى، بشكل ممل، كلينت. كنت قد بدأت أحلم، لكن ليس بجدية كبيرة، بأن أخطفه، أو أن أجري مع فيدريكوي أو ألفريد وأهرب إلى عالم السينما نفسه، ونغوص في الأفلام في الاتجاه المعاكس لجيف دانيلز في فيلم وودي ألن، نكسر الجدار الرابع لنغوص في الأفلام بدلاً من أن نخرج منها إلى العالم. فمن يحتاج إلى العالم عندما تستطيع أن تجري في الصحراء وراء جمل بيتر أوتول، أو مع رائد فضاء الكوبريك، كير دوليا، وتقتل الكمبيوتر المجنون هال ٩٠٠٠ وهو يغنّي «ديزي، ديزي، أعطني جوابك، هيا»؟ فما جدوى الحقيقة إذا كان باستطاعتك أن تقفز مع أسد وفزّاعة إلى أسفل طريق يالو بريك رود، أو تهبط درجاً ضخماً بجانب غلوريا سوانسون، مستعداً لأن يأخذ السيّد ديميل لقطة مقرّبة لك؟ نعم، أنا وابني، يداً بيد، سنُعجب بأرداف وصدور العاهرات الضخمة في فيلم *روما* للمخرج *فيليني* ونجلس بيأس على رصيف روماني حزينين على دراجة مسروقة ونقفز إلى آلة الزمن دوك *براون ديلورين* ونطير عائدين إلى المستقبل ونصبح أحراراً.

لكن لا يمكن أن يحدث ذلك. فقد حوصرنا جميعاً في تمثيلية فاسيليسا، وخاصة الطفل، فقد كان الطفل ورقتها الرابحة. وللحظة

تساءلت إلى أي مدى يمكن أن تكون فاسيليسا قاسية القلب؛ فهل هي التي هندست موت اثنين من أبناء غولدن الثلاثة على الأقل، وهل كان لها تأثير أيضاً على الابن الثالث إذا لم يكن قد سلب حياته بنفسه؟ لكنّي شاهدت الكثير من الأفلام، واستسلمت للميلودراما ذاتها مثل تاغليابو الغاضب، الذي حُرم من الحب. هززت رأسي لأنفض عنه تشوشه واضطرابه. لا، ربما ليست قاتلة أو محرضة على القتل. إنها فقط «فقط» - مخلوق متآمر ومناور شارفت على الانتصار في حربها.

* * *

رسم التقارب الجديد الذي ازداد بين نيرو وريا بعد موت أبنائه الثلاثة تجهماً سيبيرياً على وجه السيّدة غولدن الثانية الجميل (المتجمّد قليلاً)، لكني لم أُفاجأ بذلك. فلم يكن لدى الأب الذي فُجع بموت أبنائه الثلاثة أحد يشاركه في الحزن على آبوو أو بيتيا، لكن حزنها على موت دي كان يوازي حزنه. ولا يوجد اسم في أيّ لغة يعرفانها يسمّي الأب الذي مات ابنه، لا شيء يعادل كلمة *أرمل* أو يتيم، ولا يوجد فعل في أي لغة يصف هذه الخسارة. إذ إن كلمة *الفاجعة* ليست دقيقة كما يجب أن تكون. فقد كانا يجلسان معاً في غرفة مكتب نيرو في صمت خسارتهما، وكان صمتهما أشبه بمحادثة قيل فيها كلّ شيء يجب أن يقال، مثل جيمس جويس وصموئيل بيكيت يغمرهما صمت الحزن على كل من العالم وعلى نفسيهما. كان هشاً، يشتكي أحياناً من الشعور بالدوار، وفي أحيان أخرى يشعر بالغثيان، وكان يغفو ثم يستيقظ عدة مرات في الليل. وأصبح يعاني من حالات فشل في الذاكرة. وكان أحياناً لا يتذكّر أنّها موجودة معه، وفي أحيان أخرى، كان يعود إلى نفسه الحادّة القديمة. لم يكن انحداره خطّاً بيانياً مستقيماً، وإنما كانت تحدث تقلبات، مع أن الاتجاه إلى الأسفل كان حتمياً.

في إحدى الليالي أخذته إلى الطرف الشمالي من مانهاتن إلى جادة بارك أفنيو أرموري حيث كان أحد عشر برجاً طويلاً خرسانياً في شكل نصف دائرة من النادبين المحترفين من جميع أنحاء العالم يطلقون أصواتاً كثيرة من أشدّ أصوات الصمت صمتاً، الموت. وكان عازف أكورديون أعمى من الإكوادور يعزف موسيقى *yaravíes* في أحد الأبراج، وكان ثلاثة نادبين كمبوديين، كانوا قد هربوا من محاولات الخمير روج لإبادة نوعهم يؤدّون مراسم تدعى *kantomming*، ويعزفون على الناي ويقرعون أجراساً كبيرة وصغيرة. ولم يستغرق العزف وقتاً طويلاً، ربما خمس عشرة دقيقة أو عشرين دقيقة، لكن صدى رنينها كان يتردّد في داخل ريا ونيرو حتى بعد أن غادرا المكان لفترة طويلة. ولم ينبس نيرو بكلمة إلّا، «*كان الطير مفيداً*». وحيداً في أحد الأبراج، كان يجثم طير عملاق لا يُعرف نوعه، شيء يشبه الديك، فوق رفّ خرساني، نادب من بوركينا فاسو يختبئ تماماً داخل ثوب طيره وعلى رأسه رأس طير، وفي كاحليه أجراس ينبعث منها رنين ناعم كلما حرّك قدميه. لم يكن الطائر الحزين يصدر أي صوت سوى ذلك الصليل الباهت بين الحين والآخر، يجثم ساكناً تسري قشعريرة طفيفة فيه، وكان وجوده الرزين واللطيف قوياً لا يكفي إلّا لشفاء جزء بسيط فقط من ألم ريا ونيرو. «هل تريد أن نذهب مرة أخرى»، سألت ريا نيرو عندما خرجا وأصبحا على الرصيف، فقال لها: «لا، لقد طفح الكيل».

في إحدى الليالي بعد عدة ليالي من الصمت، تحدّث نيرو. كانت غرفة مكتبه غارقة في الظلام. لم يكونا بحاجة إلى ضوء.

«يجب ألّا تتركي عملك يا ابنتي»، قال. كان قد بدأ يدعوها كذلك.

باغتتها العبارة التي قالها من دون مقدمات أو من دون ظلّ من الشكّ.

«أتعرف ماذا، شكراً، لكنك لا تفهم هذا الأمر»، قالت له بقسوة شديدة. «هذا شأني أنا، أو كان منذ زمن بعيد».

فقال: «أنت محقّة. إن مسألة نوع الجنس تتجاوز إدراكي. رجل، امرأة، حسناً. مثليّ، حسناً، أعرف أنه موجود. هذا العالم الآخر، رجال لهم أعضاء مركّبة بعملية جراحية، نساء من دون أعضاء أنثوية، لقد أضعتني. أنت محقّة. فأنا ديناصور، وعقلي ليس مئة في المئة. أما أنت؟ فإنك تعرفين ذلك بدقة. أنت محقّة. هذا شأنك أنت».

لم تجب. أصبحا يشعران بالراحة في صمتهما. لم تكن هناك حاجة لكي تجيبه.

«الأمر يتعلق به، أعرف»، قال، «إنك تلومين نفسك ولهذا السبب فإنك تتخلين عن مجال عملك».

«مجال عملي»، قالت، «ينبغي أن يكون مكاناً آمناً ناعماً حتى يُفهم، وإلّا يصبح منطقة حرب. وأنا أنحو إلى السلام».

فقال: «أنتِ لستِ في سلام، فلا توجد لديك مشكلة كبيرة في مسألة الهوية. الأسود، الأمريكي من أصل إسباني، المرأة، كلّ هذا جيد. إنها تلك المنطقة الجنسية القابعة في الوسط التي تطلقين عليها منطقة الحرب. إذا أردت السلام هناك، فكوني صانعة السلام، ربما. لا تهربي من المعركة».

سمع سؤالاً في صمتها. «لماذا، تظنين أنني لا أستطيع أن أُعلّم نفسي قليلاً؟» قال، «أتظنين لأن دماغي بدأ يذوي شيئاً فشيئاً، بدأ ينكمش مثل قميص رخيص، لقد انتهى كلّ ذلك؟ دماغي لم يمت بعد أيتها الشابّة. لم يمت بعد».

«حسناً»، قالت.

«خذي إجازة. فكّري في الأمر. لا تتركي عملك».

«حسناً»، قالت.

«لقد نقلت هويتي أنا أيضاً»، قال.

* * *

في وقت لاحق، بعد أن غادرت ريا، أصبح الرجل العجوز وحده في الغرفة المظلمة. رنّ الهاتف الأرضي. تساءل هل يريد أم لا يريد، مدّ يده إلى الهاتف، لكنه سحبها، ثم مدّها إليه ثانية، وردّ.

نعم.

غولدن ساهيب.

من يتكلّم.

لا أظن أنك ستتذكّر اسمي. كنتُ سمكة صغيرة في مقلاة كبيرة جداً.

ما اسمك.

ماستان. المفتش سابقاً، من قسم التحقيقات في مومباي، بعدها هيماشال براديش، ثمّ، قطاع خاصّ. والآن متقاعد.

صمت.

ماستان. أتذكّر.

هذا شرف لي. أن يتذكّر شخص كبير كبير مثلك. يا لها من ذاكرة، سيدي، ابنكم لم يتذكّر، إنه رجل أصغر بكثير.

هل التقيتَ بأحد أبنائي.

سيدي، في مومباي، سيدي. وأصبح أسمه الآن آبوو. أي أنه كان يحمل الاسم نفسه. اعتذاراتي للغتي الإنكليزية الركيكة. تعازيّ على خسارتكم.

كيف حصلتَ على هذا الرقم.

سيدي، كنتُ شرطياً، ثم رجل أمن خاص. هذه الأشياء ممكنة.

صمت.

ماذا تريد.

أريد فقط أن أتكلّم، يا سيدي. لا أملك سلطة، ولا قوة، أنا رجل متقاعد، هذه هي الولايات المتحدة الأمريكية، لا توجد لي فيها سلطة قضائية، لا شيء، قضية باردة، وأنت رجل قوي جداً جداً، وأنا لا أحد. فقط لتوضيح بعض الأمور. لكي أرضي نفسي قبل أن أصل إلى نهايتي. لرضائي الخاص فقط.

وعليّ أن أراك، لماذا.

إذا أردت أن تعرف هوية الأشخاص الذين قتلوا ابنك. فقط أفترض أن هذا أمر يهمك.

صمت طويل.

غداً صباحاً. الساعة التاسعة.

التاسعة تماماً، يا ساهب. تماماً. شكراً سلفاً.

* * *

لا تزال ريا نائمة حتى وقت متأخر. أوقظها صوت رنين هاتفها الخليوي. لدهشتها العظيمة جداً، كان المتّصل نيرو غولدن.

هل تستطيعين أن تأتي؟

الآن؟ إننا في منتصف الليل.

أريد أن أتكلّم، والكلمات حاضرة في ذهني الآن، وربما لن تكون كذلك غداً.

أعطني لحظة.

يا ابنتي، أنا بحاجة إليك الآن.

(٣١)

أصبح على مشارف الثمانين من العمر وبدأ ينسى جميع الأحداث التي جرت منذ فترة قريبة جداً، بينما بدأ الماضي يتوهّج بمزيد من الإشراق في ذاكرته كالذهب في قعر نهر الراين. ولم يعد نهر أفكاره صافياً، بل تعكرت مياهه ولم تعد شفافة، وفي داخلها بدأ إدراكه يرخي قبضته رويداً رويداً على تاريخ الأحداث، حول أي شيء كان آنذاك، وماذا الآن، وما هي الحقيقة عندما يستيقظ، وما الذي ولد في دنيا أرض الأحلام. وهكذا اضطربت مكتبة الزمن عنده، وتشوشت فئاته وطبقاته، واختلطت أدلته ومؤشراته أو أنها أُتلفت. كانت هناك أيام جيدة وأيام سيئة، لكن مع قدوم كلّ يوم، كانت أيامه الماضية البعيدة هي التي تشرق بوضوح أكثر من الأيام في الأسبوع الماضي. ثمّ اتصل به الماضي على الهاتف في عتمة الليل، وخرج من القبر فجأة كلّ ما كان قد دفنه وتناثر حوله واتصل هاتفياً بنفسه. وفي ما تلى ذلك أسمع صدى فيلم آخر من أفلام هتشكوك. فلم نعد الآن في *النافذة الخلفية*. بل بدأنا ندخل عالم *أنا أعترف*.

(هل تتذكّر أنا أعترف؟ قاتل يعترف بجريمته لكاهن كاثوليكي مقيّد بقواعد الاعتراف بأن يحافظ على سرّ القاتل. لقد كره ألفريد هتشكوك طريقة تمثيل مونتغومري كليفت المنهجية، وكره البعض الفيلم كلّه لأنه يخلو من المرح، لكن إريك روهمر وكلود تشابرول

أثنيا على الفيلم على *«فخامته»* في مجلة السينما "Cahiers du Cinéma"، وقالا بما أنّ الكاهن قد أُخرس، *فقد اعتمد الفيلم على قسمات وتعابير الممثل. «هذه النظرات فقط هي التي توفر لنا مدخلاً إلى ألغاز أفكاره. إنها رسل الروح الأكثر جدارة وإخلاصاً»*. ريا زاتشارياسن، *تغذّ الخطى في شوارع مانهاتن في أعماق الليل. إنها ليست كاهنة، لكنّها ذاهبة لتسمع اعترافاً. هل ستحافظ على السرّ؟ إذا كان الأمر كذلك، فكيف ستتمكن نظراتها وملامحها من نقل ما* ستعرفه؟ و: *هل إن امتلاكها للسرّ سيعرّض حياتها للخطر؟*)

الماضي، ماضيه الذي هجره فوق التلة ذات الطبقات المتعددة. كانت التلة على الدوام مكاناً سحرياً منذ أن ألقى شقيق راما، لاكشمان، سهماً إلى الأرض وأحضر إليها نهر الغانج البعيد لإرواء عطشهم. فتفجّر نبع من تحت الأرض وشربوا منه. كان لا يزال هناك ماء عذب في خزان بانغانغا. وكلمة *بان*، تعني «سهم» باللغة السنسكريتية، وبالطبع، فإن نهر الغانج هو النهر الأمّ. لقد عاشوا بين القصص الحيّة للآلهة.

وبعد الآلهة، شيّد البريطانيون، وعلى رأسهم المبجّل ماونتستيوارت إلفينستون، حاكم المدينة بين عامَي ١٨١٩ و١٨٢٧، الذي بنى أول بيت كبير من طابق واحد فوق التلة ثم حذا حذوه جميع نبلاء المدينة. تذكّر نيرو تلة طفولته، بقعة مكسوة بالأشجار تتناثر فيها بيوت كبيرة فخمة واطئة ذات أسطح من الآجر الأحمر يمكن رؤيتها من خلال أوراق الأشجار. وسار في ذاكرته عبر الجنائن المعلّقة وراح يراقب أبناءه وهم يلعبون في *حذاء المرأة العجوز* في حديقة كامالا نهرو العامة. وبُنيت أول بناية عالية فوق التلة في خمسينات القرن العشرين فسخر منها الناس، وسمّوها «*بيت علبة الثقاب*» لأنها كانت تشبه علبة ثقاب عملاقة تنتصب في نهايتها.

من يريد أن يعيش هناك، تساءل الناس باستهزاء، انظروا كم هي قبيحة. أما بيوت علب الثقاب فقد ارتفعت وانحسرت البيوت ذات الدور الواحد. كان ذلك تقدّماً. لكن ليست هذه هي القصّة التي كان يريد أن يحكيها، وإنما أراد أن ينهي القصّة التي بدأ يحكيها لي في ذلك اليوم في غرفة مكتبه.

(فتح الباب بنفسه لريا. توجّها إلى غرفة مكتبه المظلمة وجلسا في العتمة. لم تقل شيئاً، أو أنها لم تقل شيئاً تقريباً. فلديه قصّة طويلة يريد أن يرويها لها).

التقى بالرجل الذي أصبح يدعوه باسم دون كورليون لأول مرة في الوقت نفسه الذي عرض فيه فيلم *العراب* تقريباً في دور السينما، عندما بدأ محاولاته الأولى في عالم إنتاج الأفلام. آنذاك، كان الجميع يطلقون على دون السلطان أمير. وكان يطلق على عائلته الإجرامية شركة – س، «س كناية عن سلطان، وسوبر، وستايل» كما كان دون يحبّ أن يتبجّح. كان مجرماً عريقاً، مهرّباً لا منازع له، لكن الناس كانوا يحبّونه لأنه لم يكن يسمح بقتل أحد، وفي جوهره، كان أشبه بمرشد اجتماعي. وكان يساعد الفقراء في الأحياء الفقيرة وأصحاب المحلات الصغيرة أيضاً. وصحيح أنه كان يدير أعمال دعارة، بيوت دعارة في كاماثيبورا، نعم، كان يديرها. والسطو على البنوك أيضاً. لا يوجد أحد مثالي. لذلك، نعم، بشكل عام، إن قبلتِ ذلك أم لم تقبلي، يمكنك أن تقولي إنه كان نوعاً من روبن هود. لا، هذا غير صحيح، ليس تماماً، فالعمل عند ذلك المستوى الضخم لا يمكن مقارنته مع حفنة من قطاع الطرق الذين كانوا يستخدمون القوس والنشاب في غابة شيروود في بريطانيا، لأن الناس كانوا يعتبرونه رجلاً صالحاً، جيداً أكثر منه فاسداً. كان أول رئيس عصابة مشهوراً. كان يعرف الجميع، وكان يُرى في كل مكان.

الشرطة، القضاة، السياسيون، كان الجميع في جيبه. كان يجوب أنحاء المدينة بحرّية، من دون خوف. ولولا رؤساء العصابات من أمثاله لما صُنعت نصف الأفلام التي أحبّها الناس. فهم المستثمرون الرئيسيون، أسياد المافيا. يمكنك أن تسألي أيّ منتج أفلام كبير. وسرعان ما بدأت المافيا تزوره وفي أيديها حقائب مليئة بالنقود.

درّب الجيل التالي، ترعرع جميع الصبية المحليّين على يديه. ماذا كان زامزاما ألانكار سيعرف عن التهريب لو لم يعلّمه سلطان أمير؟ لقد درّب زامزاما (المعروف أيضاً باسم ب. ك. كناية عن «بندقية كيم»، أو فقط مدفع)، ودرّب ليتل فيت (الأقدام الصغيرة)، ودرّب شورت فينغرز (الأصابع القصيرة)، ودرّب بيغ هد (الرأس الكبير)، الكبار كلّهم. الخمسة جميعاً، كانوا يحبّون الأفلام، وكانت لدى سلطان أمير عشيقة، نجمة سينمائية - الفتاة التي تدعى غولدي، والتي أنفق عليها أموالاً باهظة لتمثّل في أفلام فاشلة ليصنع منها أيقونة - لذلك، كان من الطبيعي أن يتوجّهوا إلى العمل في صناعة السينما التي لم يكن أحد يطلق عليها اسم بوليوود آنذاك، فقد اختُرع هذا الاسم بعد ذلك بفترة طويلة. *صناعة سينما بومباي. أفلام بومباي الناطقة*. كانت تُسمّى آنذاك فقط.

(كان فيلم Bombay Talkie، لو قاطعت بسرعة، ولا يزال فيلمي المفضّل الذي أنتجته Merchant-Ivory، لاسيّما الأغنية والرقصة «الآلة الكاتبة، تب تب تب» التي يرقص فيها الراقصون والراقصات فوق مفاتيح «آلة القدر» الضخمة، ويقول المخرج شارحاً ذلك «عندما نرقص نحن البشر عليها فإننا نضغط على المفاتيح والقصّة التي تُكتب هي قصّة قدرنا». نعم، كلّنا نرقص لنكتب قصصنا على آلة كاتبة الحياة).

وهكذا ساعد دون كورليون في أفلام بومباي الناطقة بعض

النجمات الساقطة لكي يصبح لها موطئ قدم، بارفين بابي، على سبيل المثال، وكذلك هيلين. وكان صديقاً لراج كابور وديليب كومار. مهربوه هرّبوا، ولصوصه سرقوا، وعاهراته تعهّرن، وكان القضاة والسياسيون والشرطة يفعلون ما يطلبه منهم، أما على الشاشة الفضّية في ماراثا ماندير، فقد ضرب فيلمه كوتش *ناهين كاهين ناهين كابهي ناهين كوي ناهين*، «لا شيء، لا مكان، أبداً لا أحد» الرقم القياسي في عرضه في دور السينما لأسابيع عديدة متتالية حتى، بالطبع، جاء ذلك الفيلم اللعين الآخر، «*العروس يعرّيها عزّابها*» فحطّم جميع الأرقام القياسية المعروفة. أما فيلمه *KN4* الذي اعتبره الناس أعظم فيلم حققه، كان سلطان أمير/دون كورليون فخوراً بذلك، أعظم إنجاز يفتخر به، كان يقول، والتصق اسمه به، «كلّ شيء، كلّ مكان، كلّ مرة، كلّ شخص» أو «كلّ ٤»، لأنه كان كذلك، كلّ الأشياء لكلّ الناس. وصحيح أن حبيبته غولدي لم تبلغ القمة، ولم تنل أعلى لقب كما يقول صانعو السينما في هوليوود، لكنّها كانت سعيدة، فقد اشترى لها بيتاً كبيراً في جوهو بالقرب من بيت ديف أناند العظيم، وكان بإمكانها دعوة ذلك الإله الحيّ ليتناول السمبوسك ويحتسي الشاي معها.

أما نيرو: فقد كان مجرد رجل أعمال، ركزّ جلّ جهده على أعمال البناء، يصعد في العالم مثل البنايات التي كان يشيّدها، مثل أي شخص آخر في تلك المدينة الحالمة المهووسة بالأفلام. ثم اجتمع مع دون في بيت أحدهم على الشاطئ في جوهو، أو ربما في بيت كذا وكذا، فهذا غير مهم. واحدة من أعظم مضيفتين أو ثلاث مضيفات اللاتي كنّ يسيطرن على حياة الليل المتألّقة في المدينة، لنقل ذلك. وانسجما على الفور، وفي نهاية السهرة قال سلطان أمير: «سأرى سميتا غداً لأحكي لها قصّة فيلمي الجديد، ألا تريد أن تأتي

معي؟» بهذه الكلمات استمال نيرو إلى الأبد، وبدأت حياة رجل الأعمال تأخذ مسلكاً جديداً.

النجوم الكبار - النجوم العمالقة - لا يقرأون السيناريو. إذ يذهب أحدهم إليهم ويحكي لهم قصة الفيلم، يحكي قصّته، وخلال ذلك يحرص على أن يؤكد أنّ دور النجم البارز هو العنصر الأساسي الذي لا يمكن الاستغناء عنه في الفيلم كله. وكانت سميتا واحدة من أكثر الممثلات المحبوبات شعبية في زمنها، ولم تكن جميلة أو رمزاً جنسياً فحسب، وإنما كانت أيضاً ممثلة قوية ورائعة. ووفق المعايير المحليّة، فقد عاشت حياة شنيعة، وعاشت علناً مع نجم مشهور كان متزوجاً أيضاً. وفي النهاية، أبعدها التعصّب والتشهير عن السينما فأصبحت امرأة منبوذة جريحة، لكن ذلك حدث في وقت لاحق، أما الآن فكانت في أعلى العليين، تتربع قمة جبل كيلاش، إلهة الآلهة، في قمة القمم. وكان لقاء نيرو بها أحد أعظم الأحداث التي جرت في حياته، مع أنها لم تقبل قصة الفيلم بسبب الجزء الذي يتطلّب من سميتا أن تتقدم في السن، خلال مسيرة أحداث الفيلم، منذ أن تكون في السابعة عشرة من العمر حتى تبلغ، ربما، الخامسة والخمسين. «كما ترى»، قالت الشخصية البارزة الخالدة لدون، «أنا شديدة الامتنان لك لأنك أحضرت لي هذا، لأن معظم الأجزاء لا تتمدّد، أليس كذلك، لكن ما أريد أن أفعله كفنانة هو أن يتمدّد، أن يتوسّع، لهذا السبب أحببت هذا الفيلم. لقد أحببته فقط. وهناك شيء أو شيئان فقط، حسناً، أريد أن أقولها بصراحة، على المكشوف، لأنه يجب الاتفاق على كلّ شيء مئة بالمئة قبل أن نبدأ التصوير، أليس كذلك، لكي نسير في الاتجاه نفسه مئة بالمئة عندما نذهب إلى موقع التصوير، إذا كان بوسعي قول ذلك؟» طبعاً، أجاب سلطان أمير، ولهذا السبب جئنا إلى هنا، أرجوك. فقطّبت وجهها ونظرت نحو

نيرو. «ومَنْ هذا؟» أرادت أن تعرف. فنقر سلطان أمير بلسانه وأبدى إيماءة رافضة، ثم قال «لا تهتمي به، إنه هكذا فقط». هذا خفّف من تقطيبها. ثمّ رجع الكيان السماوي إلى دون، وقالت: «كما ترى، كما رويت، فإن الشخصية تصبح أمّ فتاة في التاسعة عشرة، وأنا لم أقم بأداء - في حياتي- دور أمّ ابنة مراهقة. هنا تكمن صعوبتي. إنك تفهم أنّ الاختيارات التي أتخذها، الأفلام التي أختارها، تؤثّر على أداء شباك التذاكر السنوي لصناعتنا المحبوبة كلها، لهذا السبب يجب أن أكون حذرة، أليس كذلك؟ إني أسمع صوتاً يتكلّم، من الجمهور الذي يحبّني - من هي النجمة التي هي أنا - ويقول الصوت -»، لكن أمير سلطان قاطعها وقال: «يمكن تغيير محور القصة. اطلبي من صوتك أن يتوقف عن الكلام» - لكن الأوان قد فات. 'لا'، الصوت يقول. 'إنك تدينين به للعالم'».

كان نيرو، الجالس صامتاً في الزاوية، نيرو الذي هو هكذا، مفتوناً بذلك. وعندما غادرا ذلك الوجود القدسي، قال: «أنا آسف لأنه لم يعجبها». فقرقع أمير سلطان بأصابعه وقال: «سيعجبها. يمكن تغيير القصّة بسهولة. ربما سيارة مرسيدس، وإذا كانت توجد في المقعد الخلفي حقيبة مليئة بالنقود الوسخة، عندها، *فتتتتاخ*! تتم الصفقة». وصفّق بيديه. وعندما بدأ نيرو يهزّ رأسه ليبدي أنه فهم، أضاف دون، «ربما يكون هذا استثمارك في المشروع».

«المرسيدس؟»

«والحقيبة. الحقيبة في غاية الأهمية».

وهكذا بدأ الأمر. وخلال السنوات القليلة القادمة، أنشأ نيرو خطّاً جانبياً مربحاً كمساهم في غسيل أموال دون وناقلاً لأمواله. كيف حدث ذلك؟ لقد انزلق إلى هذا العمل الذي دفعه إليه هوسه بعالم السينما. الغبار الشمسي في عينيه، بريق السينما فتل رأسه،

والنقود التي يجمعها كل شخص مجنونة، أو بدقّة أكبر، كان لديه دائماً جانب فوضوي، ولم تكن أعمال البناء التي ينفذها تراعي القوانين كثيراً، بل كانت ملتوية كالمفاتيح اللولبية، كما صاغها الشاعر أ. هـ. أودين. فقد كانت طفرة البناء قد بدأت في تلك الأيام، وبدأت تُشيّد البنايات العالية، «بيوت علب الثقاب» وترتفع في أرجاء المدينة، وكان نيرو في لبّ هذه الطفرة. وفي طفرة ارتفاع المباني الجديدة وصعودها نحو السماء، كم قانون خُرق، وكم جيب امتلأ لإزالة العقبات! وهكذا ارتفعت البنايات وظلت ترتفع حتى بدأت تتجاوز أعداد الطوابق التي صرّحت بها البلدية. وربما كانت شركات الكهرباء أو الغاز أو المياه تهدّد بقطع إمداداتها إلى الطوابق التي لم يكن ينبغي لها أن توجد، لكن كانت هناك وسائل لحلّ مشاكل من هذا القبيل. ومن المؤكد أن حقيبة النجمة السينمائية لم تكن أول حقيبة بالنسبة إلى نيرو، فقد صادف أيضاً أن الكثير من المباني الجديدة لم تكن قانونية أيضاً، شُيِّدت من دون خطط مقرّرة، ولا تتطابق مع القوانين المعمول بها. وكان نيرو مذنباً بتنفيذ أعمال كهذه أيضاً، لكن كان الجميع هكذا أيضاً. فلم يكن هناك أحد بريئاً، ومثل كبار متعهدي البناء الآخرين، كان عنده أصدقاء من النوع الآخر يتبؤون مناصب عليا، لذلك، مثل الجميع، كان يفلت من العقاب من كلّ ما يفعله. «البنّاء هو القانون»، كان يحبّ أن يقول، «والقانون هو أن تواصل البناء». أخلاق؟ شفافية؟ هذه كلمات أجنبية، كلمات لأشخاص لا يفهمون ثقافة المدينة أو أسلوب حياة سكانها.

هكذا أصبح. كان يعرف ذلك. وأبناؤه كانوا يعرفون ذلك. بهذه الطريقة يسير العالم. لقد فتحت صداقته مع دون كورليون المعروف كذلك باسم أمير سلطان باب القبو الذي تقبع فيه فوضى أشدّ عمقاً بانتظار أن يفلت عقالها. الآن بدأت ترتاد حفلاته نجمات السينما

والكوكايين في الحمّامات، وانتقل من شخص يرتدي بدلة رسمية مملّة لبنّاء ناطحات سحاب يحمل في يده مخطّطات وحقيبة، إلى شخصية مرموقة في المدينة. وجاءت مع هذا المقام الجديد أعمال كثيرة أخرى، ومع الأعمال جاء مقام أرفع، وإلى ما هنالك. وخلال هذه السنوات، طوّر الأسلوب السوقي الترويجي الذاتي الصريح الذي لا يزال يحوم حوله مثل معطف فراء مبهرج في السنوات التي أمضاها في نيويورك. ونقل أسرته إلى بيت والكيشوار الفخم، واشترى يختاً. وأقام علاقات عاطفية كثيرة، وتألّق اسمه في السماء الليلية من أندهيري إلى ناريمان بوينت. كانت الحياة جيدة.

كانت هناك وسائل عديدة مختلفة لغسيل الأموال. ففي المبالغ الصغيرة، كانت تُستخدم طريقة لتقسيم الأموال القذرة إلى مبالغ صغيرة واستعمالها لشراء أشياء مثل حوالات مالية أو كمبيالات مصرفية، تودع لاحقاً في مصارف مختلفة، بمبالغ صغيرة، ثم تُسحب لتصبح أموالاً مغسولة. وكان نيرو يستخدم هذه الطريقة لأشياء مثل حقائب النقود. أما المشاريع الأكبر، فكان الأمر يتطلب وسيلة أوسع نطاقاً، وكانت العقارات هي الوسيلة المثالية لذلك. فأصبح نيرو من أكثر العارفين بهذه الأمور، السيد غير البارز لـ «*فليبينغ ١*» و«*فليبينغ ٢*». وتعني «*فليبينغ ١*» شراء عقارات راقية مرتفعة الثمن بالنقود السوداء (المتأتية من الكسب غير المشروع) ثم تُباع ثانية بسرعة للحصول على الربح عادة، بما أن أسعار البيوت آخذة في تصاعد كبير. وفي هذه الحالة، تصبح النقود المتأتية عن عملية البيع تلك نقوداً بيضاء (مشروعة)، نظيفة تماماً. أما «*فليبينغ ٢*»، فتعني شراء عقار - بموافقة البائع - بمبلغ أقل من سعر السوق، يُسدّد له ثمنه من تحت الطاولة بالنقود غير المشروعة، ثم ينتقل إلى «*فليبينغ ١*». وهكذا أصبح نيرو يدير أضخم شركة وساطة للعقارات

في المدينة التي أصبح يطلق عليها بالمصطلح السري «*فليبيستان*»، البلد الذي تنتقل إليه الأموال القذرة لقضاء عطلة، حتى تتطهّر وتُنظّف ثم تعود بعد أن تكتسب سمرة لطيفة، شريفة. ولقاء ثمن، طبعاً. فقد استخدم نيرو *فليبيستان* لعقد صفقات النقود غير المشروعة التي تخصه هو، لكن عندما كانت شركة - س تحتاج إلى خدماته، فقد كان يحصل على نسبة مئوية كبيرة على الصفقة.

ثمّ وقعت السماء على رأس دون كورليون. فقد لاحق ابن رئيسة الوزراء، سانجاي غاندي، الذي كان رفيقه في معاقرة الشراب، أمير سلطان خلال سنوات الطوارئ في أثناء فترة حكم أمّه الاستبدادي، وأُدين عرّاب شركة - س في المحاكم التي كان يسيطر عليها سانجاي، وحُكم عليه بالسجن لمدّة سنة ونصف السنة. وعلى نحو غريب، ما إن انتهت فترة الطوارئ وسقط سانجاي من عليائه، حتى أُطلق سراح دون. لكنّه تغيّر، وفقد أعصابه في السجن ووجد الله. ومع أنهما كانا يعتنقان الديانة نفسها، كان نيرو مسلماً بالاسم، ولم يعد كورليون المؤمن الجديد هذا يتفق مع أهوائه. ولم يعد دون يمارس أعمالاً إجرامية وحاول، لكنه فشل، أن يدخل عالم السياسة، وهكذا افترق الرجلان. وفي ثمانينات القرن العشرين، ذوى أمير سلطان وكاد يصبح في طي النسيان، وبدأ كفاحه الطويل مع مرض السرطان الذي قضى عليه في نهاية المطاف، فأصبح نيرو عجلة كبيرة، لكن عجلة أكبر كانت قد بدأت تدور.

* * *

قبل أن يشتهر، كان زامزاما ألانكار يُعرف بشاربه الكث البشع الذي كان يبدو مثل كائن حي طفيلي انبثق من بقعة في أعماق رأسه، ربما، حتى في دماغه ثم نما وامتد إلى أنفه حتى وصل العالم

الخارجي، مثل شيء غريب يبرز فوق شفته العليا ويجلب معه أخبار قوّة صاحبه الهائلة والخطيرة. كان شاربه قد فاز في مسابقة الشوارب في قرية بانكوت الساحلية، مسقط رأسه، لكن زامزاما كان يتطلّع إلى لعبة أكبر بكثير. فقد كان ابن شرطي في تلك البلدة النائية على شاطئ بحر العرب بالقرب من حصن بحري قديم، لكن، ربما لأن علاقته مع أبيه الصارم قد ساءت خلال طفولته، لم يكن يحترم القانون أو الشرطي الذي كان يفرضه، سواء أكان ذلك فوق المياه أم فوق الأرض الصلبة. وفي البداية اشتهر لدوره المحوري في نظام *الحوالة* الذي يجري بموجبه تحويل الأموال من مكان إلى مكان آخر شفوياً ومن دون أوراق رسمية - فقد كانت *الحوالات* تُسلّم إلى سمسار في المكان ألف، ثم يرسلها لقاء عمولة طفيفة إلى سمسار في المكان باء، حيث يُسدد مبلغ يعادل المبلغ إلى المستلم المحدد طالما أن المستلم يعرف كلمة السر. وهكذا كانت الأموال «تتحرّك دون أن تتحرّك»، في عبارات الحوالة، وقد تكون هناك صلات أكثر بكثير في هذه السلسلة إذا تطلب الأمر. وكان هذا النظام شعبياً لأن العمولة التي يدفعها الزبون أقل بكثير من تلك التي يدفعها للنظام المصرفي السائد، بالإضافة إلى أن هذه العملية يمكن أن تتفادى مشاكل أخرى مثل أسعار الصرف المتغيّرة. فقد ثبّتت سلسلة الحوالة سعر صرفها والتزم الجميع بذلك. وكانت الشبكة كلها تعتمد على شرف ونزاهة سماسرة الحوالة في أرجاء البلد وفي العالم أيضاً. (فإذا تصرّف سمسار الحوالة بطريقة غير شريفة فإنه سيراهن على أن يعيش حياة شيخوخة مبكرة). وكان هذا النظام غير شرعي في الهند لأنه يُعتبر وسيلة فعّالة لغسيل الأموال. لكن زامزاما واصل العمل في هذا النظام بقوة، لا في شبه القارة الهندية فقط، وإنما في كافة أنحاء الشرق الأوسط والقرن الأفريقي أيضاً، وحتى في بقاع مختلفة من الولايات

المتّحدة. لكن نظام الحوالة لم يعد يكفيه، لأنه كان يريد أن يتربع على «العرش»، أي على عرش عالم الجريمة. وبوجود أمير سلطان في السجن، بدأ يستعرض قوته، بدعم من مساعديه: الرأس الكبير، والأصابع القصيرة، والأقدام الصغيرة. وواجه منافسة من شركاء رئيس منافس له يدعى جافيد غريسي، لكنّه سرعان ما تخلّص من منافسته، مستخدماً أسلوباً كان بمثابة صدمة قوية لجميع أفراد عائلة أمير سلطان الإجرامية السلمية بعض الشيء. وأُطلق على هذه الأسلوب اسم: القتل. فلم تؤد أجساد جافيد غريسي وعائلته المتناثرة مثل أسماك بلاطة على شاطئ جوهو أثناء انحسار الجزر إلى حلّ مسألة القيادة فحسب، وإنما أرسلت أيضاً رسالة إلى المدينة برمّتها، إلى العالم العلوي فضلاً عن عالم الجريمة. كان يوماً جديداً، قالت الجثث. فقد أصبح هناك لاعب جديد في المدينة، وأصبحت هناك قواعد جديدة. وانتقلت السلطة من شركة - س إلى شركة - زي الآن.

ساعد شقيق زامزاما، سالوو، المعروف باسم سالوو بووت، على إرساء أول موطئ قدم له في المدينة عندما استهدف زعيم منطقة دونغري، دادي جيوتي، فأخذ عدداً من رجاله وحاصروا دادي ورجاله وأوسعوهم ضرباً بزجاجات مياه الصودا الفارغة، كامبا - كولا وليمكا. وهكذا تم التخلّص من دادي الذي لم يُر بعد ذلك في المدينة، لكن حرباً شعواء نشبت بين العصابات بعد ذلك ضدّ عصابة باشتو من أفغانستان التي بدأت العمل في مجال الأموال في مكاتب في شارع يُدعى مثالياً بشارع النقود السائلة، لكنها سرعان ما انتقلت إلى ممارسة الابتزاز على نطاق ضيق، فأرغمت أصحاب المحلات الصغيرة وأصحاب الأعمال التجارية الصغيرة على دفع إتاوة، في أحياء المدينة الفقيرة وأسواقها. فارتفعت الأسعار في محلات الخياطة ومحلات تصليح الساعات وتصفيف وحلاقة الشعر وباعة

البضائع الجلدية من أجل تغطية متطلبات المبتزين. وبدأت المومسات في شارع فوكلاند يطلبن مبالغ أعلى أيضاً، ولم تستطع الشركات التجارية استيعاب تكاليف الابتزاز، فنقلتها إلى المستهلك. وهكذا وجد معظم سكان المدينة أنفسهم يدفعون، إذا جاز لنا قول ذلك، ضريبة إضافية إلى تلك العصابات. لكن ما العمل؟ لم يكن هناك من خيار إلّا الدفع.

وقرّر باشتو أن يتخلّص أيضاً من بووت وكانون - أي زامزاما - فكلّف ماني، دكويت أو قاطع طرق كبير من مادهيا براديش، للقيام بهذه المهمة. وصادف أنه كانت لدى سالوو بووت صديقة راقصة تدعى تشارو. في إحدى الليالي، في بداية الثمانينات، اصطحبها من بيتها في وسط بومباي بسيارة فيات واتجه نحو عشّ حبّهما في باندرا. لكن ماني وباشتوس كانا يتعقبانه، ثم حاصرا سيارة الفيات عندما وقف سالوو بووت عند إحدى محطات البنزين. وبأدب جم طلب ماني وباشتوس من تشارو أن تنزِل من السيارة وأن تهرب. وبعد أن أطلقوا على بووت خمس طلقات وأردوه قتيلاً، انطلقا بأسرع ما بوسعهما إلى قاعدة زامزاما في شارع باكموديا لمباغتته قبل أن يصله خبر مقتل أخيه، إلا أنه كانت للمبنى حراسة مشددة فدارت معركة كبيرة بالأسلحة النارية. ولم يصب زامزاما بأذى. وبعد فترة قصيرة، أُلقي القبض على زعماء الباشتو واتُّهموا بقتل بووت. وفي أثناء محاكمتهم، اقتحم قاعة المحكمة قناص من شركة - زي، قاتل مسيحي يدعى ديريك، وفتح عليهم النار بمدفع رشاش وقتلهم.

وخلال ثمانينات القرن العشرين قُتل ما لا يقل عن خمسين عضواً من عصابة شركة - زي والباشتوس في حرب عصابات لم تتوقف. وفي النهاية، تم التخلّص من الرعاع الأفغان وتربّع العرّاب زامزاما فوق عرشه.

بعد موت الشقيق الأكبر لزامزاما، اتخذ زامزاما قراراً للتخلص من حياته الشخصية. «الصديقة نقطة ضعف»، سمعه نيرو يقول، «العائلة نقطة ضعف. لكن هذا الأمر يُعتبر لدى الآخرين شيئاً ثميناً. أما بالنسبة إلى الرئيس فهو أمر لا يمكن السماح به. أنا القطّة التي تمشي وحيدة». وحيدة، أي بمعنى، باستثناء حاشية مؤلفة من اثني عشر حارساً شخصياً يقومون بحراسته على مدى أربع وعشرين ساعة، أي ستّة وثلاثون شخصاً يعمل اثنا عشر منهم في كلّ وردية لمدة ثماني ساعات، بالإضافة إلى فريق رصد ومراقبة يتكون من اثني عشر سائقاً مدرباً يجوبون الشوارع في سيارات مرسيدس مصفحة، وخبراء في فنون التنظيف الجاف، أي الأشخاص الذين يتأكدون من أن أحداً لا يتعقّب موكب السيارات. (مرة أخرى، أربعة سائقين في كل مرة، في ثلاث ورديات) وكان باب بيته الأمامي من الفولاذ الصلب والنوافذ لا يخترقها الرصاص ذات درفات معدنية سميكة، ويقف رجال مدججون بالسلاح على سطح المنزل على مدى أربع وعشرين ساعة. المدينة يحكمها رجل يقيم في قفص أقامه لنفسه. ولكي يجعل نفسه منيعاً، جعل نقاط ضعف الأشخاص والعائلات والأصول الرأسمالية أسس ثروته وقوّته.

(لستُ خبيراً في الصناعة التي تُعرف حالياً باسم بوليوود، لكنّها تحبّ أفلام العصابات التي تصنعها بقدر ما تحبّ أفراد عصاباتها. وربما كان حبّ السينما الذي دخل هذا الكون قد بدأ بشركة راج غوبال فارما، إطلاق النار في فيلم لوخاندوالا للمخرج آبوورفا لاخيا، وإطلاق النار في فيلم وادالا للمخرج سانجاي جوبتا، أو فيلم في قديم الزمان في مومباي، وفي قديم الزمان في مومباي ٢ للمخرج ميلان لوثريا. وفيلم الآخر في مومباي مثال لبدعة تنجيمية جديدة. ويضيف الناس أو يحذفون أحرف العلة من أسمائهم، أو،

في هذه الحالة، لجعل أسماء أفلامهم أكثر نجاحاً وأكثر حظاً: شوبها دي، أجاي ديفغن، مومباي. لا أستطيع أن أعلّق على الكفاءة أو على التعديلات الناجمة عنها).

* * *

كان *أيبك*، الفيلم الذي تدور قصته حول قطب الدين أيبك، أول ملك حاكم من المماليك ومبنى «قطب مينار»، هو الذي أظهر لصناعة السينما أنّ العرّاب الجديد هو العمل التجاري. وكان هذا العمل الدرامي التاريخي الذي أُنفقت عليه ميزانية ضخمة المشروع المحبب في حياة أحد عظماء بوليوود، المنتج أ. كريم، من بطولة ثلاثة من «الفتيان الستّة والفتيات الأربع» الذين، بحسب التعابير الدارجة، كانوا كبار كبار النجوم في ذلك الحين. وقبل بدء التصوير الرئيسي للفيلم بأسبوعين، تلقّى كريم رسالة تقول، علماً بأنه رجل مسلم، بأن هذا الفيلم يزدري الإسلام لأنه يشير إلى أن الحاكم الجديد مملوك، وتطلب الرسالة أن يتوقف مشروع الفيلم، أو يدفع مبلغاً معيناً بدل ذلك، «رسوم الموافقة والاعتذار» مليون روبية تُسلّم بأوراق نقدية مستعملة ذات أرقام غير متسلسلة تُدفع إلى ممثل شركة زي الذي سيظهر في الوقت المناسب. فدعا كريم في الحال إلى عقد مؤتمر صحفي وسخر من زامزاما وعصابته على الملأ. «هؤلاء المتخلّفون يظنون أنهم يستطيعون أن ينيكون معي؟» صاح كريم، ونطق كلمة «ينيكون» بصوت مدوٍّ، «جهلة إلى حدّ أنهم لا يعرفون أن الأسماء التي تطلق على هذه الأسرة الحاكمة تُعرف باسم، مملوك أو غلام، وكلاهما يعنيان 'عبد'. إننا ننتج فيلماً ضخماً هنا يصوّر أحد المعالم البارزة في تاريخنا. ولا يمكن لحفنة من البلطجيّة أن توقفنا عن عملنا». وبعد أربعة أيام، قام عدد من المسلحين على رأسهم

مساعديْ زامزاما، الرأس الكبيرة والأصابع القصيرة، باقتحام المنطقة الآمنة في مهرولي بالقرب من قطب مينار حيث يوجد موقع تصوير الفيلم، وأُضرمت فيه النيران. وهكذا لم ير هذا الفيلم النور. واشتكى أ. كريم من آلام حادّة في صدره بعد حرق موقع التصوير مباشرة ومات كسير القلب. وقال الأطباء الذين فحصوا جثته إن قلبه انفجر في داخل جسده. بعد ذلك، لم يجرؤ أحد على أن يسخر من زامزاما.

واستمر نيرو في دعوة زامزاما إلى الحفلات التي يقيمها في بيته، واستمر كبار صنّاع السينما يحضرون تلك الحفلات. وبدأ زامزاما نفسه يقيم حفلات باذخة لم يشهد أحد مثلها من قبل، وبدأ ينقل ضيوفه بالطائرات إلى دبي، وكان الجميع يذهبون. هكذا كانت أيام عزّ وعنفوان أل كابوني، البهجة المظلمة، إغراء الخطر، حفلات الكوكتيل الطائشة المليئة بالخوف والشهوة. وكانت أخبار الحفلات التي يقيمها زامزاما تُنشر في جميع الصحف، النجوم تتلألأ في بريقها الليلي. وكان رجال الشرطة يحرسون المكان. وفي صباح اليوم التالي، بعد حفلة حمراء صاخبة، يُقرع على باب منتج بعد أن يكون قد أشبع نزواته في غرفة فخمة في أحد اليخوت التابعة لشركة زي، ربما بصحبته ممثلة فاشلة غبية لا تعرف أن هذا لا يمكن أن يكون الطريق الذي سيوصلها إلى القمة، ويدخل الرأس الكبير والأقدام الصغيرة يحملان عقداً ويطلبان من المنتج التوقيع عليه، يتنازل عن جميع حقوقه عن فيلمه الأخير خارج البلاد بشروط مجحفة جداً، وسيكون هناك سلاح كبير مصوّب إلى رأسه يساعده على الاقتناع بسهولة، فقد انتهت أيام الكياسة والشهامة، ولا يقول أحد للممثلة المبتدئة العارية على السرير أن تحترم نفسها وأن تلملم أغراضها وتلوذ بالفرار. حفلة في الأمام، وصفقات في الخلف، هذا هو

الأسلوب الذي تتبعه شركة زي في عملها. فاضطر الكثيرون من نجوم بوليوود إلى طلب حماية الشرطة، لكنهم لم يكونوا متأكدين هل ستكون حماية الشرطة كافية، أم سيتبين أن رجال الشرطة يعملون لمصلحة زامزاما، وهل ستتوجّه الأسلحة التي يفترض أن تحميهم إلى الداخل بدلاً من أن تتوجّه إلى الخارج، نحو المدينة الغامضة الخطيرة. لكن ماذا عن القانون؟ يكاد القانون يغض الطرف عن ذلك. وفي بعض الأحيان، يُلقى بالأسماك الصغيرة في السجن بهدف استرضاء الرأي العام. أما الأسماك الكبيرة، فإنها تسبح بحرية تامة في ذلك البحر.

يا ابنتي، يا ابنتي، قال نيرو. كنتُ واحداً من أسوأ هؤلاء، لأنهم لم يحاولوا قط ابتزازي. فقد كنت أنفّذ أعمالهم المالية بملء إرادتي، وكانوا يعاملونني معاملة جيدة في النواحي المالية، وقد قبلتُ كلّ ذلك. هكذا يسير العالم، كنت أقول في نفسي، وربما كان الأمر كذلك، لكن العالم مكان سيّئ، لذلك عليك أن تبحث عن عالم أفضل من العالم الذي صنعناه لأنفسنا.

لم يكن ضحيّة تهديد بالابتزاز لكن لم يكن عليه أن يكون كذلك. لكن محاولات الاغتيال والتهديد وعمليات القتل التي جرت في تلك السنوات أخافته كثيراً. كان سيخسر كثيراً. فقد كانت لديه ممتلكات مرتفعة الثمن، بالإضافة إلى بنايات ترتفع في أرجاء المدينة، وعنده زوجة، وأبناء. كانت لديه جميع نقاط الضعف التي يبحث عنها زامزاما ويحتاج إليها، ولم يكن على شركة زي أن تذكّره بنقاط الضعف تلك التي كانت تشكل الصلة الخفيّة بين العصابة ونيرو. فمن هو بالنسبة إليهم؟ الذين يحضرون له غسيلهم الوسخ فيغسله لهم. إنه *الدوبي* بالنسبة إليهم (الغسّالة). كانوا يسمّونه ذلك فعلاً، الرأس الكبير القزم والأصابع القصيرة ذو الشعر البرتقالي

والأقدام الصغيرة الذي يملك أكبر قدمين يمكن أن يراهما أحد. «دوبي»، كانوا يقولون له على الهاتف، «يوجد لدينا غسيل لك. تعال وخذه إلى المغسلة». وعندما يراهم، كانوا ينقرون بأصابعهم ويأمرونه، «هيا نظّفها». «فَرَم، فَرَم». لكن زامزاما كان أكثر احتراماً، يستخدم دائماً تعابير تدلّ على الاحترام قبل اسم نيرو الحقيقي. *ساهب*، جي، *جناب*. كان الاحترام وسيلة للتعبير عن الاحتقار. كان هذا الاحترام يعني، «أنا أمتلكك أيها المنيك، ولا تنس ذلك». لكن نيرو لم يكن بحاجة إلى من يذكّره. لم يكن بطلاً. لم يكن يريد أن يخسر أفراد عائلته أو أصابع قدميه. لم تكن هناك فرصة بأنه سينسى.

كان الأوغاد يملأون شاشات السينما، يقفزون إلى دور سينما الحياة الأضخم، التي هي بحجم الفيلم، ويجوبون في الممرات بين الكراسي، ويخرجون إلى الشوارع، ويطلقون النار بأسلحتهم، ويشعر بالذنب بأن صناعة السينما هي المسؤولة عن ذلك، فهي التي خلقت هذه والوحوش وجعلتهم متألقين وجذابين، وها هم يسيطرون الآن على المدينة. *بومباي ميري جان*، قال لنفسه، يدندن الأغنية، بومباي حياتي، حبيبتي، إلى أين ذهبتِ، الفتيات في شارع مارين في هدأة الليل وأكاليل الياسمين على شعرهن، وحفلات الجاز في صباح أيام الأحد في شارع كولابا أو تشورتشغايت، نستمع إلى شيك شكولاته، إلى ساكسفون كريس بيري، وإلى صوت لورنا كورديرو؛ شاطئ جوهو قبل أن يحيطه أشخاص مثله بالمباني؛ الطعام الصيني؛ المدينة الجميلة، أفضل مدينة في العالم. لكن لا، هذا غير صحيح، فالأغنية التي تتغنى بالمدينة كما هي «نيويورك، نيويورك» بالنسبة إلى عاصمة أخرى تحذّر دائماً بأنها مدينة قاسية، يصعب العيش فيها، وكان ذلك ذنب تلك الأغنية أيضاً، المقامرون والسفاحون واللصوص ورجال

الأعمال الفاسدون الذين غنّت عنهم انبثقت من كلماتها كما كان الممثلون يقفزون إلى خارج الفيلم، وها هم الآن، يبثون الرعب في نفوس الأشخاص المحترمين، أناس مثل الفتاة الساذجة في الأغنية التي دافعت عن المدينة العظيمة، *أيها القلب، كم الحياة سهلة في هذه المدينة*، لكنها حذّرت، *انتبه، فإنك ستحصد ما تبذره. لن تحصد إلّا ما تبذره*.

(نعم، هذا ذنب الأفلام، ذنب الأغنية. نعم، أَنْحِ باللائمة على الفن، يا نيرو، حمّل المسؤولية على صناعة الترفيه. فهذا أسهل بكثير من أن تلوم البشر، الممثلون الحقيقيون في الدراما. ألطف بكثير من أن تلوم نفسك).

استمر في ذلك، الحقائب، التهريب، شراء العقارات بأسعار رخيصة وبيعها. حتى أنه وافق على أن يصبح طرفاً في سلسلة الحوالات التي تدرّ أموالاً طائلة، وعندما «سأله بلطف» زامزاما ألانكار نفسه - مع سلسلة متتابعة من الألقاب، *ساهيب، جناب، جي* - ذات مساء أثناء حفلة عند بركة المسبح في نادي ويلينغدون. *لم يحاولوا ابتزازي قط*. لم يكن عليهم أن يفعلوا ذلك. كان بيدقاً مطواعاً في يد زامزاما. ظنّ نفسه ملكاً في المدينة لكنّه لم يكن سوى جندي وضيع. لأن زامزاما ألانكار هو الملك.

ولم يكن يقول الحقيقة الكاملة عن الابتزاز. اعترف بها. الحقيقة هي أنّهم لم يحاولوا أن يبتزوا أموالاً نقدية منه قط. فما كانوا يبتزّونه منه، كان أسوأ بكثير.

***

لم يكن زامزاما، المدفع، رجلاً عاطفياً. ففي إحدى المرات، استناداً إلى أسطورته - كان رجلاً يحرص كثيراً على تضخيم جوانب

شخصيته الأسطورية - قام الأقدام الصغيرة بخطف قواد من الرعاع يدعى موسا فأر كان يتدخل في أمور بعض الفتيات التابعات للشركة، وسجنه في حاوية معدنية في الميناء، ثمّ استأجر سفينة لنقل الحاوية إلى أبعد مكان في الميناء وأُرسلت إلى قاع البحر. وبعد يومين ظهرت أمّ موسا على شاشة التلفزيون وهي تبكي بحرقة. فقال زامزاما، «أعطوني رقم هاتفها الخليوي الآن»، وبعد دقيقة، بينما كانت لا تزال تُجري مقابلة في بث حيّ على شاشة التلفزيون، اتصل بها. بارتباك، ردّت على الهاتف، وجاء صوت زامزاما في أذنها يقول: «أيتها القحبة، لقد أصبح فأرك الآن سمكة، وإذا لم تتوقّفي عن إحداث هذه الجلبة فإنك ستصبحين بعد قليل سمكة *كيما* أنت نفسك. كابووم» وكيما تعني لحماً مفروماً. و«كابووم» هي الإشارة التي يقولها زامزاما، وكلّ من يسمعها في أذنه أو في أذنها يعرف تماماً من الذي يتكلّم. فتوقّف بكاء المرأة، بوووم، هكذا، ولم تعد تجري مقابلة مع أيّ صحفي آخر.

ولم يكن لديه أيضاً وقت لهذا النوع من رومنسيات *بومباي - ميري - جان* (*بومباي - حبيبتي - حياتي*) في الماضي التي كان نيرو يميل إليها كثيراً. «لقد ولّت مدينة الأحلام تلك منذ زمن بعيد»، قال لنيرو، «فقد بنيت أنت نفسك فوقها وحولها وسحقت القديم تحت الجديد. في بومباي أحلامك، كلّ شيء كان الحبّ والسلام والتفكير العلماني واللاطائفية، المسلم - الهندوسي *بهاي بهاي*، الناس كلّهم إخوة، أليس كذلك؟ هذا الهراء، أنت رجل خبير عركته الحياة، يجب أن تعرف أكثر مني. فالناس ناس، وآلهتهم هي آلهتهم، وهذه الأشياء لا تتغيّر والعداوة بين قبائلهم موجودة دائماً أيضاً. السؤال هو ماذا يطفو على السطح وإلى أي عمق تقبع الكراهية. ففي مدينة مومباي هذه انتصرنا في الحرب بين العصابات لكن حرباً أكبر لا

تزال ماثلة أمامنا. توجد عصابتان فقط في مومباي حالياً. *عصابة* العصابة، المافيا، وهو أنا. شركة - زي، نحن هي. وماذا نشكّل نحن، خمس وتسعون في المئة؟ شعب مسلم. أهل الكتاب. لكن هناك أيضاً العصابات السياسية، وهي هندوسية. السياسة الهندوسية تدير البلدية ولدى السياسيين الهندوس عصاباتهم الهندوسية. رامان فيلدنغ، أتعرف الاسم؟ المعروف كذلك باسم ميندالك الضفدع؟ أتفهم؟ إذاً افهم ما يلي: في البداية كنّا نتحارب على الأرض فقط. انتهت المعركة. وجاء الآن وقت الجهاد المقدّس. كابووم».

في أواخر حياته، أصبح أمير سلطان *متديّناً*، لكن تديّنه كان صوفياً، ذا نزعة صوفية. أما زامزاما ألانكار فقد أصبح في بداية تسعينات القرن العشرين من أتباع نسخة متشددة أكثر بكثير من عقيدتهما المشتركة. وكان الشخص الذي أحدث هذا التغيير العميق في آراء ومعتقدات زامزاما واعظاً ديماغوجياً يدعى *رحمان*، مؤسس وأمين عام منظمة جهادية يقع مقرّها في المدينة وتطلق على نفسها اسم *أكاديمية الأ*زهر مكرّسة للدعوة إلى أفكار متشدّد هندي من القرن التاسع عشر، هو الإمام أزهر بريلي، المدينة التي منحت اسمها للطائفة البريلوية التي كان الواعظ *رحمان* نورها الهادي. وعُرفت الأكاديمية في المدينة من خلال المظاهرات ضد الحزب الحاكم، التي وصفها الحزب الحاكم بأنها «أعمال شغب»، لكنها أثبتت، على أقل تقدير، أن باستطاعة الأكاديمية إطلاق حشود كبيرة في الشارع خلال فترة قصيرة، ثم تطلق العنان لتلك الحشود. ولفزع نيرو الشديد، بدأ زامزاما يردّد عبارات الديماغوجي رحمان بشكل حرفيّ تقريباً. العهر والانحطاط. العداوة الشرّيرة والانحلال. يجب مواجهة كلّ ذلك وجهاً لوجه. التعاليم النقية والأصيلة. الأفكار الصحيحة. المجد الصحيح والعظمة. مسؤوليتنا في إنقاذ مجتمعنا

من. . . الفائدة من التعليم العبقري. عزيمتنا أعظم من. . . أسلوبنا في الحياة هو النمط العلمي للعيش في هذا العالم وفي العالم الآخر. هذا العالم لا شيء، إنه مجرد بوّابة إلى العظمة القابعة خلفه. هذه الحياة لا شيء، إنها مجرد نحنحة قبل بدء الأغنية الخالدة. فإذا طُلب منّا أن نضحّي بالحياة فإننا لا نضحّي بشيء، بل نتنحنح فقط. إذا طُلب منّا أن نثور فإننا سنثور وسنحمل شعلة العدالة بأيدينا. سنرفع يد الله العادلة وسيشعرون بصفعتها القوية على وجوههم.

«اللعنة، يا زامزاما»، قال له نيرو عندما التقيا على متن *كيبلنغ*، القارب الشراعي الذي يملكه زامزاما الذي يرسو في الميناء، مكانه المفضّل لإجراء محادثات سرّية. «ماذا جرى لك؟ كنتَ تفاجئني دائماً بأنك رجل يقيم الحفلات، لا فرس نبي يصلي».

«انتهى زمن الثرثرة»، أجاب دون بنبرة جديدة في صوته وجد نيرو أنها مثيرة للفزع، «لقد آن الأوان لننفّذ الأعمال الصعبة. وأيضاً، يا دوبي (يا غسّال) لا تستخدم لغة تشي بالكفر في وجودي مرة أخرى». كانت تلك أول مرة يخاطب فيها نيرو بعبارة *دوبي* وليس *ساهب*. ولم تعجب هذه النبرة نيرو أبداً.

لم تعد تقام حفلات في دبي. وفي البيت خلف الباب الفولاذي، بدأت تقام صلوات كثيرة. بالنسبة إلى رجل في مزاج نيرو، كان الأمر غريباً. ربما آن الأوان، قال لنفسه، لأن أبتعد قليلاً عن شركة - زي. لكن الابتعاد التام سيكون مستحيلاً لتأثير المافيا على اتحادات البناء، لا بل كان تأثيرها أقوى على العمال غير المنظمين «المهاجرين» الذين يتوافدون إلى المدينة من أنحاء البلد لا يحملون أوراقاً رسمية أو لا يوجد لديهم وضع قانوني. لكن لعله عمل في قطاع المال لفترة طويلة وعليه أن يتوقف الآن. ربما يتعين عليه أن يتوقف عن التهريب وعن بيع البيوت وشرائها وعن العمل في

مجال الحوالات. لقد أصبح الآن أحد ملوك المال الشرعيين وعليه أن يبتعد عن تلك الأعمال والصفقات المشبوهة.

فقال لزامزاما: «أظن أنني بدأت أتقدّم في العمر وتعبت من العمل في مجال الأموال. أظن أنه من الأفضل أن أبدأ بتدريب أحد أبنائي لكي يحلّ محلي».

صمت زامزاما دقيقة كاملة. بيع وشراء البيوت، في المرسى، خُفِض شراع مركبه واهتزّ فوق الماء بلطف. ومالت الشمس إلى الغروب وتلألأت أضواء الخليج وراءهم ومن حولهم. قوس الجمال الذي لم يتوقف نيرو عن الاستمتاع به. ثمّ تكلّم رئيس المافيا، وسأله، «هل تحبّ فرقة الروك أند رول الأمريكية الكلاسيكية، الإيغلز؟ غلين فري، دون هينلي، الخ، الخ، الخ؟»، ودون أن ينتظر جواباً، تابع قائلاً: «أهلا بك في أوتيل كاليفورنيا». ولذعر نيرو، بدأ الزعيم يقول - بصوت مرتفع، من دون نبرة، بطريقة أدخلت الرعب إلى قلب نيرو - يغني.

«يمكنك أن تخرج متى تشاء، لكنّك لا تستطيع أن تغادر أبداً».

* * *

كانت هذه بداية الظلام العظيم، قال نيرو في عتمة غرفة مكتبه في البيت الذهبي. فبعد هذه المناقشة أحسست بأنني في الجحيم، أو أنني كنت في الجحيم منذ زمن بعيد، أما الآن فإني أشعر بالنار تحرق باطن قدميَّ.

لكن أيضاً، هل تعرفين ذلك الشيء المضحك في تلك الأغنية، عن الأوتيل؟ حتى أنها لم تكن صحيحة. لأن المغادرة، متى، أين، كيف، أصبح ذلك موضوعه كما هو موضوعي.

* * *

لا بد أنكِ صُدمتِ بما قلته، قال، لقد أفزعتكِ، ولم تسمعي الجزء السيّئ بعد. لقد ارتعبتِ بما أخبرته لك وهناك سؤال واحد فقط يجول في رأسك. لقد أحببتِ ابني. ابني المضطرب المسكين. لقد أحببتِ ابني وتسألين، تسألين من دون كلمات، أرى في عينيك في الظلام تسألين. إلى أي مدى يعرف أبنائي عن كلّ ذلك.

أما بالنسبة إلى حبيبك، فمن كلّ ما أخبرتك به حتى الآن، فإنه بريء من أي ذنب. فلم يكن قد ولد بعد، أو أنه كان فتى صغيراً. أما الآخرون، فقد نشأوا في طبقة اجتماعية معينة، في طبقة أصحاب الشركات الكبرى في المدينة الكبيرة، وكانوا يعرفون ما يجري حولهم. فإذا لم تدفع رشوة، فلن يُنجز شيء. كانوا يعرفون عن دون كورليون، نعم، لكنّه كان رجلاً محبوباً. بالنسبة إليهم كان كلّ ذلك طبيعياً كما كان بالنسبة إلى الآخرين جميعاً. لقد أحبّوا عالم السينما أيضاً. وكان نجوم السينما يزوروننا في البيت. كان من السهل أن تكون بصحبة نساء من الطبقة الراقية، كما لو كانوا يصعدون إلى الشاشة الفضّية. كان ذلك مصدر متعة كبيرة لهم حتى لو كان رؤساء العصابات موجودين أيضاً، فما الضير في ذلك، كان ذلك شيئاً عادياً. لم يكن أحد يكترث لذلك. في زمن أمير سلطان لم يكن أحد يصدر أحكاماً. أما عندما سيطر ألانكار، أصبحت أحميهم من تورطي معه. وكانوا كلما عرفوا أقلّ كان ذلك أفضل للجميع. فقد كان شخصاً مختلفاً ونأيت بأسرتي عنه. فعملي يخصّني أنا، وأنا أتقبّل أي انتقاد لي مهما كان قاسياً. فأنا لا أبرّر ولا أدافع عن اختياراتي وأعمالي، بل أسردها فقط. كان صديقك في السابعة من عمره في سنة ١٩٩٣، وأصبح في الثانية والعشرين في سنة ٢٠٠٨ عندما جئنا إلى نيويورك. يجب أن أقول إنه من بين الأبناء الثلاثة كان انطوائياً على الدوام. كانت حربه تدور في

داخله، أصبح بإمكاني رؤية ذلك بوضوح الآن. لقد درّب نفسه على إطلاق مدافعه على نفسه منذ ذلك الحين حتى... حتى... لذلك كان إخفاء تلك الأشياء عنه أمراً بسيطاً. الأشياء التي أردت أن أبقيه بعيداً عنها، لا أظن أنه كان يعرف. وأيضاً الابن الأكبر، ابني المصاب، كانوا يطلقون عليه اسم *هاربو*، ربما كانت مدينة قاسية، نعم. بالنسبة إليه أيضاً كان السؤال العظيم عن حياته يقبع في رأسه، سؤال من دون جواب. هو أيضاً أغفر له. وتبقى مسألة آبوو. آبوو الذي كان غروتشو في ذلك الحين. آبوو، لكي أكون صريحاً: أظن أنه كان يعرف. كان يعرف لكنّه لم يكن يريد أن يعرف، لذلك لجأ إلى الشرب وتعاطي المخدّرات، لكي لا يسمع ولا يرى وليجعل نفسه غير واع بما يحدث. لم أحدّثه قط عن الجانب المظلم. لم يسأل، «لو كان أبي طبيب أسنان»، قال لي ذات مرة، «هل كنت سأهتمّ كم حشوة أو كم سناً حفر اليوم، ولمن؟ لذلك فإني أفكّر فيك بهذه الطريقة. فأنت طبيب أسنان عندما تذهب إلى عملك، وفي البيت فأنت الأب. هذا ما تحتاج إليه أسرتك منك. لا الحشوات وإنما الحبّ الأبوي».

أخبرته بأشياء قليلة جداً. الأشياء السطحيّة التي يعرفها الجميع فقط. الرشوة، الفساد. حبات البطاطا الصغيرة. لكنّي أظن أنه كان يعرف حبات البطاطا الكبيرة. أظن هذا هو الشيء الذي دفعه إلى الخلاعة، والشرب، والنساء، والمخدّرات.

عندما كنا في البلد لم يُظهر كثيراً ذلك الجانب الفني. كان يعيش أسلوب حياة الفنان لكنه لم يكن يعيش أخلاق العمل. كان بوهيمياً لكنهم يصنعون في بوهيميا أنواعاً جميلة من الزجاج. كان يفعل القليل جداً من كلّ شيء ما عدا المضاجعة، واسمحي لي أن أقول، مع أنك ستجدين ذلك سوقياً، اعذريني، فالمخدّرات لا تجعل المرء

حبيباً أفضل إلّا في تقديره هو نفسه. لذلك، ربما لم يكن ناجحاً أيضا في ذلك أيضاً. عندما جاء إلى أمريكا نظف سلوكه. (طرطقة بأصابعه) هكذا. لقد أعجبني ذلك، فقد أصبح رجلاً جديداً، فبدأ كلّ شيء يتجلّى أمامه. تفجّرت موهبته وشاهده الجميع. رأيت ذلك لأول مرة. لم أكن أشك في أن لديه هذه الموهبة الكبيرة.

لدى ثلاثتهم هذه المقدرة: إغلاق كتاب الماضي والعيش في الحاضر. إنها نعمة رائعة. أنا نفسي أغلق كتاب الحاضر وأعيش غالباً في الماضي.

لكن آبوو لا يزال يسمع طنيناً في أذنيه، أصواتاً، ويرى أحياناً رؤى. عنده تاريخ طويل من الهلوسة. يمكنك القول إن كنت تفهمين إن هذه الأشياء هي التي جعلته حساساً أكثر إزاء الأشياء اللامرئية، بأنها كشفت له الدرب إلى العالم الرؤي، يُفتح، ما هي؟ أبواب الإدراك. أو يمكنكِ أن تقولي إن هذا كلّه هراء، ويمكنك أن تقولي إنه كان يعاني من إصابته. فهو أيضاً أصيب بضرر في الدماغ، في قلب نفسه. جميع أبنائي الثلاثة مصابون في دماغهم، في قلب أنفسهم! هذا ليس قَدَراً عادلاً بالنسب إلى أب. هذا ليس عدلاً. لكن بالرغم من ذلك فهذا هو قدري. كان آبوو يرى رؤى ويسمع أصواتاً، لذلك، كان مجنوناً أيضاً.

لذلك، أظن أنه كان يعرف ما كنت أفعله، لكنه كان يتظاهر بأنه لا يعرف أيضاً. فعاد مع صديقته ولم يعد يفكّر في الأمر. لقد عاد إلى الوطن ومات فيه. أظن أنه عندما مات، كان يعرف من الذي قتله ولماذا. كان يعرف أنّه مات بسبب تصرفاتي. هذا ما أفهمه أنا أيضاً. لقد أُرسلت لي الرسالة واستلمتها. الظلام يتجمّع. لم يعد هناك الكثير للنهاية. لهذا السبب فإني أقول لك ذلك الليلة. لكي يمكن قول كلّ شيء.

هناك شيئان يجب التحدّث عنهما، تفصل أحدهما عن الآخر خمس عشرة سنة. عام ١٩٩٣ وعام ٢٠٠٨. هذان هما التاريخان.

* * *

في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٢ كان نيرو مع زامزاما ألانكار مرة أخرى على مركب *الكيبلنغ*. كان المتعصبون الهندوس قد دمّروا المسجد الذي بناه أول إمبراطور من مغول الهند *بابر* في المدينة الشمالية *أيوديا* وادّعوا أنه مشيّد فوق الموقع الأسطوري الذي ولد فيه *الإله رام*، التجسّد السابع لفيشنو. وحدثت اضطرابات في مومباي. في البداية قام المسلمون بأعمال شغب وهاجمهم أعضاء الحزب الموالي للمتطرّف الهندوسي شيف سينا، ولم تقف الشرطة، كما قال زامزاما، على الحياد، بل انحازت علناً إلى صف سينا ووقفت «ضدنا». ثم بدأت تخمد هذه الاضطرابات إلّا أن غضب زامزاما كان بركانياً ولم يعرف حدوداً.

القشّة الأخيرة، صاح في وجه نيرو. لقد قُصم ظهر البعير ويجب إطلاق النار على الجمل وقتله الآن.

ليس من الحكمة أن تتورط في هذه المسألة. ركز على نقاط قوتك. الأعمال التجارية جيدة.

ليست مسألة حكمة. إنها مسألة الضرورة. وتدمير مسجد مقدّس بسبب ما يشاع بأن تحته يقبع كائن خيالي، فهذا هو الشيء غير الحكيم.

إنهم لا يعتقدون أنه كائن خيالي.

إنهم مخطئون.

كان ألانكار على اتصال مع أشخاص معينين في بلد مجاور يرون أن من الضروري القيام بعمل ما.

وضُعت خطة، قال ألانكار، وسترسل الدولة الجارة شحنة كبيرة من الأسلحة والذخيرة ومادة آر دي إكس المتفجّرة بحراً إلى ساحل كونكان في الأسبوع الأول من شهر كانون الثاني/يناير، وسترسو السفينة في ديغي، وعليك أن ترتّب الحقائب من أجل خفر السواحل لكي يتركوا ثغرة في المياه تتسلل من خلالها القوارب السريعة.

أنا يا زامزاما؟ أنا لا أقوم بهذا النوع من العمل. السياسة؟ لا، لا، لا. يجب ألّا تطلب ذلك منّي.

نعم، نعم، نعم. فبيتك محصّن جيداً جداً، أليس كذلك؟ لقد رأيته، البوابات المعدنية الثقيلة المزوّدة بمحرك، نظم الإنذار، حرّاس الأمن. لا بد أن أسرتك تشعر بالأمان هناك. ألا يشعرون بالأمان؟ لا بد أنهم يشعرون بالأمان. هل يخرجون أحياناً؟ طبعاً، إنهم مومبيكارس، يعيشون حياة كاملة. أسرة سعيدة. تهانيّ.

إننا شريكان قديمان، أنا وأنت. هذه ليست طريقة جيدة تحدّثني بها.

لقد أصبحت ناجحاً جداً، وثرياً جداً. كم سيكون سيئاً أن يتوقف العمال الذين يعملون عندك عن العمل. كم سيكون الأمر مأساوياً إذا اندلع حريق بالمصادفة.

لذلك ليس أمامك خيار إلّا أن تفعل ذلك. حسناً، سيتم ذلك. وستصل أيضاً شحنة أخرى بعد عدّة أسابيع، في شيخادي. الأمر ذاته.

كانت خطة البلد المجاور تقتضي تنفيذ سلسلة من الأعمال الدقيقة. ستُنفّذ أولاً أعمال قتل. في دونغري، الإقطاعية السابقة لدادي جيوتي الذي طُرد من البلدة بضربه بقنينة الصودا التي كان يشربها، كانت تعيش مجموعة يُطلق عليها «عمّال ماثادي»، أي، العمّال الذين يحملون أحمالاً فوق رؤوسهم وينامون في الطرقات

لذلك يمكن الحصول عليهم بسهولة. وهكذا سيتم قتل عدد من هؤلاء العمّال بسكاكين صغيرة ويذبحون من حناجرهم لكي يبدو الأمر طقساً دينياً. وكان يعيش في دونغري طوائف متعددة شديدة الحساسية، وكان البلد الجار على يقين من أن قتل العمال بهذه الطريقة الطقوسية سيؤدي إلى انتفاض المعارضة بقوة. وكانت المعارضة منظمة جداً وتحظى بدعم الشرطة، لكنّها ستواجه هذه المرة مقاومة مسلّحة عنيفة، وستُخزّن الأسلحة مسبقاً في المناطق الملتهبة، وستكون هناك قنابل يدوية وقذائف. عندها ستؤدي تلك القنابل إلى تحريض أعداد أكبر من حشود المعارضة التي ستُواجه بالبنادق الآلية وبمزيد من المتفجرات، وستندلع النيران في أرجاء البلاد وسيكون البلد الجار مسروراً لأن الأوغاد سيُلقّنون درساً قاسياً.

إن شاء الله سنلقّن الأوغاد درساً دامياً، قال زامزاما.

كانت تلك آخر مرة تطأ فيها قدما نيرو متن *كيبلنغ*. كان الوقت قد حان ليعود إلى الشاطئ لكن رئيس شركة - زي أراد أن يقول شيئاً آخر. فقد أضاف، أنا وأنت، قد لا نلتقي مرة أخرى، فلن أتمكن من البقاء في هذا البلد بعد تلك الأحداث. أما بالنسبة إليك فإن الأمر أسهل بكثير. كنت دائماً تخطر ببالي، وكما تعرف هناك سلسلة طويلة من الوسطاء بيننا، ويمكنك أن تنكر ذلك إنكاراً تاماً، لذلك، فإني أرى أنك تستطيع أن تمكث عند عائلة زوجتك. لكن يمكنك أنت أيضاً أن تضع خطة للخروج.

كان زامزاما محقّاً. فلم يلتق الرجلان مرة أخرى، وكان محقّاً بشأن خطة الخروج أيضاً.

* * *

نُقلت أحداث ١٢ آذار/ مارس ١٩٩٣ على نطاق واسع ولا داعي

لسرد تفاصيلها الآن. سيارات ودرّاجات صغيرة مفخّخة. قنبلة وضعت في قبو في سوق الأوراق المالية. ثلاثة أسواق، ثلاثة فنادق، مطار، سينما، مكتب جوازات السفر، مصرف، كابووم، كابووم، كابووم. حتى حيّ صيّادي السمك في ماهيم، كابووم. سيارة أجرة مفخّخة عند بوابة الهند، انفجار هائل منيك.

لكن لا بد أن البلد الجار قد خاب أمله. فقد وقعت خسائر كبيرة في الأرواح لكن الحرب الأهلية التي كان يأمل وقوعها لم تقع، وظلت المدينة والأمة متماسكة. أُلقي القبض على بعض المتورطين، ثم هدأت الأحوال واستتب السلام. كان زامزاما ألانكار قد هرب مع مساعده ذي الأصابع القصيرة، واعتُبر هذان الشخصان عدوين لدودين للمجتمع. وساد الاعتقاد بأنهما يقيمان كضيفين في البلد المجاور، وتابع زامزاما إدارة شركة - زي بواسطة جهاز تحكّم عن بعد. وادّعى البلد الجار أنه لا يعرف شيئاً عن مكان الهاربين.

* * *

في السنوات التي أعقبت تلك الأحداث، حصل شرخ كبير في عالم الجريمة. فبعد تلك الهجمات، أصبحت مداهمة الشرطة لمقر شركة - زي غير مسبوقة، وتهاوت جميع الترتيبات والتفاهمات، وتفكك صرح الشركة برمّته. واستمرت هواتف الأقمار الاصطناعية ونظم الاتصالات الآمنة على الإنترنت تعمل، لذلك كان لا يزال زامزاما قادراً على إرسال تعليماته والتحكم في أعمال الشركة، لكن ألم يكن شيئاً عظيماً أن يستمر هو والأصابع القصيرة في إصدار أوامرهما عن بعد، لأنهما لم يكونا هما من يصطلي بالحرارة. وشيئاً فشيئاً، أدت المسافة بين الزعيمين الغائبين والزعيمين الحاضرين «الرأس الكبير» و«الأقدام الصغيرة» - اللذين وُجِّهت إليهما تهم بتنفيذ

أعمال إجرامية وإرهابية، واستغرق القرار بعدم ثبوت التهمة خمس سنوات، أي أنهما أمضيا خمس سنوات من الحياة تحت مطرقة القانون - فأصبحا حرّين طليقين. وفي نهاية السنوات الخمس، وعلى الرغم من أن شركة - زي كانت لا تزال شركة - زي، وولاء أعضائها لا يزال قوياً، لكن الجميع كانوا يعرفون أن هناك جماعة منشقّة - زي، جماعة تدين بالولاء بصورة رئيسية للقزم وللرجل ذي الحذاء الضخم، وعلى الرغم من إقامة هدنة بين هذين الشخصين والشخصين اللذين بقيا في ضيافة البلد المجاور، بدأ الحبّ بينهم يخفت أكثر وأكثر.

دُعي نيرو للقاء الرأس الكبير والأقدام الصغيرة. لم يتم اللقاء فوق يخت فخم راسٍ في الميناء، وإنما في بلدة في أعماق حيّ دارافي الفقير، اقتاده رجال لم يكلّموه ولم يبد أنهم كانوا يريدون أن يفتحوا معه حديثاً. وفي بيت في ذلك الحيّ الفقير، أومأ «الرأس الكبير» له برأسه وأشار له «الأقدام الصغيرة» بإصبع قدمه للدخول إلى غرفة. اجلس، قال له «الأقدام».

إذاً هذا ما نعرفه عنك، قال «الرأس».

أنت *الغسّالة*، قال «الأقدام».

تنظّف كلّ شيء وسخ.

لذلك، يصعب تصديق أنك لا تعرف شيئاً. نحن لا نعرف شيئاً. هذه مسألة نحلّها مع الرئيس. أما أنت؟ ألم تكن تعرف شيئاً؟ هذا يجعلنا ساذجين.

هذا يحيّر أدمغتنا.

ومع ذلك فإن أدمغتنا تعرف أيضاً ما يلي: (أ) و(ب). (أ) أنت لا تحبّ السياسة.

و(ب) أنت لا تتدخّل في الدين.

لذلك، هناك توازن. من ناحية، ومن الناحية الأخرى.

قرّرنا أن نمنحك قرينة الشك.

وهذا هو موقفنا. هذه العملية أضرّت بالشركة. ومن الآن فصاعداً، فإننا ننوي أن ننأى بأنفسنا عن عمليات كهذه.

عرضنا هذا على الرئيس وعلى الأصابع.

وافقا.

بداية جديدة. العودة إلى الأساسيات. لا ابتعاد عن مجال خبرتنا.

لكن، في أعمال الشركة، هناك مسائل ثقة عديدة. وثقتنا بك، كيف هي برأيك.

وسط.

مهزوزة.

صفر.

الثقة التي لا يوثق بها غير جديرة بالثقة.

إنها شك.

في جميع الأحوال، أعطيناك قرينة الشك.

انظر أعلاه.

لذلك فإننا سننفصل عنك بكل بساطة. تابع حياتك، ونحن نتابع حياتنا.

أما إذا تسرّبت في أي وقت معلومة واحدة منك بشأننا.

سنقطع قضيبك.

وقضبان أولادك.

وسنحشرها في فم زوجتك.

وسأنيكها من الخلف.

بينما أقطع حنجرتها من الأمام.

أنت رجل حرّ. يمكنك أن تذهب.
هيا أسرع.
قبل أن نغيّر رأينا.
هذا الشيء حول القضيب يبدو فكرة جيدة.
لا، لا. إنه يمزح فقط. إلى اللقاء، أيها الغسّالة.
إلى اللقاء.

* * *

خمس عشرة سنة مضت. خمس عشرة سنة: زمن طويل، طويل يكفي لأن ينسى المرء ما يريد أن يخلّفه وراءه. كبر أبناؤه، وازدادت ثروته أيضاً، ولم يعد ظلّ عالم الجريمة، الظلّ الذي يصعد من الأسفل، يخيّم فوق بيته. واستمرت حياة البشر مع كلّ تقلباتها. كان قد وضع خطة للخروج لكنه لم يكن بحاجة إلى أن يستخدمها، لم يكن بحاجة إلى أن يغادر بلده، لم يكن بحاجة إلى أن يمزّق عالمه إلى نصفين، ويرمي النصف المتعلق به بعيداً. خمس عشرة سنة. مدة طويلة كافية لأن يسترخي ويرتاح.

ثمّ جاء عام ٢٠٠٨. وفي شهر آب/ أغسطس ٢٠٠٨، في المطار، بينما كان واقفاً ينتظر في الطابور أمام شباك الهجرة بعد عودته من رحلة عمل قام بها إلى نيويورك، لمح نيرو شبحاً. فقد كان الشبح يقف في الطابور المخصص لتدقيق جوازات السفر بجانب شبحه، لكن شعره البرتقالي الذي يمتاز به اختفى، فأصبح أسود مثل شعر الآخرين. وما عدا الشعر فمن الواضح أنه هو. عدو المجتمع رقم ٢. نظر نيرو إلى «الأصابع القصيرة» مندهشاً. لا بد أنه سيُلقى القبض عليه في أي لحظة، وأنه سيُقتل إذا أبدى أي محاولة للمقاومة؟ التقت عيناه بعينيّ «الأصابع»، وقطّب جبينه بحيرة تجاه

كبير رؤساء شركة - زي. رفع «الأصابع» إبهامه علامة تشجيع (يجب أن يقال، إبهام صغيرة جداً) واستدار مبتعداً. اقتربا من نوافذ تدقيق جوازات السفر. دقق ضبّاط ببدلاتهم الرسمية الوثائق بدقّة شديدة بطريقة بيروقراطية يتقنها جميع صغار الموظفين الهنود. وعندما أصبح «الأصابع القصيرة» ثانياً في الطابور، حدثت مصادفة عجيبة. فقد تعطّلت جميع أجهزة الكمبيوتر في صالة الهجرة، بوووم! هكذا. فاسودّت جميع الشاشات. وأعقب ذلك لحظات من الهلع عندما حاول ضبّاط الهجرة إعادة تشغيل أجهزتهم، وأخذ ضبّاط آخرون يجرون هنا وهناك. كان تعطّل أجهزة الكمبيوتر شاملاً فضلاً عن كونه غامضاً. بدأ الناس المصطفين في طوابير يتململون. وأخيراً، صدرت إشارة من ضابط هجرة برتبة عالية، فعادت الحركة، وأصبح تدقيق الجوازات يدوياً، وهكذا مرّ «الأصابع» وذهب، وبعد دقيقتين، ما إن اقترب نيرو من نافذة الضابط، بوووم! حتى عادت أجهزة الكمبيوتر تعمل. لم تفقد شركة - زي اتصالاتها.

لماذا جازف «الأصابع القصيرة» بالعودة؟ لماذا أرسله زامزاما؟ شغلت هذه الأفكار بال نيرو في أعماق الليل. وفي الساعة الثانية صباحاً جاءه الجواب لأن هاتفه الخليوي رنّ لأول مرة بعد خمس عشرة سنة في تسلسل مشفّر، مما يعني أن هناك مشكلة. ثلاث رنات، ثم انقطاع، ثم رنّة، ثم انقطاع، ثم رنّتين، ثم انقطاع، أجاب عند الرنّة الرابعة. نعم، قال. كان صوت «الأصابع القصيرة» في أذنه يشدّه إلى الهاوية مثل مخالب الشيطان. مرة واحدة أخرى، قال الأصابع. مرّة أخيرة.

تُقسَّم المنطقة الغربية لخفر السواحل الهندية إلى خمسة قطاعات. وكان القطاع - ٢ هو قطاع مومباي وتوجد فيه ثلاث محطات على طول الشريط الساحلي، في مورود جانجيرا،

وراتناجيري وداهانو. ويوجد تحت تصرف كلّ محطة من هذه المحطات عدد من سفن دورية بحرية، وسفن دورية ساحلية، وسفن دورية سريعة، وأخرى شديدة السرعة، وقوارب أصغر، بالإضافة إلى قوارب دورية اعتراضية أسرع. وتوجد كذلك طائرات هليوكوبتر وطائرة استطلاع. لكن البحر واسع جداً وبتنظيم جيد يمكن ترك منطقة محدّدة من دون مراقبة. وكان عدد الحقائب لإنجاز عملية كبيرة كهذه كبيراً جداً.

ما هو هذه المرة.

لا تسأل. فقط اتخذ الترتيبات.

وإذا رفضتُ.

لا ترفض. يمرّ الزعيم في حالة صحية سيئة. والدولة المجاورة ليست أفضل المضيّفين. وضعه الشخصي مقيّد، تمويلاته في تناقص. يظنّ أنه لم يبق أمامه إلّا زمن قصير. يريد أن يُنفّذ هذا العمل العظيم الأخير. لا يوجد لديه خيار. البلد الجار يصرّ على ذلك. يهددونه بالطرد.

لقد مضت خمس عشرة سنة. كنت خارج اللعبة منذ فترة طويلة.

أهلاً بك في أوتيل كاليفورنيا.

لن أنفّذها.

لا ترفض. أطلب منك برقّة. أقول لك أرجوك. أرجوك: لا ترفض.

أرى.

* * *

في ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٨، غادر عشرة رجال مدججين بأسلحة آلية وقنابل يدوية على متن زورق من البلد المعادي

المجاور. كانوا يحملون في حقائبهم ذخيرة ومخدرات قوية: كوكايين، منشّطات، مخدّر هلوسة، حقن. وفي أثناء رحلتهم، اختطفوا قارب صيد وتركوا زورقهم الذي كانوا على متنه، وأنزلوا زورقين إلى قارب الصيد وأبلغوا الربان إلى أين يجب أن يتجه. وعندما أصبحوا قريبين من الشاطئ، قتلوا الربان وصعدوا إلى الزورقين. وتساءل عدد كبير من الناس لماذا لم يشاهدهم رجال خفر السواحل أو يحاولوا اعتراضهم. فمن المفترض أنه محاط بحماية قوية، لكن فشلاً ما حدث في تلك الليلة. وعندما حطّ الزورقان على اليابسة، في ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر، انقسم المسلّحون إلى مجموعات صغيرة، وتوجهت كلّ مجموعة إلى هدفها المخصص لها، محطة قطارات، مستشفى، قاعة سينما، مركز يهودي، مقهى شعبي، وفندقين من فئة خمس نجوم، أحدهما فندق قصر تاج محل وفندق البرج الذي جاءت إليه زوجة نيرو، إثر مشاحنة مع زوجها، وكانت تجلس في قاعة البحر تتناول سندويشة خيار وتشتكي لصديقاتها عن زواجها.

* * *

لا أستطيع أن أتكلّم، قالت ريا.

لا تتكلّمي.

لقد ساعدتَ المسلّحين على دخول المدينة، هؤلاء الذين قتلوا زوجتك.

لا يوجد داع لقول شيء.

ثم هربتَ. أنت وأبناؤك.

يمكن قول شيء آخر. فبعد ما حدث، وجدتُ جثة «الأصابع القصيرة» ملقاة في أحد شوارع دونغري. قُتل متأثراً بجروح ناجمة

عن طعنات بسكين قصيرة في حنجرته. فقد غضب شريكاه السابقان «الرأس الكبير» و «الأقدام الصغيرة» من هذا الهجوم الذي وضع الشركة وعملياتها في خطر مرة أخرى. كانت تلك رسالتهما إلى زامزاما ألانكار. ثم، كان آبوو أيضاً ضحيّة غضبهما. كانا يرسلان لي رسالة. تقول الرسالة إننا نعرف أنك ساعدت، وهذا هو ردّنا. هذه هي الأسماء التي سيأتي الرجل ماستان ليعطيني إياها. أعرف هذه الأسماء للتو.

إذاً فأنت مسؤول عن موت ابنك بالإضافة إلى أمّه.

إن ما فعلته، كنت قد فعلته لأنقذ حياتهما. لقد عرّضت نفسي للخطر لكي أحميهما. أنا ملك بيتي لكنّي أصبحت خادماً. الغسّال، *الدوبي*. لكنّك على حقّ. لقد فشلت. إنك تدينني وأنا مذنب بذلك وقد عاقبني القدر بأن سلبني أبنائي. ابن مات على يد أعدائي، وابن مات بيده هو، وابن مات على يد مجنون، لكن موت ثلاثتهم عقاب لي وعبء عليّ أن أحمله إلى الأبد، نعم، وأمهم أيضاً. لقد لُقّنت الدرس وقد تعلّمته. إن جثث أطفالي وأمهم ترزح فوق كتفي وثقلها يشدّني إلى الأسفل. إنك ترينني مسحوقاً، يا ابنتي، مثل صرصور تحت قدم القدر. ترينني سُحقت. الآن أصبحتِ تعرفين كلّ شيء.

وماذا أفعل الآن، الآن بعد أن أصبحت أعرف كلّ شيء؟

لا يتعين عليك أن تفعلي شيئاً. في تمام الساعة التاسعة من صباح يوم غد سيأتي ملاك الموت ليتناول الشاي.

(٣٢)

ماذا يعني لو أصبح الجوكر *الملك* وذهبت المرأة الوطواط إلى السجن. وخارج الغاردنز، كانت القهقهات تتعالى، تبدو أشبه بصرخات، ولم أعرف ما إذا كانت صيحات غضب أم صيحات فرح وبهجة. كنت منهكاً وخائفاً في آن معاً. ربما كنت مخطئاً في حق بلدي. لعل الحياة التي عشتها في الفقاعة جعلتني أعتقد أن الأمور ليست كذلك، أو أنها غير كافية للفوز. ماذا يعني أيّ شيء لو حدث الأسوأ، لو سقط البريق من الهواء، لو أصبحت الأكاذيب، الافتراءات، القبح، البشاعة، وجه أمريكا. ماذا ستعني قصّتي، وحياتي، وعملي، وقصص جميع الأمريكيين، سواء القديمة أم الجديدة، وأدّت عائلات مايفلاور والأمريكيون اليمين بفخر في الوقت المناسب للمشاركة في فضح - تفكيك - أمريكا. لماذا عليّ حتى أن أبذل محاولة لأفهم الحالة الإنسانية إذا أظهرت الإنسانية بأنها مشوّهة، مظلمة، *لا تستحقها*. ما الفائدة من الشعر، السينما، الفنّ. دع الطيبة تذوي فوق الكرمة. لتصبح الجنة مفقودة. إن أمريكا التي أحببتها، ذهبت مع الريح.

لم أنم جيداً في نهاية الاسبوع الماضي ذاك قبل موعد الانتخابات لأن عقلي كان مشغولاً بأفكار كهذه. هاتفتني ريا في الساعة الخامسة صباحاً وكنت للتو مستيقظاً أحدّق بعينين واسعتين في

السقف. يجب أن تأتي، قالت. سيحدث شيء لا أعرف ما هو، لكنّي لا أستطيع البقاء هنا وحدي. لقد غطّ الرجل العجوز في النوم في كرسيه مسنداً جبهته على خشب طاولة مكتبه. كانت ليلتها مؤرقة مثل ليلتي. لكنّها ليست كاهنة كاثوليكية في فيلم من أفلام هتشكوك لذلك كانت بحاجة إلى أن يشاركها أحد عبء ما عرفته، الأسرار التي أصبحت الآن أسرارها أيضاً. هرعت للقائها وجلسنا في الغاردنز قبل بزوغ الفجر، وبدأت تتحدث. ماذا يجب أن أفعل، قالت. فأجبتها ما الذي يمكن عمله. لكنّي كنت أعرف الجواب لأنني كنت أطفح بحماسة إبداعية. لقد أنقذتني القصّة من أعماق يأسي الليلي. إنها القطعة المفقودة التي أحتاج إليها، وقدمت لي القلب المظلم لفيلمي، الكشف الكبير، جوهره. فالفنّ هو الفنّ والفنانون لصوص وعاهرات لكنّنا نعرف متى تتدفّق العصائر، عندما يهمس الإلهام المجهول في أذننا، يتكلّم بسرعة، ضع هذا هنا، لن أقولها إلّا مرة واحدة، ثم سنعرف الإجابة على جميع الشكوك التي تجتاحنا في رعبنا الليلي. تذكّرت يوسف فينيس، الشاعر الشاب في فيلم شكسبير *عاشقاً*، يقفز من طاولة مكتبه التي يكتب عليها - ماذا؟ روميو وجولييت؟ - ويؤدي دورة صغيرة خاصة ويقول لنفسه من دون تفاخر أو حياء، «يا الله، أنا في حالة جيدة».

(يثير هذا سؤالاً مثيراً للاهتمام: هل كان شكسبير يعرف أنّه شكسبير؟ لكن لنترك ذلك إلى يوم آخر).

(لا يوجد إلهام للسينما، ولا للقصّة أيضاً. في هذه الحالة، يرجح أن تكون الملهمة كاليوبي ملهمة الشعر الملحمي - إذا كان ما أفعله ملحمة - أو ثاليا، إذا كان كوميدياً، أو ميلبومين، إذا تمكنت من ارتقاء الأعالي التي تتطلّبها التراجيديا. هذا الأمر ليس شديد الأهمية. لا عليك).

دعني أنهي الأمر حتى آخره، قلت. لنرَ ماذا سيقول الشرطي المتقاعد.

للمسرحية طريقة في جعل الكاتب المسرحي يجوب الأدغال. ثمة شيء سيحدث لكني لا أعرف ما هو، قالت ريا، لذلك هاتفتني لتطلب مني أن أدعمها، لكن الشيء الذي لم يخمّنه أيّ منا هو أن ذلك الشيء الذي سيحدث يتعلق بي أنا.

* * *

عدنا إلى بيت غولدن ووجدنا نفسَينا في الغرفة الكبيرة المطلّة على الغاردنز، في مواجهة فاسيليسا وهي تحمل ابنها الصغير - ابني الصغير - ابني! بيد وتحمل مسدساً باليد الأخرى، مسدساً صغيراً رُصِعّت قبضته باللآلئ، وطُليت فوهته بالذهب. كانت تشبه نجمة سينمائية إيطالية في ثوب نومها الحريري الوردي ترتدي فوقه رداء فضفاضاً موشّى بالدانتيل يصل حتى الأرض - مونيكا فيتي، أو فيرنا ليسي، لست متأكداً أيهما. لكن لا بد أنّ للمسدس لمسة غودار. تذكّرت بطلته القاتلة في فيلمه *المهرج* التي قتلت القزم بعد أن حزّت رقبته بمقصّها. لم أكن أرغب في أن أصبح نسخة عن ذلك القزم. في واقع الحال، رفعت يدي إلى الأعلى. مثّل المشهد، قلت في نفسي. نظرت إليّ ريا كما لو كنت مجنوناً.

صباح الخير، فاسيليسا، قالت ريا بصوت عادي، لا كما يحدث في الأفلام. أنزلي هذا الشيء، أرجوك.

ماذا تفعلان في بيتي؟ قالت فاسيليسا التي لم تخفض مسدسها. (كانت، على الأقل، ملتزمة بنص السيناريو).

اتصل بي نيرو، قالت ريا. أراد أن يكلّمني.

أراد أن يكلّمك أنت؟

لقد تكلّم طويلاً. سيأتي رجل لزيارته قريباً.

من سيأتي؟ لماذا لم يخبرني أحد؟

جئت لأنّ ريا قلقة، قلتُ، بشأن الرجل.

سنقابل هذا الرجل، قالت فاسيليسا. يجب أن يُحلّ هذا اللغز. أعادت المسدّس إلى محفظتها، مكانه الطبيعي.

قطع. ثمّ رشقة سريعة من الطلقات، تقيم جسراً لمرور الزمن، لإظهار وضع نيرو السيّئ. يقف من دون ثبات على قدميه وفي صوته وإيماءاته ايضاً.

عندما أيقظت زوجها لم يكن نيرو في حالة جيدة. لقد تلاشى وضوح خطابه في تلك الليلة الطويلة. كان ضبابياً وغامضاً، كما لو كان المجهود الذي بذله ليتذكّر قد أوهنه. ساعدته فاسيليسا للذهاب إلى غرفة النوم، وقالت له «حمّام». وبعد أن استحمّ، قالت، «ثياب»، وبعد أن ألبسته ثيابه، قالت، «حذاء». بدا مثيراً للشفقة. قال: «لا أستطيع أن أربط ربطة الحذاء». «إنه خفّ»، قالت له. «حذاء». بعد أن انتعل حذاءه، وضعت عدة حبات. «ابتلع»، قالت. بعد أن ابتلعها قالت له بنبرة آمرة، «قل لي». فهزّ رأسه وقال: «رجل من البارحة».

إن السبب الوحيد الذي جعلني أعرف شيئاً عن قبعات بورسالينو هو أنّ والديَّ كانا يتجادلان بطريقتهما الودّية، يستمتعان بالجدال أكثر من استمتاعهما بالنتيجة، حول ما إذا كان يجب إدراج قبعات فيدورا المشهورة الموجودة في مجموعتهما في فئة القبعات البلجيكية الشهيرة أم لا. لأن شركة بورسالينو لصناعة القبعات غير موجودة داخل الحدود البلجيكية، وإنما في مدينة أليساندريا في بيدمونت بإيطاليا الكائنة فوق سهل غريني بين نهر تانارو ونهر بورمدا، وتبعد حوالي ستة وخمسين ميلاً عن تورينو. وأعرف ثلاثة أشياء عن قبعات

بورسالينو هي: أنّها شعبية جداً بين اليهود الأرثوذكس، وأنها أصبحت مقبولة لدى الناس عندما اعتمرها ألان ديلون وجان - بول بيلموندو في فيلم العصابات الفرنسي عام ١٩٧٠ الذي سُمّي على اسميهما، وأنها مصنوعة من اللباد وأن اللباد مصنوع من فراء أرنب بلجيكي.

جلس الرجل ماستان، الشرطي المتقاعد، على الكرسي نفسه المنتصب في غرفة جلوس بيت غولدن الذي كان يجلس عليه القاتل كينسكي، وقد بدا أنه خائف قليلاً لأن فاسيليسا المتجهمة الوجه وريا وأنا بالإضافة إلى نيرو جلسنا قبالته. كان ذلك في عطلة نهاية الأسبوع، ولم يكن الكثير من الخدم موجودين. فلم تكن هناك الآنسة بلاذر، ولا الآنسة فاس. ولم يكن العامل الحرفي غونزالو في البيت أيضاً بالإضافة إلى كبير الخدم، مايكل مكنالي، وكبير الطهاة، ساندرو «كوكي» غوتشي. فتحت الباب وأدخلت المفتش. كان رجلاً وسيماً! فضّي الشعر، في السبعينات من عمره مثل نيرو، ربما لم ينه سبعينياته، وفي هيئته الجانبية كان يمكن أن يكون نموذج النصب التذكاري للحصان الجامح في داكوتا الجنوبية. وكانت بدلته السكرية اللون، كأنها، بلا تردد، خارجة من فيلم بيتر أوتول، ويمكن لأي رجل بريطاني محترم أن يتباهى بوضع ربطة عنقه ذات الخطوط الحمراء والذهبية المائلة. (اكتشفت لاحقاً من خلال البحث، كم كنت فخوراً بذلك، أن ربطة العنق التي يرتديها أعضاء نادي ماريليبون للكريكت كانت مرغوبة جداً في أوساط لاعبي الكريكت). جلس منتصب الظهر، عمودياً، لكنه كان مضطرباً، وراح يعبث بطرف قبعته البورسالينو التي وضعها على ركبته. سادت لحظة من الصمت المحرج، ثمّ بدأ يتحدّث.

جئت إلى الولايات المتّحدة لثلاثة أسباب، قال. في المقام الأول، لزيارة أختي في فيلادلفيا التي يعمل زوجها في صناعة إعادة

تدوير القناني البلاستيكية، وهو ناجح في عمله. بهذه الطريقة يجمع المرء ثروته في أمريكا. ابتكر فكرة جيدة وتمسّك بها. كان البروفسور آينشتاين يقول إنه لم تكن لديه إلّا فكرة جيدة واحدة فقط. وفي حالته، كانت طبيعة الكون.

كان نيرو في أشدّ حالات حمقه، غير مركّز، عيناه زائغتان، يدندن لحناً قصيراً خاصّاً.

أما السبب الثاني فهو لزيارة قبر ب. ج. وودهاوس، قال. (استرعى ذلك انتباهي. فقد كنت أنا ووالداي نحبّ وودهاوس. وقد خطر وودهاوس ببالي أيضاً عندما جلس كينسكي على ذلك الكرسي). السيّد وودهاوس معروف جداً في بلدي، قال ماستان. شاهدة قبره كتاب من رخام نُقشت عليه أسماء شخصياته. لكن مكاني المفضّل ليس هناك، في جميع الأحوال. الآنسة مادلين باسيت التي كانت تظن أن النجوم سلسلة من أزهار الأقحوان التي أنزلها الله. لكنّها شخصية ثانوية. أنا، أيضاً. الشيء نفسه. كان دوري دائماً دور داعم صارم.

زوجي ليس على ما يرام، قالت فاسيليسا بحدّة. إذا كان هناك هدف معين لهذه الزيارة، فأرجو أن تقوله مباشرة.

أوه، الهدف، مدام، نعم. اصبري قليلاً. هناك الهدف الظاهري وهناك الهدف الفعلي. الهدف الظاهري هو الذي قلته له على الهاتف. كلمة تحذير. لكن الرجل المحترم رجل محنك. قد لا تكون هناك ضرورة لتحذيره من الأشياء التي يعرفها للتو. لقد ازدادت جالية شعبنا في أمريكا، يا مدام، وهي تفتخر بأنه أصبح لديها الآن شركات إعادة تدوير القناني البلاستيكية، يا مدام، وعندنا أيضاً عباقرة التكنولوجيا الجديدة، ممثلون مكلّلون بأكاليل الورد، محامون يقودون الحملات الانتخابية، سياسيون من مختلف الأحزاب،

مصممو أزياء، وأيضاً، يا مدام، عصابات إجرامية. يؤسفني أن أقول ذلك. ففي أمريكا، لكلمة المافيا مضمون إيطالي محدد، فمن الأفضل تحاشيها، ولنطلق على العصابات من شعبنا أسماء أخرى. لنعترف بأنهم لا يزالون صغاراً، مجرد بدايات لما يطلق عليه الإيطاليون اسم عائلات وما يطلق عليه شعبنا عائلات *غاراني*، أسر، أو حالياً، *شركات*، أصبح تعبيراً شعبياً الآن في البلد الأمّ. لكن هناك حماسة كبيرة بين هذه الشركات الأمريكية، هذه الأسر الجديدة، إمكانية كبيرة لكي تنمو وتكبر بسرعة. وهناك أيضاً شيء من التمدد إلى الوطن الأمّ، اهتمام بالعولمة، بأنشطة مشتركة. إن أهل بلدنا الذين يعيشون في أمريكا يريدون أن يساعدوا شعبهم في الوطن الأمّ، لتسهيل الأعمال هنا مقابل تسهيلات موازية في البلد الأمّ. الأمور تتغيّر، يا مدام. الزمن يمضي. الأشياء التي كانت مستحيلة في الماضي تصبح ممكنة. كنت أتمنى أن أناقش هذه المسائل مع الرجل المحترم، لكن بما أنني أجلس الآن وجهاً لوجه أمامه أجد أنه تكرار غير ضروري الآن. ربما كان يدرك ذلك، وربما. قد يكون هذا مصدر قلق له، أو قد لا يكون. ربما كان ذكاؤه لا يزال قادراً على تحليل التهديد والخطر، أو ربما فقد تلك القدرة. هذا ليس من شأني. أرى ذلك الآن.

وهكذا نصل إلى الهدف الحقيقي، يا مدام، أشكرك على صبرك. الهدف الحقيقي هو أن ألقي نظرة على الرجل المحترم لأرى ماذا يمكن أن تلهمني هذه النظرة. إنه رجل هرب من أحكام قانونية لأنه ارتكب أخطاء كثيرة. لأنه تورط في أعمال مميتة، يا مدام. إنه رجل استطاع أن يتستر على الأعمال التي ارتكبها بحرفية شديدة، واستخدم الحيل والمال لكي يزيل جميع الصلات بينه وبين أمور كثيرة لا يمكن التعبير عنها بكلمات. كنت وعدته بأن أذكر له أسماء

الأشخاص الذين قتلوا ابنه لكنه، بالطبع، فهو يعرفهم للتو، فقد تعامل معهم لسنوات وكان صديقاً لهم ثم انقلبوا عليه. قد تبدي قوى الأمن في هذا البلد العظيم اهتماماً بهذه الأشياء، ولعلي أستطيع أن أثير اهتمامهم، لكنّي أخشى أنه من دون أدلة وإثباتات فقد أبدو في نظرهم رجلاً مهووساً وأحمق مع أنني كنت زميلاً لهم ذات يوم في أرض بعيدة. ربما لو ألقيت نظرة على هذا الرجل فقد أرغب في أن آخذ الأمور على عاتقي مع أنّنا تقدمنا في العمر. ربما كنت أشعر برغبة جامحة في أن أوجّه لكمة إلى وجه هذا الرجل، وندخل في عراك بالقبضات بين رجلين غبيين عجوزين. وقد تعتريني الرغبة في أن أطلق عليه النار وأقتله. فأنا لا أزال أتقن الرمي، يا مدام، ويمكن الحصول على سلاح في أمريكا بسهولة. أما الآن، وبينما أنظر إلى هذا الرجل، الرجل الذي كرهته معظم حياتي، فإني أرى هذا الرجل، الذي كان قوياً ذات يوم، أراه في زمن ضعفه، وهو لا يستحقّ الرصاصة التي سأطلقها عليه. سأدعه يواجه ربه. ليحصل على حكمه عندما يقف أمام العرش. لتستقبله جهنم وليحترق في نار جهنم إلى الأبد. بعد أن أوضحت هدفي فإني سأغادر.

كانت يد ريا على كتف فاسيليسا، تحذّرها، اتركي مسدّسك في مكانه.

نهض السيّد ماستان مطرق الرأس. وعندما استدار باتجاه الباب، سحب نيرو نفسه من أعماق الأريكة التي غاص فيها، وبشكل مريع، وعلى نحو كريه، صاح بأعلى صوته.

أتأتي إلى بيتي وتكلّمني بهذه الطريقة أمام زوجتي؟

تسمّر الشرطي المتقاعد في مكانه، مولياً ظهره لنيرو، لا يزال يحمل قبعته في يده.

أيها الوغد! صاح نيرو. اركض! فأنت الرجل الميت الآن.

(٣٣)

عندما يصل رجل التحري إلى موقع الأحداث، يشعر مشاهدو الفيلم غريزياً بالارتياح، لأنهم يتوقّعون أن العدالة ستلاحق مرتكب الجريمة، لأن الحقّ سينتصر في النهاية. لكن ليس من الضروري أن العدالة ستنتصر على الظلم. وفي فيلم آخر لهيتشكوك، «*المعتوه*»، ينبعث الرعب من الواقع بأن الناس الذين يجب ألّا يموتوا يموتون. وكانت «جانيت لي» هي النجمة الرئيسية في الفيلم، لكنها في منتصف الفيلم، آه! تموت في الحمّام. ثمّ يصل رجل التحري، مارتين بالسام، رجل دمث، لطيف، آمن، محترف جداً، مطمئن جداً، فتخفّ حدة توتّرنا. ستسير الأمور على ما يرام الآن. ثم، آه! يموت هو أيضاً. فتقول لنفسك: إنه لأمر مريع أن يموت الأشخاص الخطأ. الرجل التحري المتقاعد، المفتش ماستان، الشرطي السابق في قسم التحقيقات في بومباي. هل يجب أن نتوقّع أن يحدث له أمر جلل؟

ثمة شيء أخير حول السيد هيتشكوك. نعم، كان يحبّ أن يُظهر في أفلامه الممثلين في أدوار قصيرة، لأنه ذلك برأيه يشدّ انتباه الأشخاص الذين يشاهدون أفلامه حتى يروا متى سيحدث وكيف سيحدث ذلك، لكنه أيضاً، في معظم الأحيان، يزيح الممثل عن الطريق في وقت مبكّر لكي لا تصرف عملية البحث انتباه المشاهد عنه. أقول هذا لأنني يجب أن أسجّل الآن، بما أنني مخرج هذا

العمل (لأذكر ذلك بفخامة، بما أن هذا المشروع لا يزال في بدايته)، بأنه بما أنني راقبت - وشاركت بصمت في - المشهد الذي وصفته للتو، فإن شيئاً تدفّق في داخلي لم أتمكن من التحكم به. وفي هذه الفترة من إفشاء الأسرار، فقد أفشيت سرّي.

نعم: فأنا أخفي مشاعري. أخفيها أو أحوّلها إلى إشارات سينمائية. حتى في هذه اللحظة الحاسمة من قصتي، عندما أخرج من الظلّ إلى بقعة الضوء المركزية، فإني أحاول (ولا أتمكن) أن أقاوم التحدّث عن آخر تحفة للمخرج أكيرا كوروساوا «*ران*» حيث يتزوج، إذا جاز التعبير، الملك لير الليدي ماكبث. لقد أثار هذه الفكرة شيء قاله المفتش ماستان. فقد دعا نفسه *مولعاً وأحمق* وسواء أكان يعرف ذلك أم لا، فقد كان يقتبس من الملك شكسبير المحطّم تقريباً. أرجوك لا تسخر مني، قال لير متوسلاً. فأنا رجل عجوز أحمق جداً. . . وبصراحة، فإني أخشى ألّا أكون في كامل قواي العقلية. وجلس هناك على أريكته، آخر عرش له، وراح يصيح معرباً عن كراهيته لشيخوخته. «القديم الأيام»(*)، الذي هدّم حياة أبنائه الثلاثة، وتحطّم لا كما تحطّم لير، بسبب عداوتهم له، وإنما بسبب تدميرهم له. وهنا أمامه، متوحشة في نظري مثل الليدي كايد في «*ران*»، الليدي ماكبث في فيلم كوروساوا، وقفت فاسيليسا غولدن، أمّ ابنه الرابع الوحيد الباقي على قيد الحياة - والمفترض ابنه الوحيد - وفي محفظتها مسدّس والشرر يتطاير من عينيها. وأنا، الغبي، بدأت مناجاتي لنفسي التي ستكشف الحقيقة. كما لو أنني لم أفهم بعد أن دوري لا يعدو كونه دوراً مسانداً. كما لو أنني، مثل المفتش ماستان، يمكنني أن أكون، على الأقل في هذا المشهد، النجم.

(*) من أسماء الله في سِفر دانيال.

بدأت أحتقر السيدة غولدن الثانية من أجل موقفها المتعالي، والطريقة التي نبذتني بها كأنها ترمي منديلاً ورقياً مستعملاً بعد أن حققت أغراضها، ولأنها تضع المسدس في حقيبتها اليدوية، وتظاهرها بالتقوى وعبادتها لأيقونة زائفة، وأمّها المخادعة ذات المنديل على رأسها، وللحقيقة التي لا يمكن نكرانها بأن كلّ شيء تفعله، كلّ إيماءة تقوم بها، كلّ نبرة في صوتها، كلّ قبلة، كلّ معانقة، لم تكن ناجمة عن دافع حقيقي، وإنما محسوبة بدم بارد. حكمة العنكبوت، حكمة سمك القرش. إنها امرأة مثيرة للاشمئزاز. لقد احتقرتها وأردتُ أن أسبّب لها الأذى.

بأسلوب مفتش الشرطة المتقاعد البريطاني - الهندي، وطريقته المتصلبة في ضبط نفسه، وصوته الذي لم يرتفع قط حتى عندما لعن نيرو غولدن وتمنى له العذاب الأبدي، أدركت شيئاً في نفسي. ربما كانت سوشيترا محقّة عندما قالت إن كلّ شخصية ترد في قصّتي تمثل أحد جوانب طبيعتي. لا بد أنني لم أسمع نفسي في كظم مشاعر السيد ماستان فقط، وإنما أيضاً، في هذه اللحظة، في صراخ نيرو الخرف العنين. فأنا لست خرفاً، لم أصبح ذلك بعد، لكنّي أعرف شيئاً عن العجز. حتى الآن عندما قررت أن ألقي القيود التي قيدتني بها فاسيليسا في لساني فهمت أنّ الحقيقة ستؤذيني أكثر من أي شخص آخر. وعلى الرغم من ذلك فإنني سأبوح بها. فعندما اتصلت بي ريا ودعتني لآن آتي بسرعة إلى بيت غولدن، *بأن شيئاً سيحدث*، ريا في حالتها المضطربة والمتضايقة، امتزج فيها الحزن مع معرفة معلومات مخيفة الآن، أثارت فيّ فيضاً من المشاعر لم أفهمها على الفور، لكن معناها أضحى الآن، فجأة، في غاية الوضوح.

كانت الانتخابات على الأبواب وتطوعت سوشيترا بطريقتها الدؤوبة التي لا تكلّ ولا تملّ في العمل على الهاتف، وفي يوم

الثلاثاء ستبدأ بجمع البيانات وفرز الأصوات. ينبغي أن تكون هي أول من أجلس معها، بهدوء، لأعترف لها، لأوضح، لأعرب لها عن حبّي، وأطلب منها أن تغفر لي. كنت أدين لها بذلك على أقل تقدير، لكن بدلاً من ذلك، ها أنا أجلس في غرفة الجلوس الكبيرة في بيت غولدن فاغر الفم والكلمات المصيرية ترتعش فوق شفتي.

لا، لا توجد حاجة إلى ترديد الكلمات نفسها.

عند قرابة نهاية الفيلم الرائع *باثر بانتشالي* (أغنية الطريق القصير) للمخرج ساتياجيت راي، يمكن رؤية ما أعتبره أعظم مشهد في تاريخ السينما. إذ يعود هاريهار، والد آبوو الصغير وأخته دورغا الأكبر منه سناً، اللذان تركهما في قريتهم مع أمّهما سارباجايا ليذهب إلى المدينة ليكسب بعض النقود - بعد أن عمل - محملاً بالهدايا لطفليه، لكنه لم يكن يعرف أنه في أثناء غيابه مرضت دورغا الصغيرة وماتت. ويجد زوجته سارباجايا جالسة في *بيول*، شرفة بيتهم، وقد أخرستها المأساة، غير قادرة على الترحيب بعودته أو الردّ على ما يقوله لها. ولم يكن قد فهم حقيقة ما جرى، بدأ يريها الهدايا التي جلبها لطفليه. وفي لحظة استثنائية، نرى وجهه يربد عندما تخبره سارباجايا، وظهرها إلى الكاميرا، عن ابنتهما دورغا. وفي هذه اللحظة، عارفاً قصور الحوار، يدع راي الموسيقى ترتفع وتغطي على الموسيقى التصويرية، موسيقى البوق العالية الثاقبة الذي يعزف حزن الأبوين على نحو أبلغ من أي كلمات يمكن أن يقولاها.

لكن لا توجد لديّ موسيقى أقدّمها. لذلك سأقدّم، بدلاً من ذلك، الصمت.

عندما قلت ما الذي يجب أن يقال، قطعت ريا الغرفة وجاءت ووقفت أمامي، ثمّ رفعت يدها اليمنى وصفعتني على خدي الأيسر بأقوى ما تستطيع. هذا من أجل سوشيترا، قالت. ثمّ، بظاهر كفها

صفعتني بقوة أشدّ على خدي الأيمن، وقالت لي، هذا من أجلك. تسمّرت في مكاني ولم آت بحركة.

ماذا قال؟ أراد نيرو، في اضطراب الصباح، أن يعرف. عمّ يتحدّث؟

توجهتُ إلى حيث كان يجلس، وجلستُ على وركيّ، وحدقت في عينيه، وكررتها مرة أخرى.

أنا والد ابنك. فيسبا الصغير. إن طفلك الوحيد الذي بقي على قيد الحياة ليس ابنك. إنه ابني أنا.

فانقضّت عليّ فاسيليسا بغضب بايروني، انقضّت مثل ذئب يهجم على حظيرة، لكن قبل أن تصل إليّ، رأيت نوراً يشعّ من عينيّ الرجل العجوز، وها هو الآن، يعود مرة أخرى، يقظاً، الرجل القوي من منفاه التائه الغائم وعاد إلى طبيعته.

أحضري الصبي، أمر زوجته. فهزّت رأسها وقالت، ينبغي ألّا يكون جزءاً من كلّ هذا.

أحضريه فوراً.

وعندما أحضرت فيسبا الصغير - فاسيليسا تضمّه إليها، وأمّها تقف إلى جانبها، نصف جسديهما مستديرين بعيداً عن رجل البيت، يحميان الطفل بينهما -ألقى نيرو نظرة متفحصة على الصبي، كما لو كان ينظر إليه لأول مرة، ثمّ نظر إليّ، ثمّ عاد لينظر إليه، ثم إليّ مرة أخرى، وهكذا، عدة مرات، حتى انفجر الطفل الذي لم يزعجه أحد لكنه أدركَ الأزمة كما يمكن للأطفال أن يدركوا، وذرف سيلاً من الدموع الحارة. فأومأت فاسيليسا إلى أمّها بأن هذا يكفي. فأُخذ الصبي من أمام أبيه، ولم ينظر باتجاهي ولا مرة.

نعم، قال نيرو. أرى. لم يقل أكثر من ذلك، لكن بدا أنني رأيت، معلّقة في الهواء فوق رأسه، الكلمات الفظيعة التي فكّرت

فيها ذات يوم إيما بوفاري عن ابنتها بيرث. غريب كم *أن هذا الطفل* قبيح.

إنك لا ترى شيئاً، قالت فاسيليسا، متجهة نحوه.

رفع نيرو غولدن يده ليوقفها في مكانها. ثمّ، خفّض يده، وبصق على ظاهر يده.

أخبرني بكلّ شيء، قال لي.

أخبرته.

* * *

لست مضطرة لأن أسمع هذا، قالت ريا، وغادرت البيت.

أرفض أن أسمع هذا، قالت فاسيليسا، وظلت في الغرفة، تستمع.

عندما أنهيت كلامي فكّر طويلاً. ثمّ قال، صوته قوي ومنخفض، الآن يجب أن نتحدّث أنا وزوجتي وحدنا.

استدرت لأذهب، لكن قبل أن أغادر الغرفة قال شيئاً غريباً.

إذا حدث مكروه لكلينا، فإني أعيّنك وصياً على الصبي. سأطلب من المحامين أن يجهّزوا الأوراق الرسمية اليوم.

لن يصيبنا مكروه، قالت فاسيليسا. وأيضاً، نحن في عطلة نهاية الأسبوع.

سنتكلّم على انفراد الآن، أجابها نيرو. أرجو أن توصلي رينيه إلى الباب.

عندما رحتُ أسير في شارع ماكدوغال باتجاه هيوستن، كان الأدرينالين قد جفّ من جسدي وتملّكني شعور بالخوف من المستقبل. كنت أعرف ماذا يجب أن أفعل، ما لا أستطيع أن أتفادى عمله. حاولتُ أن أتصل بسوشيترا. رسالة صوتية. رسالة نصيّة. يجب أن نتحدّث. تجوّلت في المدينة متجهاً إلى بيتي في الجادة

السادسة ثم ذهبت باتجاه تريبيكا، أسير على غير هدى في الشوارع. وعند ناصية شارعي نورث مور وغرينيتش جاءني ردّها. *سأتأخر في العودة إلى البيت*. لم تكن ثمة طريقة للإجابة. لا ربما أراك في أي وقت. استدرت يميناً إلى شارع تشامبرز وتجاوزت مدرسة ستيفيسانت الثانوية. توقّعت الأسوأ. ماذا يمكن أن يحدث غير ذلك؟ ماذا يمكنها أن تظن بي بما كان عليّ أن أخبرها؟ الأسوأ فقط.

لكن لو لم تكن الطبيعة البشرية لغزاً، لما كنّا بحاجة إلى شعراء.

مكتبة
t.me/t_pdf

(٣٤)

في وقت لاحق. *لنقل، بعد فترة طويلة.* في أحد الأيام، اقترح أحد الرجال الحكماء أن مانهاتن أسفل الشارع الرابع عشر عند الساعة الثالثة من صباح ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر هي مدينة الوطواط غوثام؛ وكانت مانهاتن بين الشارع الرابع عشر والشارع ١١٠ في أكثر الأيام المشمسة في شهر تموز/يوليو عاصمة السوبرمان. وكان الرجل العنكبوت، الذي وصل متأخراً، معلقاً رأساً على عقب في حيّ كوينز يفكّر في القوة وفي المسؤولية. جميع هذه المدن، المدن الخيالية غير المرئية المترامية هنا وهناك والمنسوجة مع المدينة الحقيقية: لا تزال كلّها سليمة، لم يصبها أذى، مع أنه بعد الانتخابات، بدأ الجوكر - بشعره الأخضر الذي يلمع من الانتصار، وببشرته البيضاء مثل قلنسوة كلانسمان، وشفتيه اللتين تقطران دماً مجهولاً - يحكمها كلّها الآن. لقد أصبح الجوكر ملكاً حقاً وأصبح يعيش في بيت ذهبي في السماء. وبدأ المواطنون يرددون عباراتهم المألوفة ويذكّرون أنفسهم بأنه لا تزال هناك طيور على الأشجار وأن السماء لم تسقط، وأنها لا تزال، في معظم الأحيان، زرقاء. لا تزال المدينة قائمة. وفي المذياع وفي التطبيقات الموسيقية التي يسمعها الشبان الطائشون بواسطة سماعات البلوتوث، لا تزال الضربات مستمرة. ولا يزال مشجعو فريق *اليانكي* قلقين حول قذف الكرة

بشكل دائري، ولا يزال أداء فريق *الميتس* ضعيفاً، ولا تزال اللعنة تلاحق فريق نيكس لأنه فريق *النيكس*. ولا تزال الأكاذيب تملأ الإنترنت وتحطمت الحقيقة. وفقد أفضل الناس كلّ قناعاتهم، وملأت أسوأ الناس عواطف حادة والغضب وكشف غضب الظلم ضعف العدل. لكن الأذى لم يمسّ الجمهورية تقريباً. دعوني أدوّن ذلك لأنها تُقال غالباً لتريح الذين لا يرتاحون بسهولة منّا. إنها من ضرب الخيال بشكل ما، لكنّي أكرّرها. فأنا أعرف أنه بعد العاصفة، ستهبّ عاصفة أخرى، ثم أخرى وأخرى. أعرف أن الطقس العاصف أصبح المتوقّع إلى الأبد ولم تعد الأيام السعيدة هنا ثانية، وأصبح التعصّب هو اللون الأسود الجديد، وزُوِّر النظام لا كما حاول المهرّج الوغد أن يجعلنا نعتقد. إذ ينتصر الرجال السيئون أحياناً، وماذا بإمكان المرء أن يفعله عندما يتبيّن له أن العالم الذي يؤمن به ما هو إلّا قمر من ورق ويرتفع كوكب مظلم ويقول، لا، أنا العالم. كيف يعيش المرء بين أبناء وبنات وطنه عندما لا تعرف مَن منهم بين الستين مليوناً ونيّف الذين جلبوا الرعب إلى السلطة، عندما لا تستطيع أن تعرف مَن ينبغي أن يُحسب من بين التسعين مليوناً ونيّف الذين لم يكترثوا ومكثوا في بيوتهم ولم يذهبوا للاقتراع، أو عندما يقول لك أبناء وطنك الأمريكيون إن معرفة الأشياء شيء نخبوي وإنهم يكرهون النخب، وإن كلّ ما تملكه هو عقلك وقد رُبّيت لكي تؤمن ببهاء المعرفة، لا بأن المعرفة سخافة - القوة، بل نشأت وتعلمت بأن *المعرفة جمال*، ثم، يصبح كلّ ذلك، التعليم، الفنّ، الموسيقى، السينما، مدعاة للاحتقار، وأن المخلوق الذي انبثق من «*روح العالم*» يصعد ويتهاوى نحو واشنطن العاصمة لكي يولد. إن ما فعلته هو أنني انكفأت إلى حياتي الخاصّة - لأتشبث بالحياة كما كنت أعرفها، مواطن ضعفها وقوّتها، والإصرار على قدرة الكون

الأخلاقي للحديقة المشتركة (الغاردنز) على الحياة بالرغم من أعتى الهجمات. لذلك، اتركوا الآن لقصّتي الصغيرة لحظاتها الأخيرة في وسط الزبالة الكبيرة التي تحيط بها وأنتم تقرأون هذا، مهما لُفِّقت الخلافات، مهما بلغ الرعب أو الغباء أو القبح أو العار. دعوني أدعو ملك الصور المتحركة العملاق الذي يكسو رأسه شعر المنتصر لأن يأخذ مقعداً خلفياً ويدع الناس الحقيقيين يقودون الحافلة. قد يصبح بالإمكان فهم حيواتنا الصغيرة، مثلنا.

أذكر أنني حكيت لآبوو غولدن كيف أنني بكيت في ليلة الانتخابات في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٨. كانت تلك دموع فرح. لكن الدموع الموازية والمناقضة التي ذرفتها في سنة ٢٠١٦ جرفت الفرح بعيداً.

في عالم الحقيقة تعلّمت دروساً قاسية. قد تسبّب الأكاذيب مآسي، سواء على الصعيد الشخصي أو الوطني. تستطيع الأكاذيب أن تهزم الحقيقة. لكن الحقيقة خطيرة أيضاً. لا يمكن أن يكون راوي الحقيقة سوقياً وهجومياً فقط كما كنت في بيت غولدن في ذلك اليوم. فقد يكلّفك قول الحقيقة أيضاً كلّ ما تحبّه.

لم تدر مناقشات كثيرة بعد أن أخبرت سوشيترا قصة ابن فاسيليسا غولدن. استمعت إلى ما قلته بصمت، ثمّ اعتذرت ودخلت إلى غرفة النوم وأغلقت الباب وراءها. ثمّ خرجت بعد عشر دقائق، عيناها جافتان، تسيطر تماماً على عواطفها، وقالت: «أظنّ أن عليك أن تغادر هذا البيت، أليس كذلك»، قالت، «ويجب أن تفعل ذلك الآن». فعدت إلى غرفتي القديمة في منزل السيد يو لنو فنو. أما بالنسبة إلى علاقتنا في العمل، فقالت إنها لا تزال ترغب في مواصلة دعم فيلمي الطويل الذي سيرى النور قريباً بعد سنوات من العمل، وما عدا ذلك، سيعمل كلّ منّا على حدة في المستقبل، وكان هذا

أكثر من مناسب بالنسبة إليّ. ولدهشتي ولإحباطي الشديدين، فقد بدأت تخوض على الفور في علاقات حبّ قصيرة لكنها لاهبة مع بعض الرجال المعروفين وكانت تعرض كلّ ذلك في وسائط التواصل الاجتماعي، وأعترف بأنها حطمتني. كيف كان بإمكانها أن تبدي بي اهتماماً عميقاً إن كانت قادرة على أن تغوص بسرعة كبيرة في الأشياء التي تلت كلّ ذلك؟ ما مدى صدقها؟ اجتاحتني هذه الأفكار، مع أنني كنت أعرف، في قرارة نفسي، أنني كنت أحاول أن أحوّل اللوم إليها، لكن لا يمكنك أن تنقل اللوم إلى أحد، لذلك ظل قابعاً على كاهلي بقوة - لهذا السبب لم تكن تلك فترة سعيدة بالنسبة إليّ لكن، نعم، كنت قد أنهيت فيلمي *البيت الذهبي*، مشروعي الذي كان هاجسي طوال عشر سنوات تقريباً - في النهاية دراما، قصّة خيالية مكتملة الأركان، وليست فيلماً وثائقياً كاذباً أو ساخراً، فقد أعدت كتابة السيناريو بكامله عندما بدأت العمل في مختبر كتّاب السيناريو في معهد ساندانس للسينما، ونعم، فقد بدا أن الأشخاص الذين أردت أن يحبّوه أحبّوه، ونعم، بمساعدة منتج أمريكي من أصل إيطالي صديق لي في لوس أنجلوس، وحصلت شركة *Inertia Pictures* على حقوق توزيعه في شمال أمريكا. وهكذا أصبح متداولاً، وعُرض في دور السينما *واشتد عليه الطلب في الربع الأول*، لذلك، كان لا بد أن يكون حقيقياً. *أول عرض لفيلم طويل في أنترلندين لكاتب ومخرج واحد*. وفي فترة عصيبة على الأفلام المستقلّة، حظي فيلمي هذا بقبول واسع. والغريب أنه عندما انتشرت الأخبار الجيدة، لم تتملكني أية مشاعر. فأيّ مشاعر يمكن أن تتملكني؟ إنه عمل وحسب. أما الفائدة الرئيسية التي جنيتها منه فهي أنه أصبح بوسعي تسديد إيجار شقّة الآن.

إلا أن الحصول على تلك الشقّة يعني أنني سأفقد فرصة الذهاب

إلى الغاردنز، والغاردنز هي المكان الذي يلعب فيه ابني كلّ يوم، حتى لو كان الاقتراب منه مستحيلاً. كما بدأت أحبّ السيّد يو لنو فنو الذي حاول برقّته ولطفه أن يحيطني بالاهتمام بعد أن فقدت حبّ سوشيترا. وسألني عن اليوم الذي ولدت فيه، واليوم الذي ولدت فيه سوشيترا أيضاً. لم أكن أعرف ذلك، لكن هناك مواقع أخرى على الإنترنت تستطيع أن تذكر فيها تاريخ ميلادك فيخبرك ما هو اليوم الذي ولدت فيه. وهكذا اكتشفت أنني ولدت يوم الأحد وولدت سوشيترا يوم الأربعاء. وعندما أعلمت السيّد يو لنو فنو بذلك، فرقع لسانه وهزّ رأسه، وقال: «أترى، أترى، يُعرف ذلك في ميانمار بأنها تركيبة سيئة الحظ». السبت والخميس، الجمعة والإثنين، الأحد والأربعاء، مساء الأربعاء والثلاثاء: هي الأزواج المعقدة، ثم قال: «لذلك، من الأفضل أن تجد شخصاً يكمّل يومه يومك. بالنسبة إليك يا بني، بما أنك ولدت يوم الأحد، فجميع الأيام متوافقة معك، ما عدا يوم الأربعاء! لماذا تختار اليوم الذي يوجد فيه نحس لك؟ كيف يمكنك أن تكفل حياة سعيدة». وعلى نحو غريب، منحتني هذه المعلومة الخرافية السائدة في العالم شعوراً بالارتياح. لكن في تلك الأيام، عندما فقدت حبيبتي وابني، كنت أغرق، وكنت أريد أن أتمسّك بقشة.

ينجح عملك عندما تواجه صعوبات في حياتك. هل هذه قاعدة؟ الوحدة وتحطم القلب: هذان هما اسما بوابة جنة عدن؟

* * *

تجاوزت قصّتي الآن فيلمي وأصبحت الانعطافات حادّة. ففي الفيلم، يأتي مفتش الشرطة الهندي المتقاعد لزيارة العجوز الوغد بنيّة أن يقتله، وفي الواقع، فإنه يستلّ مسدسه ويقتله، ثمّ يُقتل بالمسدّس الذي يقبع في محفظة زوجة العجوز الروسية.

في ما يجب أن أدعوه حياة حقيقية، فقد قُتل السيّد ماستان بعد أربع وعشرين ساعة من مغادرته البيت الكائن في شارع ماكدوغال، فقد دفعه أحدهم من فوق رصيف قطار المترو إلى سكة القطار عندما كان في طريقه إلى محطة "Penn" ليعود إلى بيت أخته في فيلادلفيا. وكان المهاجم امرأة من حي كوينز في الثلاثين من عمرها من جنوب آسيا، وقد ألقي القبض عليها فوراً ووجهت إليها تهمة ارتكاب جريمة قتل من الدرجة الثانية. وعندما قُبض عليها قالت: «إنه عجوز متطفّل. يتدخّل في المسائل العائلية». وأفاد تقرير مجلة *التايمز* ما يلي: «وصفتها الشرطة بأنها امرأة مضطربة عاطفياً وقالت إنها كانت قد اختلقت قصّة منذ شهر بأنها دفعت شخصاً إلى مسار السكة». وسرعان ما تبيّن أن إفادتها السابقة لم تكن سوى كذبة. لكنها نفذت ذلك فعلاً الآن. وعلى الرغم من إفادتها، فلم يُعثر على علاقة تربط بينها وبين الرجل المتوفى، وخلص ضبّاط التحرّي إلى أنه ليس لها أي علاقة به. امرأة مضطربة عاطفيّاً دفعت رجلاً إلى حتفه، وبدا أنه لم تكن هناك حاجة إلى إجراء مزيد من التحقيقات.

حتى حياتي القصيرة تلك بدأت تبدو لي أقل فهماً مع مرور الأيام. لم أفهم شيئاً. لقد أصبحت ما كنت آمل أن أكونه دائماً لكن من دون حبّ، كان كلّ شيء رماد. وكان يخطر ببالي كلّ يوم أن أتصل بسوشيترا التي كانت تتواجد على الإنستغرام تخبر العالم كلّه عن ارتباطها بعلاقة جديدة وكان ذلك أشبه بسكاكين تُغرز في قلبي. وكانت جريمتي، ابني الوحيد، تقبع خارج نافذتي، وهو يكبر أمام عينيّ، يتعلّم نطق بعض الكلمات، تنمو شخصيته، بينما أقف عاجزاً عن أن أكون جزءاً منه. فقد هددتني فاسيليسا بأنني إذا اقتربت من الطفل لمسافة خمسة عشر قدماً فإنها ستلجأ إلى المحكمة لتصدر حكماً يمنعني من فعل ذلك. فبقيت معلّقاً عند نافذة معلّمي البورمي،

أحدّق بتعاسة في لحمي ودمي المحرّم وهو يقترب من عيد ميلاده الثالث. ربما كان من الأفضل لي أن أغادر الغاردنز وأبدأ حياة جديدة في مكان آخر، مثل غرينبوينت أو مدغشقر أو سيتشوان أو نيزني نوفغورود أو تيمبكتو. وحلمتُ أحياناً بأن جلدي قد سُلخ عن جسمي وأمشي عارياً من دون جلد في أزقة مدينة غير معروفة لا تعير أي اهتمام لأحلامي. حلمتُ أنني أصعد درجاً في منزل مألوف، وفجأة أدركت أنه يوجد في الغرفة التي سأدخلها في أعلى الدرج رجل ينتظرني يحمل بيده أنشوطة يريد أن يشنقني بها وأن حياتي ستنتهي. حدث ذلك بعد أكثر من عشر سنوات على نجاحي، عندما بدأت تنهال عليَّ عروض سخية كي أخرج أفلام فيديو هيب - هوب وإعلانات سيارات تجارية وحلقات من البرنامج التلفزيوني «ستّون دقيقة»، بل حتى أن أُخرج فيلماً طويلاً آخر. لم يكن أي من هذا يبدو معقولاً. لقد فقدت كياني وها أنا أجلس في علبة الصفيح أدور في الفراغ.

هل تستطيع أن تسمعني. هل تستطيع أن تسمعني. هل تستطيع أن تسمعني.

كانت ريا - ريا التي وجّهت إليّ ضربة قاسية جداً فراحت أذناي تطنان لأيام عديدة - هي التي ساعدتني على أن أخطو خطواتي غير الثابتة الأولى إلى سن الرشد العملي. فبدأنا نلتقي مرة في الأسبوع، ودائماً في المطعم-البار نفسه الذي يقع في شارع بويري بالقرب من متحف الهوية، وكانت تحدّثني عن قرارها بالعودة إلى عملها الذي ظلّ رئيسها أورلندو وولف محتفظاً به لها. ووصفتها بأنها علاقة مات فيها الحبّ لكن لا تزال هناك أرضية مشتركة تستحق أن تعمل عليها. وربما، ببذل قدر من الجهد الجيد يمكن أن يولد شيء أشبه بالحبّ من جديد.

وبهذه الطريقة أيضاً أوصتني بأن أعالج حبّي المحطم. وقالت إنني يجب أن أمنح سوشيترا وقتاً. دعها تنهي ما تفعله الآن، كلّ هؤلاء الرجال الوقحين من الدرجة الثانية. هذا ما يشحنها بالغضب. امنحها وقتاً وأظن أنها ستعود إليك لترى ما يمكن عمله.

وجدت أنه يصعب تصديق ذلك، لكنّه جعل نفسيتي أفضل. فقد كنت أحبّ أن أرى ريا تعود كما كانت أيضاً. ويبدو أن نتيجة الانتخابات بثّت فيها النشاط والحيوية، وأعادت إليها معظم قوّة روحها القديمة وحدّة التفكير. وابتعدت عن السياسات المتعلقة بالجنوسة لأنها، كما قالت، كانت لا تزال «محطّمة» في هذا الأمر، لكنها عملت في مجالات جديدة مثل تأريخ تصاعد «حركة الهوية» اليمينية المتطرفة الجديدة، ووصول حركة إلترا الأوروبية إلى أمريكا التي نشأت من الحركة الشبابية الفرنسية، (Nouvelle Droite Génération Identitaire)، وإقامة مهرجانات حول الهوية العرقية والوطنية، سلسلة أطلقت عليها اسم *أزمة هوية*، تتناول بصورة عامة المسائل العرقية والدينية، لكنها تركّز، قبل كل شيء، على الانشقاق الذي أمسك برقاب أمريكا بعد انتصار الثرثرة النرجسية الكرتونية، أمريكا ممزّقة ومقسمة إلى نصفين، الأسطورة بأنها مدينة استثنائية تقبع فوق هضبة تجري فيها مجارير التعصب العرقي وادعاءات التعالي والتفوق، أقنعة الأمريكين التي نُزعت لتكشف تحتها عن وجوه الجوكر. ستون مليون. ستون مليون. وتسعون مليون شخص آخر لم يكترثوا للتوجه إلى صناديق الاقتراع.

لقد أرسل لنا الفرنسيون ذات يوم التمثال المنتصب في الميناء، قالت، وها هم يرسلون لنا هذا الآن.

أصبحت الهوية الصرخة الفاشية الجديدة في وقتنا الحاضر فاضطر المتحف إلى إحداث تغيير ونصّبت ريا نفسها حاملة لواء هذا

التغيير. فقد قالت لقد أصبحنا كسالى. وأقنعنا أنفسنا طوال ثماني سنوات بأن أمريكا البالغة، المتسامحة، التقدّمية، التي يجسّدها الرئيس هي أمريكا التي أصبحت الآن، وستظل كذلك. وأن أمريكا لا تزال موجودة، بيد أن الجانب المظلم فيها لا يزال موجوداً أيضاً، الجانب الذي خرج من قمقمه وهو يجأر ثم ابتلعنا. لم تكن هوية أمريكا السرية بطلاً خارقاً. بل تبيّن أنها شريرة خارقة. إننا في كون بيزارو وعلينا أن نتعامل مع بيزارو - أمريكا لنفهم طبيعتها ونتعلّم كيف ندمّرها كلها مرة أخرى. علينا أن نتعلّم كيف نخدع السيّد مززتبلك لنلفظ اسمه بشكل عكسي ليختفي ويعود إلى البعد الخامس ويصبح العالم عقلانياً مرة أخرى. وعلينا أن نتعامل مع أنفسنا وأن نفهم كيف أصبحنا ضعفاء ومتبلدي الأحاسيس، وكيف نجهّز أنفسنا من جديد ونغوص في غمار المعركة ثانية. من نحن الآن؟ أي منيك يعرف.

حسناً، حسناً، قلت لنفسي، وقد نفد صبري (من الداخل فقط) من تبجحها. جيد. أنا سعيد لأنك عدتِ إلى عملك، ولأنك تفعلين ذلك، كلّ ذلك، تابعي. كان كلّ ما أردت أن أفعله هو أن أسدّ أذنيَّ بأصابعي وأصيح لا، لا، لا، لا. كلّ ما أردته هو أن يتوقف بث الأخبار على التلفزيون، وأن تنهار الإنترنت إلى الأبد، وأن يكون أصدقائي أصدقائي، وأتناول وجبات عشاء لذيذة، وأحضر حفلات موسيقية وأستمع إلى موسيقى جميلة، وأن يسود الحبّ الجميع، وأن تعود سوشيترا بشكل ما، بسحر ما، إليّ.

وفي إحدى الليالي، عندما كنت وحيداً في سرير ألمي تذكّرت ما قاله لي نيرو غولدن بعد وفاة والديَّ. حصّل الحكمة. تعلّم كيف تكون رجلاً.

وفي عصر اليوم التالي ذهبتُ إلى قسم التحرير حيث رأيت

سوشيترا منكبّة على عملها. عندما رأتني، تشنجت. أنا مشغولة جداً، قالت. سأنتظر، قلت. سأعمل حتى ساعة متأخّرة، قالت. هل تمانعين إذا انتظرت، سألتها. فكّرت في الأمر. يمكنك أن تنتظر إذا أردت، قالت. سأنتظر إذاً، قلت. استدارت ولم تنظر إليّ ثانية طوال خمس ساعات وثلاث وأربعين دقيقة، وقفت خلالها ساكناً بلا حركة صامتاً في الزاوية ولم أقاطعها. وعندما بدأت أخيراً تنهي عملها لهذا اليوم، كانت الساعة قد أصبحت الحادية عشرة إلا ربعاً. فأدارت كرسيها لتواجهني.

لقد صبرتَ طويلاً في انتظارك، قالت، بطريقة لم تعجبني، لا بد أن لديك أمراً مهماً.

أحبّك، قلت لها، ورأيت حواجزها الدفاعية ترتفع. لم تردّ عليّ بكلمة. أطفأت شاشة الكمبيوتر وظهر صندوق حوار يعلمها أن أحد برامجها المفتوحة قد ألغى عملية الإغلاق. فأطلقت تنهيدة تشي بغضب متعب وتركت البرنامج وأكملت عملية الإغلاق. هذه المرة نجحت.

تتلقى الكائنات البشرية أحياناً وهي في النزع الأخير من - بحسب عقيدتك - إمّا قوة داخلية أو قوة عليا، موهبة اللسان، الكلمات المناسبة لتقولها في الوقت المناسب، اللغة التي ستفتح قلباً مكدوماً وحذراً وتشفيه. وهكذا كانت في تلك الساعة المتأخرة في وسط شاشات الكمبيوتر السوداء. لا اللغة فقط، وإنما العري الكامن وراء الكلمات أيضاً. ووراء عري الموسيقى. الكلمات الأولى التي سقطت من شفتي لم تكن كلماتي أنا. والشيء الذي جعلها تؤثر هو أنّني حاولت، أنا الذي لم أستطع قط أن أحفظ لحناً، أن أغني، بنشاز في البداية، ثم راحت الدموع تسيل على وجهي من تلقاء نفسها: «طير على السلك»، أقسم وفاء خيانتي بكلمات الأغنية

وأعدها بأن أصلح الأمر بيننا. وقبل أن أنهي كلامي، راحت تضحك عليّ ثم بدأنا نضحك معاً، نبكي ونضحك، سيكون الأمر على ما يرام، سيكون على ما يرام. كنا ثملين في صوتينا المتهدجين في جوقة واحدة في منتصف الليل، وحاولنا بطريقتنا أن نكون أحراراً.

بعد ذلك، عندما كنّا في السرير معاً، أضفت أفكاراً منثورة إلى سحر الأغنية. كان قد مضى أكثر من سنة على احتلال الجوكر لأمريكا وكنا لا نزال جميعاً نعيش في هول الصدمة، ونمرّ في مراحل الحزن لكننا أصبحنا الآن بحاجة إلى أن نتحد وأن نضع الحبّ والجمال والتضامن والصداقة ضد القوى الشريرة التي تواجهنا. الإنسانية هي الرد الوحيد على هذا الكاريكاتير. لم تكن عندي خطة سوى الحبّ. كنت أرجو أن تظهر خطة أخرى مع الزمن، أما الآن فليس أمامنا إلّا أن يضم أحدنا الآخر بقوة، وأن ينقل أحدنا قوته إلى الآخر، جسداً لجسد، فماً لفم، روحاً لروح، أنا لك. لم يكن هناك سوى مسك الأيدي ورويداً رويداً بدأنا نتعلّم ألّا نخاف من الظلام.

اسكت، قالت، وشدّتني إليها.

* * *

يوما ميلادنا الأربعاء والأحد، قلت لها. معلوماتي من ميانمار أننا منحوسان بسبب تشكيلة هذين اليومين.

سأفضي لك سرّاً، قالت. لا يُسمح لجالبي النحس البورميين بالدخول إلى الولايات المتّحدة. هناك قائمة بالبلدان التي تجلب النحس التي لا يُسمح لرعاياها بالدخول. وبالطبع فإن معظمها بلدان إسلامية، واسم ميانمار مدرج في القائمة أيضاً.

إذاً ما دمنا نعيش في الولايات المتّحدة فإننا في أمان؟

يجب أن نفكّر في شيء لقضاء عطلة في الخارج، قالت.

(٣٥)

تلعق النار حافات قصّتي التي أوشكت على نهايتها، والنار مستعرة وحارة، وسيأتي يومها.

كان بيت غولدن في الشهور الماضية تلك أشبه بقلعة محاصرة. ولم تكن القوات التي تحاصره مرئية لكن لم يكن جميع من في البيت يشعر بها: الملائكة أو الشياطين غير المرئية المنذرة بالموت. وواحداً تلو الآخر، بدأ العاملون في البيت يغادرون.

قد يكون الفيلم الذي يتردد صداه هنا هو الفيلم الرائع للمخرج العظيم لويس بونيل. وعنوانه الأصلي، «*المنبوذون من شارع العناية الإلهية*». إنه ليس فيلماً دينياً صريحاً - فليس من الضرورة أن تكون عبارة «*العناية الإلهية*» دينية، بل قد لا تكون أكثر من مجرد استعارة، مثل زميلاتها: *كارما*، *قِسمة*، *قدر* - لذلك قد لا تكون الشخصيات التي يلقي بها القدر أكثر من يانصيب سيّئ الحظ خاسر في الحياة - لكن ما إن عُرض الفيلم على شاشات السينما باسم «*الملاك القاتل*» حتى فسّر بونيل معناها بما لا يتطرق إليه الشكّ. عندما شاهدت الفيلم لأول مرة في صالة عرض مركز IFC، ربما كنت صغيراً لا أقدر على فهمه. إذ تقام حفلة كبيرة في بيت فخم، وبينما تجري أحداث الفيلم، يجد جميع العاملين في البيت ذرائع واهية ويتركون أعمالهم وواجباتهم ويغادرون البيت، ولم يبق أحد سوى كبير الخدم

والمدعووين لمواجهة ما سيحدث. كنت قد فهمت ذلك بأنها كوميديا اجتماعية سريالية. كان ذلك قبل أن أعرف أن هناك أشخاصاً يمكنهم أن يحدسوا بوقوع كارثة وشيكة، كما تتوقّع الماشية حدوث زلازل، والحفظ الذاتي هو الذي يفسّر سلوكها الذي قد يبدو غير عقلاني.

لم يكن هناك احتفال أو وليمة في بيت غولدن ولم يغادر العاملون في البيت عملهم في يوم واحد. فالحياة الحقيقية لا تقلّد الفنّ بمثل هذا الاستسلام. لكن شيئاً فشيئاً، وعلى مدى أسابيع، ولذعر سيّدة البيت المتزايد، بدأ العاملون في خدمة البيت يغادرون. وكان الحرفي غونزالو أول من ترك عمله. فلم يأت إلى العمل يوم الإثنين، ثم لم يره أحد بعد ذلك. ففي بيت كبير تحدث فيه دائماً أعطال يجب إصلاحها: مرحاض مسدود، ثريا احترقت مصابيحها، باب أو نافذة بحاجة إلى تثبيت. وأثار اختفاء غونزالو المفاجئ امتعاض فاسيليسا وجعلها تردد بضع ملاحظات عن عدم إمكانية الاعتماد على المكسيكيين. وكان بمقدرة ماكنالي، كبير الخدم، التعامل مع معظم الأعطال الصغيرة المختلفة التي كان يؤديها غونزالو، وكان يعرف بمن يتصل لإصلاح الأعطال التي لا يستطيع أن يصلحها بنفسه، فلم يسبّب غيابه أيّ مضايقة كبيرة لسيّد البيت أو سيّدته. لكن مغادرة الآخرين عملهم عرقل الكثير من أعمال البيت اليومية. وكانت فاسيليسا تعامل الخادمات بقسوة، وتدفعهن إلى البكاء في أحيان كثيرة بسبب انتقاداتها القاسية على العمل الذي يقمن به والذي لا يتوقف، ولم يتوقف تغيير عاملات التنظيف وترتيب الأسرّة، لذلك لم يكن مفاجئاً أن آخر شابة آيرلندية من بوسطن هربت من البيت وهي تقول لا، فلم تعد تريد زيادة على الأجر الذي تتقاضاه، بل إن كلّ ما تريده هو أن تهرب وتفوز بجلدها. وفي المطبخ، طرد غوتشي، كبير الطبّاخين مساعده غيلبيرتو بسبب وباء

السرقات الصغيرة. فعندما بدأت سكاكين المطبخ المرتفعة الثمن تختفي، واجه غوتشي مساعده الشاب الأرجنتيني الذي أنكر كلّ ما اتُّهم به وغادر. لا يمكنك أن تترك العمل، صرخ غوتشي وراءه، فأنا الذي سيطردك. وحاول ماكنالي أن يملأ الفجوات بطلب مساعدة مؤقتة من شركات توفر العمال والطلب من زملائه المحترفين في بيوت كبيرة أخرى إعارته بعض المساعدين إذا توفر فائض منهم، لذلك لم يعد العمل في البيت مستقراً. لكن الجرذان ظلت تغادر السفينة.

* * *

كان جزء منّي معجباً على مضض بقدرة فاسيليسا على التحكم بالضرر الذي حصل بسرعة وبكفاءة في الأيام التي أعقبت إفشائي بالسر في غرفة الجلوس في بيتها. فقد شعر نيرو غولدن بالمهانة علناً، ولم يكن ذلك النوع من الرجال الذين يقبلون الإهانة بسهولة. ولم تنقذ فاسيليسا زواجها فقط، وإنما أقنعت نيرو أيضاً بأن يستمر بالاعتراف بفيسبا الصغير أنه ابنه ووريثه. وقلت في نفسي إنها تحركات ناجحة وضعتها في مصاف النساء المهمّات في عالم التصميم. فقد كانت تعرف كيف تتمسّك برجلها.

لم يكن من شأني أن أفكّر في ما قد يحدث أو لا يحدث بينهما خلف باب غرفة النوم. وسأتجنب هذه الشهوانية، المغوية لكي أتصوّر فاسيليسا وهي منهمكة في عملها ذاك. أوقات يائسة، تدابير يائسة، لكن مع عدم توفر شريط جنسي لديّ لا يمكن قول أشياء أخرى. ولقول الصدق ليس من الواضح أنها تستخدم غرفة النوم كقاعدة في دفاعها. ويمكن القول إنها استغلت تدهور نيرو العقلي، فهو رجل عجوز وقد اشتد عليه المرض، وبدأت ذاكرته تزداد سوءاً، وأصبح عقله يبدو ضعيفاً الآن، ولم يعد يتذكّر إلّا لمحات قصيرة من فيض الأحداث الهائل في الماضي. وأخذت فاسيليسا على عاتقها

واجب رعايته، فطردت الممرضات اللاتي كن يأتين لرعايته في أثناء النهار والليل ويحملن عنها عبء ذلك. وهكذا، غادر عاملون آخرون البيت، وبدأت فاسيليسا تقدم له الرعاية من دون أي تذمّر، وأصبحت الآن المسؤولة الوحيدة لتقدم له الدواء. وأبعدت فاس وبلاذر أكثر وأكثر، ولم تعد تسمح لهما بالتواجد مع سيّدهما حتى جاء ذلك اليوم الذي قالت لهما فيه فاسيليسا بحلاوة شرسة: أعرف كلّ ما يحتاج إليه، لذلك سأساعده بنفسي، وشكراً لكما على خدماتكما ولنناقش مبلغ تعويض نهاية خدمتكما. وبدأ صدى البيت الكبير يتردد بهذا الغياب. كانت فاسيليسا تلعب كلّ أوراقها الرابحة.

أما فيسبا الصغير فكان ورقة الآس الرابحة. فلم يكن ابني يكبر ليصبح أكثر أقرانه سحراً وجاذبية وهو يقترب من عيد ميلاده الرابع فقط، وإنما كان أيضاً في عينيّ نيرو الحليبيتين، الناجي الوحيد من الكارثة. فالرجل الذي فقد ثلاثة أبناء لن يتخلّى بسهولة عن طفله الرابع، ومع تسارع تدهور صحة نيرو وضعف ذاكرته، عندما كان الطفل يجلس على ركبتيه ويقول له بابا، كان الرجل العجوز ينسى بسهولة التفاصيل ويتشبث بطفله الحيّ الوحيد بقوة كما لو كان تجسيداً لإخوته الذين ماتوا بالإضافة إلى كونه هو نفسه، كما لو كان صندوقاً من الكنز يحتوي على كلّ ما فقده أبوه.

من بقي؟ الأمّ التي تغطي رأسها بوشاح التي قد تكون من سنتراك كاستينغ بسيبيريا أو لا تكون. وماكنالي، كبير الخدم، وغوتشي، كبير الطبّاخين. وكانت شركات تنظيف محترفة ترسل فرقاً لتنظيف البيت تتقاضى خمسمئة دولار لقاء كلّ زيارة. ولم يعد يأتي إلى البيت زوّار، ولم يعد يظهر نيرو، ولم يعد يراه أحد من جيرانه. وبدأت أؤمن بنظرية فيتو تاغليابو. لا بدّ أنها تعرف أنه لن يعيش طويلاً. ولو كانت تعبث بأدويته، فكلما قلّ عدد العيون التي قد تراها كان أفضل. لا بدّ

أنها كانت تعرف أن حالته الصحية هذه لن تستمر طويلاً. ما الذي يقوله لها أطباؤه؟ هل يعاني من حالة صحية مميتة لم يُعلن عنها على الملأ؟ أم أن فاسيليسا نفسها تعيش في تلك الحالة. أراها في عين عقلي وهي تسجد كلّ يوم في غرفة الجلوس، «الغرفة العظيمة»، كما كانت تطلق عليها، أمام أيقونة القيصرة فيودوروفسكايا ألكساندرا رومانوفا أمّ الرب، تصلّي لها. ليكن هو اليوم. فليأتِ الآن.

بابا ياغا، اقتلي زوجك، لكن أرجوك لا تأكلي طفلي.

بدأ كبير الطبّاخين وكبير الخدم يتشاجران، وكان «كوكي» هو الذي تصدّع. وكان كبير الطبّاخين كثير التذمر والشكوى في طبعه، سيّد الأنين، يُبخس حقه دائماً ويُساء فهمه، يتوق لإقامة مآدب يحضّرها بطريقته الخاصة التي يحبها التي تعلّمها من عمل كبار الطهاة، أدريا وريدزيبي، الطعام بمثابة أداء فني، الأطباق تموج في بحار من الرغوة، وعلى قطع الخبز المحمص نمل أسود، لا يزال حيّاً، خُبز في شرائح من لحم أبقار *واغيو* النادرة. لكن بدلاً من ذلك، كان يُطلب منه أن يحضر الطعام لفيسبا الصغير، بيرغر ومزيد من البيرغر، وطعام أرنب نباتي لفاسيليسا. أما نيرو غولدن فلم يكن يأبه لما يتناوله ما دام طعامه يحتوي على كميات كبيرة من اللحم. وكانت شكاوى غوتشي تقع على آذان صمّاء، وفي كلّ أسبوع تقريباً، كان يهدّد بأن يترك العمل لكنه كان يضطر للبقاء من أجل النقود. والآن، في البيت الذي قلّ العاملون فيه، أُنهكت الأمزجة، وطلب ماكنالي أخيراً من خبير الطعام المنتظر أن يخرس وأن يطبخ في صمت. فخلع كبير الطبّاخين قبعته ومئزره الأبيضين ولوّح بساطور اللحم باتجاه كبير الخدم. وبخبطة قوية غرز نصل الساطور في اللوح الخشبي الذي يستعمل لتقطيع اللحم، وتركه هناك مثل إكسكالبور في الحجارة، وخرج محتدماً من البيت.

بدأ نيرو يشعر بالنعاس وشرود الذهن (هذا الوصف نسخة من الشهادة التي أدلى بها لاحقاً مايكل ماكنالي للشرطة). ولم يكن يغادر غرفته في معظم الأوقات، نصف نائم، لكنه كان يُرى أحياناً وهو يتجوّل في الطابق السفلي مثل شخص مسرنم. لكنه كان ينطلق إلى الحياة فجأة وبشكل صادم. ففي إحدى المرات، أمسك ماكنالي من كتفيه وصاح في وجهه، ألا تعرف من أنا، أيها الطيز؟ لقد شيّدتُ مدناً، وغزوت ممالك. أنا واحد من حكّام العالم. لم أعرف مع أي شخص كان يتخيّل أنّه يتحدّث، قال ماكنالي. لم أكن أنا من كان يتخيّله. كان ينظر إلى عينيّ لكن الله أعلم من كان يرى. لعله كان يرى نفسه في تلك الأيام مثل الإمبراطور الذي يحمل اسمه. ربما كان يظنّ أنه في روما. لا أعرف صدقاً، اعترف ماكنالي. فأنا لا أملك ذلك المستوى من التعليم.

لقد سُمّم، اتصل بي فيتو تاغليابوو ليقول. لا يوجد سؤال يدور في رأسي.

قبل يومين من اندلاع الحريق، حدث شيء غريب. فقد أفاق بيت غولدن على رؤية كيس ضخم من الخيش مليئ بغسيل وسخ تُرك على عتبة باب البيت من جهة شارع ماكدوغال. ولم تكن هناك أي رسالة. وعندما فُتح الكيس تبيّن أنه كان مليئاً بما وصفه ماكنالي بملابس أجنبية. هل يمكن أن يكون أكثر تحديداً؟ ومن محاولاته لوصفها فهمت أنها كانت ثياباً هندية. كورتا، بيجاما، ليهانغا، فيشتي، بلوزات ساري، تنانير داخلية. لم تكن هناك تعليمات وكان المرسل مجهولاً. انزعجت فاسيليسا من هذا الخطأ، وأمرت بأن تترك الأكياس في حاوية القمامة. ولم تكن هناك حاجة إلى إبلاغ سيّد البيت بذلك. فالبيت ليس مغسلة. لا بد أن شخصاً أجنبياً جاهلاً ارتكب خطأً أجنبياً جاهلاً.

* * *

كان عمال الطرق يحفرون في الشارع. حفريات لتحسين البنية التحتية في الحيّ. وعندما أرسلت فاسيليسا ماكنالي ليسأل إلى متى ستستمر تلك الحفريات، قيل له ثلاثة أشهر، ربما، وهذا يعني أنها قد تستمر ستّة، أو تسعة أو اثني عشر شهراً. كان ذلك يعني أن العمّال سيظلون لفترة طويلة. كانت أعمال البناء شكلاً فنياً جديداً فظاً في المدينة، ينصبون معداتهم وآلاتهم في كل مكان. فقد أُسقطت عمارات مرتفعة وأقيم مكانها مواقع بناء. ورفعت أنابيب وكابلات واختفت في أعماق الأرض. وقُطعت الهواتف الأرضية وعُلِّقت خدمات إمدادات المياه والكهرباء والغاز بشكل عشوائي. كانت أعمال البناء فنّاً لتدرك المدينة أنها كائن حيّ هشّ يقع تحت رحمة قوى لا تعرف الرحمة. أعمال البناء تُلقّن العاصمة الهائلة دروساً بالضعف والعجز. وعمال البناء هم عظماء الفنانين التصوريين في زماننا ومعداتهم وفتحاتهم الأرضية المتوحشة لا تلهم الكراهية فقط - لأن معظم الناس لا يحبون الفنّ الحديث - وإنما يقفون أمامه بوجل أيضاً. القبعات الصلبة، السترات البرتقالية، الأرداف، الصافرات، القوّة. حقاً، فها هي الطليعة تعمل.

توقف موقف السيارات وملأ هدير الحفارات الهواء، أصوات ثاقبة، نشاز، ذلك النوع من الإيقاع الحضري الذي كان والت ويتمان يحبّه، يدفعه العرق الذي يسيل من جباه رجال ذوي أجسام ضخمة غير مبالين.

من العتبة الخرسانية أتتبع حركاتهم،
خصورهم اللدنة تلعب بالتساوي مع أذرعهم الضخمة،
المطارق تتأرجح إلى الأعلى، الأيدي ترتفع ببطء، بثقة تامة،
ليسوا في عجلة من أمرهم، كلّ رجل يحفر في مكانه.

واستمرّت الحال كذلك طوال يومين بعد حادثة كيس الغسيل.

ثمّ وقع الانفجار.

شيء له علاقة بأنابيب الغاز الرئيسية. فقد ألقت كلّ دائرة اللوم على الدائرة الأخرى على ما حدث. فلم يُنفّذ فحص السلامة. إنه خطأ بشري، تسرّب، شرارة، بوووم. أو ربما كان صاحب بيت يمدّد أنابيب تحت الأرض بصورة غير قانونية، تسرّب، شرارة. جريمة محتملة، خطّ غاز غير قانوني أُخفي عن عيون مفتشي شركة كون إديسون، احتمالية توجيه اتهام بجريمة قتل، صاحب البيت لا يردّ على المكالمات وهو غير موجود في عنوانه المسجّل. من أشعل الشرارة؟ مجهول. ستجري تحقيقات وسيصدر تقرير في حينه. استُبعدت احتمالية حدوث عمل إرهابي على الفور. لم يصب أحد من العمّال بأذى، الحمد لله. هشّم الانفجار زجاج النوافذ واهتزّت الجدران، وانطلقت كرة نارية، واشتعل بيت واحد فقط، يملكه السيّد نيرو غولدن، بالنيران. في ذلك الحين كان في البيت أربعة أشخاص بالغين وطفل واحد: صاحب البيت وزوجته وأمّها وابنهما الصغير، ومستخدم، السيّد مايكل ماكنالي. وتبيّن أن صيانة البيت لم تكن جيدة. فلم تجر صيانة جهاز رشّ الماء الداخلي منذ زمن. كان السيّد ماكنالي في المطبخ يسخّن زيت الزيتون في مقلاة، يستعدّ لتحضير الطعام للعائلة. واستناداً إلى إفادته الأولى، حطّم الانفجار نوافذ المطبخ فاختلّ توازنه ووقع على الأرض وأصيب بدوار. يُعتقد أنه فقد وعيه، وعندما أفاق زحف نحو الباب المفضي إلى الغاردنز بين شارعي ماكدوغال وسوليفان، حيث غاب عن الوعي مرة أخرى. وعندما استعاد وعيه كان المطبخ يحترق وكانت ألسنة النار تنسكب من المقلاة المحترقة وامتدت بسرعة وانتشرت في الطابق الأول. كان سكّان البيت الآخرون لا يزالون في الطابق العلوي، لا توجد لديهم

وسيلة للخروج. ووصلت سيارات الإطفاء بسرعتها المعهودة. ووجد الإطفائيون صعوبة في الوصول إلى مكان الحريق بسبب الحفريات الكثيرة، لكنهم تمكّنوا من احتواء النيران بسرعة، لأنها كانت محصورة ببيت واحد، ولم تصب البيوت الأخرى في الحيّ بأي ضرر.

في عصر الهواتف الذكية، كان من الطبيعي أن تُلتقط صور وأفلام فيديو عديدة. قُدم العديد منها إلى قسم شرطة نيويورك لدراستها بدقة بهدف العثور على أي دليل.

لكن في ذلك اليوم، حاصرت النيران بعض الأشخاص في بيت غولدن. لقد وقعت المأساة الكبيرة، وانتهت بثلاث مآس ومعجزة واحدة.

وأفادت تقارير غير مؤكّدة أن بعض الأشخاص كانوا قد سمعوا صوت شخص في الطابق العلوي في البيت يعزف على آلة الكمان.

* * *

أتصوّر ألسنة اللهب وهي تتصاعد في السماء حتى بدا وكأنها تلعقها، نار جهنم كأنها شيء يخرج من لوحة هيرونيموس بوش، ويصعب التمسك بهذا الاعتقاد الذي كرّست نفسي له، ويصعب ألّا أشعر بحرارة اليأس. وبدا لي أن النيران تحرق العالم الذي أعرفه عن بكرة أبيه، وتلتهم في لهبها البرتقالي كلّ شيء كنت أهتم به ودافعت عنه وكافحت من أجله وأحببته. وبدا لي أن الحضارة نفسها تحترق في النار، آمالي، آمال النساء، آمالنا من أجل كوكبنا، ومن أجل السلام. تذكّرت جميع المفكّرين الذين أُحرقوا على الملأ، جميع الذين عارضوا قوى التعصب في زمانهم، وأحسست بنفسي وبجميع الأشخاص مثلي المحرومين من كلّ حقوقهم المقيدين بسلاسل قوية تحيط بنا الحرائق الفظيعة من كل جانب، الغرب نفسه

يحترق، روما تحترق، ولم يعد البرابرة يقفون عند البوابة بل أصبحوا في الداخل، برابرتنا نحن، الذين ربّيناهم بأنفسنا، ودلّلناهم ومجّدناهم نحن، ومكّناهم نحن من أنفسنا، كما فعلنا بأطفالنا الذين نهضوا مثل أطفال متوحشين ليحرقوا العالم الذي صنعهم، بزعم أنهم ينقذونه حتى وهم يضرمون النار فيه. إنها نار موتنا وستستغرق إعادة بناء ما حُطّم نصف قرن أو أكثر.

نعم، أنا أعاني من الغلو. الحالة التي طالما عانيت منها والتي أحتاج إلى رعاية صحية للشفاء منها، لكن، في بعض الأحيان يُلاحق شخص مصاب بجنون الشك، وفي بعض الأحيان يصبح العالم متوتراً أكثر، مغالياً أكثر، متوحشاً أكثر مما يحلم به أي حالم شيطاني، مهما بلغ من التوحش.

وهكذا رأيت ألسنة النيران المظلمة، نيران الجحيم السوداء، تلعق فضاء طفولتي المقدّس، المكان الوحيد في العالم كله الذي كنت أشعر فيه بالأمان دائماً، كنت أشعر بالراحة فيه دائماً، لا أشعر بأن أحداً يهددني، الغاردنز الساحرة، وتعلّمت الدرس النهائي، التعليم الذي يفصلنا عن البراءة، بأنه لا يوجد مكان آمن، وأن الوحش يتربص بنا دائماً عند الأبواب، وأن شيئاً من الوحش يقبع في داخلنا أيضاً، فنحن الوحوش التي كنا نخشاها دائماً، ومهما كان الجمال الذي يلفنا، مهما كنّا محظوظين في الحياة أو في المال أو في العائلة أو في الموهبة أو في الحبّ، ففي نهاية الطريق، ستشتعل النار، وستلتهمنا كلنا.

* * *

في فيلم ملاك *الإبادة*، وجد الأشخاص الذين كانوا يحتفلون بصخب في حفلة في المكسيك أنفسهم محاصرين في صالون قصر

مضيفهم السنيور إدموندو نوبيلي بواسطة قوة خفية. لقد أتاحت السريالية لأتباعها بمراوغات وغرابة الشعر. فقد كانت الحياة الحقيقية في الغاردنز عادية أكثر بكثير. كان نيرو، وفاسيليسا وأمّها وابني، كلّهم حبيسين في بيت غولدن بحكم العادات والتقاليد القاتلة، الواقعية المهلكة للحريق.

* * *

لو كانت الحياة فيلماً لكنت قد سمعت بالحريق، وهُرعت نحوه بسرعة كبيرة مثل بطل خارق، ودفعت جانباً الأيدي التي كانت ستمسك بي وأغوص في عمق ألسنة اللهب، ثم أخرج والأعمدة المحترقة تتساقط من حولي وطفلي يرقد بأمان بين ذراعي. لو كانت الحياة فيلماً لدفن رأسه في كتفي وهمهم، بابا، كنت أعرف أنك ستأتي لتنقذني. لو كانت الحياة فيلماً لانتهت بلقطة بزاوية عريضة لحيّ الفيليج ورماد بيت غولدن يحترق في وسط الصورة وأنا أبتعد حاملاً طفلي وأغنية مشهورة تصدح في الموسيقى التصويرية، «صبي *جميل*» يغنيها جون لينون، ربما، ثم تبدأ شارة الأسماء تظهر على الشاشة.

لكن ذلك لم يحدث.

عندما وصلنا أنا وسوشيترا إلى شارع ماكدوغال، كان كلّ شيء قد انتهى. كان مايكل ماكنالي يُعالج في مستشفى ماونت سيناي بيث إسرايل، وسوف يحقق معه محققو شرطة نيويورك الذين سيبرّئونه من مسؤولية الحريق. أما البالغون الآخرون الذين كانوا في البيت فقد لقوا حتفهم جميعاً قبل أن يتمكّن رجال الإطفاء الذين صعدوا على سلّم سيارة الإطفاء من الوصول إليهم، فقد لفّ الدخان بسرعة نيرو وأمّ فاسيليسا، وفقدا وعيهما، ولم يفيقا بعد ذلك. وكانت هناك

لحظة من العاطفة الأوبرالية. فقد ظهرت السيّدة غولدن الجميلة، فاسيليسا، عند إحدى النوافذ في الطابق العلوي تحمل طفلها الذي لا يزيد عمره على أربع سنوات، وأخذت تصرخ «يا الله، أرجوكم أنقذوا ابني». وقبل أن يتمكّن أحد من الوصول إليها ألقت الطفل من النافذة بعيداً عن النيران المشتعلة. وصادف أن إطفائياً يدعى ماريانو «مو» فاسكويز، في التاسعة والثلاثين من العمر، هو اللاعب الذي كان يتلقى الكرات في فريق البيسبول المحليّ في ستاتن آيلند، قد ألقى بنفسه إلى الأمام، وأمسك في الوقت المناسب الطفل المغطى بالسخام، «كما يمسك كرة قدم»، كما قال أمام كاميرات التلفزيون بعد ذلك، وأجرى للصبي تنفساً اصطناعياً فعاد الصبي يتنفّس. «بدأ يسعل قليلاً ثم أخذ يصرخ ويبكي. كان جميلاً. يا لها من معجزة، إنها معجزة، وعرفت الآن أن عيد ميلاد الصبي الرابع غداً. يوجد لهذا الصبي ملاك حارس أحاطه بحمايته. يا له من شيء جميل ورائع وأشكر الله العلي القدير لأنني كنت موجوداً في المكان والوقت المناسبين».

ثم سقطت فاسيليسا إلى الوراء بعيداً عن النافذة وتلاشت معها كلّ آمالها، كلّ طموحاتها، كلّ مخططاتها. ولا يستحق أحد نهاية كهذه مهما كان في الحياة، وبعد لحظات من اختفائها عن البصر، امتدت ألسنة اللهب إلى خارج النافذة المفتوحة، ولم تكن هناك أي إمكانية لإنقاذها. ثم أُخمدت النيران بالطبع، وتفحّمت الأجساد، وما إلى هنالك، ولا حاجة إلى الدخول في تفاصيل ذلك. لذلك يتعين هدم المبنى وبناؤه من جديد. لكن الحريق لم يلحق ضرراً بأيّ بيت آخر.

* * *

وهكذا انتهت قصّة بيت غولدن. فقد خيّل إليهم أنّهم رومانيون، لكن ذلك لم يكن سوى وهم. ولم تكن ألعابهم الرومانية التي لم تنجب أسماؤهم الرومانية سوى ألعاب. فقد اعتبروا أنفسهم ملكاً وأمراءه لكنّهم لم يكونوا قياصرة. لقد صعد قيصر حقاً في أمريكا، وأصبح عهد حكمه سارياً، احذر، أيها القيصر، قلت في نفسي، فالناس يرفعونك إلى الأعلى ويحملون عرشك في الشوارع الممجدة المنتشية ثم ينقلبون عليك ويمزّقون رداءك ويدفعونك إلى الأسفل فوق سيفك. يحيا القيصر. احذر الخامس عشر من آذار/ مارس. يحيا القيصر. احذر مجلس شيوخ وشعب روما. يحيا القيصر. تذكّر نيرو آخر شخص في سلالته وهو يهرب في نهاية الأمر إلى فيللا *فاون* خارج المدينة ويأمر بأن يُحفر له قبر، ثمّ، لم يكن نيرو يمتلك الشجاعة لأن يغرز السيف في جسده، بل أجبر سكرتيره الخاص على القيام بذلك أخيراً. *إبافروديتوس*، قاتل الملك. ذات يوم كان يوجد حقاً قياصرة في العالم، وفي أمريكا الآن نرى تجسيداً جديداً يتربع على العرش. لكن نيرو غولدن لم يكن ملكاً ونهايته لا تشبه نهاية سقوط القيصر. مجرد حريق، مجرد ألسنة لهب عشوائية لا معنى لها. ماذا كان زملاؤه في عالم الجريمة يطلقون عليه في بومباي؟ الغسّال، نعم، *الدوبي*. ها هو الغسيل الوسخ يا دوبي. هيا اغسله. لم يكن ملكاً يجلس على عرش. لم يكن سوى غسّال.

الغسّال.

الغسيل الوسخ عند عتبة الباب. الكيس مليء بالملابس الهندية.

رحتُ أبحث بشكل محموم في وسائل الإعلام عن صور لمشهد الحريق، أفلام فيديو على هواتف الآي فون، كلّ شيء، مهما كان، سواء أكان ذلك لقطات التقطها أشخاص محترفون أم لقطات أخذها

أشخاص هواة عاديون. المتفرجون العاديون الذين يقفون وراء الحواجز التي وضعتها الشرطة. وجوه تلوح من خلف الدخان والماء. لا شيء. لا شيء مرة أخرى. وثمّ شيء.

في إحدى الصور يبدو رجلان من جنوب آسيا يتفرجان على الحريق، أحدهما قزم. يستحيل رؤية قدميّ رفيقه لكنّي خمّنت أنه لا بد أنهما كبيرتان جداً.

يمرّ الزمن. رجال كبار يتضاءلون، رجال صغار يكبرون. هذا الرجل يتقلّص إلى الشيخوخة، هؤلاء الرجال يزداد امتدادهم. يستطيعون أن يمدّوا أذرعهم ويلمسون أماكن وأناساً لم يكن باستطاعتهم الوصول إليهم من قبل. توجد شركات هنا تقدّم مساعدة للشركات هناك، لتيسير الرحلات، لتنفيذ الاستراتيجيات. المهرّجون يصبحون ملوكاً، تيجان قديمة تقبع في البالوعة. الأشياء تتغيّر. هكذا يسير العالم.

* * *

كان هناك إجماع في نشرات الأخبار التي بُثت في اليوم التالي. فقد اتُّهم صاحب البيت المحتال بجريمة قتل غير متعمّد من الدرجة الثانية. مأساة. وأعجوبة بأن الصبي قد نجا. أُغلقت القضية.

وقصّة أخرى، ليست ذات اهتمام لأوساط الإعلام الأمريكية وجدتها بالمصادفة على جهاز كمبيوتري. موت زعيم مافيا جنوب-آسيوي كان يثير الرعب ذات يوم في بلد بعيد. ذهب السيّد زامزاما ألانكار، عرّاب العائلة الإجرامية لشركة - زي القوية، ليمثل أمام عرش يوم الحساب الأخير. تقرير غير مؤكّد.

(٣٦)

ضباب الفجر يغطي النهر وتعبر الميناء سفينة شراعية صينية بأشرعتها البنية والشمس واطئة وفضيّة وأشعة الشمس تتراقص فوق صفحة الماء مثل حجرة. وإلى الطاولة ذات السطح الزجاجي عند الزاوية الزجاجية حيث تلتقي نافذتان نجلس ودموع زجاجية في عيوننا لا نعرف إلى أين ننظر أو كيف نرى. وعبر البياض تمرّ من تحتنا امرأة شعرها أحمر منفوش وعلى رأسها تاج مثل ملكة هاربة من عملية اختطاف وتركض للنجاة بحياتها. أجلس قبالة سوشيترا والبخار يتصاعد من فنجانَي قهوتنا والدخان المنبعث من سيجارتها يصنع ثلاثة أعمدة تتلوى في الهواء.

تخيّل مكعّباً من الهواء، طوله اثنتا عشر بوصة وعرضه اثنتا عشرة بوصة وارتفاعه اثنتا عشرة بوصة، يتحرك عبر فراغات العالم المفتوحة الواسعة. هذا أو شيء من هذا القبيل سمعته ذات مرة من منتج الأفلام الكندي ديفيد كرونينبيرج. فالمكعّب هو ما تراه الكاميرا والطريقة التي يتحرك فيها المكعّب هو معنى ما تراه. هذا هو الشيء الذي يصنع فيلماً، تحريك ذلك المكعّب عبر العالم ورؤية ما يلتقطه، الشيء الذي يجعله جميلاً، والذي يجعل له معنى. هذا هو فنّ السينما.

انظر إلينا ونحن نجلس أحدنا قبالة الآخر، كلانا في صورة

جانبية، في صيغة الشاشة العريضة ولون غير مشبّع. انظر إلى الكاميرا تتحرك بيننا، إلى الوسط بيننا، ثم تستدير على محورها، في دوائر كاملة، ببطء، مرات عديدة، حتى ينزلق وجهانا، الواحد تلو الآخر، وبين وجهينا يرتفع نهر المدينة والضباب ببطء ثم يبرز الضوء حتى يصير النهار. تمسك بيدها ورقة. هذا هو الموضوع. هذا هو معنى المشهد.

المشاهد التي لا تجعل القطع النهائي لهذا النصّ هي: أنا في مركز الشرطة أحاول أن أعرف ماذا حدث لفيسبا الصغير، ومع من هو الآن، وإلى أين أُخذ، ومن يهتمّ به. أنا أتجوّل مكدّراً في الشارع الرابع، أركل بقدمي حصاة، يداي تغوصان في أعماق جيبي، مطرق الرأس. وأخيراً، أنا في مكتب محامٍ في وسط المدينة وهو يقرأ لي وثيقة، ثمّ يسلّمني الوثيقة، وأنا أهزّ رأسي، سأعلمك، وأغادر. الكثير من التفاصيل. المشهد الهام هو هذا المشهد، كلانا وقطعة الورق في ضوء أول النهار.

لم أكن أتصوّر أنه سيفعل ذلك، أقول. ولو فعل ذلك، لكانت قد طعنت فيه، وقالت إنه فعل ذلك وهو لا يتمتع بقواه العقلية.

الأمّ.

نعم. الأمّ، زوجته. أما الآن فلا يوجد قريب آخر. لا توجد إلّا هذه الوثيقة. إذا لحق أذى بكلينا، فإني أعيّن السيّد رينيه أنترلندن وصياً على الصبي.

أتعرف ماذا تطلب، تقول.

نعم.

في البداية تمكنت من إقناعه بأن يقبل طفل رجل آخر على أنه ابنه. والآن تريدني أن أقبل الطفل نفسه، طفل امرأة أخرى، بأنه ابني. وأنت تعرف أنّ الأطفال ليسوا جزءاً من خطتي.

تحتنا توقّفت العدّاءة ذات الشعر الأحمر والتاج عن الجري. تقف، تضع يديها على وركيها، تأخذ نفساً عميقاً، رأسها مرفوع إلى الأعلى، كما لو كانت تنتظر رداً. لكنها، بالطبع، لا ترى سوشيترا ولا تراني ولا تعرف شيئاً. فنحن في الطابق الحادي والعشرين.

هل ستفكّرين في الأمر، أقول بينما تمرّ الكاميرا من جانب وجهي.

تغمض عينيها وتتوقّف الكاميرا، وتنتظر، وتقترب أكثر. ثمّ تفتح عينيها ولا يوجد شيء غير عينيها، تملآن الشاشة.

أظن أننا نستطيع أن نفعل ذلك، تقول.

ثمّ قطع فجائي. الآن عينان مختلفتان تملآن الشاشة. تنسحب الكاميرا ببطء شديد لتكشف أنهما عينا فيسبا الصغير. يحدّق في الكاميرا من دون أيّ تعبير على وجهه. في الموسيقى التصويرية نسمع صوت المحامي. يقوم محامون من كلا البلدين بفحص العقار وهناك مخالفات كثيرة. لكن في النهاية، فهو عقار كبير جداً ولا يوجد ورثة آخرون والصبي لا يزال في الرابعة من عمره.

الآن نتواجد نحن الثلاثة، فيسبا الصغير، وسوشيترا وأنا، في غرفة غير محدّدة، غرفة في بيت الأسرة الحاضنة التي ستقوم برعايته لفترة مؤقتة في حيّ بروكلين. تنتقل الكاميرا إلى منتصف المثلث وتبدأ، ببطء شديد، تدور على محورها، لكي يمرّ كلّ وجه من وجوهنا، الواحد تلو الآخر. وجوهنا كلنا تخلو من أي تعابير. تبدأ الكاميرا تدور أسرع، ثمّ أسرع. تغبش وجوهنا ثم تدور الكاميرا بسرعة كبيرة حتى تختفي جميع الوجوه كلها ولا يبقى سوى غبش، خطوط السرعة، الحركة. الأشخاص - الرجل، المرأة، الطفل - ثانويون. لا توجد إلّا الحركة الدائرية للحياة.

مكتبة
t.me/t_pdf

هذا الكتاب

إن رواية البيت الذهبي التي تضج بالأحداث السياسية والثقافية في أمريكا، تشكل انتصاراً لعودة سلمان رشدي إلى الواقعية، التي أسفرت عن ملحمة عصرية مليئة بالحب والإرهاب، بالفقدان والتجديد - إنها رواية قوية وجريئة تمنح سلمان رشدي قوة ينير بها عصرنا المظلم الجديد.

إنها ملحمة تطرح الأسئلة الأبدية عن البشر وأحوالهم: هل يمكن أن يكون المرء صالحاً وشريراً في وقت واحد؟ هل العائلة قدر؟ هل يلاحقنا الماضي باستمرار؟ في عصر الاستقطاب إلى التطرف، هل نستطيع إيجاد أرضية مشتركة؟ هل سيبقى الطغاة بيننا إلى الأبد؟ هل ستتعلم البشرية ذات يوم؟ هل تستطيع القصّة والفن تنويرنا؟

وعندما تصل حكاية سلمان رشدي إلى ذروتها، تنهض الحياة، كما هو دأبها، بعناد من بين الرماد، كما ينهض الحب.

الغلاف : سكينة صلوّن

ISBN 978-9922901138